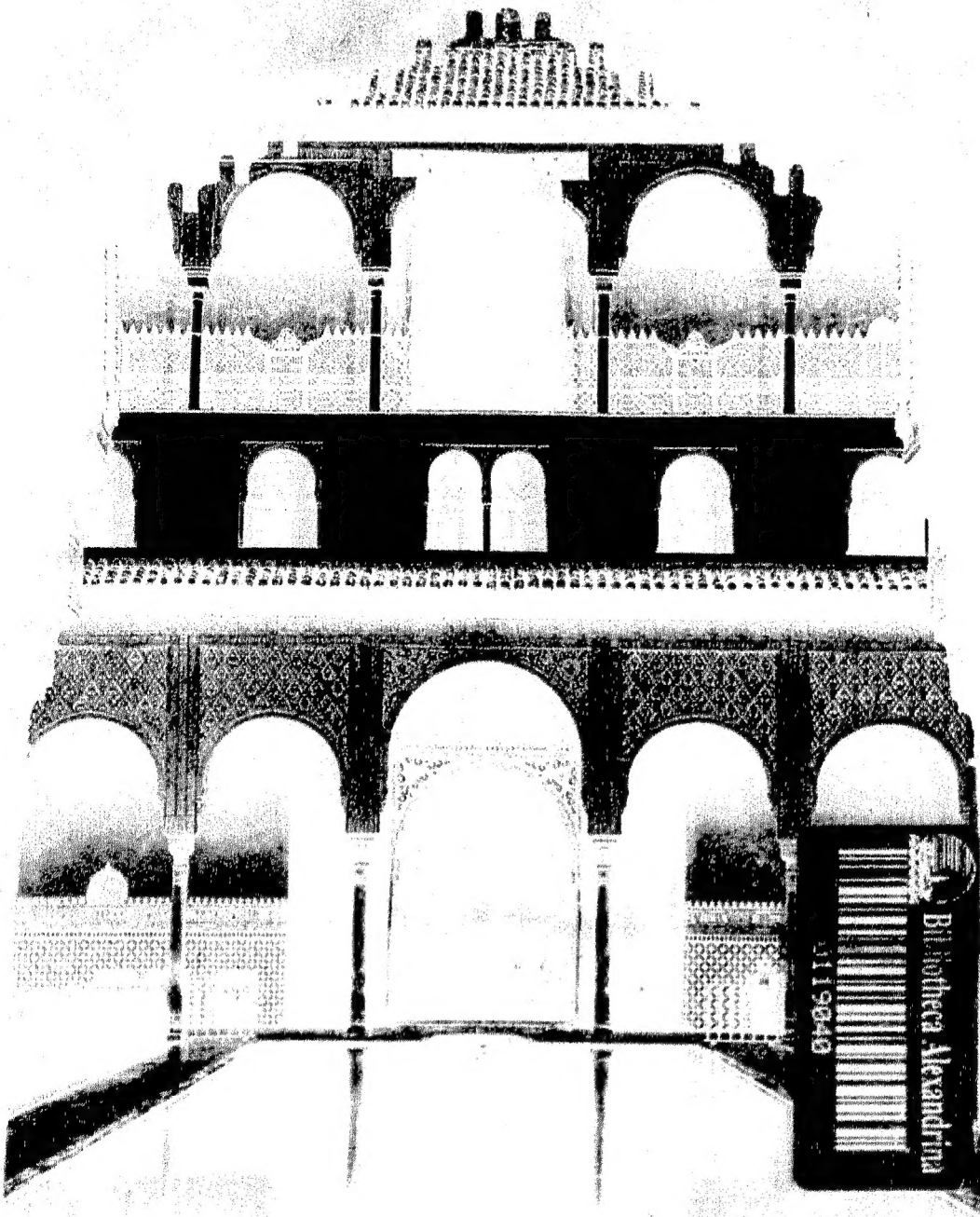


للدراسات
والنشر

عدنان فائق عزيباوي

حكايتنا في الاندلس



Bibliotheca Alexandrina
0119848

جميع الحقوق محفوظة

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

بناية برج الكارنتون - ساقية الخنزير -

ت ٨٠٧٩٠٠/١ برقياً «موكبالي»

بيروت - ص.ب : ٤٤٦٠/١١ بيروت

تلكس: LE/DIRKAY - ٤٠٠٦٧ .

الطبعة الأولى ١٩٨٩

الماكيت وصف الأحرف (التنفيذ)
المجموعة الطباعة (ناصر عاصي)

فوز ألوان - فيلماج - بلاكات

مَدِينَةُ
للتصميم الطباعي والطباعة

عدنان فائق عزيباوي

حكايتنا في الاندلس



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
المنظمة العامة لأكاديمية الإسكندرية

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

卐 卐 卐 卐



الإهداء

الى المتوجسين خوفاً من غدهم
الضائقين ذرعاً بحاضرهم
الذين انستهم مرارة واقعهم إشراقة ماضيهم
اهدي هذه الحكاية . . . من حكايات أمسيهم ،
لعلها توقظ فيهم بعض الأمل . .
لعل فيها بعض العبر . . .

المؤلف

روما

1989/1/1

مقدمة

عندما بدأت جحافل الاسلام تتجه بعد مصر غرباً ، لم يكن في تصور أحد أنها ستنعطف عند حافة القارة الأفريقية شمالاً ، فتقطع المضيق ، وتقيم في شبه الجزيرة الايبيرية دولة ظلت تحمل مشعل النور والهداية قرناً ثمانية ، دكت خلالها أوكار الهمجية والتخلف ، وأقامت صروح الحضارة والمعرفة ، وغرست بذور الايمان والمحبة .

وما كان في تصور أحد ان ذلك العربي القادم من الصحراء ، الذي تصلبت يده على مقبض السيف سنوات وسنوات ، ستفرج عن حساسية مرهفة ، تركت للتاريخ بعضاً من أجل ما عرفه من فن العمارة والزخرف .

وما كان في تصور أحد كذلك أن عقيرة العربي هذا ، التي اعتادت صيحة المعارك ستنتلق بأجزل وارق ما عرفه الشعر والأدب والغناء .

بل وما كان في تصور أحد أن ذلك العربي الأمي سيصبح خلال ومضة من الزمن ، المعلم الذي فتح أعين البشرية على أسرار عالمها وأخرجها من غياهب الظلمات الى اعراس المعرفة .

ولئن امكن فرضاً ، تصور كل ذلك إلا أن امراً واحداً كان يصعب تصوّره بل ويستحيل ، وهو أن هذا العربي ذاته ، الذي شيد بيديه ذلك الصرح العظيم ، واضاء بمشعله ظلمات الجهل والهمجية ، ورصع جبين التاريخ

بأحلى ما عرفه من فن وإبداع ، هو الذي سيهدم بمجوله
أجداد أجداده ، ويبحث الغرسة الطيبة التي أنبتها أسلافه
بدمهم وعرقهم ، وينقلب عائداً مغمداً السيف جنوباً ،
ليقطع البحر عند حافة القارة الأفريقية ، ذليلاً مقهوراً بعد
ثمانية قرون عبت بأجداده ، وتغنت بمآثره ، وترصعت
بآلئ فنه ومعارفه وأدبه .

تساؤلات ترددت في أذهان الكثير ممن وقفوا على هذه
البصمات العربية في الأندلس ، اعتصرت من البعض
دموع حسرة ، ومن البعض الآخر بصمات فخر واعتزاز .
ووقفت كغيري في رحاب تلك الصروح مشدوهاً فاغر
الثغر ، أغالب دمة واكبت زفرة . ورأيت يدي تمتد الى
زخرف في جدار قصر الحمراء تتلمس حقيقته . وسمعتني
أتساءل : ايعقل ان يكون هذا حقيقياً ، من صنع
الانسان ، من صنع اجدادي ؟ .

وامسكت بآلة التصوير محاولاً التقاط بعض الصور .
ارتعدت يداي . عبثاً حاولت . جلست في ركن قصي
وعيناي مشدودتان الى الجدار تتأملان نقوشه . والنقوش
تأخذ بي من طرف الى آخر ، ثم لا تلبث أن تعيدني الى
حيث بدأت . عشرات المرات سرت في ذلك المسار من
طرف الى آخر ، تارة اسبر غور اللانهاية ، وأخرى اعيش
رتابة الاستمرار . . . التكرار . . . العودة .

وأفقت من تأملاتي على صورة العودة . . . العودة الى
وطني السليب . . . الى ارضي المغتصبة . . . الى بيتي ،
حيث ولدت وولد من قبلي ابي ومن قبله جدي . . . الى
كروم الزيتون وشذى زهر البرتقال . . . الى شدة البلابل
وعبير النرجس البري يطالعنا كل ربيع بين صخور الجبال
الشماء . . . الى حيث يختلط صوت الأذان برنين
النواقيس . . . الى مهد الرسل ومرتع الأديان
السماوية . . . الى بلد السلام الذي اغتيل فيه السلام .
أفقت على صورة العودة . . . وقد ضجعت في اعماق

اعماقي تساؤلات ترددت اصداؤها في أركان قصر
اجداددي : أيعقل أن نصحو... نعود الى اجماد
ماضيها... ايعقل ان نصحو من غفوتنا... من
تخلفنا... من فرقنا ، فنعيد بناء صرحنا الذهبي ،
ونقيم فوق خرائب المذلة منائر العزة والشموخ ، وننشد
فوق مقابر الحسرة تغريدة الرفاهية والسلام .

أمسكت بآلة التصوير وقد هدأت نفسي وآليت أن
أحكي لآخوتي ، أبناء ذلك الفارس العربي ، الذي
تصلبت يده على مقبض السيف ، ثم انفرجت عن معجزة
الابداع والخلق هذه ، أحكي حكايتنا في الأندلس ،
بإيجاز ، حيث يصعب الإيجاز ، وببساطة ، حيث يعز
التبسيط . وأن أنمقها بصور ألتقطها بنفسي ، محاولاً
بالصورة ، ان أفي بالقدر الممكن لهذا الجمال حقه ، وان
أعبر عنه بصدق يعجز قلبي دونه .

وبدأت أتلصص طريق المعرفة ، وتراكت لذي
المصادر ، ودخلت في متاهات التاريخ ، وقرأت ما كتبه
الكثير من مؤرخينا ، وما كتبه البعض من المؤرخين
الاجانب . وتكررت زياراتي الى الاندلس ، محاولاً
استكمال معلوماتي ، والتقاط المزيد من الصور التي
اخترت منها ما دخل بين هذه الصفحات . وجمعت القليل
من درر الأدب الأندلسي ، رأيت ان أنثرها عبيراً يفوح على
القارئ ، وهو يقرأ حكايتنا في الأندلس .

إذن ستكون هذه الصفحات « حكاية » وليس تاريخاً ،
رأيت أن أحكيها ، كما أسلفت ، بإيجاز وتبسيط ،
واضمناها خرائط ورسوماً بيانية ، القصص منها شمول
الصورة ، من حيث الزمان والمكان .

المؤلف

الباب الأول

تمهيد

العالم عشية الدعوة

كان العالم تتنافس في سيادته قوتان عظيميان : امبراطورية الفرس وامبراطورية البيزنطيين . كانت امبراطورية الفرس تنشر ظلالها على ما يعرف الآن بإيران والعراق . اما الامبراطورية البيزنطية فكانت تضم ما يعرف الآن بتركيا وسورية وفلسطين واليونان والشمال الافريقي وغيرها . إلا ان هاتين الامبراطوريتين كانتا عشية الدعوة ، قد أصابها الارهاق والوهن واستشرى في اركانها الفساد والتفكك .

وكانت أوروبا عمومًا غارقة في بحر من الظلمات ، يفترسها الجهل وتعمها الفوضى ، وتنهشها أنياب الهمجية والوحشية ، ويسودها قانون الغاب ، وتطحنها الحروب والفتن .

وكانت الجزيرة العربية تدين بالوثنية ، باستثناء بعض الجيوب اليهودية والمسيحية . وكان سكان شبه الجزيرة العربية يتكونون من قبائل ، يغلب عليها طابع الترحال ، وان كان فيها بعض المراكز المستقرة كمكة ، التي كان أهلها يمارسون التجارة ، والمدينة التي كان يعتمد اقتصادها على الزراعة . ولم تعرف هذه البلاد أي نوع من أنواع الحكم المركزي يوحد فيما بينها . بل كان الطابع المتغلب هو طابع القبيلة ، بما ينطوي عليه من العصبية والتناحر والغزو ، الذي كان بالنسبة لافراد هذه القبائل طراز معيشة واسترزاق . وكان البدوي قانعاً بما قسم له ، غير آبه بما يجري خارج المنطقة التي ظلت توفر له اسباب العيش والبقاء ، ولا بألوان الحضارة التي عرفها العالم الخارجي آنئذ .

وفي شبه الجزيرة العربية كانت مكة المركز الرئيسي لقوافل التجارة التي تحمل خيرات الشرق الى بلاد الشام ، وتعود الى حيث اتت مثقلة بنفائس هذه البلاد من سلع

وبضائع ، مارة دائماً بمكة ، وتاركة ، لبعض من أهلها ، رسوم العبور والحماية ، معززة بذلك من نفوذ هؤلاء البعض ، وداعمة سلطاتهم ومساهمة في ترفهم ومجونهم .

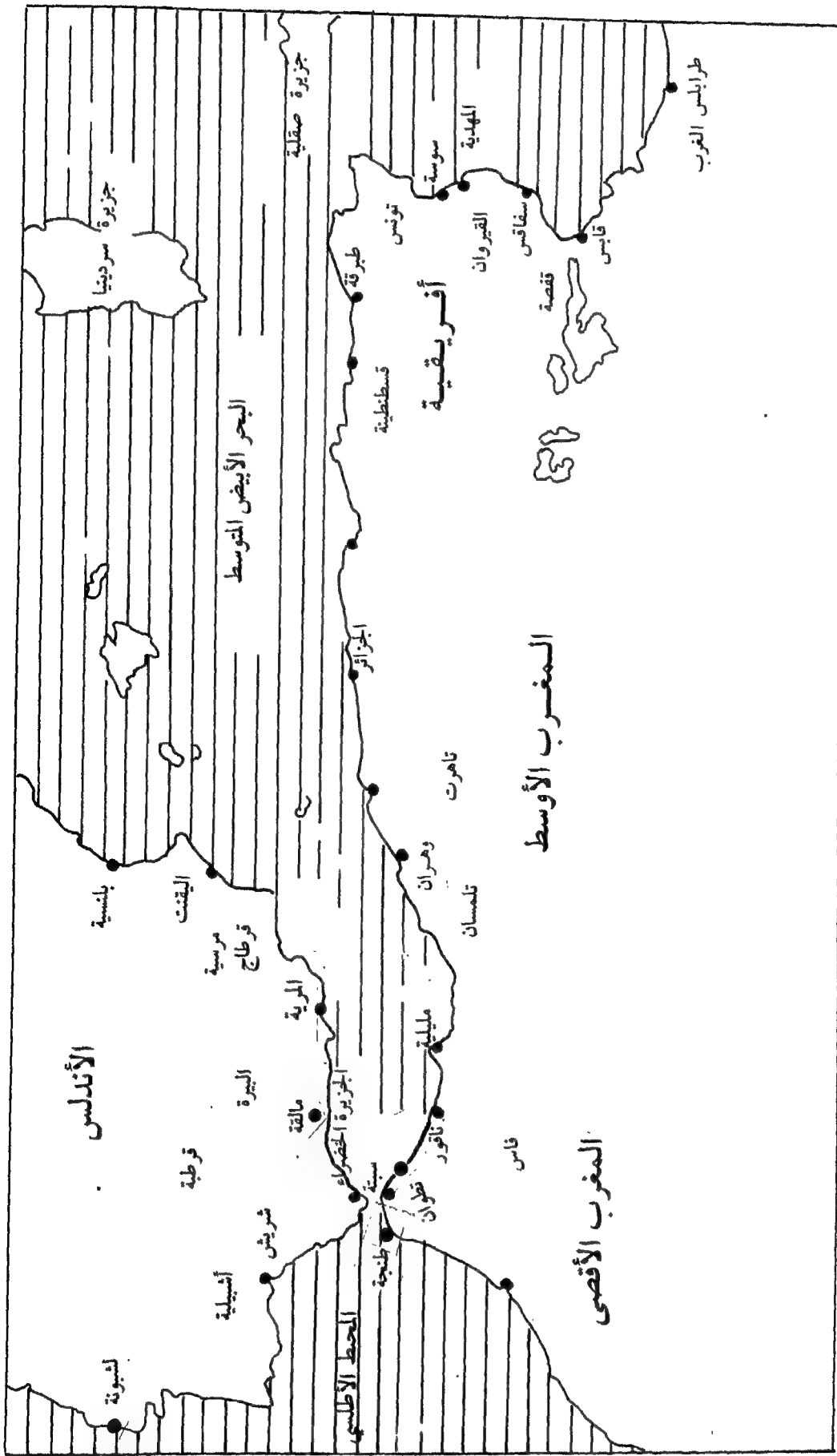
وفي مكة بدأ محمد بن عبدالله ، ﷺ ، دعوته الى الاسلام . ولقي ما لقي في دعوته من رفض وسخرية في بلده مكة ، فهاجر الى المدينة وأنشأ فيها أول جيش عربي مسلم للدفاع عن عقيدته من تهديد رافضيها ، ثم للانقضاض عليهم منعاً لمقاومتها . ودخلت القبائل في الدين الجديد .

وما ان قبض محمد حتى كان الجزء الأعظم من الجزيرة قد اعتنق الاسلام . إلا أن موته شجع المترددين على الافلات من هذا المعتقد الذي اخذ ينظم من فوضى حريتهم ، ويقلص من نفوذ سادتهم . ولولا شجاعة أبي بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين ، واستبسال قائده خالد بن الوليد ، وإيمان جنوده لكان الاسلام قد انتهى أمره .

وتعززت جيوش المسلمين بعد انتصارهم على أهل الردة ، فانتشرت تفتح أصقاع الأرض داعية الى الدين الجديد بادئة بالشام والعراق ، ثم بمصر ومنها الى الشمال الأفريقي .

وكان الشمال الافريقي ، الذي عرف بالمغرب ، تقطنه قبائل من البربر عرفت بقبائل الوندال (Vandals) ، كانت تقطن شبه الجزيرة الايبيرية الى ان جاءت قبائل بربرية أخرى عرفت بقبائل القوط الغربيين (Visigoths) ، فطردتهم من شبه الجزيرة الى المغرب - فانتشروا بين طنجة وطرابلس . غير ان هؤلاء الوندال وجدوا انفسهم امام جيوش البيزنطيين التي دفعت بهم الى المناطق الداخلية ، واحتفظت لنفسها بالشريط الساحلي ، وقصرت وجودها فيه على الجانب العسكري . اما السكان الأصليون ، أهل افريقية ، فكانوا قلة ، وكان ارتباطهم بالدرجة الأولى بالبيزنطيين .

كان هذا باختصار هو المسرح الذي ستدور على خشبته الأحداث التي سبقت فتح شبه الجزيرة الايبيرية .



فتح المغرب :

عندما استتب الأمر لعمر بن العاص في مصر ، بعد ثلاث سنوات تقريباً من دخولها ، أخذت ابصاره تتجه غرباً ، لا للفتح ، ولكن لتأمين حدوده الدفاعية في ذلك الاتجاه . وسار جيش عمرو عام (642/21) بمحاذاة الساحل ، الى أن بلغ برقة (ليبيا) فسقطت بدون مقاومة ، وواصل سيره فبلغ طرابلس ، التي سقطت هي الأخرى بعد شهر واحد من الحصار ، رغم مناعة حصون البيزنطيين فيها .

وفي هذه الأثناء ، وبعد سقوط برقة ، اتجهت بعض قوات عمرو ، بقيادة عقبة بن نافع الفهري ، جنوباً تحسباً لانقضاص القبائل على الحاميات الاسلامية التي تركها عمرو في المواقع المحتلة . وقد لعب هذا القائد الفتي دوراً على جانب كبير من الأهمية اذ استطاع أن يتغلغل في قبائل البربر ، وأن يدخل الكثير منهم في دين الاسلام .

وفي غياب سياسة ثابتة لفتح المغرب ، توقف الزحف ، واقتصروا وجود المسلمين على حاميات عسكرية في المواقع الاستراتيجية

وتتوالى الأحداث فيقتل الخليفة عمر بن الخطاب ، ويأخذ عثمان بن عفان البيعة ، فيقبل عمرو بن العاص من منصب الحاكم في مصر ، ويعين احد اقربائه عبدالله ابن ابي سرح حاكماً مكانه . ثم يبدأ هذا ، بالاتفاق مع الخليفة ، في الإعداد لحملة جديدة لمواصلة غزو المغرب . وحقق هذا الحاكم القائد سلسلة من الانتصارات بعد معارك طاحنة أوصلته الى سبيطة (تونس) .

وتوقفت عملية الغزو الى حين . فطلائع القوات العربية أصبحت متوغلة جداً في الشمال الافريقي ، كما ان الخلافة أصبحت تغرق في متاهات سياسية شغلته عن التفكير في مواصلة الغزو .

وانتهى عهد الخلفاء الراشدين ، وبدأ الامويون ، بعد أن استتب لهم الأمر ، بالاعداد لعمليات غزو منتظمة في المغرب . بل إن الغزو لم يعد هدف الخلافة الأموية ، التي أصبحت تتطلع الى ما هو أبعد ، الى الفتح . وكان أول ما

فعلته في هذا السبيل اعادة عمرو بن العاص الى منصبه السابق في مصر .

ولكن عمرو بن العاص توفي بعد ذلك بقليل ، وفصلت ولاية افريقية عن مصر وأصبحت مرتبطة بمقر الخلافة مباشرة ، وعين معاوية بن خديج والياً عليها ، فقاد عدة حملات موفقة ضد البيزنطيين وهزمهم ، وقيل انه تعقبهم الى قاعدتهم في صقلية ، وان كان هذا القول يعوزه الاثبات .

غير أن معاوية بن خديج لم يعمل على ارساء قواعد حكم مستقر في هذه المناطق ، واقتصرت نشاطه على عمليات غزو ناجحة ، ما كاد يفرغ منها حتى جاءه من كان يحمل أمر عزله وأمرأ بتعيين خلف له . وكان خلفه عقبة بن نافع .

انتهج عقبة استراتيجية جديدة لا تقوم على الغزو ، وانما على الفتح والاحتفاظ بالأرض وبالمكاسب ، وارساء قواعد السيادة . وقد أفاد آنذاك في تضعضع اركان الامبراطورية البيزنطية ، التي كانت تعاني من ازمت داخلية خطيرة .

وكانت أولى الخطوات العملية التي اتخذها عقبة ، تنفيذاً لهذا النهج الجديد ، اقامة قاعدة عسكرية ادارية تبشيرية ، في موقع استراتيجي لا يبعد كثيراً عن قرطاجنة ، الميناء البيزنطي ، اطلق عليها اسم القيروان ، وهي كلمة فارسية معناها المعسكر . وقد ثمت القيروان مع الوقت ، وقدر لها أن تلعب دوراً خطيراً كقاعدة وعاصمة للمغرب لمدة طويلة من الزمن .

وهكذا ارسيت قاعدة الوجود العربي الاسلامي في شمالي القارة الافريقية ، بما أصبح يعرف ، حتى يومنا هذا ، بالمغرب العربي . وتوالى الأحداث ، كما توالى الحكم والقادة على مركزي الادارة والقيادة العسكرية مع تعاقب الخلفاء في دمشق وتباين اهوائهم ومخاوفهم تجاه الفاتحين البعيدين عن متناول أيديهم . فيعزل عقبة ، ثم يعاد ، وجنود المسلمين يقارعون عدوين شرسين ، أحدهما

على الساحل والآخر في الداخل . ويقارعونها معاً أحياناً ،
عندما كانا يتحالفان ضد العرب .

وظلت الأحداث تتوالى بين كر وفر ، وهزائم
وانتصارات ، سالت أثناءها انهار من الدماء وسجلت
بطولات لم تشهد الفتوحات العربية لها مثيلاً ، واستشهد
فيها الآلاف ، بمن فيهم القائد الأعلى عقبة وبعض من
قاداته . وانحسر المد العربي إثر الانتفاضات التي قام بها
البربر ، إما وحدهم ، أو بمشاركة أعدائهم البيزنطيين ،
فاحتلوا القيروان وأبعدوا العرب الى برقة عام 684/64
حيث بدأوا مسيرتهم الأولى غرباً ، قبل أكثر من أربعين
عاماً .

ظل الوضع هذا على حاله نحواً من عشر سنوات .
كانت الخلافة في دمشق تمر اثناءها بفترة من أخطر فتراتها
حرجاً ، حيث نشبت ثورة ابن الزبير ، وما تبعها من فتن
ومتاعب ، إلى أن استقر الأمر لعبد الملك بن مروان ، الذي
عهد بقيادة الجبهة الغربية الى القائد الموهوب حسان بن
نعمان .

زحفت قوات حسان عام 694/74 ، فاستعادت
طرابلس والقيروان ، وقضت على معقل البيزنطيين
البحري في قرطاجنة ودمرته تدميراً ، فحمت بذلك ظهرها
من الطعنات التي طالما سددها البيزنطيون اليها خلال
حملاتها السابقة ، وتابعت مسيرتها فاستولت على بنزرت
(تونس) .

غير أن البربر قاموا بهجمة مفاجئة ، هزموا فيها
العرب ، واعادوهم مرة أخرى الى حيث بدأوا . . . الى
برقة . غير أن هذه الهزيمة لم تكن قاصمة . ذلك ان المعارك
التي سبقت هزيمة العرب على يد البربر كانت قد قصمت
ظهر البيزنطيين وكسرت شوكتهم في ذلك الجزء من العالم
الى الأبد . أما البربر ، فقد بدأت الخلافات تدب بين
صفوفهم فتفتتت وحدتهم ، إثر صراعات داخلية نشبت
بين زعمائهم . وكان حسان يستعد في برقة لجولة أخرى .

وفي عام 700/81 ، أي بعد أول غزوة قام بها
العرب بقيادة عمرو بن العاص لبلاد المغرب بستين عاماً ،

بدأت قوات حسان تسير غرباً ، غير عالة بالمفاجأة التي
كانت بانتظارها . ذلك ان البربر لم يمتشقوا الحسام هذه
المرة ، بل مدوا يد الترحيب إيقاناً بأن العرب مصممون لا
محالة على بسط سلطانهم على المغرب مهما كلف الأمر . ولم
يقتصر موقفهم هذا على الترحيب فقط بل انهم امتشقوا
الحسام هذه المرة في نصرة العرب ، أعدائهم السابقين ،
واخوانهم اللاحقين في الدين وفي المصير . فقاتلوا معاً
فلول البربر التي أثبت الاستسلام ، وقضوا عليها ،
واجتثوا ما تبقى من جذور بيزنطية في المغرب . وبذلك
دخلت عملية الفتح العربي مرحلة جديدة تميزت بالبناء ،
بناء الجهاز الاداري والجهاز التبشيري والجهاز العسكري
ثم القوة البحرية ، التي قدر لها أن تلعب بعد ذاك دوراً
أساسياً ، لا في حماية السواحل من الهجمات البحرية
فحسب ، ولكن في الانقضاض على مواقع بحرية في
عرض البحر ، كما سنرى .

وهكذا بدأ الوجود العربي في المغرب يقوم على أساس
سياسة محددة ، ترمي الى تثبيت اركان الاسلام في هذه
الأرض الجديدة ، وصهر العناصر المحلية من بربر
وافريقيين في بوتقة العهد الجديد . فتم تطعيم الجيش
بعناصر قتالية من البربر ، وايفاد الفقهاء لتعليم اصول
الدين واللغة العربية ، وارسال الجباة لجمع الخراج ،
والشرطة لحفظ الأمن .

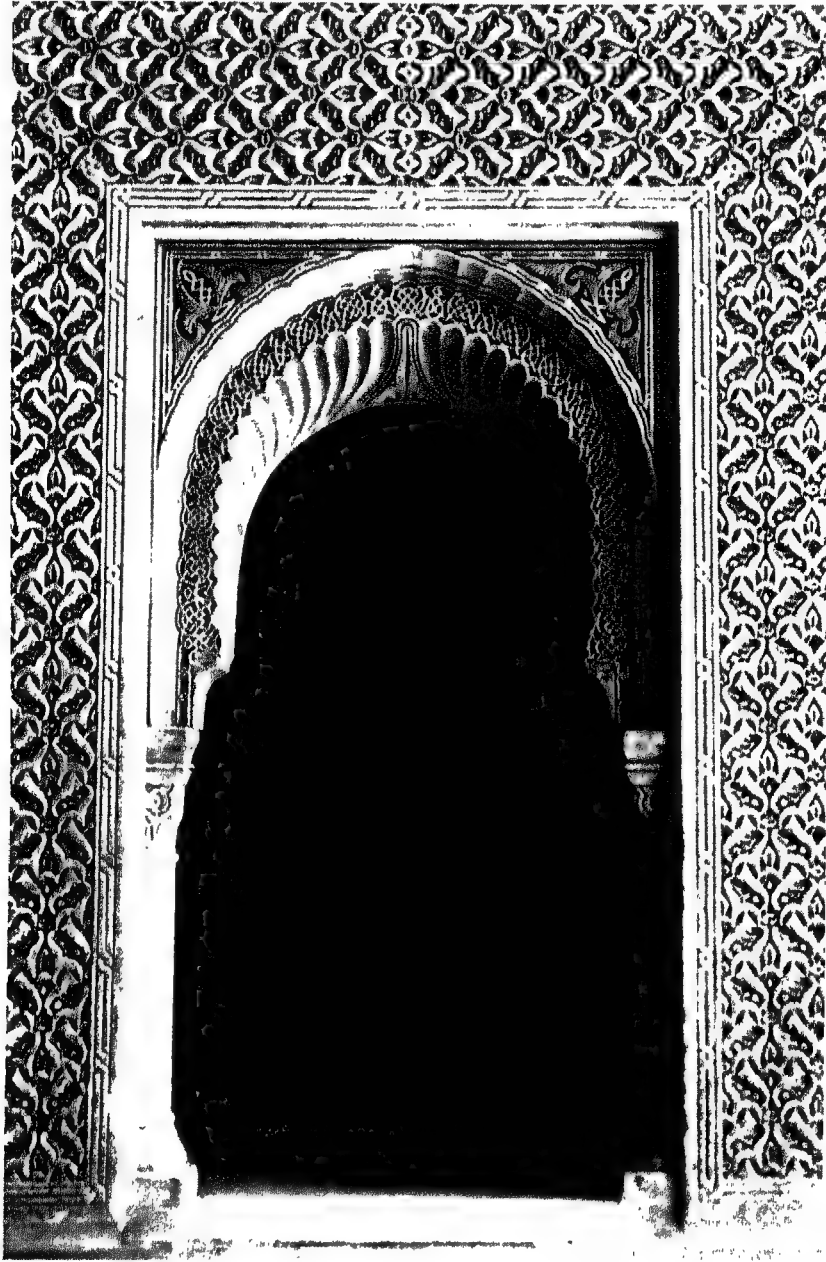
كانت هذه سياسة حسان بن النعمان التي انتهجها
بذكاء وفطنة ، الى أن نُحِّي عن القيادة وطواه النسيان ،
وهي السياسة التي سار عليها ، منذ عام 707/86 خليفته
موسى بن نصير ، الذي كان له شأن عظيم فيما تلا ذلك
من تطورات أدت الى فتح شبه الجزيرة الايبيرية .

كان موسى قائداً متمرساً ، وسياسياً مخكاً ، له خبرة
واسعة في فنون الحرب البحرية ، وهي ناحية لم يعرفها
من سبقه من قادة ، ما تستحقه من أهمية . فانكب ، بكل
ثقله ، على انشاء اسطول قوامه نحو مائة قطعة بحرية
حربية ، جعل من تونس قاعدة لها . وهي قاعدة كان
لها دورها الحاسم في الاستراتيجية العربية حينذاك ، اذ

وكان موسى في هذه الأثناء قد قضى على ما تبقى من
جيوب المقاومة ، باستثناء جيب واحد هو سبتة
(Ceuta) . وليس من المعروف ان كان امهال سبتة
يرجع الى عدم الاحساس بوجود حاجة ملحة الى أخذها ،
أو الى مخطط بدأ موسى ينسج خيوطه في رأسه ، وهو يتطلع
من طنجة الى الشاطئ الآخر شمالاً .

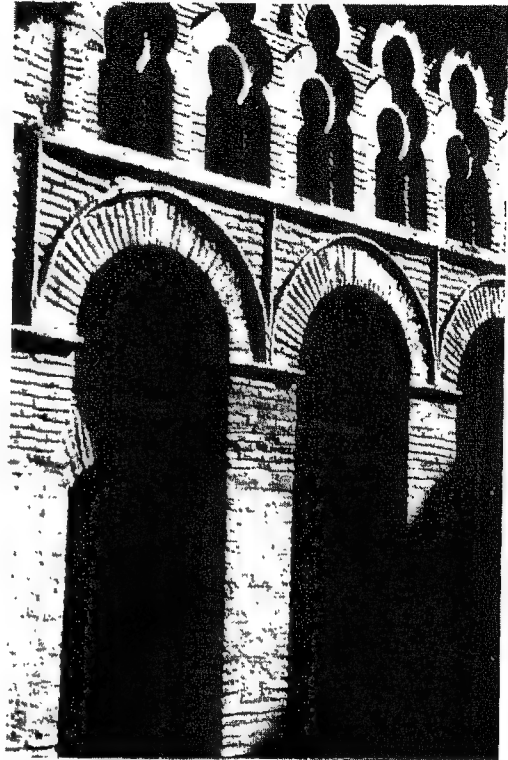
استخدمت في الانقضاض على بعض الجزر كصقلية
وسردينيا (في إيطاليا) وجزر البليار (اسبانيا) .

وكان قد مضى الآن نحو سبعين عاماً منذ بدأ لعرب
محاولتهم الأولى للسيطرة على المغرب العربي ، في حين لم
يستغرق قهر امبراطورية الفرس أكثر من عشر سنوات ،
ومصر أكثر من ثلاث سنوات .



فتح الأندلس

عرفت شبه الجزيرة الايبيرية بثلاثة أسماء هي ايبيريا (Iberia) ، وهي تسمية يونانية ، واسبانيا (Spania) وأصلها (Hispania) ، وهي تسمية رومانية ، والأندلس (Andalucia) وأصلها (Vandalucia) نسبة الى الوندال (Vandals) ، اسم القبائل المتبربرة التي استوطنت شبه الجزيرة ، الى أن طردها منها القوط الغربيون (Visigoths) الى شمال افريقيا ، كما رأينا فيما تقدم . وكان « الأندلس » هو الاسم الذي عرف به العرب اسبانيا ، وان كان يقتصر الآن على ذلك الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة ، الذي يضم أهم البلدان التي اتخذها العرب عواصم لهم أو استقروا فيها رداً طويلاً من الزمن ، أي المنطقة التي تضم قرطبة (Cordoba) وغرناطة (Granada) واشبيلية (Sevilla) والمرية (Almeria) ومالقة (Malaga) حتى الحدود مع البرتغال .



جامع باب المردوم بطليطلة .

ومع ان القوط استطاعوا اقامة قوة عسكرية لا يستهان بها في اسبانيا ، إلا أن الحكم الذي اقاموه فيها كان حكماً كريهاً يقوم على الطبقة والاستعباد والظلم . وعشية الفتح الاسلامي انقضّ أحد قواد الجيش واسمه لذريق (Rodrigo) على الملك غيطشه (Witiza) واعتلى العرش . غير ان انصار الملك السابق واصلوا محاولاتهم استعادة العرش ، الأمر الذي أدى إلى المزيد من الاضطراب المستفحل أصلاً في البلاد .

وعلى الشاطئ المقابل لجنوب اسبانيا ، التي كانت تثن تحت وطأة مشاكلها الداخلية ، وتوزح تحت اثقال الفتن التي كانت تنخرجسدها ، كان رجلا ، احدهما في طنجة ، والآخر في سبتة ، ينظران الى الشاطئ المقابل ، شاطئ اسبانيا .

كان رجل طنجة - موسى بن نصير ، وهو يمين النظر في الشاطئ المقابل يسترجع احداث غزوات حسان بن النعمان يوم قضى على قرطاجنة ، القاعدة البيزنطية ، وهروب فريق من الناجين منها الى صقلية وجزر البليار قبل عشرين عاماً ، مما استرعى أنظار العرب الى أهمية هذه البلاد استراتيجياً .

وتلفت موسى حوله ليرى الجند الذين احترقوا القتال ، وقد أصبحوا يشعرون بالقلق بعد أن توقفت المعارك ، فغدوا كخيولهم الجائعة لا يعرفون الى الاستكانة سبيلا . وتذكر النزعة القتالية التي يتسم بها جنود البربر المتوثبون ابداً للقتال والانقضاض والتحرك ، وشرد بذهنه الى مقر الخلافة ، الذي أصبحت تختمر في أرجائه نزعة الى التوسع والانطلاق . واستدار جنوباً فلم ترق له مجاهل الصحراء ، ولم يجد فيها ما يستحق المخاطرة . أما هناك ... وقد عاد بأنظاره الى الشاطئ المقابل ...

هناك أراض تزخر بالخيرات ، وتشكل درعاً لولاية المغرب . والجند متحفزون ولهم فيها اسلاب وغنائم ...

أما رجل سبتة - جوليان ، الذي تضاربت في أصله الأقوال ، والذي يغلب الظن على أنه يرجع بأصله الى البيزنطيين ، والذي بسط سلطانه على رقعة ساحلية ،

عندما أخذت تهوي دعامات الامبراطورية البيزنطية فيها ، فكان هو الآخر يحدق النظر الى الشاطئ المقابل ، شاطئ اسبانيا ، واخذ يستعرض الأحداث التي تعرضت لها اسبانيا ، حيث سقط الملك غيطشة الذي كانت تربطه به مصالح أصبحت الآن في مهب الريح . فماذا لو امكن اعادة العرش الى ابنائه ؟ ألن يكون في ذلك خير له وفلاحه ؟ . ومن سبته التفت يساراً الى طنجة .

كان رجل طنجة قد عاد الى مقر حكمه في القيروان ، بعد أن عين حاكماً بربرياً لطنجة اسمه طارق بن زياد ، كان قد خبره في قيادة حملات الفتح الأخيرة ، وعمليات التمشيط النهائية . ولكن موسى بن نصير ، إذ عاد الى القيروان ، فقد ظل يرقب في مخيلته ذلك الشاطئ المقابل الذي طالما حدّق اليه النظر .

وذات يوم جاء من سبته من همس باذن طارق في طنجة قولاً لقي في نفسه صدى طيباً ، فاستشار القيروان ، فاستجابت . وتواصلت الاتصالات بين طنجة والقيروان ودمشق من ناحية ، وبين سبته وحلفاء رجل سبته في اسبانيا من ناحية أخرى . ومن القيروان انتقل موسى بن نصير الى طنجة ، للاشراف على التخطيط . وكان الدور الذي تعهد بالقيام به جولييان ، رجل سبته ، هو اعطاء المعلومات اللازمة لتخطيط الحملة ، وايجاد حلقات الصلة اللازمة في الأرض الجديدة . وقد استطاع جولييان اقناع الجانب الاسباني الناقم على الحكم ، بأن العرب اذا غزوا بلادهم ، فهم غير باقين فيها ، وان رائدهم الوحيد هو المغنم العابر ، وانهم ، وهم في سبيل ذلك ، سيقضون على النظام القائم وتعود الحالة الى ما كانت عليه لما فيه مصلحتهم .

ولربما كان وراء نقمة جولييان على لذريق ، وحرصه على إطاحته دوافع أخرى . فقد ورد في بعض الروايات ان لذريق كان قد اعتدى على ابنة جولييان التي كانت تعيش في قصر الملك السابق غيطشة عندما اطاحه لذريق ، شأنها في ذلك شأن كرميات العظماء والقادة اللاتي كن يقضين جزءاً من حياتهن في قصر الملك كوصيفات .

سبقت عملية الفتح ، غارات شنها الاسطول العربي من تونس ، استهدفت جزر البليار (Islas Baleares) الواقعة الى الشرق من شبه الجزيرة الايبيرية ، وهي ميورقة (Mallorca) ، ومنورقة (Menorca) ، ويابسة (Ibiza) ، وذلك عام 708/89 . أما عملية الفتح فقد بدأت عام 710/91 برسالة سرايا استطلاعية ، قوامها نحو خمسمائة رجل ، بقيادة طريف بن مالك المعافري ، نزلت في جزيرة بالوما (Islas de las Palomas) ، وعرفت فيما بعد باسم جزيرة طريف (Tarifa) . وقيل ان طريفاً التقى فيها ببعض مؤيدي الملك السابق غيطشة ، وعاد بما سعى اليه من معلومات ، وكان في ما جاء به طريف ما طمأن موسى بشأن نيات جولييان .

وفي شهر رجب / نيسان 711/92 أبحر طارق بن زياد القائد البربري على رأس جيش قوامه نحو سبعة آلاف جندي معظمهم من البربر . وكان لهذا النهج نتائج فورية ايجابية ، اذ كرس بذلك العلاقة الطيبة التي بدأت تشتد أواصرها بين العرب والبربر ، وعبأ الطاقة القتالية الهائلة لدى البربر ، واشركهم في لعبة المصير الذي كان ينتظر هذه المنطقة . وأنشأ موسى ، ربما بدافع التوازن ، مجلساً عسكرياً قيادياً معظم اعضائه من العرب . غير ان هذا النهج شكك في مقاصده بعض المؤرخين ، اذ رأوا فيه دفعاً بالبربر الى اتون المجهول في اعظم مغامرة قام بها العرب في تاريخهم ، وابقاء السادة العرب في مواقع القيادة الآمنة .

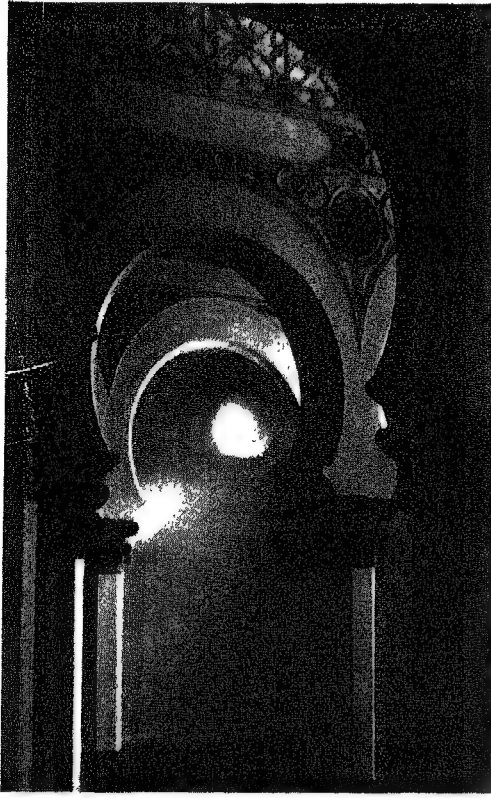
ومن سبته اقلعت سفن طارق التي قدّم بعضها جولييان ، وان كان معظمها من الاسطول العربي ، الذي كان يتخذ من تونس قاعدة له . ورسّت سفن طارق عند شاطئ الجبل الذي اصبح يعرف باسمه حتى الآن ، جبل طارق (Gibraltar) . وانطلق من هناك في جولات استكشافية ثم استولى على الجزيرة الخضراء (Algeiras) ، حيث وقعت معركة انتصر فيها طارق ، قارعاً بذلك نواقيس الخطر لدى الملك القوطي لذريق ، الذي كان غارقاً في حملات ضد البشكنس (الباسك) الثائرين في شمال شبه الجزيرة .

وكان للذريق قد استخف بالغزو العربي ، بادىء ذي بدء ، ظاناً أنه لا يتعدى ان يكون غزواً عابراً ، لا بد وان ينحسر بعد تحقيق مآربه من الأسلاب والمغانم . وكان موسى ابن نصير ، الذي ما فتىء يرقب الشاطئ المقابل من طنجة ، قد بعث بعدد آخر من المقاتلين البربر كذلك ، قيل انه بلغ نحو خمسة آلاف مقاتل ، بعد ان بلغه من طارق ان العدو بدأ يزحف من الشمال بجيش ربما بلغ عدده مائة ألف من المقاتلين المتمرسين المدججين بالسلاح .

وانطلق طارق بقواته شمالاً (راجع الخريطة) إلى أن بلغ نهر برباط ، عند اتصاله ببحيرة لاهوندا فالتحم الجيشان حيث كان للذريق على رأس جيشه الهائل بانتظار الغزاة . ودامت المعركة التي عرفت بمعركة « وادي لكه » اسبوعاً ، قاتل الجانبان فيها بشجاعة وشراسة ، الى أن انقشع اليوم الثامن عن نصر للمسلمين مبين ، فربعده ملك القوط اوقتل إذ اختفى اثره الى الأبد . أما كيف انتصر المسلمون على القوط ، رغم تفوقهم العددي والتجهيزي ، فمرده أولاً الى انضباطهم وایمانهم برسالتهم ، وإلى الروح المعنوية العالية التي تحلوا بها إثر انتصاراتهم المتلاحقة في المغرب . اما الطرف الآخر ، فبرغم تفوقه العددي الخارق فإنه ، على خلاف خصمه ، كان يفتقر الى الايمان بقضيته ، ولا يكن للملكه المستبد الظالم أي محبة أو احترام بعد أن أثر القلة المستفيدة على السواد المحروم ، فباتت صفوفه ممزقة وانسلخت عنها قوات موالية للملك السابق غيطشة ، قدمت يد العون للمسلمين ، بفضل اتصالات جوليان ، رجل سبته ، الذي زود المسلمين بقدر كبير من المعلومات العسكرية .

اذهلت نتيجة معركة « وادي لكه » جنود القوط الذين لم يعثروا حتى على ملكهم وقائدهم ، وتبعثروا في الأرض مذعورين ، فتابع طارق فلولهم وقضى عليها في استجة (Ecija) .

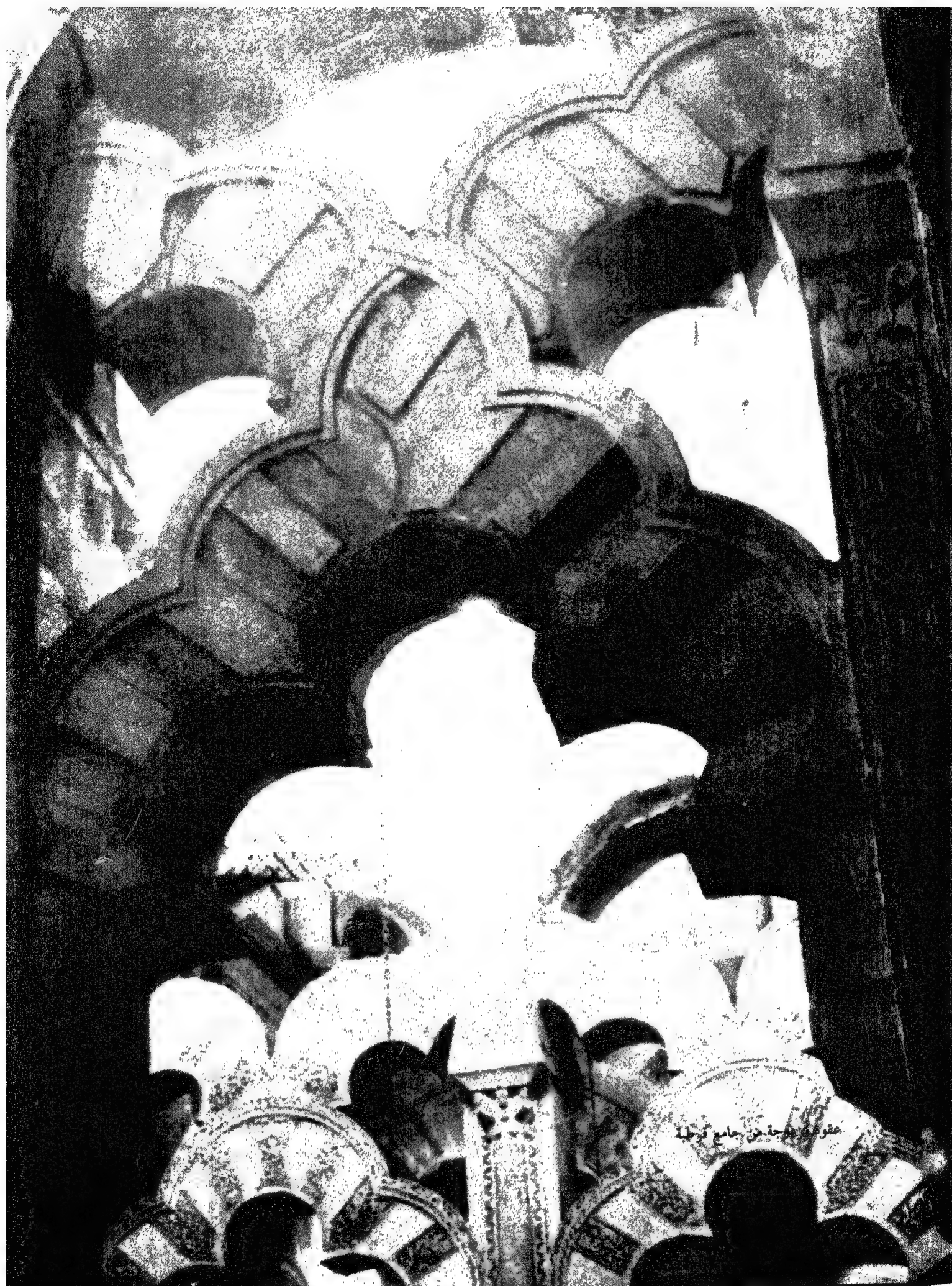
وما كاد الجند يلتقطون انفاسهم حتى كان طارق يأمرهم بالسير . فأی وقت انسب من الآن لمتابعة المسيرة . فالطريق أصبح ممهداً بعد ان تمزقت جيوش العدو وهامت على وجهها بدون قائد وبدون راية . ولم يلق طارق من بعد ذلك أية مقاومة تذكر عندما وصل الى قرطبة (Cordoba) ، ثم الى طليطلة (Toledo) التي كانت معقل الأسر النبيلة ورجال الحكم ، فضلاً عن أنها كانت تعتبر خزانة اسبانيا ، لما فيها من كنوز تعود الى الدولة ، وإلى



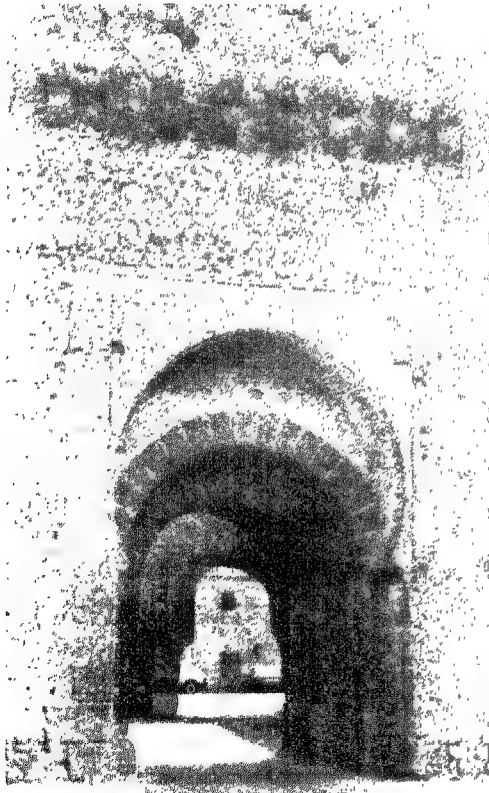
الكنيس اليهودي بطليطلة .

الكنيسة . ولم يجد طارق كبير مقاومة هناك ، اذ كان فيها عدد لا يستهان به من اتباع الملك السابق ، ناهيك باليهود الذين ابتهجوا لما حل بلذريق الذي اضطهدهم واثقل على كاهلهم الضرائب .

ولم يسترح طارق ولا جنوده طويلاً ، اذ كان لا بد من



عقود من جامع قرطبة



باب عرناطة بقرمونة .

ان سقطت ثم انعطف غرباً الى اشبيلية (Sevilla) أهم أهداف مخططه .

لم يكن الاستيلاء على هذه المدينة العريقة ، التي تقع على نهر « الوادي الكبير » (Guadaluquivir) بالأمر السهل . فقد كانت دار الملك قبل ايام القوط ، وأصبحت معقلاً لرجال الكنيسة الذين الهبوا الحماس الديني في صدور اتباعهم من أجل الدفاع عن بلدهم ومعتقداتهم . وطال حصار المدينة شهوراً عديدة ، وكان لليهود يد في سقوطها ، اذ تعاونوا مع قوات موسى . وعندما انهارت المقاومة انخرطوا في صفوف المقاتلين . واشتركوا مع البربر في الحامية التي بقيت في المدينة ، بعد القضاء على المدافعين عنها عام 713/94 .

وتابع موسى مسيرته الى ماردة (Merida) ، التي كبدت جيش المسلمين عدداً لا يستهان به من الضحايا قبل اختراق اسوارها الحصينة عام ٧١٣/٩٤ بعد حصار يقال انه استغرق ستة شهور ، وأقام فيها حامية عربية خالصة ،

القضاء على الناجين الهاربين من طليطلة ، قبل أن يتمكنوا من اعادة تنظيم صفوفهم ، فظهر المنطقة المحيطة بوادي الحجارة (Guadalajara) ، وعاد الى طليطلة ، استعداداً للوثبة التالية ، وقد مضى على دخوله اقل من سنة ، استطاع خلالها ان يصل الى قلب شبه الجزيرة ، ويفرض سيطرة العرب عليها تماماً . وأخذ طارق يخطط ويتشاور مع قائده الأعلى المقيم في القيروان بشأن التحرك التالي .

أما انصار الملك غيطشة ، فسرعان ما ادركوا ان المسلمين مقيمون ، وانه لا بد من التفاهم معهم ، فتفاوضوا معهم ونالهم نصيب من الأرض وقسط من الاستقلال .

وفي غمرة هذه الفتوح والانتصارات بدأت تساور موسى بن نصير ، بعض المخاوف من انتشار قوات طارق القليلة في تلك المواقع النائية من هذه البلاد الجديدة ، فأقلع عام 712/93 على رأس جيش قوامه ثمانية عشر ألف مقاتل معظمهم من العرب وحل بالجزيرة الخضراء (Algeciras) . وبعد التشاور مع جولييان ، الذي اصبح يقيم فيها ، وحصوله منه على المعلومات الضرورية ، بدأ مسيرته متخذاً طريقاً غير الطريق الذي سلكه طارق . وكان قصده من وراء ذلك فتح مدن جديدة وبسط السيطرة العربية عليها ، وليس كما ورد في بعض الكتابات المغرضة ، التي قالت ان ذلك كان من قبيل التعالي عن عبور المعابر التي مهدها مولاه طارق من قبله . وليس صحيحاً ، كما يؤكد بعض المؤرخين العقلاء ، ان موسى ذهب ليقسم المجد مع طارق ، أو انه ذهب ليكبح جماحه أو ليغنم الكنوز التي لم تطلها بعد يد طارق . فموسى بن نصير حقق من الاجداد ما لم يحققه غيره ، وطارق ما كان سوى أحد قادته ، له ان يعزله متى شاء ، فضلاً عن أن ما غنمه طارق كان يذهب الى القيروان .

سلك موسى طريقاً آخر (انظر الخريطة) مبتدئاً بمدينة شذونة (Sedona) فاستولى عليها واكمل سيره شمالاً الى قرمونة (Carmona) الحصينة ، فحاصرها الى

مؤذناً بذلك ، بدء ارساء اركان السيادة العربية في كل ما يسيطر عليه العرب من بقاع .

ومن هناك اتجه الى طليطلة ، مقر طارق ، الذي ذهب لملاقاته قبل وصوله ، وعاداً معاً الى طليطلة لتخطيط المرحلة التالية . ثم سارا معاً في حملة مشتركة الى سرقسطة (Zaragoza) عاصمة اقليم اراغون (Aragon) ، في الشمال الشرقي ، وبعد الاستيلاء عليها ، اتجه موسى شرقاً فاستولى على لاردة (Lerida) ثم على طركونة (Tarragona) الساحلية ، في حين سار طارق باتجاه الشمال الغربي الى ليون (Leon) ثم استورقه (Astorga) ، وطاردهما بقي من فلول المقاومة .

وفي غمرة هذه الدفعة العارمة من الحماسة ، ونشوة الفتح والانتصار ، جاء من يحمل الى موسى بن نصير واحداً من اقل القرارات حكمة في تاريخ العرب ، ألا وهو وقف التوسع ، ثم عودة القائدين موسى وطارق الى دمشق . كان ذلك عام 714/95 .

واتجه موسى بنظرة شمالاً ، بعد أن قرأ قرار استدعائه الى دمشق ووقف الانتشار ، اتجه بنظرة شمالاً الى المرتفعات الوعرة التي لم يظهرها بعد من المقاومة القوطية ، حيث ترعرعت بذور القومية الاسبانية فيما بعد ، وسببت الكثير من المتاعب للدولة العربية . ومنها امتد بصره عبر جبال البرت الشاهقة (البيرنية) حيث دولة الفرنجة (فرنسا) ، التي كانت تعاني ما كانت تعانيه اسبانيا من التمزق والفوضى ، والتي ربما لقيت نفس المصير الذي لقيته جارتها القابضة الى الجنوب على يد الجندي العربي ، الذي ما كان ليكبح جماح اقدامه كايح ، بعد جذوة الحماسة التي أوقدت روحه وشعلة الايمان التي عمرت صدره . وفاتت فرصة العمر التي لن تعود بعد ان تيقظ الفرنجة للخطر الداهم ، وبدأت أواصر النزعة الدينية توحد بين صفوفهم وتمدهم ، كما سنرى ، بالمؤازرة والتأييد من ممالك مجاورة .

ولم يكن لموسى بد من الامتثال لأوامر الخليفة الوليد بن عبد الملك ، الذي كانت تربطه به اواصر الصداقة والاحترام . فعاد ، ومعه طارق ، مروراً بطليطلة ،

فقرطبة ، فاشبيلية ، حيث اتخذ ما كان عليه أن يتخذ من تدابير ادارية وعسكرية ، تضمن للوجود العربي بقاءه ، فجعل اشبيلية أول حاضرة لهذه الولاية الفتية ، وعين ابنه عبد العزيز والياً عليها ، وسار في موكب عزم زاهر بالغنائم والكنوز وبالأسرى والسبايا ، وقطع المضيق الى القيروان ، فمصر ففلسطين الى ان وصل الى دمشق ليقدمها للخليفة الوليد بن عبد الملك عام 715/96 قبل وفاة هذا الخليفة بنحو أربعين يوماً .

ولقد قيل في موسى الكثير . اتهم بالاختلاس وبالطموح وبالعصيان . غير أن شيئاً من هذا لم يثبت ضد هذا القائد العظيم . وقيل ان الخليفة استدعاه وكان يشعر بقرب منيته فأراد أن يضمن وصول الغنائم والكنوز اليه قبل موته لتظل لذريته ، دون أخيه سليمان بن عبد الملك ، الذي لم يكن بينهما كثير من الود . وقيل ان الخليفة الوليد ربما استدعاه ليعرف منه شخصياً ما وصل اليه الوضع في اسبانيا . ولكن لو صح هذا فلماذا استدعى أيضاً طارق وغيره من القادة ، إلا اذا كان قد بدأ يخشى من استقلالهم بهذه الأصقاع البعيدة عن قبضة الخلافة . ولربما كان هذا هو الدافع الحقيقي ، وهو الدافع ذاته وراء ابعاد الكثير من عظماء القادة عبر العهود ، وتغييبهم في زوايا النسيان .

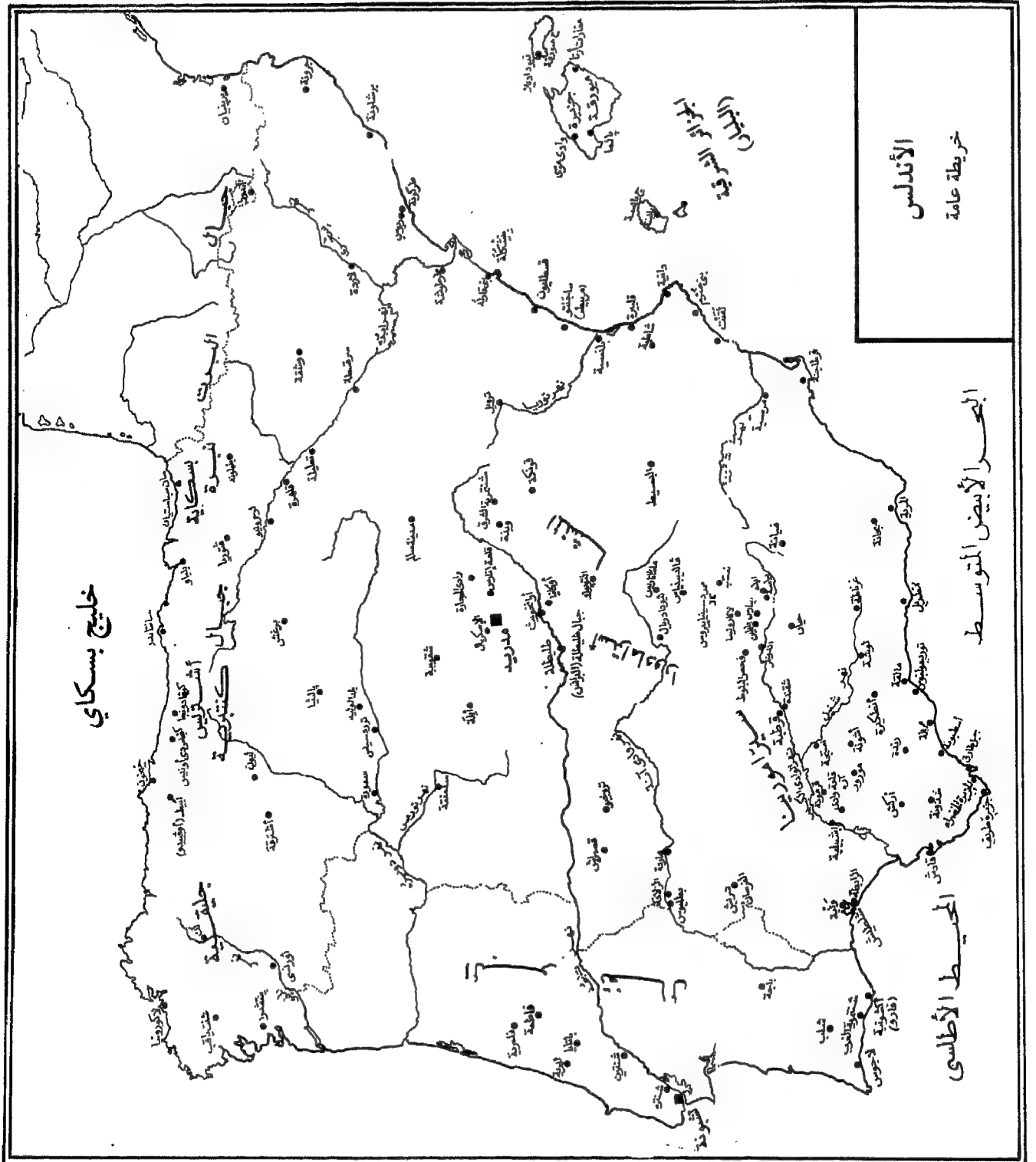
غاب البطلان العظيمان موسى وطارق ، كما غاب من قبلهما حسان بن النعمان وغيره ، وكان لغيابهما عن الساحة الجديدة أثره النفسي البالغ بين الجنود الذين عملوا تحت إمرتهما وانضبطوا في ظل قيادتهما الحازمة الحكيمة . وما كان أشد حاجة هؤلاء الى يد قوية توحد ولا تفرق ، وتمسك بدفة الحكم وتدرأ عنه اخطار الطامعين ، وتضرب على يد العابثين . وما كان أشد حاجة هذه الدولة الفتية الى الاستمرار ، استمرار القيادة المحنكة الخبيرة ، التي خططت لهذا الفتح ونفذته مما يشبه الإعجاز ، تلك القيادة التي كانت تعلم ما يكمن في تلك المرتفعات المطلة عليها من الشمال ، والخطر الرابض خلفها ، القيادة التي كانت تتأهب للوثوب في ما كان عدوها يلهث ويجرّ ذبول هزيمته وعاره .

الأندلس
خريطة عامة

البحر الأبيض المتوسط

المحيط الأطلسي

خليج بسكاي



أهم الأحداث العالمية	الأندلس	العراق	بلاد الشام	مصر	العرب
<ul style="list-style-type: none"> - سقوط غرناطة - احتلال أمريكا. - ظهور الطليان في فرنسا. - انتشار الطاعون الأسود في أوروبا. - بداية حرب المائة عام. - لويس العاشر ملكاً على فرنسا. - نهاية الحروب الصليبية. - تليب الجميل ملكاً على فرنسا. - الحملة الصليبية الثالثة. - النول يدرون بغداد ويقضون على آخر خلفاء العباسيين. - سقوط أسيطة. - سقوط قرطبة. - بداية أعمال حاكم القشتل. - الحملة الصليبية السابعة وفريدريك الثاني ملكاً على القدس. - الحملة الصليبية الخامسة. - الحملة الصليبية الرابعة. - الحملة الصليبية الثالثة. - صلاح الدين يرمي الصليبيين ويحرر القدس. - البابا يحرم الاتجار مع المسلمين. - إنشاء كلية الطب في دمشق. - تأسيس جامعة دمشق. 	<p>عصر بني الأحمر (غرناطة)</p>	<p>بني وطن</p>	<p>المماليك</p>	<p>المماليك</p>	<p>بني مرون</p>
<p>دولة الموحدين</p>	<p>الأيوبيون</p>	<p>الأيوبيون</p>	<p>الأيوبيون</p>	<p>الأيوبيون</p>	<p>الأيوبيون</p>

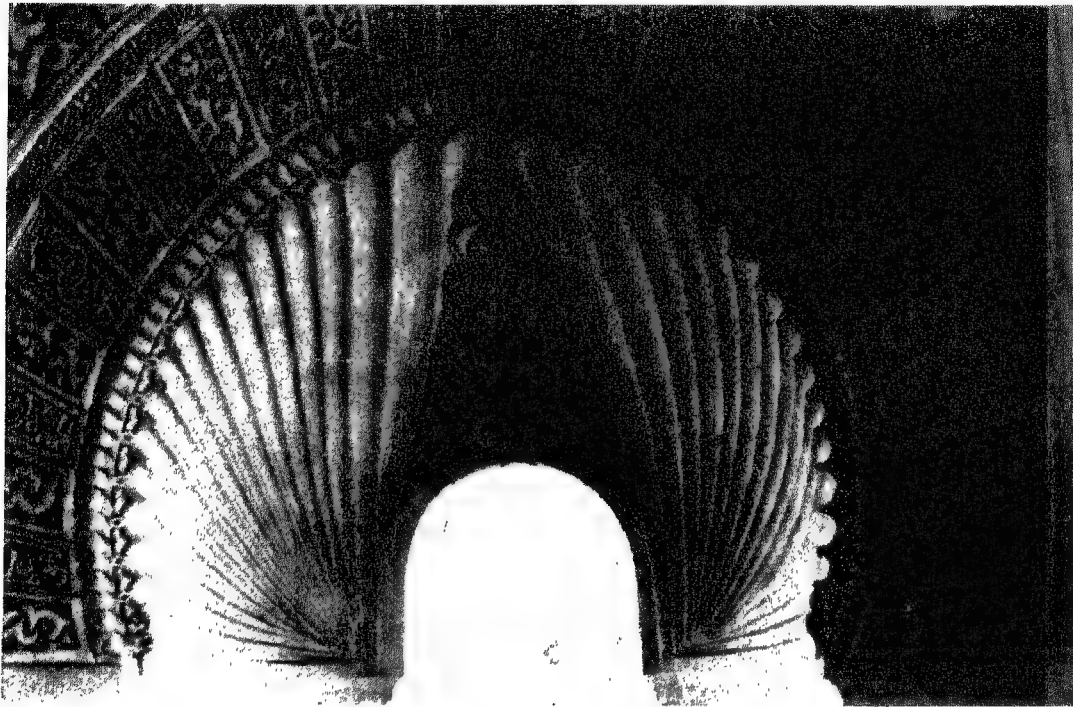
[illegible]

«الفجر»

وبنظرة واحدة الى خريطة شبه جزيرة ايبيريا كما كانت ،
بعد نحو ثلاث سنوات تقريباً منذ وطىء طارق ارضها ،
ينضح ان القبضة العربية قد امسكت بالبلاد بكاملها ،
لولا بعض الجيوب في أقصى الشمال ، اهلها العرب أو
امهلوها ، أو أن الأحداث التي تعاقبت أدت الى تأجيل
الاهتمام بها ، وبالتالي الى تزايد صعوبة تطهيرها ، ثم الى
تحويلها الى سيف ظل مسلطاً ، كما سنرى ، على رقاب
العرب ، الى أن هوى عليها وأطاحها في آخر الأمر .

وما كادت تمر سنة واحدة على ولاية عبد العزيز بن
موسى بن نصير ، حتى هوى سيف الخلافة عليه ، فأودي
برقبته في واحدة من حوادث الاغتيال السياسي العديدة
التي شهدتها الحكم العربي آنذاك في شبه الجزيرة ، والتي
يرجع معظمها لأسباب نابعة من القبلية ، المرض العضال
الذي عانى منه العرب منذ الأزل ، وما زالوا يعانون منه ،
وان كانت تسميته قد اختلفت الآن . وقد قيل في عملية
الاغتيال هذه ان الخلافة كانت تحشى من قبضة اسرة موسى
ابن نصير ، بعد أن غاب رئيسها الذي توفي قبل ابنه بسنة

لم يحيب عبد العزيز آمال ابيه موسى بن نصير . فما
كادت مواكب النصر التي سارت في ركاب ابيه نغيب عن
ناظره ، حتى تحرك على رأس قواته ، مستكملاً ما
بدأه أبوه وطارق من قبله ، فاتجه غرباً (انظر
الخريطة) نحو ما يعرف الآن بالبرتغال ، بادئاً بمدينة
يابه (Evora) ومنها الى شترين (Santarem) وقلمرية
(Coimbra) ، ثم اتجه الى الشمال الشرقي ، فأخذ
استورقة (Astorga) القريبة من ليون ، حيث وصلت من
قبله طلائع جيش طارق . واتجه من هناك جنوباً فاستولى
على مالقة (Malaga) ، التي قيل انها سلمت اليه من اليهود
بعد استيلائهم عليها من الداخل ، ومن هناك انعطف الى
الشمال ، ففتح مدن الساحل ، الى أن وصل الى طركونة
(Tarragona) ، آخر المعاقل التي اكتسحها أبوه من
قبله ، ومنها إلى الشمال الغربي ، عبر وشقة (Huesca)
حتى بنبلونة (Pampalona) .



قصر مالقة داخل القصة حُول الى متحف .

والتسلط عليها وكسر شوكتها، كانت، على ما يبدو، اصلب من ان تنصهر في بوتقة المجتمع الجديد الذي لم تكن اركانه قد توطدت بعد على أي حال .

ولعل السبب في ذلك أن فكرة الاستيطان في هذه الأرض الجديدة لم تكن قد رسخت في الاذهان بعد ، بل ان أوائل هؤلاء المستوطنين ربما ظنوا ان فتح الأندلس لم يكن سوى حلقة جديدة في سلسلة الفتوح التي انطلقت من شبه الجزيرة العربية ، وجاءت بهم الى شبه الجزيرة الايبيرية ، وانهم ربما كانوا في طريقهم الى فتح بلدان جديدة أخرى .

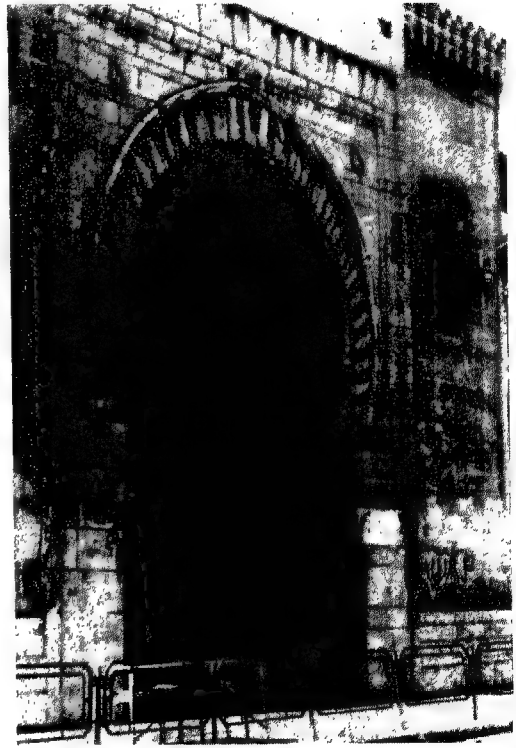
وفي غياب مثل هذا المخطط ، ظلت القبلية هي الرباط الاجتماعي الوحيد الذي كان يشد القطاعات الاجتماعية ذات الانتماء القبلي الواحد بعضها الى البعض الآخر ويباعد في الوقت ذاته بين القطاعات ذات الانتماءات الأخرى .

غير أن هذه التناقضات القبلية لم تقتصر على أوائل المستوطنين في الأندلس ، ولم تنحصر في الناحية الاجتماعية ، ذلك أن جذور القبلية كانت تمتد تحت رمال الشمال الافريقي الى حاضرة الخلافة حيث الانتفاء القبلي ظل المعيار الأهم في اختيار الحاكم والوالي . وبالتالي فإن اتجاهات القطاعات القبلية في المجتمع الاندلسي كانت تتحدد حسب الانتفاء القبلي لكل حاكم من الحكام .

فلا عجب اذن ان يتعاقب على الحكم اثنان وعشرون من الولاة خلال اثنى واربعين عاماً وان سبعة من هؤلاء الولاة لم تزد مدة ولاية أي منهم عن ستة أشهر وخمسة منهم عن سنة واحدة .

بيد أن عهد الولاة لم يكن قائماً كما توحي به هذه الخلفية . فقد تواصلت عمليات الجهاد والفتح ، واقتحمت جيوش العرب جبال البرت، وتوغلت بعيداً في بلاد الفرنجة (فرنسا) ، الى جانب حملات تطهيرية كثيرة في مختلف أجزاء شبه الجزيرة الايبيرية .

وفي بداية ولاية الحاكم الجديد ، ايوب بن حبيب



بوابة سوق مالقة .

واحدة ، وانها أصبحت تساورها الشكوك في اخلاص عبد العزيز الذي كاد يخضع لتأثير القوط بعد ان تزوج من أرملة الملك لذريق .

وهكذا سقط أول رأس في سلسلة الرؤوس التي تجددت خلال عهد الولاة وبعده ، تزامناً على السلطة او انتصاراً لقبيلة ، أو انتقاماً من أخرى، فضلاً عن عوامل أخرى عنصرية كما حدث بين البربر والعرب وبين طلائع المستوطنين المحليين والمستجدين من أهل الشام ، وما الى ذلك من تناقضات كانت لها آثارها الوخيمة على استقرار أوضاع هذه الولاية الفتية .

ولعل أبرز عيوب الاستيطان العربي ، فيما أصبح يسميه العرب بالأندلس ، كان الافتقار الى مخطط لصهر مختلف العناصر المتدفقة من افريقية والمشرق أولاً بأول في بوتقة واحدة اندلسية . غير ان القبلية التي فطر عليها كل من العرب والبربر ، والتي ظل يرعاها ويعززها الحاكم بعد الآخر ، إما لحمايته واستمداد سلطانه منها ، أو لتطويقها

اللمخي ، الذي جاء بعد عبد العزيز ، والذي يقال انه كان له ضلع في اغتياله ، قام بنقل مقر الادارة من اشبيلية الى قرطبة ، وجعلها عاصمة الولاية الجديدة ، التي قدر لها ان تظل عاصمة الدولة ، ابان عهد الامارة ثم الخلافة حين بلغت قمة مجدها .

وتعاقب الولاة على الولاية ، كما تأرجحت تبعية الولاية ، بين القيروان ودمشق مقر الخلافة . وكان ذلك انعكاساً لعدم الاستقرار الذي شهدته الخلافة الأموية ولأهواء الحكام في قرطبة والقيروان ودمشق .

ولعل أول من تصدى لإرساء قواعد الادارة السليمة من هؤلاء الولاة ، السمع بن مالك ثالث الولاة . وكانت منجزاته الاصلاحية حجر الزاوية فيما عرفته الأندلس من نظم ادارية وعمرانية واقتصادية . غير ان مدة ولايته كانت قصيرة ، اذ نال الشهادة في طلوثة (Toulouse) ، في احدى الحملات التي قادها الى بلاد الفرنجة عام 721/102 ، حيث هزم العرب هزيمة نكراء .

غير ان هذه الهزيمة لم تغل من عزيمة العرب ، اذ بادى خليفته عنبسة بن سحيم الى الجهاد فسقط هو الآخر شهيداً عام 726/107 . وكان قد حاول اصلاح ما أفسدته العنعنات القبلية ، وسعى الى جعل المجتمع الاندلسي أكثر توازناً وانسجاماً . ولكن هيهات والقيروان قد غدت مسرحاً لاحقاد قيس ويمن ، تهب عليها رياح الكراهية والفتن ، التي كانت تصل الى الولاية الفتية وهي ما زالت تحبونها نحو الاستقرار والبناء ، فتعصف بتلك البنية الهشة ، قبل ان تترسخ جذورها ويقوى عودها فتصمد لتلك الرياح وتلك الاخطار التي كانت تهدق بها من الشمال .

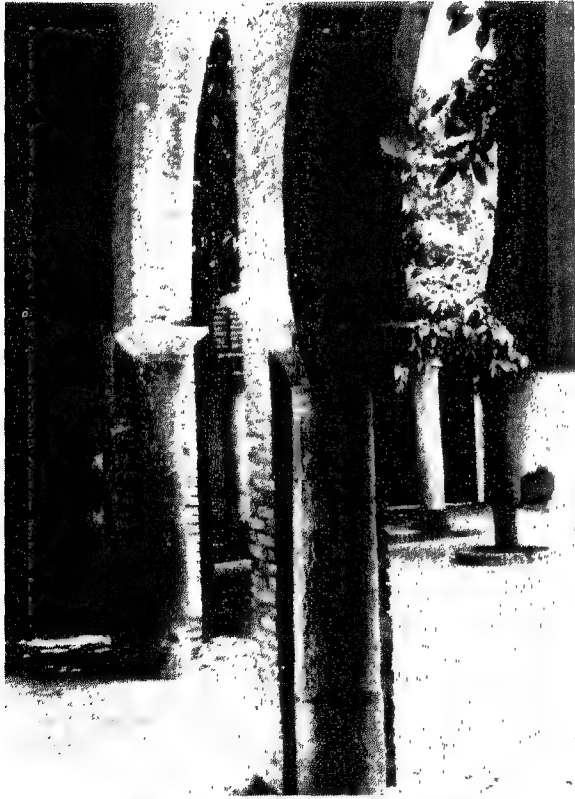
سبعة ولاة جاءوا وذهبوا بعد ذلك خلال فترة لم تزد عن سبع سنوات . وحتى الغافقي أعظم الولاة ، وأوسعهم خبرة ، وأرحبهم صدرأ ، وأكثرهم شجاعة ، لم يطل بقاءه اذ اختاره سبحانه وتعالى للشهادة في واحدة من أضخم حملات الجيوش العربية وأبعدها عمقاً في بلاد الفرنجة . سقط الغافقي في معركة بواتيه (Poitiers) عام 732 / 114 التي يمكن اعتبارها نقطة تحول في تاريخ أوروبا ، بعد أن بدأت مقاومة الفرنجة للفتح العربي تأخذ

شكل وحدة عسكرية أوروبية صليبية ، هزمت جيش المسلمين وقطعت عليه سبيل العودة مرة أخرى ، بل انها شجعت هذه العناصر المتحالفة على محاولة غزو المناطق الشمالية من الدولة العربية في الأندلس ، والتحالف مع جيوب المقاومة الاسبانية ، التي ظلت خارج السيطرة العربية .

وكان هذه الهزيمة ، وهزيمة عقبة بن الحجاج في معركة سبتمانيه (Septimanie) بقيادة شارل مارتل ، لم تكن كافية لقصم ظهر الولاية العربية في الأندلس ودفعها الى حافة الهاوية . فبالاضافة الى ما كانت تعانيه القيروان من مآسي الصراع والفتن ، التي بددت قواها ونخرت عظامها وقت بظلالها القائمة على الأندلس ، وما كانت تشهده عاصمة الخلافة الأموية من تفتت وانحيار جعلها تقترب بسرعة من مرحلة النزاع الأخير ، اتسع نطاق مرض العرب الأزلي فبلغ الأندلس ، بعد ان تطور الى مرض مركب جمع ، بالاضافة الى القبلية ، اعراض العنصرية ، فلم يعد مقتصرأ على قيس ويمن بل تعداه الى شام وحجاز وإلى عرب وبربر والى وطنيين ومستجدين .

وكان مرجل الاحقاد يغلي بين البربر والعرب . وبدأت بذور التذمر تنبت بين البربر بعيد استكمال عمليات الفتح الأولى التي قاموا بها هم وبقيادة واحد منهم . فقد غاب قائدهم الفاتح في مناهات الشرق العربي ، وأسدل عليه ستار النسيان ، وهم قدموا من الشهداء آلاف ولم يحظوا من مغنم الفتح إلا بأكفان موتاهم ومواقع جرداء يقتلعون عيشهم من صخورها . أما العرب فقد تبوأوا مراكز القيادة والسلطة ، وآلت لهم مراتع العيش الهنيء . وسواء كان سبب تدمرهم هذا يقوم على أساس صحيح ام لا ، إلا أن معاملة العرب للبربر ، في ما تلا من تطورات أدت ، ولا شك ، الى اشعال سلسلة من الثورات أقل ما يقال فيها انها اقضت مضجع العرب سواء في المغرب أو في الأندلس ، وسببت لهم الكثير من المتاعب ، وكبدتهم عدداً كبيراً من الأرواح .

فقد كان المغرب يئن تحت وطأة التعسف الذي مارسه



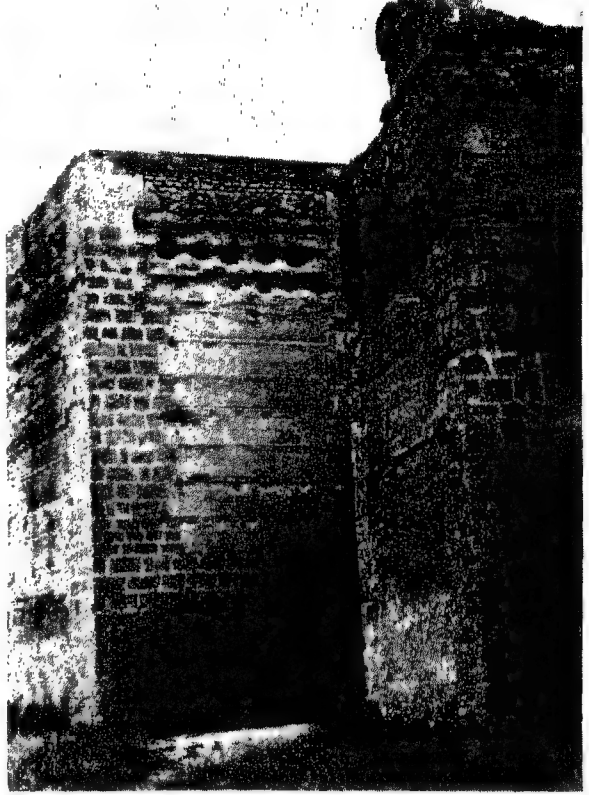
كنيسة سانتا ماريا بقرمونة حلت محل الجامع



قلعة شلب في البرتغال



جامع شلب حوّل الى كنيسة .



قلعة جابر بالقرب من اشبيلية

الوالي الذي كان من غلاة المتعصبين القيسيين . فقد أخذ يطبق نظاماً ضرائبياً مرهقاً ، ويعامل خصومه وكذلك البربر معاملة اتسمت بمنتهى القسوة والاحتقار ، الأمر الذي أثار ضغينة البربر على الحكم العربي ، وأشعل فتيل ثورة ضارية ، لم تقف عند حدود المغرب ، بل تعدته عبر المضيق الى الأندلس .

وفي الأندلس انتصر البربر لآخوانهم الذين كانوا يعانون القهر والاذلال . وكانت قد تسربت أفكار بثتها جماعات من الخوارج والاباضيين بين بربر المغرب ، داعية الى التحرر من نير العرب وظلمهم . ووجد تملل البربر في الأندلس ، وخاصة في الأجزاء الشمالية من البلاد ، تجاوباً عظيماً لدى بعض فئات الاسبان ، التي لم تخضع للحكم العربي ، فتحالفت معها وبدأت زحفها الجريء على أهم مواقع العرب في ثلاثة جيوش استهدفت طليطلة وقرطبة والجزيرة الخضراء .

وكان العرب قد لقوا على يد البربر في المغرب ، الهزيمة تلو الأخرى ، بالرغم من القوات الهائلة التي بعثت بها الخلافة من دمشق ، وقدر عددها بثلاثين ألفاً من المحاربين الشاميين الأشداء . غير أن عدم الانسجام بين الجيوش العربية القادمة ، التي كان جزء منها يتكون من الشاميين والآخر من أهل افريقية ، احبط محاولات العرب في القضاء على هذه الثورة الخطيرة . وهكذا لم يستطع العرب ، حتى في احلك ظروفهم ، وأكثرها خطورة ان ينسوا قبليتهم وعنصريتهم ، ولو الى حين . . . الى أن يدروا الخطر الجاثم فوق صدورهم ويهدد وجودهم ومنجزاتهم .

واندحر العرب في عدة مواقع كان أهمها موقعة الاشراف ، التي فقد العرب فيها كبار قادتهم واشرافهم وعدداً لا يحصى من الشهداء . وتوالت هزائمهم ، وفقدوا سيطرتهم على المغرب باستثناء جيب صغير استعصى على البربر ، قدر له ان يلعب دوراً حاسماً في ما بعد في الأندلس ، كما لعب في ما سبق ، عشية الغزو الا وهو « سبتة » .

غير ان العرب لم يستسلموا لليأس . فقد بعث الخليفة هشام بن عبد الملك بجيش قوي وصل الى المغرب حينها كانت قوات البربر مبعثرة على مسافات شاسعة من المواقع التي اغتصبوها من العرب . واستنسل العرب في دفاعهم وفي هجومهم ، الى أن تمكنوا من القضاء على ثورة البربر ، التي ظل اوارها يستعر في المغرب أكثر من سنوات ثلاث .

أما في الأندلس ، فكانت قوات البربر تشدد الخناق على اهم المواقع العربية بما فيها العاصمة قرطبة . ولم يكن عرب الأندلس افضل حالاً مما كان عليه آخوانهم عرب المغرب ابان المد البربري ، بل لعلهم كانوا أسوأ حالاً ، تنهشهم القبيلة وتفترسهم الأحقاد والكراهية والفتن ، وتطبق عليهم قوات البربر والاسبان بدون هوادة ولا رحمة ، حتى اخذت المواقع يسقط الواحد تلو الآخر ، والجيوش تندحر امام زحف البربر .

وكاد اليأس يأخذ من الوالي عبد الملك بن قطن مأخذه ، لولا ان تذكر صرخات الاستنجاد التي عبرت المضيق اليه من سبتة الواقعة على الحافة الغربية من شمال افريقية ، التي انطلقت منها سفن طارق . تذكر هذه الصرخات التي انطلقت من حنجرة بلج بن بشر القائد العربي الذي اعتصم بسبتة ، ذلك الجيب الذي استعصى على البربر عند ملاحقة فلول الجيوش العربية المنحدرة . تذكر صرخات الاستغاثة التي وجهها اليه ، باسم العروبة والاسلام ، رافة بجنوده الذين يتضورون جوعاً بسبب حصار البربر لهم . تذكر هذه الصرخات التي أدارها ظهره ولم تحرك فيه عاطفة ، لا شيء إلا لأن المستغيث شامي وجنوده شاميون ، والشاميون اعداؤه . تذكر كل ذلك وتذكر ان مع بلج سبعة آلاف مقاتل محاصرين يمكن الاستعانة بهم في محنته . وفي غمرة محنته هذه ، لم ينس أن هؤلاء الذين يريد الاستنجاد بهم شاميون ، وأنهم اذا ما عبروا ربما بقوا هناك . فاشترط خروجهم بعد انتهاء الفتنة حتى لو انقذوه ، فقبل بلج ، وما كان له غير القبول .

وما ان وصل بلج وجنوده ، حتى أخذ عبد الملك بن قطن منهم عدداً من الرهائن واحتجزهم في جزيرة صغيرة

الخلافة فعينت والياً جديداً هو ابو الخطار الكلبي ، الذي لم يعترض احد عليه ، فانتهج سياسة حكيمة قامت على التوازن والمصالحة . ولعل أهم ما تنبه اليه هذا الوالي الجديد ، ضرورة تفتيت التكتلات ، وتوزيع افرادها على مختلف المناطق ، واقصاء دعاة الفتن والاحقاد عن البلاد .

غير أن هذا الوضع لم يدم طويلاً . فإن هدأت حدة الضغائن بين البلديين والشاميين ففي الأندلس قيسون ويمينيون . الوالي المصلح الوقور ابو الخطار اشعلها من جديد لأن صديقاً له يمناً قتل على يد قيسي . نسي اعتداله ونسي مهمة الموازنة والمصالحة التي عين من اجل اقرارها لمجرد ان قيسياً قتل يمناً . وبدأ تسلطه على القيسيين . وأخذ مرّجّل العصبية يغلي من جديد ، الى ان حكم الوالي لصالح يمّني في خلاف كان له مع قيسي ، فقامت قيامة القيسيين ، وبدأت تدخلات قيسية اشترك فيها زعيم قيسي كبير هو الصميل ، غير ان الوالي رد مطالبه وأهانته . فاذا الدنيا تنقلب ، وتعود المعارك ، ويطيح القيسيون الوالي اليمّني ، ويسيطرون على الحكم .

ويخرج الصميل من ذلك كله ملكاً غير متوج للأندلس . وكان الصميل شجاعاً وفارساً وكريماً ، وكان داهية ومزاجياً لعب بمقدرات الأندلس بذكاء خارق من خلف ستار . اما الوالي الجديد يوسف الفهري فقد كان منصبه رمزياً ، ذلك ان خيوط اللعبة السياسية كانت مشتبكة باصابع الصميل الذي قنع بحكم مدينة سرقسطة في الشمال ، وكان العرب يطلقون عليها اسم المدينة البيضاء . وظل الوضع على هذا الحال بين محاولات الفهري الرامية الى تعزيز حكمه ، ومحاولات اليمّنيين استعادة نفوذهم وسلطتهم ، فقامت التكتلات ونشبت المعارك . وحبكت المؤامرات التي لم تختلف عن غيرها من المؤامرات والصراعات التي شهدتها حكم الولاة منذ أول وال عرفته الأندلس خلال عهد الولاة .

في هذه الأثناء اطيح العباسيون الحكم الأموي ، فغربت شمسهم في المشرق ، لتشرق في المغرب .

ليضمن وفاء الشاميين بوعدهم بمغادرة الأندلس بعد انتهاء مهمتهم . وسارت القوات الشامية جنباً الى جنب مع القوات الأندلسية تحت قيادة واحدة ، بادئة بمنطقة الجزيرة الخضراء ، حيث قضت على جيش البربر ، وقطعت عليه سبل الاتصال بالمغرب ، ومن ثم الى قرطبة ، فانقذوها من براثن البربر واحاقوا بجيشهم ، ثم انطلقوا شمالاً الى طليطلة ، التي كانت تحاصرها قوات البربر لأشهر عديدة ، ففكوا الحصار عنها وقضوا على جيش البربر ، واخذوا ثورتهم عام 741/124 التي عبأوا لها جميع قواتهم ، والتي استبسلت فيها القوات العربية ايما استبسال وخاصة القوات الشامية ، التي عرفت بشدة بأسها وشجاعتها وبراعتها القتالية .

وما ان انقشع غبار المعركة حتى راح عبد الملك بن قطن يطالب بلج بالرحيل حسب الاتفاق . فأين يذهب هؤلاء وقد طاب لهم المقام في هذا البلد الطيب . ألم يكن الفضل لهم في انقاذ الأندلسيين من الهلاك؟

تأزم الوضع بين البلديين الأصليين والشاميين الدخلاء ، وتمخض عن صدام دفع بالشاميين الى الانقضاض على العاصمة ، والى القبض على واليها وحبسه وتنصيب رئيسهم البلج حاكماً . ومن الطبيعي يتكتل أعوان الوالي المخلوع مع غيرهم من الرافضين للشاميين . فقام حلف ضمّ كل من كان يخشى على كيانه من الخطر الجديد ، حتى البربر . غير أن الوضع تفجر تماماً عندما مات ، تحت وطأة التعذيب ، أحد الرهائن الذين احتجزوا في الجزيرة ، الأمر الذي دفع بالشاميين الى اقتحام دار الوالي المحتجز وقتله دون مراعاة سنه وقد جاوز التسعين .

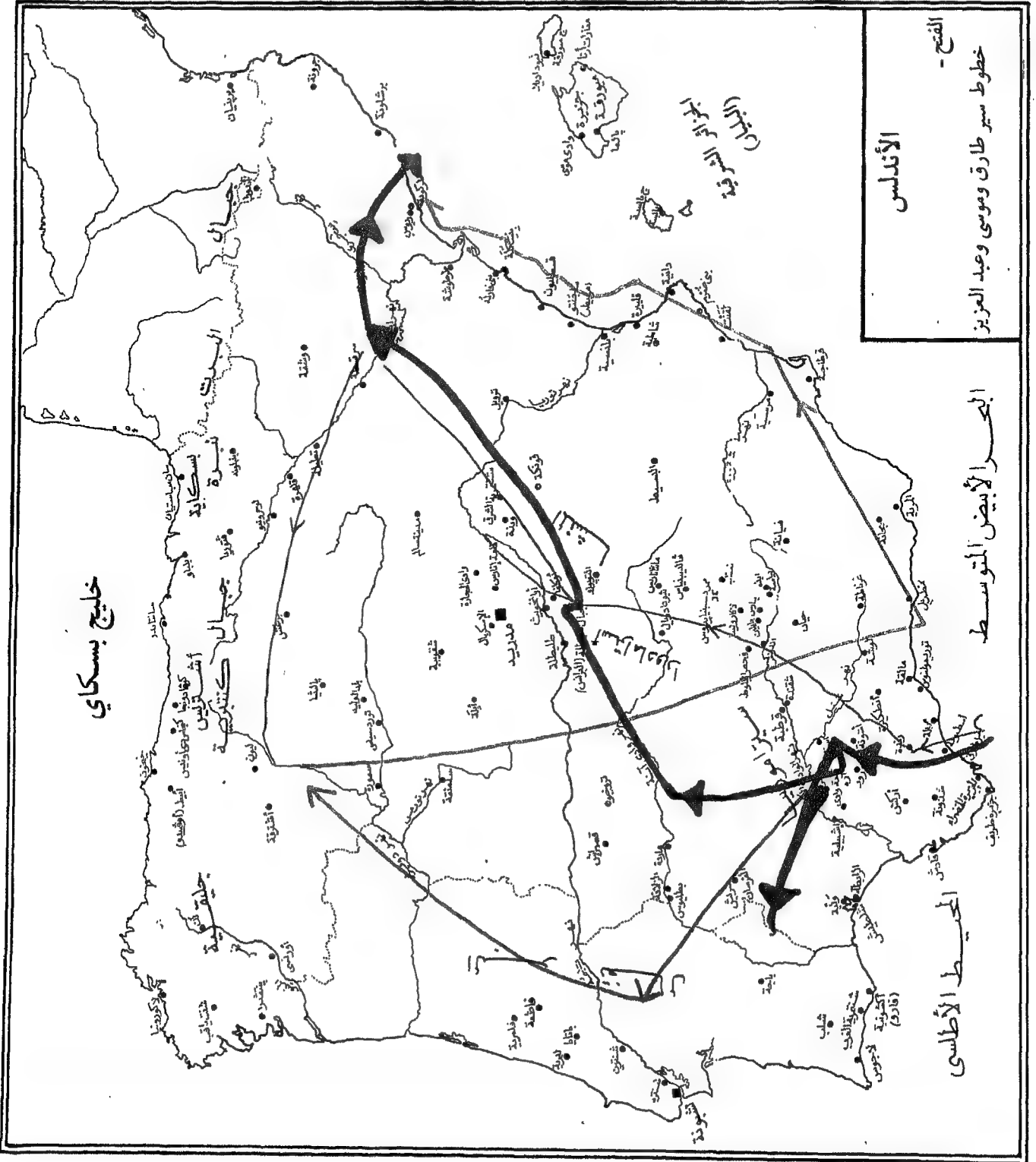
وتوالى المعارك بين الشاميين والبلديين ، وسالت دماء جزيرة بين الأخوة ، كان لا بد من وقف نزيفها . فاتجه بعض العقلاء الخيرين الى القيروان بحثاً عن حل لهذه الحرب الأهلية البشعة ، التي ازهقت ارواح الآلاف من الاشقاء ، وشجعت الاسبان في الشمال على تنظيم صفوفهم استعداداً للاندفاع جنوباً حيث الفاتحون القاهرون ، ينهش بعضهم البعض الآخر . وتدخلت

- 1 - عبد العزيز بن موسى بن نصير 714/ 95
- 2 - أيوب بن حبيب اللخمي 716/ 97
- 3 - الحر بن عبد الرحمن الثقفي 716/ 97
- 4 - السمح بن مالك الخولاني 719 / 100
- 5 - عبد الرحمن الغافقي (الولاية الأولى) 721/ 102
- 6 - عنبسة بن سحيم الكلبي 721/ 103
- 7 - عذرة بن عبد الله الفهري 725/ 107
- 8 - يحيى بن سلمة الكلبي 726 / 107
- 9 - حذيفة بن الأحوص القيسي 728/ 110
- 10 - عثمان بن أبي نعسة الخثعمي 728/ 110
- 11 - الهيثم بن عدي الكلابي 729/ 111
- 12 - محمد بن عبد الله الأشجعي 730 / 112
- 13 - عبد الرحمن الغافقي (الولاية الثانية) 730/ 112
- 14 - عبد الملك بن قطن الفهري 732/ 114
(الولاية الأولى)
- 15 - عقبة بن الحجاج السلولي 734/ 116
- 16 - عبد الملك بن قطن الفهري 742/ 123
(الولاية الثانية)
- 17 - بلج بن بشر القشيري 742 / 124
- 18 - ثعلبة بن سلامة العاملي 742/ 124
- 19 - أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي 743/ 125
- 20 - ثوبة بن سلامة الجذامي 746/ 128
- 21 - عبد الرحمن اللخمي 746/ 129
- 22 - يوسف بن عبد الرحمن الفهري 747/ 129

جدول بياني لعصر الولاة

الخلفية السياسية والعسكرية في العالم	فتح المغرب والأندلس - وعصر الولاة	الحلافة الأموية في دمشق
<p>شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام: سكانها قبائل غير حاضرة لأي نوع من الحكم المركزي، تعيش على الغزو وتدين بالوثنية كانت مكة المركز الديني والتجاري حيث كانت تمر بها قوافل التجارة بين الهند والبحر المتوسط وكان الصراع والتنافس قائماً بين امبراطوريتي القرس والبيزنطيين على سيادة العالم. وفي عام ٥٧٠ (عام الفيل) أرسل القرس جيشاً إلى اليمن فأصرح منها الأشخاص.</p> <p>الامبراطورية الرومانية: كانت قد انقسمت إلى امبراطوريتين: الرومانية (روما) والبيزنطية (القسطنطينية) وكانتا مهترلتين تقريباً. وكانت الامبراطورية الرومانية تئن من وطأة التمزق وتعالى من جيش القبائل المتبريرة في جسدتها.</p> <p>الامبراطورية البيزنطية: كانت تسيطر على سواحل الشمال الأفريقي وكان وجودها هناك مقتصرًا على الساحة العسكرية.</p> <p>مملكة الفرنجة (الفرس): كان نظام الدولة المرونجية متخلفاً وصلحاً عن ممارسة أي دور تاريخي لتجزأت البلاد إلى ثلاثة أجزاء هي استراسيا وبوسترنا وبرغندي. وكان الانقطاع متفشيًا فيها وأهانت سلطة الملوك، ثم وصلها بيان دي ميرستال وبعد موته جاء حفيده شارل مارتن (المطرقة) فوحد البلاد وعزز قواها بعد أن شعر بالخطر العربي.</p> <p>شبه الجزيرة الأيبيرية (أشبانيا): بعد التسمم الامبراطورية الرومانية إلى شرقية (بيزنطية) وغربية (روما) زحفت الفوج القاتل المتبريرة (الوندال) إلى شبه الجزيرة الأيبيرية واستقرت فيها إلى أن طردها قبائل القوط الغربيين إلى شمال أفريقيا، وكان يجلس على عرش أسيانيا حشية الفتح لدرين بعد أن أطاح بالملك فيطشة الذي كان أنصاره يتحفظون لثلاثتهم منه واستعادة العرش. وكانت أوضاع البلاد الداخلية سيئة للغاية، يتعدها التمزق والحروب الأهلية وتعالى من انحطاط الأمن.</p> <p>الدولة الأموية في دمشق: كانت الدولة الأموية تعاني من المآثرات والصراعات القبلية، وتعلب على حكمها حياة الترف والتبذير وعجزوا عن مواكبة التوسع العسكري بإقامة المعاملة الإدارية التي تستلزم الارتقاء بالحكم إلى مستوى المسؤولية. وبدأت الدولة تتآكل بعد هشام بن عبد الملك إلى أن انسلخ الأندلس عنها إدارياً، ثم ما لبثت أن أنهارت على يد العباسيين الذين قفروا على بني أمية حنينهم باستثناء عبد الرحمن الذي تمكن من الهرب إلى المغرب ثم إلى الأندلس ليقيم فيها دولة أموية بادئاً بذلك عهد أمراء بني أمية.</p> <p>المغرب: بعد انتشار البرابرة الونداليين في شمال أفريقيا، عزز البيزنطيون وجودهم في المغرب وانتشروا بين طرابلس وطنجة والنعين بالبربر إلى المناطق الداخلية وظلوا هم في المناطق الساحلية يحفظون بحاميات عسكرية فقط في مناطق استراتيجية. وظل البربر والبيزنطيون يقاتلون الغزو العربي لشمال أفريقيا مقسمين عاماً إلى أن تم القضاء على الوجود البيزنطي نهائياً وانخضاع البربر على يد موسى بن نصير.</p>	<p>سقوط آخر الولاة يوسف القهري على يد عبد الرحمن الداخل.</p> <p>تولى الحكم ٢٢ من الولاة:</p> <p>دام ٦ منهم أقل من ٧ أشهر</p> <p>دام ٥ منهم أقل من ١٢ شهراً</p> <p>عبد العزيز بن موسى بن نصير - أول الولاة (أشبيلية).</p> <p>فتح الأندلس: طارق بن زياد ثم موسى بن نصير</p> <p>تعيين موسى بن نصير.</p> <p>تعيين حسان بن النعمان حاكماً وقائداً.</p> <p>هزيمة العرب وعودهم إلى بركة.</p> <p>تعيين حقة حاكماً لولاية إفريقية</p> <p>إنشاء القيروان.</p> <p>يده فتح المغرب بعد مصر بقيادة عمرو بن العاص/ عتقة بن نافع.</p> <p>ثورة البصرة.</p> <p>فتح قبرص وطرابلس ولومبيا وإفغانستان والسند.</p> <p>فتح سوريا وقلسطون وشمال مصر والعراق وغرب بلاد القرس والمغرب حتى سرت.</p> <p>خروج الزفة.</p>	<p>770</p> <p>763</p> <p>760</p> <p>755</p> <p>750</p> <p>745</p> <p>740</p> <p>735</p> <p>730</p> <p>725</p> <p>720</p> <p>715</p> <p>710</p> <p>705</p> <p>700</p> <p>695</p> <p>690</p> <p>685</p> <p>680</p> <p>675</p> <p>670</p> <p>6٤٤</p> <p>661</p> <p>656</p> <p>644</p> <p>634</p> <p>632</p> <p>630</p> <p>622</p> <p>610</p> <p>570</p> <p>مقتل علي وإعلان معاوية نفسه خليفة</p> <p>مقتل عثمان ومبايعة علي بن أبي طالب</p> <p>مقتل عمر ومبايعة عثمان بن عفان</p> <p>وفاة أبو بكر الصديق ومبايعة عمر بن الخطاب</p> <p>وفاة الرسول ومبايعة أبو بكر الصديق</p> <p>سقوط مكة بيد المسلمين</p> <p>هجرة الرسول إلى المدينة</p> <p>بدء الدعوة إلى الإسلام</p> <p>مولد محمد (ﷺ) عام الفيل</p>

طارق بن زياد
موسى بن نصير
عبد العزيز موسى بن نصير



«الشروق»

عصر الامارة

انتزعت نشوة النصر من قلوب العباسيين آخر ذرات الرحمة عندما اعملوا سيوف الحقد والكراهية في رقاب بني أمية ، وزحفت جيوشهم تقلب الأرض بحثاً عن الهاربين ، فلم تراع امرأة ولا طفلاً ولا شيخاً منهم . ولم ينج من البيت الأموي إلا واحد ، لم تنطل عليه حيلة العفو التي أعلنها العباسيون عن الأسرة الأموية ، ثم غدروا بمن سلم منهم نفسه . التحف بسواد الليل ينتقل من مخبأ الى آخر ، الى أن داهمه الجند ، فأفلت من بين أصابعهم ، والقى بنفسه في مياه الفرات ، وغاب عن انظارهم ، وظل يسير متخفياً حتى بلغ تونس عبر فلسطين ومصر وبرقة ، يرافقه غلامه بدر .

- ذلك هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الذي سيصبح أول أمير للدولة الأموية المستقلة في الأندلس ، والذي سيعرفه التاريخ باسم صقر قرش عبد الرحمن الداخل .

ظل عبد الرحمن شريداً يجول في أرجاء المغرب ، ينتقل من قرية الى قرية ، ومن قبيلة الى أخرى ، مرة في الخفاء ، وأخرى في العلن ، يستطلع أوضاع هذه البلاد ، بحثاً عن موقع له فيها ، موقع وريث الخلافة الأموية ، في هذه الولاية التي لم تعترف بنظام العباسيين ، والتي كان واليها يطمح في الاستقلال بحكمها .

لم يقنط عبد الرحمن من صدود القبائل وفتور الأمويين الذين فروا الى المغرب هرباً من سيوف العباسيين ، ولكنه ادرك صعوبة اقتحام الحكم في المغرب . وساقته قدماء الى سبتة ، سبتة التي قفز منها العرب الى شبه الجزيرة الايبيرية بقيادة طارق ، ثم بقيادة موسى ، وهي التي حوصرت فيها بلج وجنوده الشاميون وذاقوا فيها مذلة الجوع والعري .

وفي سبتة وقف عبد الرحمن يستعرض حياته ، فقد قيض الله له النجاة من جلادي بني العباس ، فهرب ولم يكن عمره يزيد عن العشرين ، وها هو الآن بعد خمس سنوات من التشرد ، لا يرى في آفاق المغرب ما يضمن له

عيشاً كريماً ، ولا ما يحقق طموحه . ولئن كانت مخالب العباسيين لم تصل بعد الى القيروان ، فإنها قد تصل اليها في وقت ليس ببعيد . وان افلت مرة من سيوف جلادهم ، فلربما اطبقت عليه مخالبهم هذه المرة .

ومن شاطئ سبتة سرح بأنظاره الى الشاطئ المقابل ، الى الأندلس ، حيث له أقرباء أمويون هربوا هم كذلك من نير العباسيين واستقروا هناك . فلم لا يلحق بهم هو الآخر ؟ بل لا بد من اللحاق بهم ، ولا بد لهم من مساعدته ومناصرته . فهو أموي منهم ، وهو وريث الخلافة الأموية .

وبدأت صورة العرش الأموي الجديد تكتمل في مخيلته . وتزاحمت في رأسه التساؤلات . ترى هل تنجح مخططاته ؟ هل يجد من يعينه ؟ هل يستطيع وحده أن يحقق أحلامه الكبيرة هذه .

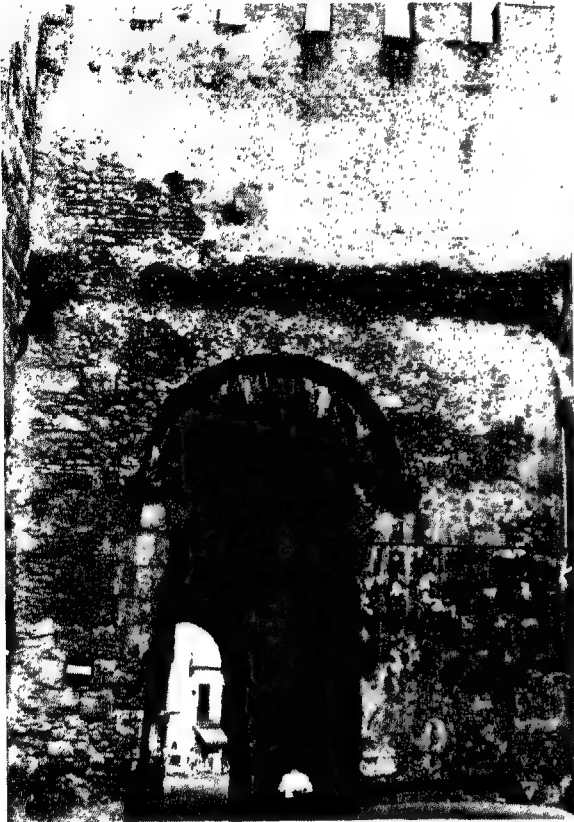
لم يستغرق في التفكير طويلاً . كان يعرف الاجابة عن هذه التساؤلات . فالأندلس كانت غارقة في خضم الفوضى والتفكك والتناقضات السياسية والقبلية . والشرعية كانت تتقاذفها رياح الفرقة والصراعات . والقيروان لم تعد تستمد شرعية الحكم فيها من دمشق ، بعد أن زال الحكم المركزي فيها ، ولا هي تابعة للعهد الجديد في بغداد . والشرعية اذاً في يد الأقوى .

وعاد بنظره الى الشاطئ المقابل . فالصميل محاصر في عاصمة ولايته في الشمال والفهري يتقاعس عن نجده ، متذرعاً بمشاغل درء الخطر المحدق بقرطبة عاصمة الدولة .

وكان بدر ، غلام عبد الرحمن الذي سار معه من دمشق هرباً من العباسيين ، يقف الى جانب سيده يراقب نظراته المهددة الى الشاطئ المقابل لسبتة . وكان يعرف ما يدور بخاطر سيده لأنه اعلم الناس به . . فانطلق الى الأندلس وكان يعرف الدور الذي اراده له سيده .

وعاد بدر بالاخبار المشجعة . وبدأت الاستعدادات على ضفتي المضيق . وفي صيف عام 755/138 ركب عبد الرحمن البحر وحلّ في قرية طرش (Torrox) . وكان

بتنفيذها . اذ بدأت التحركات العدائية تتهدده ، واضطر الى امتشاق حسامه . وتشاء الأقدار ان يظل ممتشقا هذا الحسام عشرين عاماً ، لم يدخله في غمده إلا فيما ندر ، ولم يعرف النوم الهنيء سبيلاً الى جفنيه إلا لمأماً . فمن الفهري الى الصميل ومن القيسيين الى اليمينيين ومن ثورة في طليطلة الى أخرى في اشبيلية ، ما يكاد يقضي على واحدة حتى تنشب أخرى ، الى ان رفعت باجة (Beja) ، الواقعة الى الجنوب الغربي من البلاد (البرتغال) راية العباسيين السوداء ، وقام قائد حاميتها ، العلاء بن مغيث اليحصبي ، باعلان الثورة التي اجتذبت جميع المتضررين من حكم الأمير ، فتحالف فيها القيسيون واليمينيون والفهريون ، على تنافضاتهم ، وجمعوا جيشاً ضخماً التحم بجيش عبد الرحمن ، الذي لم يجد بداً من الانسحاب الى قرمونة (Carmona) بالقرب من اشبيلية . ظل عبد الرحمن محاصراً في قرمونة مدة شهرين ، الى أن تفتق ذهنه الخلاق عن مخطط جريء لا يستطيع الا رجل



باب اشبيلية بقرمونة

كل من والي الأندلس يوسف الفهري والصميل يحاول اطفاء الفتن والثورات المستعرة في البلاد . كان أحدهما يقاتل البربر واليمينيين في سرقسطة ، والآخر يؤدب البشكنس (الباسك) في أقصى الشمال . وكان جنودهما يلهثون تعباً وارهاقاً ، بعد عشر سنوات من القتال الذي لم يتوقف . وبدأ عبد الرحمن زحفه في ربيع العام التالي لوصوله ، بعد أن نظم انصاره في جيش بلغ عدده الفين من الفرسان الأشداء ، سرعان ما انقض به على قوات الفهري والصميل ، التي كانت تتسابق معه باتجاه العاصمة قرطبة ، فمزقتها بسرعة وهرب الفهري والصميل وبدأ يعدان للجولة التالية .

أما عبد الرحمن فقد استولى على قرطبة عاصمة الولاية بدون عناء يذكر ليرسي أساس الحكم الأموي الذي بدأ كإمارة وانتهى كخلافة . ولم يكن عبد الرحمن كغيره ممن تبوءوا مقاليد الحكم من قبله في قرطبة . فمطامحه لا تعرف حدوداً . وهو لن يتبع احداً ، لا في القيروان ولا في بغداد . وكان همه الأول انشاء جيش قوي مدرب ، لا مكان فيه لمرتد أو متخاذل ، يقوم على الولاء المطلق لفرد واحد ، له هو . فأمامه برامج واسعة عظيمة ، يريد تحقيقها وهو في مأمن من غدر الغادرين وكيد الطامعين وحقد المتهورين . وكان يريد تصفية الاحقاد والتعصب واقامة مجتمع يعيش للخير ويهنأ بحياة راغبة كريمة في بلد ينضج بالخير ويطفح بالجمال ، لا محل فيه لكرامية ولا لقبلية ، يعيش كأسرة واحدة متجانسة متحابية .

كان عبد الرحمن يعلم ان تحقيق ذلك ليس بالأمر الهين في هذا المجتمع الذي تغدقت أرضه بدماء التعصب والبغضاء . فكان عليه أن يرفع غصن الزيتون بيد والحسام باليد الأخرى . فعلى مقربة منه عدوان أحدهما يدافع عن شرعيته والآخر عن حقه في وطنه . وعلى الجانب الآخر من البحر المتوسط عهد جديد لا بد ان يطالب بإرث الخلافة في الأندلس ، خاصة لأن مغتصبه اموي .

لم تطل تأملات الأمير الشاب . بل ان الظروف المحيطة به لم تمهله ولم تتح له تنفيذ الاصلاحات التي كان يحلم

عقود مسجد قرطبة الجامع

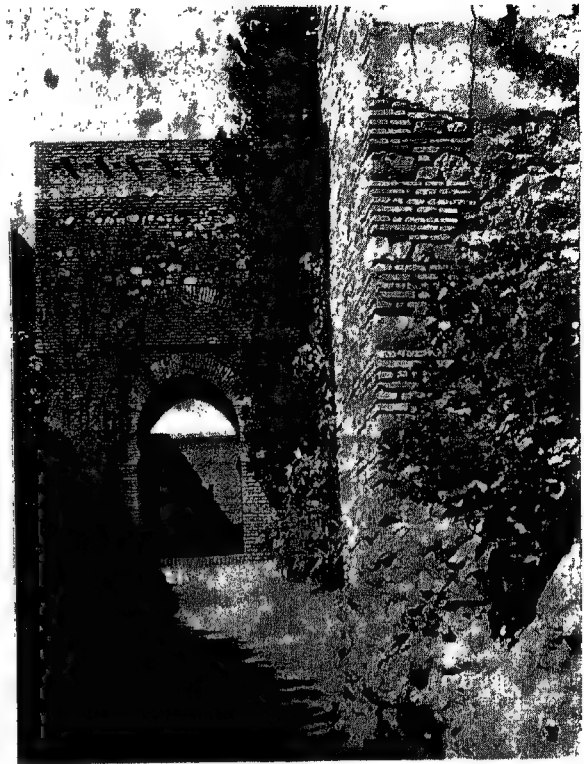
ثار البربر مرة أخرى ، وكان ما حل بهم من قبل لم يكن كافياً . ولعلمهم ظنوا ان العرب قد استنفدوا البقية الباقية من قوتهم فتحركوا ، وكان تحركهم على جانب كبير من الخطورة . لكن الأمير الأموي تمكن أخيراً من القضاء على تحركهم وعلى قائدهم الملقب بالفاطمي ، فأضاف رأساً آخر الى مجموعة الرؤوس التي ارتفعت طمعاً فيه فتدحرجت .

ولم تترك الخلافات والمؤامرات والثورات العربية والبربرية للأمير الأموي متسعاً من الوقت للتفكير بالأخطار التي كانت تتهدده من الشمال ، سواء خطر بداية التحركات القومية القوطية أو خطر تحفز الفرنجة بقيادة شارلمان الذي بدأت تراوده احلام المجد من خلال تزعم حملات صليبية تقضي على الوجود الاسلامي في اسبانيا المسيحية ، أو في أسوأ الظروف ، تدرأ خطر المد الاسلامي الذي كان يتهدد أوروبا بأسرها ، ذلك الخطر الذي تجسم في المحاولات العديدة التي قام بها المسلمون في بلاد الفرنجة .

ويردد بعض المؤرخين ان الخليفة المنصور قد تحالف مع شارلمان ضد عبد الرحمن . غير أن احداً لم يستطع تقديم دليل على ذلك . ولئن عزت الأدلة على هذا التحالف ، إلا انها توافرت بكثرة عن التآمر بين اثنين من عرب الأندلس وشارلمان . فقد اعلن الاعرابي حاكم برشلونة (Barcelona) ، والانصاري حاكم سرقسطة (Zaragoza) الثورة على النظام الأموي ، وتحالفا مع شارلمان الذي جاء عام 800/184 بجيش جرار منتهزاً فرصة التمزق العربي الذي أخذ يقوض اركان الحكم المركزي . غير ان شارلمان ، وقد وصل سرقسطة ، وجد أبوابها مغلقة في وجهه . ذلك ان الانصاري انقلب على حليفه الاعرابي وشارلمان ، فلم يجد هذا الأخير بداً من الانسحاب إلى ما وراء جبال البرت عائداً إلى بلاده ، مؤمناً بأنه لا جدوى من محاولة بسط سلطانه على الأندلس وطرد العرب منها ، فانسحب ليعزز من دفاعاته في بلاده . وهكذا قضى عبد الرحمن بدون جهد مباشر على هذه الثورة الخطيرة ، وقام الانصاري بقتل الاعرابي كما لقي الأنصاري بعد ذلك المصير نفسه .

كعبد الرحمن أن يقدم عليه . اندفع بصفوة من جنوده من أسوار القلعة اندفاعاً انتحارية شرسية ، لا رحمة فيها ولا رافة ، ففضى على القوات المحيطة به وشتت شملها ولم يبق منها سوى رؤوس مجندلة ، جمع عبد الرحمن بعضها ، وعلق في آذان اصحابها اسماءهم ، بمن فيهم اسم قائدهم العلاء ، وبعث بها الى القيروان سراً ، حيث القيت في طرقها ليلاً ، تبعث الرعب في نفوس الطامعين المتطلعين بعين الطمع الى الأندلس ، بمن فيهم الخليفة العباسي الذي خطط لهذه الثورة الفاشلة ، والذي قال عندما بلغه ما فعله عبد الرحمن : « الحمد لله الذي جعل بيني وبين هذا الشيطان بحراً » .

وكان الرؤوس المجندلة التي طرحت في طرق القيروان لم تكن كافية لكبح جماح الطامعين ، فأطلت غيرها لتتدحرج هي الأخرى ثمناً للجشع والطمع والتهافت على السلطة . فقد رفع المطري رأسه فقطع وأطل الصباح برأسه فهوى ، وكان عقب الدماء أصبح جزءاً من حياة الناس هناك . فمتى منذ الفتح توقف ذلك السيل ؟



احدى بوابات قصبة مالقة .

والى القبروان ، وان يدخل وحده ، لا يرافقه أحد غير
غلامه بدر الى الأندلس ، وبعد أشهر قليلة تنتظم في وجهه
جيوش ، فيهزسها وتشب في وجهه ثورات ، فيخمدوها
وتتآمر عليه الخلافة العباسية ، فيقضي على احلامها في
الأندلس الى الأبد ؟

هذا هو الوجه الوحيد الذي عرف به ، حتى ذلك
الوقت ، هذا الرجل المغامر الذي حجرت الأيام قلبه ،
فلم يعد يعرف من الوان فوس قزح غير لون الدم
الفساى ، الذى جرى أنهاراً لكثرة ما قتل ، فلم
تحرك في نفسه شفقة ولا رحمة ، ولم يعد يرى في الأفق غير
هالات المجد ، ولا يشتهي من متاع الدنيا غير السطوة
والحكم المطلق ، مهما كان السبيل الى ذلك ، فخان
وغدر ، وتجر وثأر ، وألقى خلفه بمبادئ التسامح
والمصالحة ، التي نادى بها يوم اعتلى كرسي الأمانة في
قرطبة .

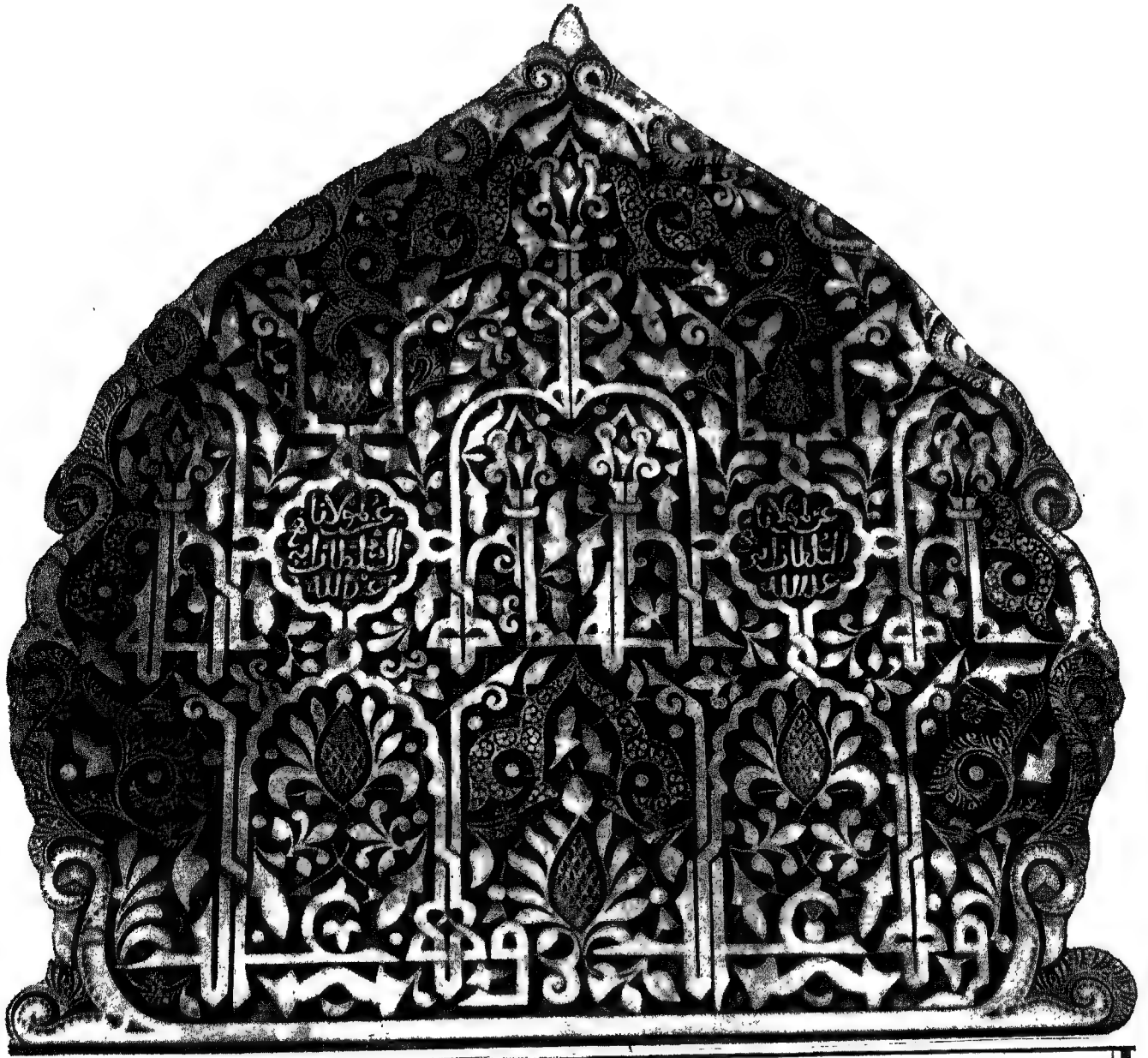
غير أن خلف قناع القسوة الملطخ بالدماء ، كان عبد

مضي على دخول الداخل اكثر من ثمانية وعشرين عاماً ،
وأصبح الشاب كهلاً ، انتقل من ربيع شبابه الى خريف
كهولته ، وأذناه لم تسمعاً سوى صليل السيوف ، وعينه لم
ترى سوى الدماء ندفق من الرقاب ، وانفه لم يشم
إلا رائحة الخيل وعرق الجلود وعفن الجثث . وكانت
الذكريات تعود به الى بلده الذي تركه غائصاً في برك
الدماء . هناء دماء وهناك دماء ، فهل قدره مجبول بالدماء ؟
أينسى اخاه يحيى الذي قتله العباسيون ، وهو يعد للفرار
معه؟ وهل ينسى اخاه الصغير هشاماً ، الذي ضرب الجند
عنقه على مرأى منه يوم عجز هذا عن قطع النهر معه هرباً
من سيوف العباسيين ؟

ليس عبد الرحمن الذي يتطرق التشاؤم الى
نفسه . فقدرة معلوم لديه ، خطه بيده ، وهو مدركه لا
محالة . إذ هل تصور احد انه كان سينجو من مغالب
العباسيين دون غيره من البيت الأموي ، وان يسير مسيرته
الطويلة دون أن يوقع به احد ، وان ينساب كالماء من قبضة



صحن جامع قرطبة



من ثلاثين سنة بعد ان رسا القارب الذي نقله من التشرّد الى شاطئ آماله العريضة . علمته حوالك الليالي ان عليه ان يقضي على الفرقة والفتن والاطماع والدسائس والمطامح . وان يرسي قواعد دولة موحدة سياسياً وادارياً وعسكرياً ، تستعصي على أي طامح ، وتعز على أي آفاق ، دولة تقيم العدل ، وتنصف المظلوم ، وتضرب على يد الظالم .

الرحمن يخزن طاقات ايجابية تجلت في ما قام به من انجازات أدت الى خلق كيان استحق ، لأول مرة في تاريخ الأندلس ان يطلق عليه اسم الدولة ، وصدق ابن حيان حين قال فيه : « اقام للملك آتته ، واخذ للسلطان عدته » . فقد علمته حوالك الليالي انه لو كان له ان يحقق القدر الذي خطه بيده ، فلا بد له ان يستأصل المرض الذي فتك بهذه البلاد لأكثر من اربعين سنة قبل دخوله ، ولنحو

أصابه ييكون ، وان بسمت له الدنيا يهللون .

كان عبد الرحمن في ذورة مجده يعاني لواجع الغربية وكآبة الوحدة . فقد انفض عنه أقرب المقرين له حتى غلامه الأمين بدر، اما خوفاً من بطشه أو إنكاراً لأفعاله . وتذكر قول الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور في وصفه اذ قال عنه : « الذي تخلص بكيدة من سنن الأسنة وظبابة السيوف يعبر القفر ، ويركب البحر، حتى دخل بلدأ اعجمياً ، مصر الأمصار وجند الاجناد ، واقام ملكاً بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة عزمه » . تذكر ذلك القول وهو يشاهد مركباً تدفعه برفق نسائم الغروب الى المشرق فأنشد :

«ايها الراكب الميمم ارضي

إقر من بعضي السلام لبعضي

ان جسمي كما علمت بأرض

وفؤادي ومالكيه بأرض»

بدأ عبد الرحمن الداخل يحس بوطأة ذلك الحمل الذي ينوء تحته اعظم الرجال . أكثر من ثلاثين عاماً قضاها على سرجه ، بدأها هارباً من سيوف جلاذيه العباسيين ، من دمشق الى قرطبة ، وأكملها في سبيل اقامة اركان حكمه ، ثم في المحافظة عليه والدفاع عنه ، فأرسى قواعد الادارة والقضاء ، وانشأ جيشاً قوياً متماسكاً ، معظم عناصره من الصقالبة والبربر، لا يدينون بالولاء لغيره ، وبدأ في انشاء المسجد الجامع الشهير في قرطبة ، كما بنى قصر الرصافة في أطرافها .

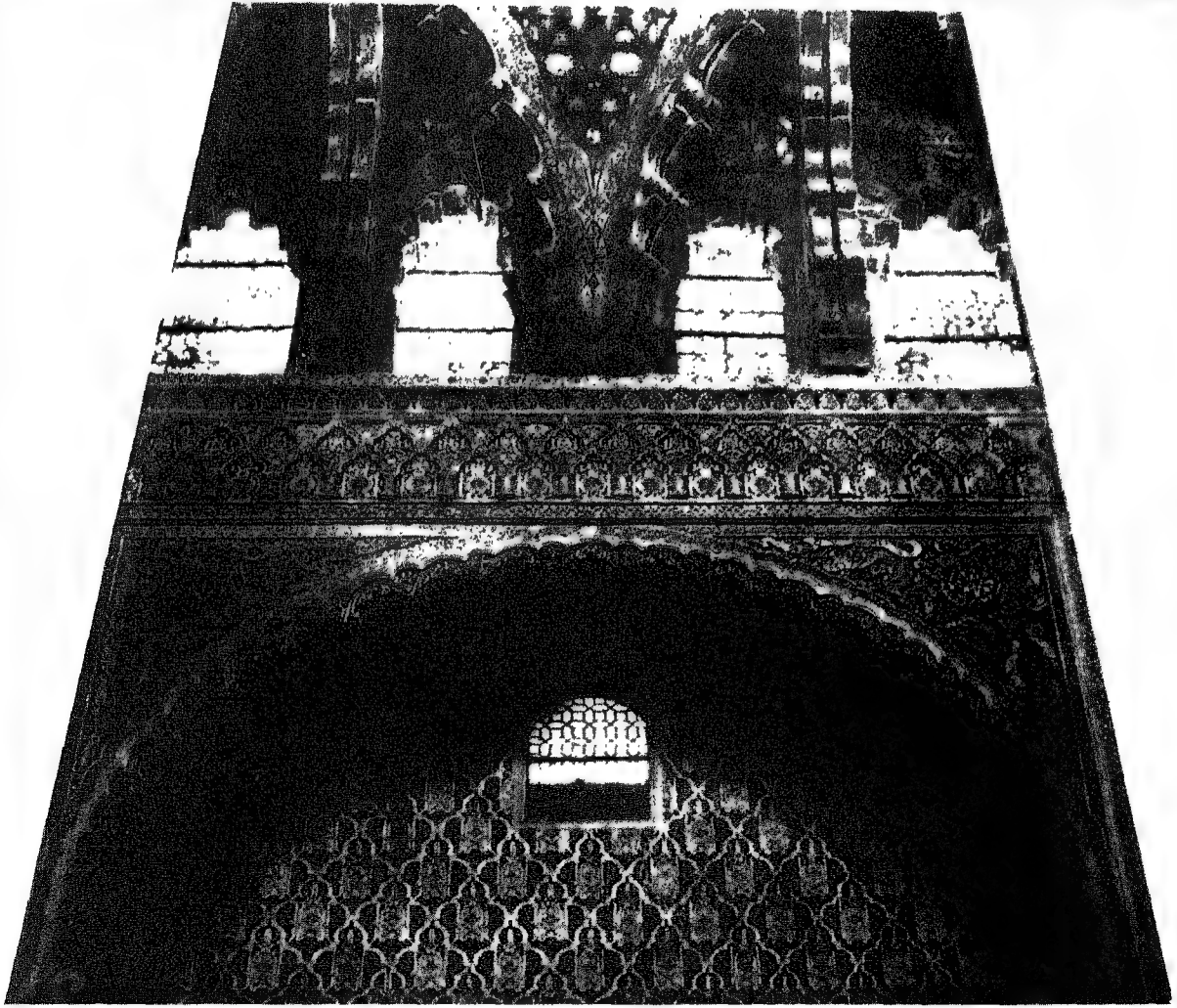
بدأ الوهن يدب في جسده المتعب ، ولعله احس بقرب اجله ولما يبلغ الرابعة والخمسين من عمره . فأخذ يفكر في أمر من يخلفه . وكان له من البنين احد عشر ومن البنات تسع ولدوا جميعاً ، باستثناء ابنه البكر سليمان ، من ام اسبانية . وكان من المنطق ان يختار ابنه الأكبر سليمان الذي ولد في الشام ، ثم التحق بأبيه عندما استتببت له الأمور في الأندلس . غير أن سليمان ، على خلاف اخيه الثاني هشام ، لم يكن ، في نظر ابيه ، من المقدرة والجدية



ناعورة عربية بقرطبة .

ولقد حقق عبد الرحمن الكثير في هذا السبيل ، ولو ان ذلك كان فوق عشرات الألوف من الجثث ، فاستحق بذلك العديد من التبعوت التي وصف بها . ولا بد من التساؤل هنا ان كان بالمستطاع ، بغير هذا السبيل ، توحيد بلد سكانه على ذلك الجانب الكبير من الفرقة والقبلية والعصبية . فلا العرب ولا البربر عرفوا في تاريخهم ولاء إلا للقبيلة ، ولا انضباطاً إلا ما يفرضه عليهم رئيس هذه القبيلة ، ولا تربطهم بغيرهم من البشر إلا ما يربط قبيلتهم بهم ، فلا مفهوم الدولة كان معروفاً لديهم ، ولا الاحساس بالقومية كان وارداً في أذهانهم .

وما أن مُهد لعبد الرحمن المضجع ، وبدأ جفناه يذوقان طعم النوم العميق ، بعيداً عن صهيل الخيل وقعقة السلاح، عاودته عذوبة الذكريات ، فسقط عن وجهه قناع الحاكم الفظ الشرس ، ونقلته ذكرياته الى هدأة صباه ، فحن الى أهل له كانوا بالأجداد يرفلون . . . منه ، من لحمه ، من دمه ، يحدثهم فيتحدثون ، فإن شكاهم همّاً



جامع قرطبة

قواعد الحكم الأموي الذي دام قرابة ثلاثة قرون من الزمن ، ولم يدر ما كان سياترب على عدم البت في أمر خلافته من متاعب ، لاحقاً ، بالنسبة لولده المفضل .

ما كاد الأمير هشام بن عبد الرحمن الأول ، والذي عرف ايضاً بالرضا يعتلي كرسي الحكم حتى يحس بهذا الكرسي يهتز من تحته ، حين اعلن عليه اخوه الأكبر سليمان الثورة في طليطلة . وقد انضم اليه اخوه عبدالله (البلنسي) الذي كان قد سلم بنفسه خاتم الحكم لهشام . ولم يتردد هشام ، الذي كان قد بلغ الثالثة والثلاثين من عمره عندما تسلم مقاليد الحكم ، في اتباع الشدة مع اخويه المتمردين ، فزحف على طليطلة حيث كانا معتصمين وقمع

والعلم بقدر يؤهله لتسلم مقاليد الحكم الذي وطّد اركانه بالجهد والجهاد . ووقع في حيرة من امره ، ولم يستطع البت في أمر البيعة وهو على قيد الحياة ، واختار ان يترك ذلك للحظ وقد خطرت له فكرة بدائية ، فدعا واحداً من أبنائه الآخرين واسمه عبدالله ، وسلمه خاتمه وأوصاه ان يعطيه الى من يأتي قبل الآخر من الأخوين بعد وفاته . واضاف : « لو سبق اليك هشام ، فله فضل دينه وعفافه واجتماع الكلمة عليه ، وان سبق اليك سليمان فله فضل سنه ونجدته وحب الشاميين له » . وكان أول القادمين هشام ، فتسلم من اخيه خاتم الحكم ، وأصبح ثاني الامراء الأمويين في عهد الامارة .

وهكذا غاب عبد الرحمن عام 789/172 بعد أن ارسى

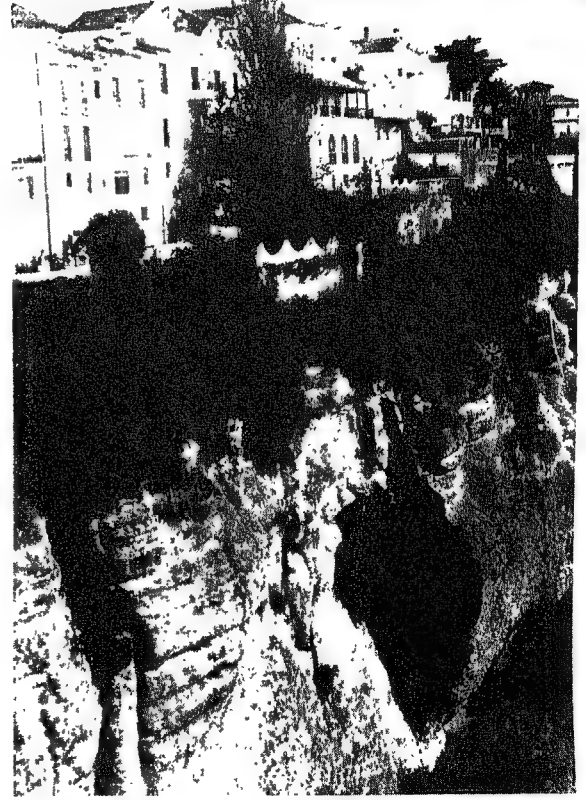
من التسامح والاستقرار على الحكم . كما أدى حبه للعلم والفقه الى تقريب العلماء والفقهاء منه . ويبدو أنه تأثر بتعاليم مالك بن أنس التي كانت تصل الى الاندلس مع العائدين من الحج الى بيت الله الحرام ، وهي التعاليم التي سيكون لانتشارها آثار بعيدة على نظام الحكم كما سنرى .

وكان من الطبيعي في مثل هذه الظروف ان يتزايد نفوذ المتفقيين في البلاد ، وكان لتنامي هذا النفوذ أثره الايجابي ، بادىء الأمر ، حين حمل الفقهاء الامير على اتخاذ اجراءات لفرض تعليم اللغة العربية في المدارس غير العربية ، الأمر الذي شجع على صهر عناصر المجتمع في بوتقة ثقافية واحدة وعلى تجميع التكتلات العرقية . كما انه عمل على توسيع المسجد الجامع في قرطبة ، وبناء مساجد أخرى ، تجمع صفوف المسلمين في عبادتهم ، وتهيئ لهم سبل التعليم والثقافة .

وقد عرف عن هشام التواضع والكرم وحرصه على احترام مشاعر الناس ، فكان يقاسمهم افراحهم واتراحهم ، يحن على الفقير ، ويرفع الظلم عن المظلوم ، ويحرص على احقاق الحق وإشاعة العدل ، مما أدى الى تلقيبه بالرضا ، وهو اللقب الذي اصبح يعرف به الامير هشام بن عبد الرحمن .

ومات هشام شاباً في أوج شبابه ، إذ لم يزد عمره عن الأربعين كثيراً ، وترجع على عرش الحكم ابنه الحكم بن هشام (الأول) الذي عرف « بالربضي » عام 180/796 وكان يبلغ من العمر السادسة والعشرين . ولقد ورث الحكم عن ابيه تركة اتسمت بالمشاكل ، وحملت في طبائنها بوادر خطر عظيم على نظام حكمه ، كادت تؤدي بمستقبل الخط الأموي في الأندلس لولا صفات ، تحطت والده وورثها الحكم عن جده عبد الرحمن ، تمثلت بالحزم والصرامة والشجاعة والقسوة .

وجاءت همومه الأولى من عميه اللذين نفاهما ابوه الى المغرب ، إذ عادا في محاولة لاستعادة حق الأخ الأكبر سليمان في الحكم . غير أن هذا فقد حياته في محاولة يائسة للانقضاض على قرطبة ، واتخذ الآخر مقراً لنشاطه في



منظر في رندة

ثورتهما ونفاهما الى المغرب ليعودا اثناء عهد ابنه (الحكم) بن هشام بن عبد الرحمن ، كما سنرى فيما بعد .

جنى هشام ثمار جهاد ابيه ضد الطامعين والثائرين الذين ارهقتهم الحروب وقصمت ظهورهم . ولئن جرت بعض المحاولات في سرقسطة وطرطوشة (Tortosa) من بعض صغار الطامعين ومن البربر في رندة (Ronda) ، إلا انها لم تكن في حجم الانتفاضات التي قامت في وجه ابيه ، ولم يكن من الصعب عليه القضاء عليها ، الأمر الذي افسح له المجال للالتفات الى تحركات الاسبان في الشمال ، فقام بحملات تأديبية منتظمة كانت تعرف بالصوائف ، نظراً لأنها كانت تتم في فصل الصيف ، ادت الى اضعاف الحركات الاستقلالية التي كان ملوك الاسبان ينمونها في الشمال .

ولقد اتسم عهد هشام بالهدوء ، ولربما اضفت شخصيته الهادئة الودية ، ونزعة الدينية الورعة ، جواً



سرقسطة ، ولكن الحكم استطاع ان يحمده بأن عينه حاكماً على بلنسية (Valencia) ، بعد ان حاول الاستعانة على ابن اخيه بشارلمان وفشل .

وفي الوقت ذاته كانت بوادر ثورة خطيرة تطل برأسها من مدينة طليطلة ، التي كان معظم سكانها من المولدين (وهم الاسبان الذين اعتنقوا الاسلام) . والمستعربين (الذين ظلوا على دينهم وانصهروا في المجتمع العربي وتعلموا اللغة العربية واخذوا بعادات الغرب) . ويبدو ان اعتناق الكثير من المولدين الاسلام لم يكن عن قناعة وإيمان ، وانما للإفادة من المزايا التي تعود على كل من يعتنق الاسلام . وان كانت الثورات والفتن والمطامع تنشب في المدن العربية المسلمة ، فلا يستغرب ان تنشب في مثل هذا المجتمع ، وفي طليطلة بالذات ، التي اشتهرت دائماً بنزعتها الاستقلالية الثائرة .

لم يشأ الحكم ان يخوض معارك قد تكلفه الكثير . فاعمل دهاء وأوهم زعماء طليطلة بأنه يريد مهادنتهم وبأنه يتفهم مشكلاتهم واطواعهم ، ولذلك فقد عين والياً مولداً اسمه عمروس من وشقة (Huesca) ، يتولى أمر طليطلة ، ويرعى شؤون ذلك المجتمع الذي هو واحد منه . وقد لعب عمروس دوره بذكاء ، فاطمان الناس اليه ، وانشأ في المدينة قلعة حصينة وبعث الى الحكم محمداً ساعة الصفر .

وحسب الاتفاق اوفد الحَكَم ابنه عبد الرحمن على رأس جيش اعلن مسبقاً انه متجه الى موقع ما لإخماد فتنة نشبت فيه . ومر الجيش بالقرب من طليطلة وواصل سيره شمالاً ، كي لا يرتاب في أمره احد ، ثم لم يلبث ان عاد بمحاذاة طليطلة ، بعد ان أعلن ان الفتنة قد انتهت قبل وصول الجيش .

واقنع عمروس سكان طليطلة بأن عليه أن يقابل قائد الجيش للسلام عليه ، وانهم يستطيعون ، ان ارادوا ، ان يجاملوا القائد كبادرة لحسن نياتهم . فالتقوا بالقائد عبد الرحمن بن الحكم ، ثم دعوه الى زيارة البلد . واقام عمروس مأدبة كبرى ، دعا اليها زعماء طليطلة احتفاء

بالقائد . وادخلهم واحداً واحداً من باب كان ينتهي بحفرة يقف على طرفها جلادون ، اعملوا سيوفهم في رقاب الضيوف ، وألقوا بهم في الحفرة التي ردمت فيها ثورتهم مع آلاف الجثث التي دخل أصحابها للطعام ، فأصبحوا هم طعاماً للديدان . وقد عرفت هذه الواقعة بواقعة « الحفرة » .

أما الخطر الحقيقي الذي هز نظام الحكم وكادت تكون له عواقب وخيمة ، فتمثل في اقرب المقربين لأبيه ، وهم المتفقهون الذين بلغ نفوذهم لدى ابيه قدراً عظيماً .

كان الحَكَم على غير طبائع ابيه ، بل كما ، اسلفنا ، اقرب الى صفات جده . كان قوي الشخصية لم يحتل وصاية رجال الدين والمتفقهين عليه . فهو لم يكن متمسكاً بتعاليم الدين ، بل انه كان يميل الى ارضاء ملذاته وشهواته ، يعاقر الخمر ، ويعاشر النساء ، ويحب الغناء ويقرض الشعر ، ويهفو الى المجون .

ورجل له هذه التطلعات لا يمكن أن يظل حبيساً لمجالس المتفقهين ، سجيناً لتعاليمهم . لذلك فقد بادر الى فض مجالسهم في قصره واستبدل بهم طرازاً آخر من الناس .

ومن الطبيعي أن ينقم هؤلاء عليه ، فبدأوا يخططون . وبذروا أولى بذور المؤامرة في الاحياء الفقيرة ، حيث يسهل تغذية الاحساس بالسخط . غير ان المتآمرين أخطأوا في حساباتهم ، اذا حاولوا اشراك احد ابناء عم الحكم في المؤامرة ضده ، ظانين انه سينضم اليهم بسبب الاحقاد القديمة بين الحَكَم واعمامه . إلا أن هذا افشى النار الى الحَكَم ، فألقى القبض على الكثير من زعماء المتمردين ، وكانوا أكثر من سبعين فقتلهم ، وأمر بصلبهم جميعاً أمام القصر .

وتحسباً لأية محاولة أخرى عزز الحكم حراسة القصر واقام التحصينات وحفر الخنادق . لكن زعماء المتمردين الذين افلتوا من قبضة الأمير الحكم لم يتوقفوا عن محاولاتهم ، فاستغلوا غيابه ، في رحلة للصيد ، وحاولوا الانقضاض على القصر . غير ان الحكم عاد بسرعة وفتك

واستغفل اعداء الحكم هياجهم ، فزادوا من النار
ضرامها ، وبدأ الزحف من الربض الى القصر ، واحكم
الحصار بعد ان هب اهل الربض ، وحملوا ما وقعت عليه
اياديهم من عصي وخناجر وسيوف ، وعبروا الجسر ،
لمحاصرة القصر بأعداد لا تحصى لها .

وكان لا بد للحكم من مخرج من هذا المأزق الخطير .
ولم يكن باستطاعة حامية القصر ان تفك هذا الحصار .

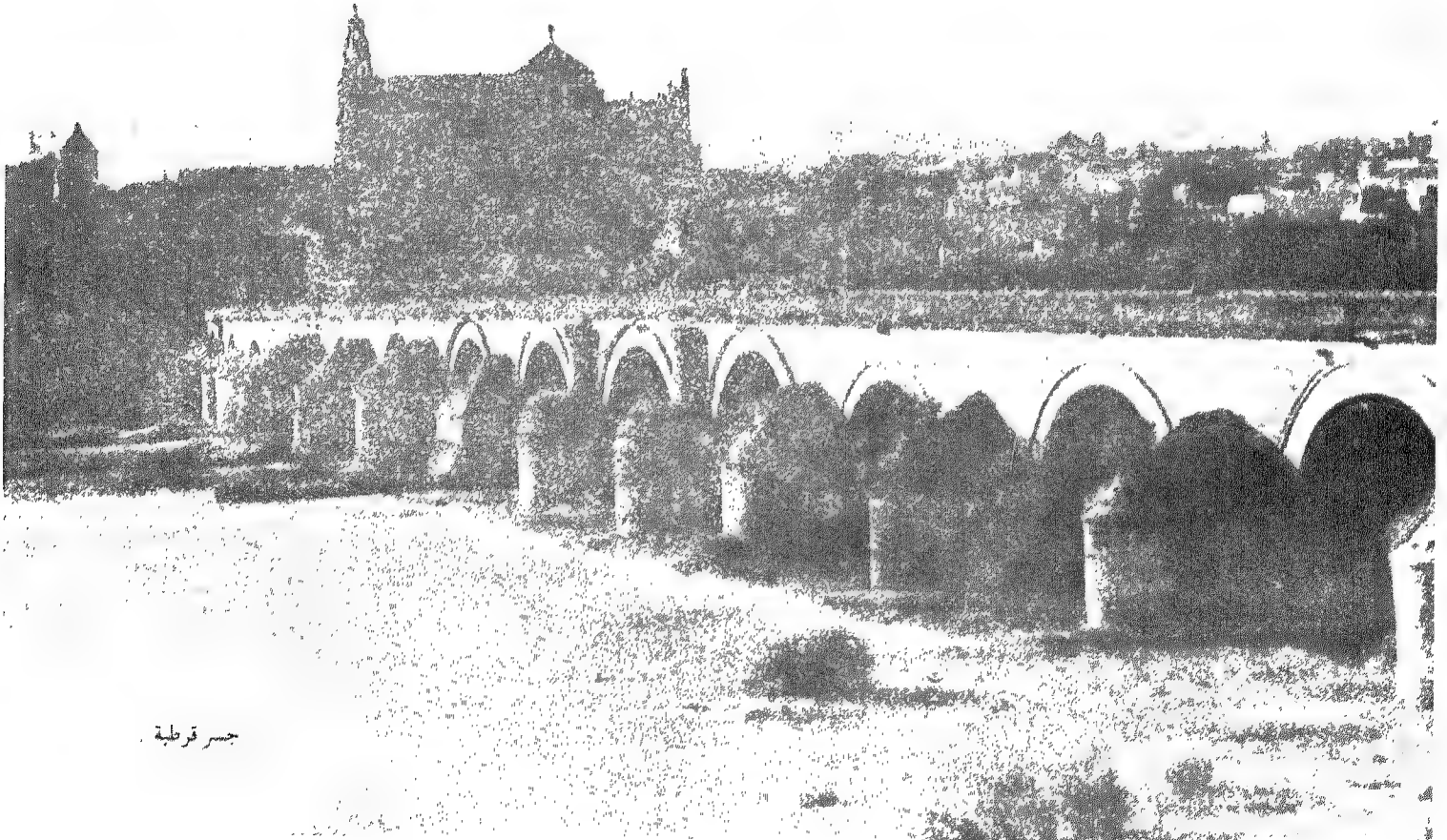
وبدا عقل الداهية يعمل بسرعة ، فاستدعى اثنين من
قادته واصدر لهما امرا . فخرجا بصفوة من جنودهما ،
وتسقا سبيلهما عبر الجموع المتراصة كرمحين وهاجين ،
وقطعا الجسر باتجاه الربض ، وما ان بلغاه حتى أضرموا النار
في جميع ارجائه . وارفعت السنة اللهب الى أعنة
السما . وما ان رأى الربضيون الناثرون بيوتهم عبر النهر
طعماً للنيران ، حتى القوا بما في ايديهم من عصي وخناجر
وسيوف ، وهرعوا الى منازلهم بنقذون من فيها من اهل وما
فيها من متاع .

وانفك الحصار عن القصر ، ولم يبق من ثورة الربضيين
سوى صلبان امام القصر ، حملت جثث اكثر من ثلاثمائة

بالمسؤولين عن التمرد . وعندها ادرك الناقمون أن أية
محاولة مفيلة لا بد ان تخصم لقدرك أكبر من الإعداد
والتمهيد ، وانه لا بد من الانتظار الى أن يظن الأسير ان
الأمور قد استتببت ، ويخلد الى الاسترخاء .

انظر الناقمون نحوا من اثني عشر عاما ، ظلوا خلالها
يغذون أهل الربض (أي الضاحية) ، التي كانت تقابل
المسجد والقصر على الجانب الآخر من النهر ، بالكراهية
والحقده على ذلك الحاكم المستبد الفاسق ، الذي خرج عن
تعاليم الدين الحنيف وسلك سبيلاً غير السبيل الذي سار
عليه أبوه الورع التقي . وامتلات قلوب الكثيرين
حقداً ، وبلغت النفمة في نفوسهم قدراً كاد يجعل ايديهم
دائماً على مقابض سيوفهم ، انتظاراً للشرارة الأولى ، مهما
كان مصدرها . وذات يوم حدث حادث ، كان يمكن ان
يمر دون ان يلتفت اليه احد ، لولا انه استغل استغلالاً
ذكياً موفوتاً ، فكان هو الشرارة التي كانوا بانتظارها .

وخلاصة الحادث الذي فجر ثورة الربض ، هي ان
جندياً من جنود الامير ذهب الى حداد لبشحه له سيفه
فتشاجرا ، فقتل الجندي الحداد ، فهاج أهل الربض ،



جسر قرطبة

من زعمائها ، ناهيك بالآلاف الذين اعمل الجنود فيهم السيوف ، الى ان امر الحَكَم بوقف القتل ، شريطة إلغاء وجود الرضى ، وامهل سكانه اياماً معدودة لمغادرة الأندلس نهائياً .

رحل أهل الرضى الى المغرب حيث بقي البعض ، بينما ابحر معظمهم الى الاسكندرية فاحتلوها ، الى ان تمكن القائد العباسي من التغلب عليهم ، فاتجهوا بسفنهم الى جزيرة كريت في اليونان ، واقاموا فيها ملكاً دام نحواً من مئة وثلاثين عاماً ، الى أن استعادها البيزنطيون منهم .

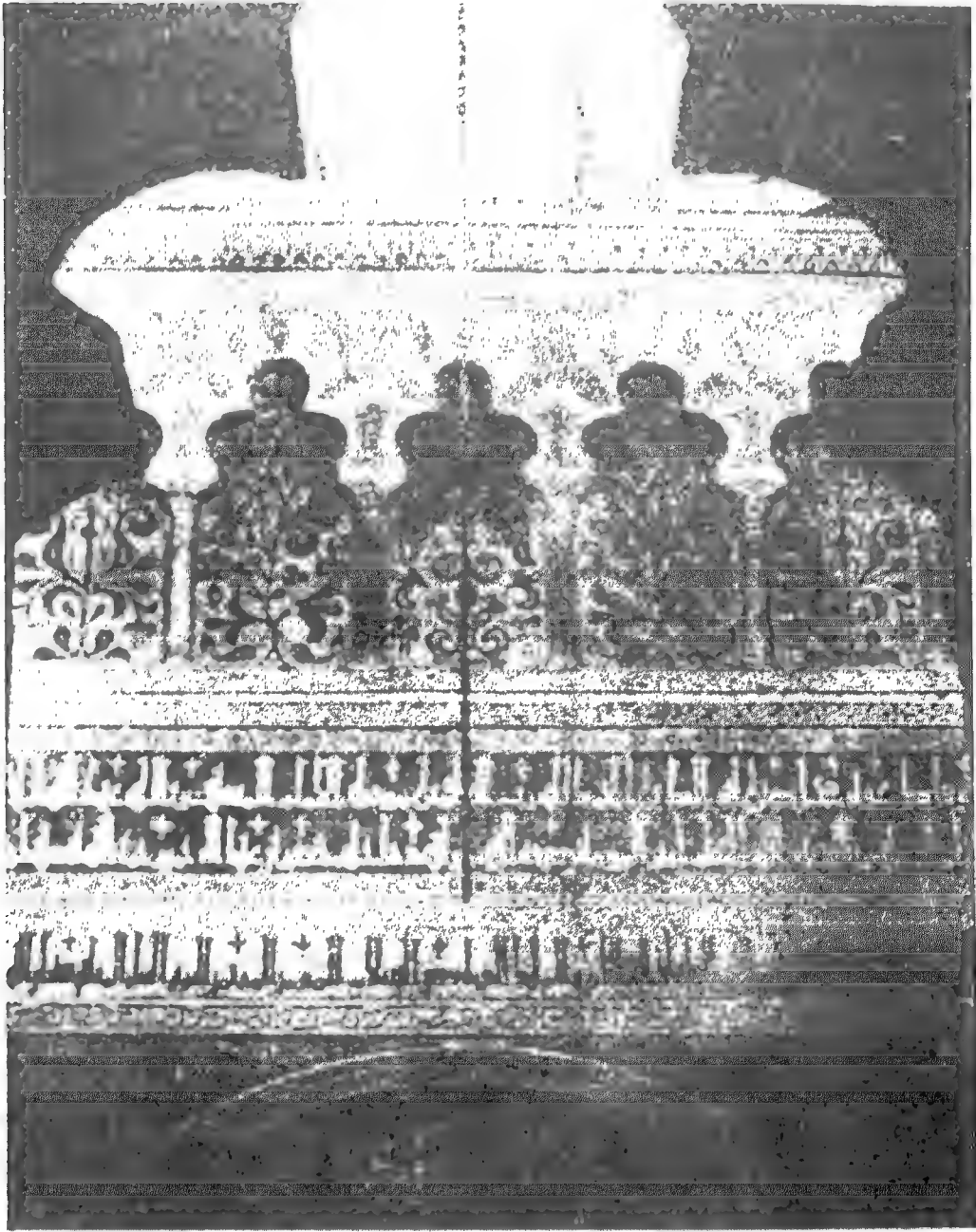
وكان من الطبيعي ان يستغل اعداء المسلمين انشغال الامير بالفتن الداخلية في محاولة للانقضاض على الأجزاء البعيدة عن القوة العسكرية العربية ، فقاموا بعدة حملات بعضها بقيادة لويس ابن شارلمان ، كان من نتائجها خروج برشلونة عام 801/185 من يد العرب نهائياً رغم الكثير من المحاولات لاستعادتها . وقد اضطر العرب الى عقد هدنة مع شارلمان في المناطق المتاخمة للحدود بين اسبانيا وغالة (فرنسا) . كما قام الملك الفونس ، احد ملوك الاسبان بمحاولات عديدة ، بلغ في واحدة منها عمقاً لا يستهان به ، اذ سقطت بيده لشبونة عام 798/182 ، وان كان الحَكَم قد استعادها في حملة قادها بنفسه عام 810/194 .

ولعل أفضل ما قدمه الحَكَم للمرحلة التالية من الحَكَم الأموي ، ان بايع ابنه الأكبر عبد الرحمن الثاني بن الحَكَم قبل وفاته ، فأتاح له بذلك ان يتربع على كرسي الحَكَم ، دون أن يسير كسابقيه على اكوام من الجثث تحقيقاً لذلك وانتهى عهد الحَكَم عام 822/206 وقد امتد لأكثر من ربع قرن ، وقد تميز كغيره من العهود السابقة بالفتن والثورات والقمع والدماء ، وتخللته كذلك انطلاقات جهادية وحملات تأديبية للابقاء على السيطرة العربية الكاملة . ولقد بذر الحَكَم ، بفضل شخصيته الفريدة ، التي جمعت بين الكثير من المتناقضات ، أولى بذور الترف والتذوق الفني والأدبي التي اشتهرت بها قصور الأمراء والحكام الاندلسيين فيما بعد ، والتي اصبحت تزخر بمظاهر الأبهة والعظمة .

كان التطاحن الداخلي قد اهلك الطامعين المغامرين عندما جلس عبد الرحمن الثاني في كرسي الحَكَم عام 822/206 . وكانت سيوف ابيه الحَكَم ما زلت تقطر من دماء الذين حاولوا الخروج على الحَكَم المركزي في قرطبة ، فساد الهدوء البلاد ، باستثناء محاولات قام بها من لم يتعظ من هؤلاء الطامعين الذين سرعان ما فقدوا رؤوسهم . وقامت تحركات من القيسيين واليمينيين ، ونشبت ثورة في طليطلة ، وأخرى في ماردة ، كما تحرك البربر كذلك في ناكرتا ، ونشأ عصيان في جزيرة ميورقة وآخر في الجزيرة الخضراء ولكنها أخمدت دون كبير عناء .

حتى ان (النورمان) جربوا حظهم عام 844/229 فجاؤوا باسطول كبير ، وعاثوا في الأرض فساداً ، بادئين بلشبونة الى أن وصلوا اشبيلية حيث امكن دحرهم وطردهم من البلاد بعد حملة دامت نحواً من اربعين يوماً ، كان من أهم نتائجها تنبيه العرب الى ضرورة تعزيز قوتهم البحرية . ومما يذكر ان النورمان ، أو المجوس ، كما كان يسميهم العرب ، ارسلوا سفارة الى قرطبة فاحسنت وفادتها وتلتها في وقت لاحق ، سفارة عربية الى بلاد المجوس ، في أول عملية تبادل سفارات بين الدولة العربية وبلدان أجنبية .

ونعمت الأندلس بعهد من الرخاء والسلام والاستقرار والتسامح ، الى أن جاء عيد الفطر عام 850/235 ، فشهد بداية فتنة كادت ان تولد نتائج وخيمة على المجتمع الأندلسي ، الذي بدأت تنصهر عناصره المختلفة ، في مجتمع متماسك منفتح ، تميز بالتسامح وبحرية العبادة والمعتقد . وكان عدد المستعربين من الاسبان قد بدأ يتزايد وأخذ هؤلاء يندمجون بسرعة في المجتمع العربي ، فارتادوا المدارس العربية ، وتعلموا لغة العرب الى حد الاتقان ، فانفتحت امامهم فرص التوظيف والعمل ، بل ودخول الجندية على قدم المساواة مع العرب الأصليين ، الأمر الذي أفرغ رجال الكنيسة خوفاً من ابتعاد هؤلاء عن معتقداتهم الدينية واحتمال فقدانهم نهائياً اذا ما اعتنقوا الاسلام . فبدأوا يخططون لاستراتيجية تؤثر في العواطف الدينية للمسيحيين من خلال فكرة الاستشهاد .



نقوش الحرم اب بجامع برطبة من خلال العقود

المسيح وعمد ، انتهت الى توجيه الفاظ نانية صد الرسول
بلغت مستوى الحقم ، الأمر الى حد اهدس الرجلين
الى تقديم شكوى بشأنه الى القضاء . ورغم محاولات

بعد صلاة عيد الفطر المذكور قدم راهب يدعى
بيرفكتو (Perfecto) على اثنين من المسلمين خارج
المسجد ، وبدأ نقاشا حول الدين ، تطرق الى مقارنة بين

القضاة استخلاص اعتذار لما بدر عنه من أقوال او حتى انكار التهم ، فإنه راح يكرر مقالته غير آبه بمجبة اقواله ، فصدر الحكم عليه بالاعدام . . وهو العقاب الذي ينزل بأي مسلم لو صدرت عنه مثل تلك الالهات بالنسبة للنبى أو للدين .

وكان الرأس المدبر لهذه الاستراتيجية راهباً شاباً يدعى ايلوخيو (Elogio) . ابتهج ايلوخيو لهذه النتيجة التي كان يخطط لها ، في اطار الاستراتيجية التي تقوم على مبدأ الاستشهاد ، وبدأ يعيىء الشعور الديني بين المستعربين . وتكررت هذه الأحداث ، حتى بلغ عدد من تم اعدامهم ، لنفس هذه الجريمة ، احد عشر شخصاً منهم شابة من اب مسلم وام اسبانية اسمها فلورا (Flora) . كان والد فلورا قد مات فانشأتها امها نشأة مسيحية . وتعرفت على الراهب الشاب ايلوخيو فآثر بها وبصديقة اخرى لها اسمها ماريا ، فراحتا تثيران النعرات الدينية ، ورغم صراحة القانون ازاء مثل هذه الجريمة ، فقد اصدر القاضي حكماً بسجنهما لا باعدامهما ، أملاً في أن ترجعا عن اتجاههما . ولكن تأثير ايلوخيو كان يلاحقهما من خلال قضبان السجن ففضى القاضي باعدامهما .

ولما لم تتوقف عمليات الاستشهاد المتكررة هذه ، دعا عبد الرحمن الى عقد مجلس كنسي لايجاد حل لهذه المعضلة الخطيرة ، كان من نتائجه صدور بيان يشجب هذه التصرفات ويدعو الى التسامح واحترام المعتقدات الدينية . غير ان ذلك لم يردع ايلوخيو عما كرس حياته من أجله ، فسجنه عبد الرحمن ثم تركه وشأنه اتقاء للمزيد من الاحتكاك ، ثم نفاه من قرطبة . إلا أنه عاد اليها مستأنفاً حملته ، فضاق به الأمير ذرعاً فأمر باعدامه ، ليدخل في عداد القديسين ، وانتهت هذه الفتنة بانتهاج ايلوخيو ، وان كانت قد تركت آثارها السلبية على العلاقة بين الاسبان والعرب ، التي اخذت تفتر وتجنس .

وفيما عدا حملات تأديبية قامت بها قوات الأمير في استورقة ومناطق البشكنس ، كانت فترة حكم عبد الرحمن الثاني تتسم بالاستقرار والانفتاح ، حتى ان اتصالات

دبلوماسية قامت بين قرطبة والقسطنطينية ، وان لم تخرج عن نطاق المجاملة .

وقبل استعراض انجازات عبد الرحمن الثاني الادارية والاجتماعية ، لا بد من الاشارة الى تحرك قامت به قواته البحرية للقضاء على محاولات اهل جزر البليار للافلات من قبضة المسلمين ، وهي الجزر الواقعة الى الشرق من شبه الجزيرة الايبيرية ، وأهمها ميورقة (Mallorca) ومنورقة (Menorca) ويابسة (Ibiza) وفورمنتيرا (Formentera) . وكانت هذه الجزر قد لعبت دوراً كبيراً في درء الخطر عن الدولة الاسلامية في الأندلس ، وفي مقارعة الصليبيين الذين كانوا يحرون الى المشرق من بلاد الفرنجة وإيطاليا .

وتغفل معظم المصادر الاشارة الى هذه الجزر وتاريخ المسلمين فيها . فقد أصبحت ، بالنسبة للعرب جزراً منسية ، ولو أنها تعتبر الآن من أكثر مناطق العالم اجتذاباً للسائحين والباحثين عن الاستجمام والجمال والمتعة . وان كانت هذه الدراسة المختصرة لا تتسع للدخول في تفاصيل الوجود العربي في هذه الجزر ، الا أن مناسبة الحديث عن حملة عبد الرحمن الثاني تهيم فرصة العرض ، بإيجاز كبير ، لهذا التاريخ الذي أغفله العديد من المؤرخين .

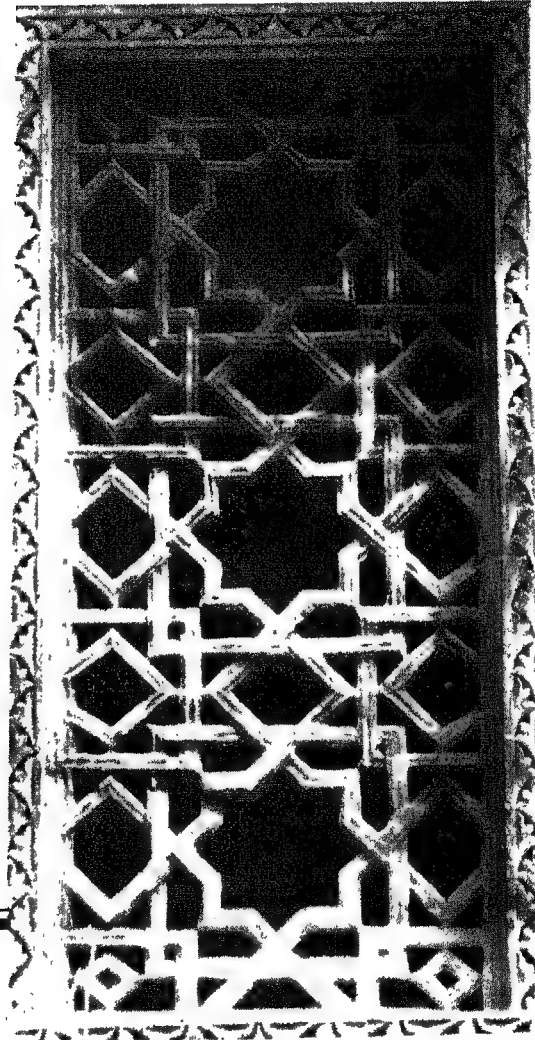
تشير المصادر التي تناولت فتح العرب لهذه الجزر ، الى أن حملات بحرية اسلامية بدأت أثناء عملية فتح المغرب ، مستهدفة العديد من جزر غربي البحر الابيض المتوسط ، كصقلية وسردينيا ومالطة وكورسيكا وجزر البليار . ولم يكن القصد من هذه الحملات فتح هذه الجزر وإنما القضاء على القوات البحرية البيزنطية التي كانت تتخذ منها قواعد قد تهدد الزحف الاسلامي في شمال أفريقيا .

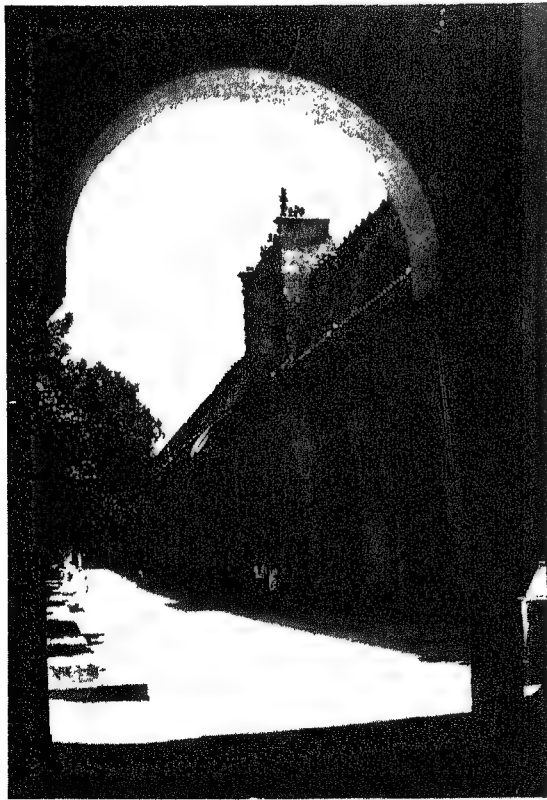
وكانت أولى جزر البليار ، التي هاجمها العرب جزيرة يابسة (Ibiza) ، وذلك في عام 698/80-79 ، تلتها حملة أخرى ارسلها عبد العزيز بن موسى بن نصير عام 703/84 وثالثة عام 704/85 بقيادة عبدالله بن موسى بن نصير ورابعة عام 708/89 بقيادة عبدالله بن موسى بن نصير كذلك ، استهدفت هذه المرة جزيرتي ميورقة ومنورقة .

الثاني ، ووقعوا عهداً ثانياً مع أهلها ، ما لبث ان نقض . فبعث عبد الرحمن بحملة تأديبية قوامها ثلاثمائة سفينة في عام 848/234 استولت على الجزر وعادت بغنائم كبيرة ، وتم توقيع عهد ثالث في عام 849/235 ، بعد أن بعث حاكمها بكتاب استرحام لعبد الرحمن الثاني . على أن هذا العهد سينقض هو كذلك ، كما سنرى ، بعد وفاة الامير . واذا تركنا قعقة السيوف جانباً ، وبحثنا عن الوجه الآخر لعبد الرحمن ، لرأينا وجهاً مشرقاً وديعاً رقيقاً ينم عن منتهى الذكاء والحساسية . ولئن حاولنا الايجاز في عرضنا لما تقدم من احداث ، فلا يسعنا إلا الوقوف بشيء من التريث ، لنعرض للوجه الآخر لهذا الحاكم ، الذي ارسى قواعد الحكم والمجتمع ، ورسم اسلوب الحياة لمن تبعه من حكام ومحكومين .

وتشير المصادر الى أن عهداً وقع بين حكام هذه الجزر والحكم العربي في الأندلس منذ الفتح الأول لهذه الجزر ، يقضي باعطائها نوعاً من الحكم الذاتي مقابل دفع جزية متفق عليها ، شريطة عدم التعرض للبحرية الاسلامية . وقد ظل أهل هذه الجزر على عهدهم الى أن تحالفوا مع شارلمان ، فنقضوا العهد عام 778/161 أثناء التحالف الفاشل الذي تم بين الاعرابي والانصاري وشارلمان ، كما رأينا عندما عرضنا لسيرة عبد الرحمن الداخل .

غير أن شارلمان تمكن أخيراً من اخذ جزر البليار ووضعها تحت حمايته عام 798/183 . ولم يقبل العرب بذلك ، وظلت جزر البليار تنتقل بين العرب والفرنجة ، الى أن تمكن العرب من فتحها للمرة الثانية عام 820/205 في عهد عبد الرحمن





صحن المسجد الجامع بقرطبة .

وكان العائدون من المشرق ينقلون الى الأندلس أخبار تلك النهضة ويرجعون بما يستطيعون حمله من نفائس الكتب والمنتجات ، ويرددون ما سمعوه من شعر وأدب وغناء .

وقد أوفد عبد الرحمن الثاني قبل توليه الحكم عباس بن ناصح الى بغداد لتقصي أخبارها العلمية ولاستنساخ الآثار العلمية المنقولة عن اليونانية والفارسية . ولعبد الرحمن الفضل في ارساء قواعد الحكم حسب الاسس التي تقوم عليها الدولة في بغداد .

وكان عبد الرحمن متبّعاً لما كان يدور في عاصمة العباسيين ، تواقفاً لأخذ ما تفتقت عنه عقول أهلها وقرائحهم وما خطته أقدامهم . ففتح ابواب قصره على مصاريحها لكل من توسم فيه موهبة من هذه المواهب ، حتى أصبح جلساؤه وخلانته من الأدباء والعلماء والشعراء والفنانين ، كعباس بن فرناس ، حكيم الأندلس الذي

فبفضل شخصيته الفذة استطاع عبد الرحمن ، رغم الخلفية الدموية الصعبة التي عاشتها الأندلس منذ الفتح ، ان يرقى بها الى قمة الجلال والابهة والفخامة والترف ، فبنى القصور ، وشيد المساجد ، واقام الجسور وجلب المياه ، وارسى قواعد العدل ، ورعا أرباب العلم والأدب والفن . وبدأت في عهده نهضة علمية ادبية فنية معمارية ، مهّدت الطريق أمام ذلك الازدهار الذي طبقت شهرته الآفاق ، ليس في الأندلس فحسب بل وفي العالم المتحضر انذاك .

فكيف بدأت هذه النهضة في ذلك البلد الذي عانى ما عاناه من ثورات وفتن ودموع ودماء . ومن اين لذلك العربي المغترب المنعزل القصي ، ما شهدته عهد عبد الرحمن الثاني من نهضة ادبية علمية فنية ، فاقت كل ما عرفته بلاد الله الأخرى انذاك . وما الذي جعل بعض المؤرخين يصفون عهد عبد الرحمن الثاني « بأيام العروس » ويعتبرونه اسعد فترات الدولة الأموية على الاطلاق ؟

يقول العرب ، ان الناس على دين ملوكهم . فإن كان منفتحاً انفتحوا ، وان كان متساعحاً تساعحوا ، وان كان كريماً اصابهم من كرمه ما يكرمون به غيرهم ، وان كان محباً للخير ، زرع بذور الخير في قلوبهم ، وان شجع العلم والأدب والفن ، تسابقوا الى اظهار مواهبهم طمعاً في تقديره ومساندته لهم . وكان عبد الرحمن الثاني يجمع بين هذه الصفات . فإن سمع بذي موهبة ، ادناه منه وأسبغ عليه النعم وحاطه بالرعاية .

ولم يكن أهل الأندلس منعزلين عن العالم كليه . فلقد ظلت صلتهم بالمشرق قائمة ، اما من اجل التجارة أو الحج او انتهاز العلم او اقتباس الفن . وكانت بغداد عاصمة العباسيين تتألق انشد في جميع ميادين العلم والفن والأدب ، وكانت دار الحكمة في بغداد تعج بالعلماء والادباء والفلاسفة والمترجمين ، الذين بدأوا ينقلون الى اللغة العربية نفائس الكتب العلمية والفلسفية والأدبية من لغات اليونان والرومان والفرس . وفي غمرة النهضة هذه ، أقبل الناس يلتهمون المعارف ويزيدونها شرحاً وتفسيراً .

اختراع الزجاج من صخر كثر وجوده في الأندلس ، وصنع أجهزة فلكية جديدة ، وكان أول انسان يطير في الجو ، ولو لارتفاع بسيط ، لم يتعد اقدماً مائة . وكان من جلسائه أيضاً يحيى الغزال الشاعر وأول دبلوماسي عربي في تاريخ الأندلس ، قام بسفارتين الأولى الى الملك النورماندي ، عقب اولى محاولات النورمان غزو الأندلس ، والثانية الى عاصمة البيزنطيين ، وان كان أشهر من رعاه عبد الرحمن ، رجلاً كان له أكبر الأثر في حياة الأندلس الفنية والاجتماعية ، هو علي بن نافع الذي عرفه التاريخ باسم زرياب .

ولنعرف شيئاً عن هذا الرجل لا بد لنا من اطلالة على بغداد ، على قصر الخليفة هارون الرشيد الذي طبقت الافاق اخبار عظمتهم ومظاهر البذخ والترف والفن التي شهدوها .

كان للخليفة نديم اسمه اسحاق الموصلي ، وكان هذا رائد الموسيقى والغناء في ذلك العصر . وكان لهذا الموسيقي مولى من أصل فارسي ، تتلمذ في العزف والغناء على يد سيده فأبدع ايما ابداع . وذات يوم طلب الخليفة الى الموصلي ان يسمعه صوتاً جديداً ، فاحضر له زرياب . وطرب الخليفة ، الذي لم يعجب بعزفه وغنائه فقط ، ولكن بشعره وشخصيته ولباقته وذوقه الفني . ولم يخف الخليفة اعجابه به ، الأمر الذي اقلق الموصلي خوفاً من منافسة تلميذه له . فأوعز اليه بالنزوح من بغداد ، بلهجة لم تكن خلواً من التهديد ، فرحل . وحملته قدماء الى القيروان إلا انه اختلف مع اميرها ، فكتب الى عبد الرحمن فرحب به ، لما سمع عنه ، واغدق عليه كما لم يغدق على احد .

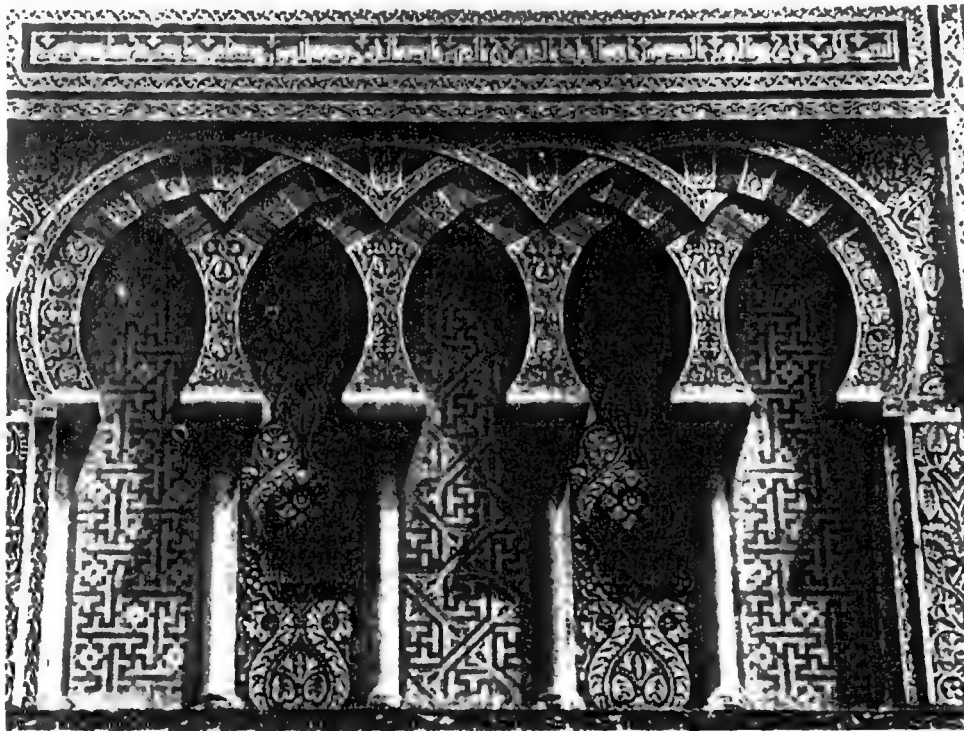
ولم يمر طويل وقت حتى اصبح زرياب نديم الامير الذي لم يعد يطيق فراقه ليلاً أو نهاراً ، لدرجة أنه جعل بينهما باباً خاصاً يعبر منه زرياب عندما يستدعيه الأمير الى حضرته . وقد استطاع زرياب ، بما طبع عليه من ذوق رفيع وحس مرهف وشعر جزل وبراعة في العزف وإبداع في الغناء ، أن يستولي على مشاعر الامير الذي كان محباً لمجالس الأنس ومعاشرة النساء ومعاقرة الخمر . ولم تكن

هذه كل مواهب زرياب . فقد كان وسيماً شديداً السمرة ، ومن هنا لقب بزرياب ، وهو اسم طائر غريد اسود اللون . وكان انيقاً في ملبسه وتصرفاته ، استطاع ، من خلال مظهره الخارجي ، أن يؤثر في أذواق الناس فأصبحوا يقلدوناه في الملبس وتصفيف الشعر ، وفي استعمال المرتك ضد رائحة العرق في الجسم ، الى جانب ادخال بعض المأكولات التي لم يكن يعرفها المطبخ الأندلسي .

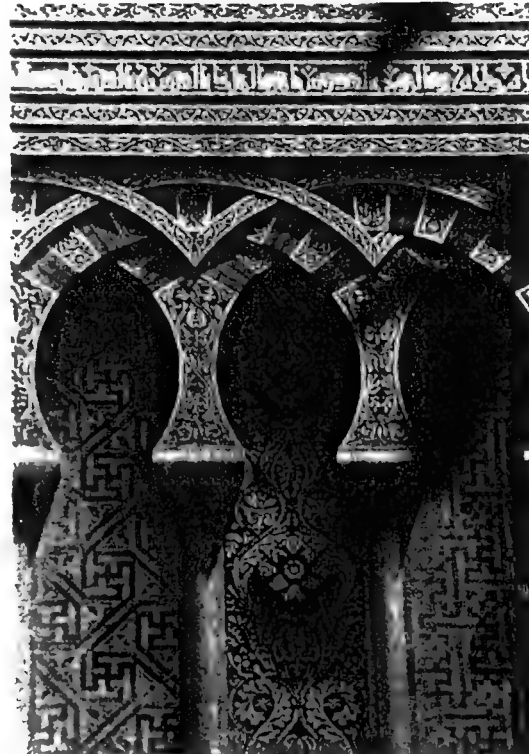
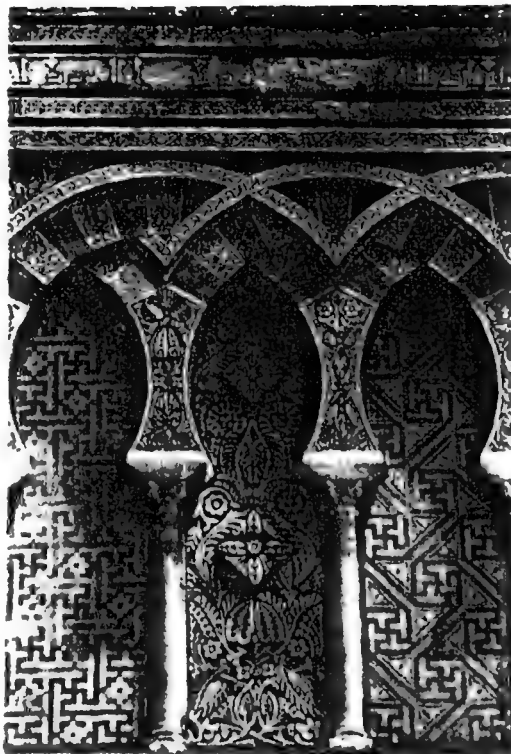
أما موهبته الأولى فكانت الموسيقى والغناء . وقد جدد في فن العزف على العود ، بل وجعل عدد أوتاره خمسة بدلاً من أربعة ، وجدد في الغناء ، فأصبح بمثابة مدرسة فنية خلقت نهجاً جديداً في العزف والغناء ، قلده فيها معاصروه ومن جاء بعدهم . وكان له تلامذة في العزف والغناء أصبح لهم شأن كبير في هذا المضمار وخاصة بعضاً من أبنائه . وفضلاً عن ذلك كله كان زرياب ظريف المعشر ، متقناً لفنون الأدب والمحادثة والمجالسة ، وكان خير من عرف ارضاء رغبات الحكام وخدمتهم ، فأصبح ظاهرة نسب اليها ، حتى آخر ايام الأندلس ، الكثير من مظاهر التقدم الاجتماعي الذي بزغ فجره بمجيء زرياب الى الأندلس .

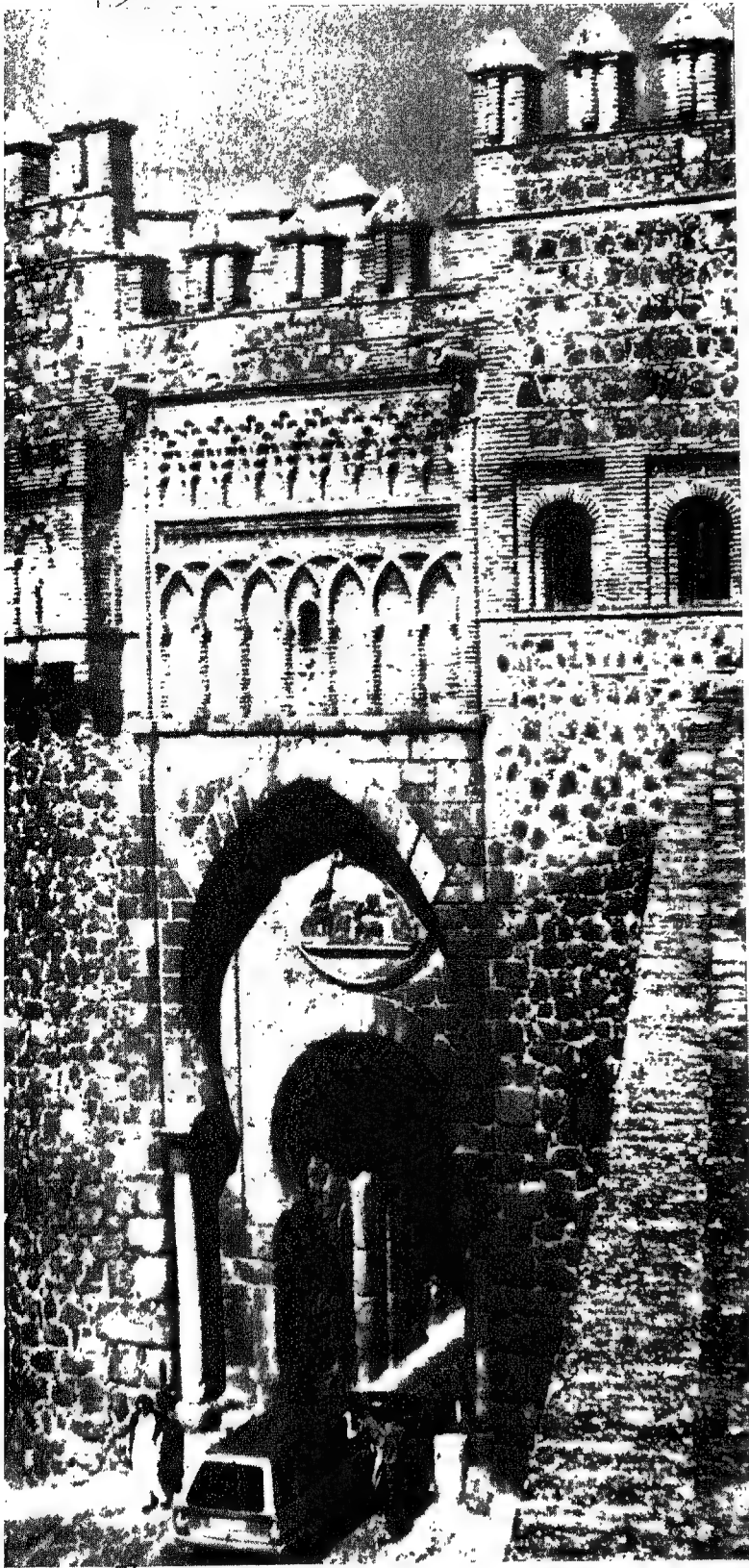
ومن الشخصيات التي لعبت دوراً كبيراً في حياة عبد الرحمن الثاني جارية اسبانية من بلاد البشكنس اسمها « طروب » . وكان عبد الرحمن شغوفاً بها الى درجة انها اصبحت قوة يحسب لها الف حساب في القصر . وقد ولدت له ولداً اسماءه عبدالله . وكانت طروب هذه تريد لابنها أن يرث الامارة . أما عبد الرحمن فقد اختار من بين ذريته ، التي بلغ عدد أفرادها ثمانين ، بين ذكور وإناث ، ولده محمداً ، مما أوغر صدر طروب على عبد الرحمن ، فتآمرت على قتله بالسسم ، مستعينة بطبيب القصر الذي كشف هذه المؤامرة ، ونجا عبد الرحمن من الموت .

وفي عام 852/238 توفي عبد الرحمن بن الحكم عن عمر يناهز الثمانية والستين ، بعد ان امضى في الحكم نحو اثنين وثلاثين عاماً . ولما اكتشف خدم الأمير الصقالبية موت



جدران جامع قرطبة من الخارج .





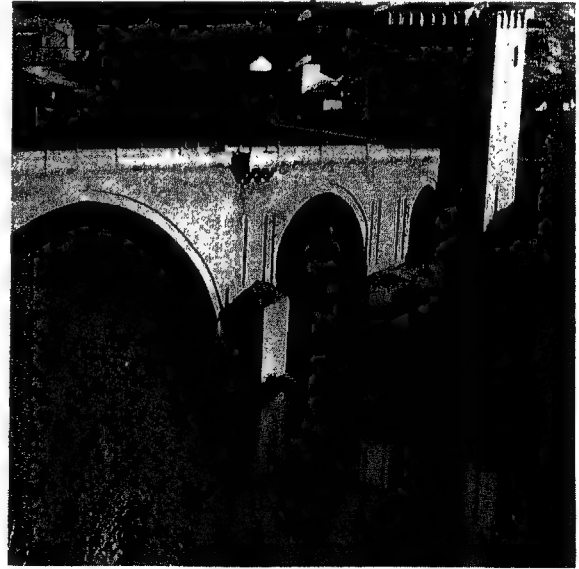
باب شمس بطليطلة .

سيدهم تستروا على الأمر ، واغلقوا ابواب القصر ليقرروا في امر البيعة ، نظراً لأن معظمهم كان يفضل عبدالله ابن طروب ، التي كانت ما تزال تتمتع بقدر كبير من السلطة في القصر ، وتغدق عليهم الهبات كسباً لولائهم . غير ان كبير الخدم اثناهم عن ذلك ، فذهب من اطلع الامير محمداً على وفاة والده ، وسلمه خاتم الامارة ، فجاء الى القصر متخفياً خوفاً من بطش طروب وابنها ، واخذ البيعة ليصبح في عام 852/238 خامس امراء بني امية في الأندلس .

لم يكد الامير محمد بن عبد الرحمن يشعر بدفع كرسي الامارة ، حتى بدأت بوادر التمليل تظهر كالعادة في بداية كل عهد من العهود ، قبل ان يشدد عود الحاكم الجديد ويصبح قادراً على صد محاولات الطامعين وكسر شوكتهم . ولئن استطاع عبد الرحمن الثاني ان يضفي على الأندلس جوا من الاستقرار والانسجام والتسامح والتوافق الاجتماعي ، وان يفرض حكماً مركزياً امسك بالبلاد من أقصاها الى أذناها بقبضة من حديد ، إلا أن هذا الانسجام كان ، على ما يبدو ، ظاهرياً ليست له جذور . ولئن استطاع الاسلام ان يوحد بين مختلف عناصر هذا المجتمع عقائدياً ، واستطاعت اللغة العربية ان تقرب بين مختلف فئاته ثقافياً ، غير ان العصبية القبلية حالت دون انصهار شعب الأندلس في بوتقة القومية ، لتجعل منه جسماً واحداً متماسكاً متكاملأ ، يقف امام عواصف الدهر ومطامع الطامعين . كما ان مفهوم الانصهار القومي لم يكن وارداً في اذهان الحكام ، طالما انهم ظلوا يفكرون بانتمائهم القبلي ويتخذون قراراتهم ، مهما كانت درجة خطورتها ، انطلاقاً من هذا الانتهاء . وظل هذا المجتمع عبارة عن رقعة فسيفسائية غير متماسكة ولا متلاحمة ، فرشت على أرض الأندلس دون ان تجعل لها قاعدة تشد هذه القطع الواحدة منها الى الأخرى .

وكالعادة ، كانت طليطلة (Toledo) رائدة التمرد ، فمعظم أهلها من المولدين والمستعربين الذين طالما شجعتهم الحركات الاسبانية الاستقلالية في الشمال على الثورة ، بل وحاربت معهم . وهب محمد بن عبد الرحمن

شخصياً لمواجهة هذا التمرد عام 854/240 ، وقضى عليه . ولكن طليطلة اطلت برأسها ثائرة أكثر من مرة ، الى ان سيطر عليها بربر بني ذي النون ، وأعلنوا استقلالها عن الحكم المركزي ، بموافقة الأمير محمد . وكان هذا هو الحجر الأول الذي سقط من بنيان الحكم المركزي ، الذي اخذت تنهاوى اجزاؤه واحداً بعد الآخر ، الى ان اوشك على الانهيار كلياً كما سنرى .



الفتنة العربية بطليطلة .

ومن طليطلة انتقلت عدوى الفتن الى ماردة عام 868/254 ، والى سرقسطة 872/258 والى بطليوس 877/263 والى رندة 875/261 والى سرية 869/255 والى وشقة 870/256 والى الجزيرة الخضراء 879/265 والى رية 883/269 والى شنتبرية (SANTANDER) وغيرها ، وان كان أهمها ثورة ابن حفصون عام 881/267 التي عجز الأمير محمد وابنه المنذر من بعده عن القضاء عليها .

اضف الى ذلك كله ، ان النورمان قاموا بهجوم آخر عام 859/245 . إلا أن الاسطول العربي صد غزوتهم وافقدهم نحو ثلثي مراكبهم .

ورغم كل ذلك ، قام الأمير محمد بعمليات جهادية عديدة في شمال البلاد ، ضد ملوك الاسبان وتجمعاتهم في

حملات الصوائف السنوية . ومن الطبيعي ان يتسم عهد محمد بن عبد الرحمن بالخمول الحضاري ، ذلك أنه امضى معظم السنوات الخمس والثلاثين من حكمه في مطاردة العاصين والتمردين ، محاولاً بذلك الابقاء على النظام المركزي الذي بذل أبوه الكثير من اجل ارساء قواعده .

وقد ورث خليفته المنذر بن محمد عند اعتلائه عرش الامارة عام 886/273 حملاً مثقلاً بالمشاكل المستعصية عن الحل . فالوضع العام كان يتسم بالتمزق ، والطامعون أخذوا ينهشون جسم الدولة كالذئب الجائعة . فضلاً عن المؤامرات التي تغلغلت في القصر ذاته ، وكادت أن تقوضه على رؤوس أصحابه ، لولا أن المنذر قضى على رأس هذه المؤامرات وهو وزير ابيه . ومن الهواجس التي كانت تقلق المنذر ذلك التأثير الشرس ابن حفصون ، الذي عجز ابوه عن القضاء عليه ، والذي اصبحت سيطرته تشمل منطقة واسعة ، وصار يمثل رمزاً للاستقلال القومي بين أهله من المولدين ، الذين التفوا حوله فيما يمكن وصفه بجهاز ثوري متكامل اقتصادياً وعسكرياً .

وفيما كان المنذر يحاصر معقل ابن حفصون ، وافته المنية في ظروف غامضة ، ولما يتم عامه الثاني في الحكم ، مما ادى ببعض المؤرخين الى توجيه اصابع الاتهام الى أخيه عبدالله في القضاء عليه . وكان تقييم المؤرخين له جيداً ، إذ نعتوه بصفات جليلة ، من حيث رجاحة عقله وسخاؤه وتقديره للعلم والأدب ، وشجاعته ، وحزمه ، بل ان بعضهم قال انه لو بقي حياً عاماً واحداً آخر ، لقضى على كل نافر واهلك كل طامع .

وجاء عبدالله بن محمد الى الحكم عام 888/275 دون أن يعترض سبيله الى الكرسي أي منافس ، ذلك أن اوضاع البلاد لم تكن تجتذب من أهله من يطمع في هذه التركة المشحونة بالخطر . وكما كان ابن حفصون الهاجس الأكبر لأخيه ولأبيه من قبله ، كان كذلك بالنسبة اليه . وقد اضطر الى مهادنته ، ليلتقط انفاسه وينظم اموره الادارية والعسكرية أولاً .

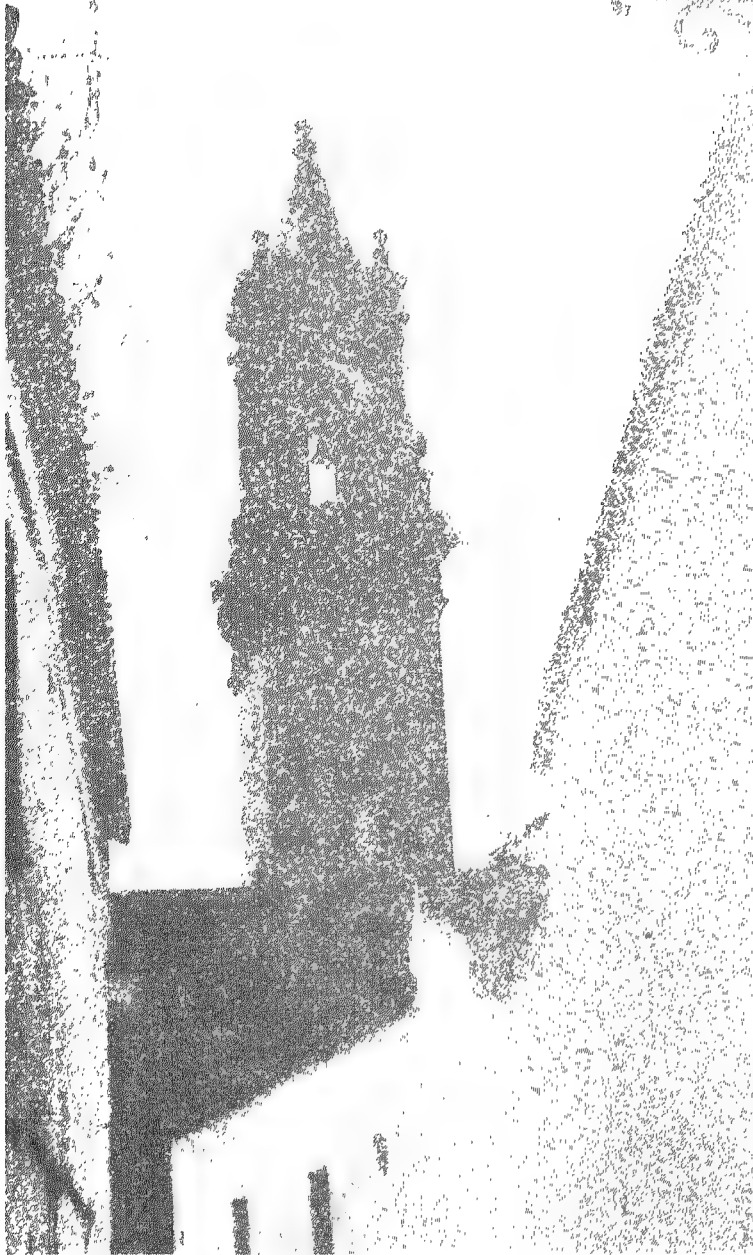
غير أن امد هذه المهادنة لم يطل ، وظل الصراع قائماً بين

السلطنة المركزية وابن حيدر ، الذي بلغ به العمر ان دحا
 لاديبين في مساجد المصنفة التي تدعى عمارات ، واعمل
 بالانجالي في افرقية ، وكذلك الملك ، الذي كان
 ملجأ لسلطنة في الفناء على عبيد الله ، بل انه اعان عليه
 بحسن الاسلام واعتنق المسيحية فصر بها من هذا الملك ثم
 اعان ولاه للقاء المسلمين فقاموا في الاقاليم في القروان
 وشمالها مع مديونية اشياء التي اعلمت القديسات على
 فرطية فيها مديونية ، ولكنه بالبرغم من فرضه على
 مديونية كبير من المديونية ، إلا انه مديونية كبير مديونية
 الادارة ، رتال الوسيط جسدنا على هذا الحال طيلة عهد
 عبيد الله .

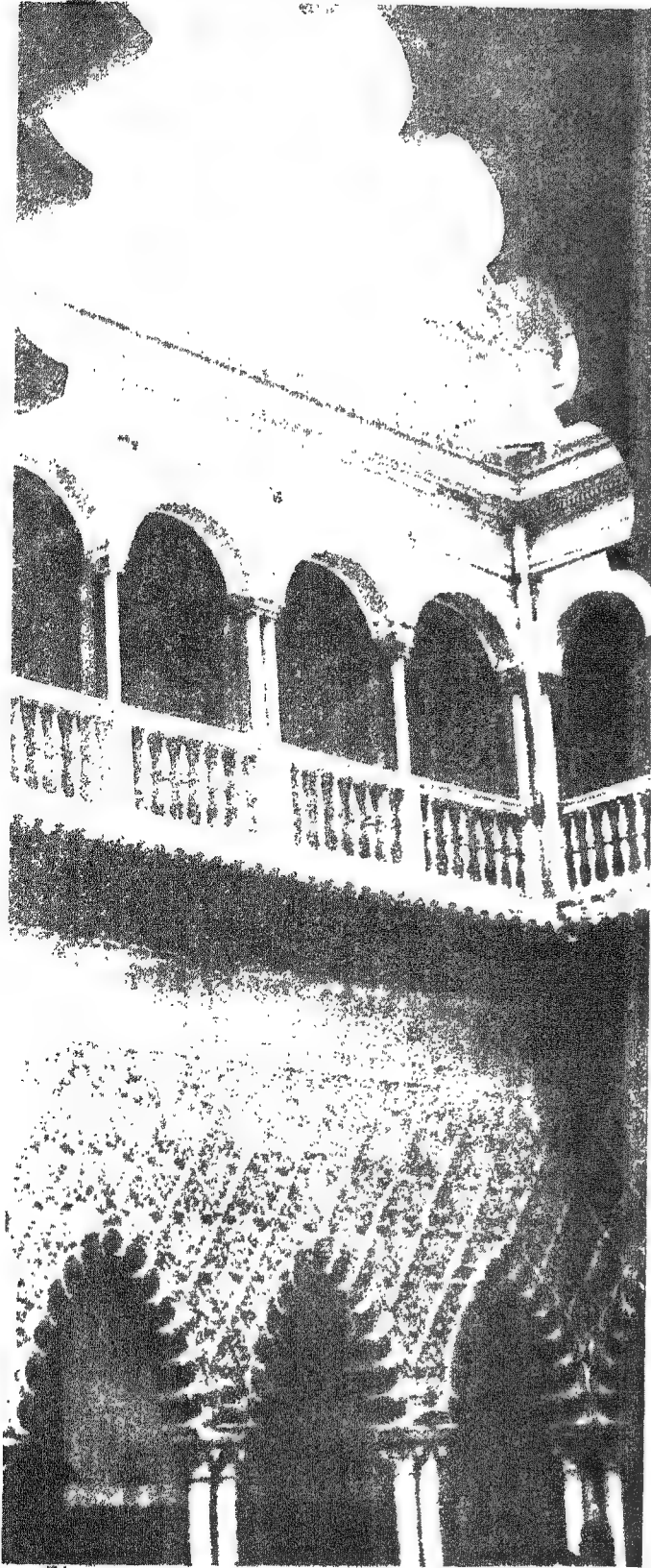
وتذكر ريت القري والتورات والانتصارات الاندلسية
 حتى بلغ عاصرها أدنى من ثلاثين ، كانه مقام اباها من
 المولايين والمستعربين ، الأمر الذي وجد احيانا من مديونية
 القروان ، ليعود الى الشرق والتناحر والمديونية ، بناء ان
 يقتضوا على هذه الانتصارات ، ونبدأ عمارة المديونية على
 القروان والمديونية من مديونية .

ومن أمثلة ذلك ما شهدته افرقية ، التي كان معظم
 سكانها من المولايين والمستعربين ، فقد خالفت زعماء
 القروان ضد المديونية ، المديونية اعلم ، ثم بدأت عمارات
 المديونية بين العائلات التي كانت المديونية الثلاث ، وهم بنو
 عبيد الله وبنو المديونية ، وبنو المديونية ، وبنو المديونية
 السوروس ، الى ان استتب الأمر لابراهيم بن المديونية ،
 الذي اتصل بالامير عبيد الله المديونية ، فاعترف له الامير
 بالاستقلال في افرقية ومديونية ، فأقام فيها حكومة تكاد
 تكون مستقلة ، لها مديونية وادارها ، كما انشأ فيها قصرا
 انسم بالرفق والرخاء ، وفصح ابوابه للديانة والأديان
 والشعراء .

وقد أدت هذه المراكز الاستقلالية الى تقايض نفوذ
 الحكيم المركزي ، الذي لم يعد يتعدى كثيرا حدود
 العاصمة فرطية ، بل ان ابن حيدر ، تجرأ في اخر من مرة
 على غزو مسواحي العاصمة ، واعمل فيها الذهب
 والتدبير .



مئذنة احمد جواسع قرونة



احدى زوايا فناء العذارى بقصر اشبيلية .

وكان هذه المصائب لم تكن كافية بالنسبة لهذا الأمير . فقد ابتلى بولدين من أولاده كان كل واحد منها يطمع في الخلافة ، وكان الأمير يميل الى ابنه محمد . وظل الابن الآخر مطرف يكيد لأخيه ، ويلصق به التهم عند أبيه ، فأمر بسجنه . ولم يكتف مطرف بذلك ، فدخل الى السجن وقتل أخاه محمداً ، ثم تأمر على والده مع خصومه ، الى ان ضاق والده به ، فأمر بقتله ، وكان قد قتل شقيقه هو القاسم بن محمد بتهمة التآمر عليه .

ويذكر المؤرخون ، مع ذلك ، ان عبدالله كان ورعاً تقياً محباً للخير ، ناشراً للعدل ، منكباً على العبادة . غير ان هذه الخصال الحميدة لم تكن تنفيه عن قطع الرؤوس ، ولو كانت رؤوس اقرب الناس اليه .

وان كان لعبدالله فضيلة غفرت له الكثير من الذنوب ، وكانت بمثابة عزاء لما بلغته الدولة الاسلامية من تمزق وتفتت وانقسام ، فهي اختياره لحفيده عبدالرحمن ابن ولده محمد ، الذي قتله أخوه المطرف في السجن ، وقد خلف عبدالرحمن جده بعد وفاته عام 912/300 ، وقدر له أن يقلب الموازين ، ويغير مجرى التاريخ الأندلسي ، وينتشل الحكم الأموي من الهوة التي انزلت اليها ، ويرقى به إلى مستوى الخلافة ، بعد أن اجتشت جذورها من المشرق ، ليعرف بالخليفة الناصر لدين الله عبدالرحمن الثالث .

أسماء الأمراء

1- عبد الرحمن الأول بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (الداخل)،
(788/172 - 755-138).

2- هشام الأول بن عبد الرحمن (الرضا)،
(796/180 - 788/172).

3- الحكم الأول بن هشام (الربضي)
(822/206 - 796/180).

4- عبد الرحمن الثاني بن الحكم، (الأوسط)
(852/238 - 822/206).

5- محمد الأول بن عبد الرحمن،
(886/273 - 852/238).

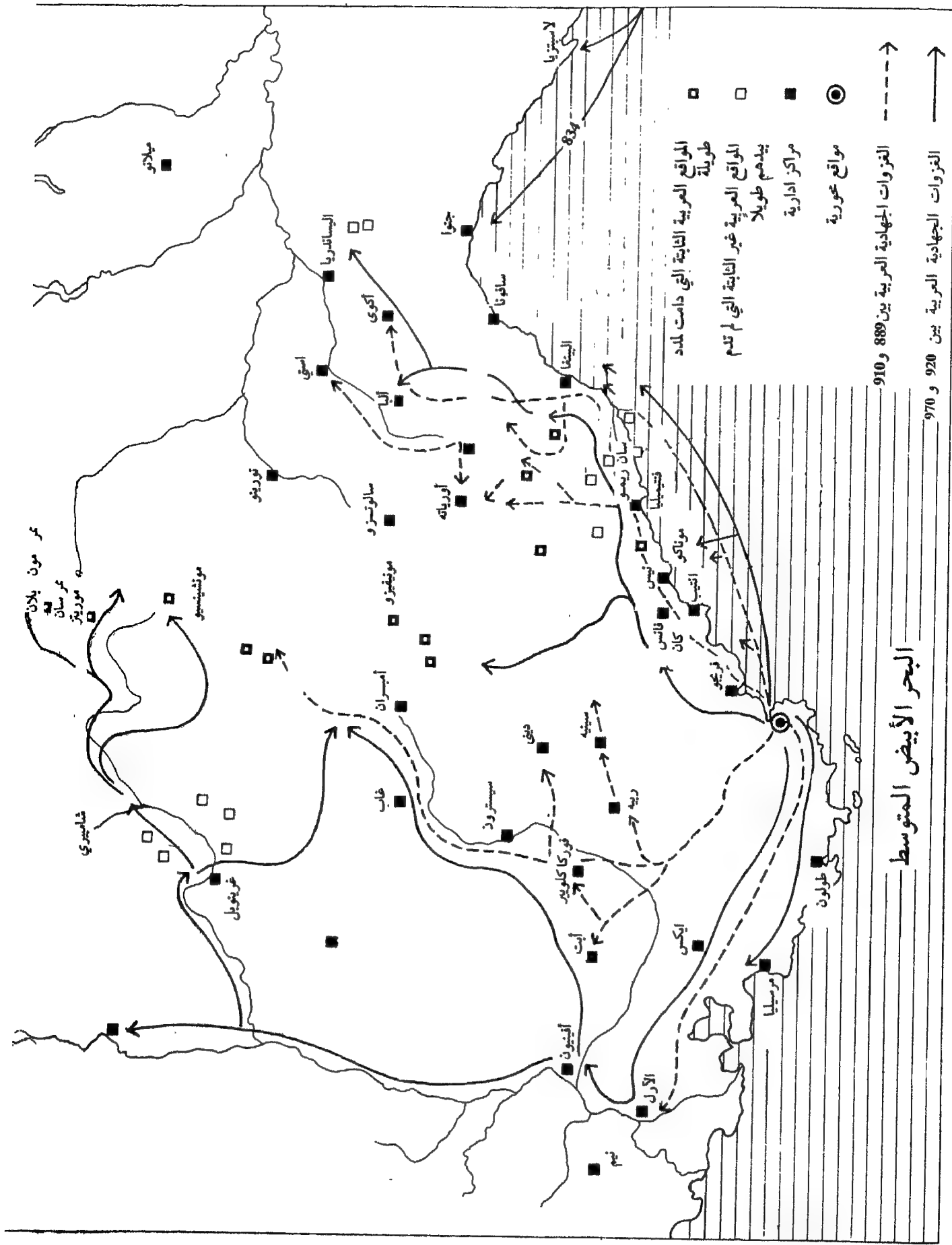
6- المنذر بن محمد،
(888/275 - 886/273).

7- عبد الله بن محمد،
(912/300 - 888/275).

8- عبد الرحمن الثالث (الناصر)،
(961/350 - 912/300).

أعلن نفسه خليفة عام (929/316).

خريطة الغزو العربي لجنوب فرنسا وشمال إيطاليا



جدول بياني لعصر

عصر الامارة الأموية في الأندلس	الدولة العباسية	بلاد الشام	مصر	المغرب	
				البربر	1000 990
	- القادر .				
	- التقي .	الفاطميون	الفاطميون		980 970
				الفاطميون	960
	- المطيع .				950
	- المستنفي .				
	- المتقي .	الأخشيديون	الأخشيديون		940
	- الرازي .				930
	- القاهر .				
- عبد الرحمن الثالث (الناصر) .					920 910
	- المفتر .	العباسيون	العباسيون		
- عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن .	- المكتفي .				900
- المنذر بن محمد بن عبد الرحمن .	- المعتضد .				890
					880
	- السوفق .	الطولونيون	الطولونيون		870
	- المعتز .				
- محمد بن عبد الرحمن بن الحكم .	- المستعين .				860
	- المتصور .				
	- المتوكل .				850
	- الواثق .				840
	- المستقيم .				830
- عبد الرحمن الأوسط بن الحكم .	- إبراهيم .				820
	- المأمون .				810
- الحكم الأول بن هشام (الريضي) .	- الأمين .				800
				الإدارسة	790
- هشام الأول (الرضا) بن عبد الرحمن .	- هارون الرشيد .				780
	- المهدي .				770
- عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) .	- المتصور .	العباسيون	العباسيون	العباسيون	760 750
	- السفاح .				

الامارة الامويه

أهم الأحداث والمنجزات
<p>- عبد الرحمن الثالث أعلن نفسه خليفة.</p>
<p>- عبد الله بن محمد - نشوب نحو ٣٠ ثورة قام بها المولدون والمستعربون والعرب والبربر كادت تقوض الحكم الأموي لولا مجيء عبد الرحمن الناصر.</p>
<p>- المنذر بن محمد بن - ثورات متكررة.</p> <p>- عزوة أخرى من النورمان.</p>
<p>- عبد الرحمن الأوسط - الغزو النورماندي - انفتحت الدينية التي حركها ايلونخيو - حملات جهادية وتأديبية.</p> <p>- تثبيت أقدام العرب في الجزر الشرقية (البليار).</p> <p>- بداية الازدهار العلمي والعمرائي والحضاري.</p> <p>- وصول زرياب وبدء عصر في جديد.</p>
<p>- الحكم الأول - قضى على نفوذ الفقهاء.</p> <p>- فامت ثورة الربض بتحريض من الفقهاء ففضى عليها وعلى العديد من الثورات الأخرى - مجزرة طليطلة.</p> <p>- واصل بناء الجامع وتوسيعه.</p> <p>- بذر أول بذور الترف والتذوق الفني والعلمي وأدبي.</p>
<p>- هشام الأول - تعاظم شأن الفقهاء الذين كانوا يحيطون بهشام وأصل بناء الجامع بقرطبة.</p>
<p>- عبد الرحمن بن معاوية (الداخل).</p> <p>- ثورات محلية عربية وبربرية متواصلة أمضى معظم فترة حكمه في إخمادها.</p> <p>- فشل حملة شارلمان التي تأمر معه فيها الأعرابي حاكم برشلونة والأنصاري حاكم سرقسطة.</p> <p>- أهم إنجازاته: القضاء على الثورات وخلق دولة موحدة ذات أجهزة مدنية وإدارية وعسكرية. ابنتى المسجد الجامع في قرطبة وقصر الرصافة.</p>

«الضمى»

عصر الخلافة

مر على الفتح العربي للاندلس يوم تولي عبد الرحمن الثالث الحكم عام 912/300، زهاء قرنين من الزمن، عصفت خلالها بالهكم العربي رياح عاتية متواصلة كادت ، في أكثر من مناسبة ، ان تقتلعه من جذوره وتدفن منجزاته في غياهب النسيان ، وخاصة خلال حكم الاميرين الأخيرين اللذين ، وان حاولا قدر طاقتيهما انقاذ مركزية الحكم من التفتت ، إلا أن ذلك ، كان على ما يظهر ، فوق طاقة الحاكم العادي ، مهما بلغ من شجاعة وحزم وإقدام .

وكان لا بد من معجزة . وتشاء الأقدار ان تتيح للحكم الأموي فرصة أخرى لإكمال الدور الذي لعبه ، على الأخص ، عبد الرحمن الأول ، ثم عبد الرحمن الثاني ، فتسوق اليه عبد الرحمن الثالث ، لينقذ كرسي الحكم قبل ان يتحطم فوق صخرة الضياع ، ثم يرقى به الى ذروة المجد وقمة العظمة ويسهم ، من فوقه ، في اقامة صرح حضاري ، ما زالت حتى يومنا هذا تتردد اصداؤه عطائه في العديد من ميادين المعرفة ، وتسطع رسالته خيراً وبراً وهداية ، وتجذب معالمة العمرانية الملايين ، اعجاباً واجلالاً وتقديراً . فكيف تمت هذه المعجزة ، وما هو سر هذا الرجل الذي قال عنه المقرئ انه « لم تبق امة سمعت به من ملوك الروم والافرنجة والمجوس وسائر الأمم الا وفدت عليه خاضعة راغبة وانصرفت عنه راضية » .

عبد الرحمن الثالث كان ، كما رأينا في الفصل السابق ، وليد صدفة ساقتهما الأقدار ، وما اعجب الأقدار ، اصطفته وكأنها غربال ، من بين من هم احق منه في الحكم ، اذ قتل ابوه وقتل عمه قاتل ابيه ، واختاره جده عبدالله ولياً للعهد ، لما توسم به من ملامح تؤهله للاضطلاع بمهام الحكم في تلك الظروف العصيبة ، فأغدق عليه ما استحق من عطف ورعاية ، والقى بين يديه ، قبل ان يغيب عن الحكم ، بتركة مثقلة بالهموم والمشاكل ، لم يطمع بها أي طامع .

ولما استوى عبد الرحمن على عرش الامارة ، لم يكن حديث عهد بالمشاكل والمخاطر التي تحدق بها من كل ناحية ، ولا بالأنياب التي تنهش في جسدها محاولة التهام اطرافها المبعثرة . فقد أمضى سنواته الثلاث والعشرين السابقة ، وهو يرقب عقد الحكم المركزي ينفرط حبة حبة ، وكان لا بد من خطوة جريئة تختلف عن الخطوات التي اتخذها جده ، بعد ان ثبت عقمها . فالحلول الجزئية لم تعد تصلح ، والمواجهة الفردية لن تأتي ، ان كتب لها النجاح ، إلا بحلول جزئية مؤقتة . وكان لا بد من مواجهة عامة شاملة ، تتصدى لجميع العوامل التي أدت الى ذلك التشرذم والضياع .

وكان في شخصية عبد الرحمن الثالث الفذة المفتوحة ما يؤهله الى إلقاء عقد التعصب وتشنجات الحكم جانباً ، فخاطب الثوار ، جميع الثوار ، ملوحاً بعرق من الزيتون ، حمله على سيف كان وميضه ينم عما به من كوامن البطش . ولم يكتف بذلك ، فأوفد الى الرؤوس الثائرة وفوداً تحيطهم ، ان لم تكن اصداؤه النداء قد وصلتهم ، بالسياسة التي يريد الحاكم الجديد انتهاجها ، بدءاً بالحوار ، وانتهاء بالانضواء تحت راية قرطبة . ولعلل الثائرين لمسا ما تنطوي عليه سياسة الأمير الجديد من جدية وحزم ، فبدأ الواحد منهم بعد الآخر يعلن خضوعه لقرطبة ما عدا اثنين ، ابن حفصون الثائر المزمع القابع في قلعة المنيعية في (ببشتر) ، وبنو حجاج في اشبيلية .

قام الأمير بنفسه على رأس حملة ضد ابن حفصون ، إلا انه لم يستطع أخذ القلعة ولكنه قضى على ما يحيط بها من جيوب كانت تدور في فلك ابن حفصون فعزله في قلعته يعاني من وطأة الحصار .

وفي اشبيلية دب الخلاف بين افراد اسرة الحجاج ، اثر وفاة عميدها ابراهيم ، فبعث عبد الرحمن بحملة قضت على حكمهم فيها نهائياً ، ولم يمض عليه في موقع السلطة سوى عام واحد . أما ابن حفصون فقد ظل قابلاً في قلعة الحصينة يعافي من الوحدة ومن وطأة الشيخوخة ، فيما انصرف عبد

بعناصر جديدة من الصقالبة الاشداء المتصقين به ولاء وانتهاء . غير أنه ، وهو منشغل بالاصلاح الداخلي ، ظلت عيناه ترقبان ما يدور حوله في العالم من احداث ، وتتابعان خيوط السياسة في تشابكها وتغير اشكالها ، على ذلك النحو السريع في كل من المشرق والمغرب .

فالخلافة العباسية كان نجمها قد أخذ بالافول ، واصبح خلفاؤها في قبضة ضباطهم من الترك والديلم ، متصاعين لإرادتهم ، منفذين لاوامرهم . وفي المغرب ، اعلن الفاطميون ، أعداء الأمويين والعباسيين ، قيام خلافة فاطمية ، ضارين عرض الحائط بمفهوم وحدة الخلافة ، التي كانت تمثل المسلمين ديناً ودنيا .

وبدأ عقل عبد الرحمن الثالث يعمل بسرعة . فمغتصبو الخلافة من أهله ينحدرون بسرعة في المشرق الى الحضيض ، والفاطميون الشيعة ، أعداء اجداده الألداء يقيمون خلافة على عتبة حكمه في المغرب ، بما يحمل ذلك من اخطار كامنة ، قد تؤدي الى فرض المذهب الشيعي في العالم الاسلامي بأسره . وان كان لا بد من خلافة اخرى ، فهو صاحب حق تاريخي فيها . بل هو أحق من العباسيين والفاطميين في الخلافة . ألم تخطط له الأقدار ذلك عندما اعمت العباسيين عن جده الأكبر عبد الرحمن الداخل ، فقطع الاقفار الى اقاصي الأرض ، ودخل وحيداً ليحيي امجاد بني أمية في الأندلس ؟ ألم تخطط له الاقدار ، عندما تعدت اباه وعمه وجاءت به هو ، من دون غيره ، لينقذ ما عجز غيره عن انقاذه ، ويعيد للحكم هيئته ، ويقضي على الطامعين فيه ؟ الا يجب ان يقيم درعا يحمي مكاسبه ، ويدراً عن حكمه خطر الزوال ، ويعيد الى اجداده حقهم الشرعي في الخلافة ؟

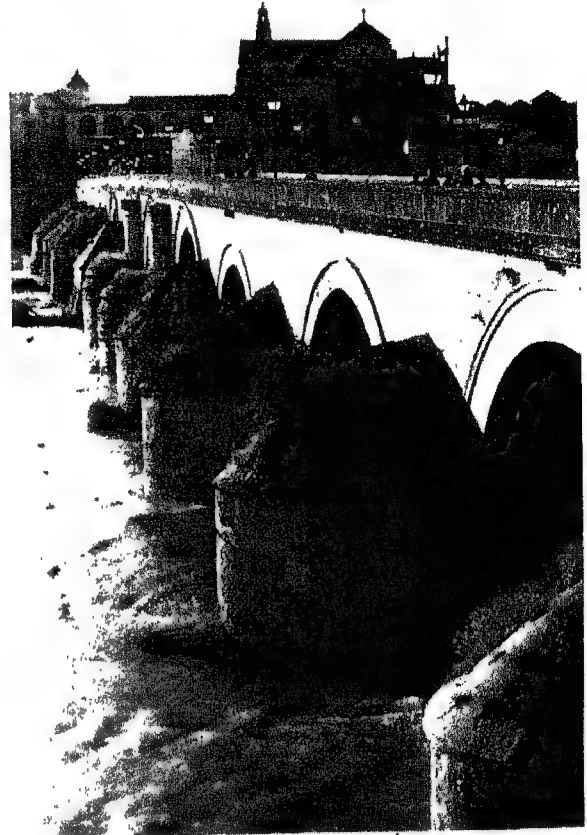
وفي عام 929/316 اعلن عبد الرحمن الثالث نفسه خليفة ليصبح لقبه أمير المؤمنين الخليفة الناصر لدين الله .

وكان لا بد ازاء هذه الخطوة ، التي ستتولب عليه الخلافتين ، من اقامة جهاز عسكري قادر على درء الخطر المحدق به من الشرق ومن الجنوب ومن الشمال . وكان الناصر قد دعم جيشه بعناصر قوية من الصقالبة ، ودفع

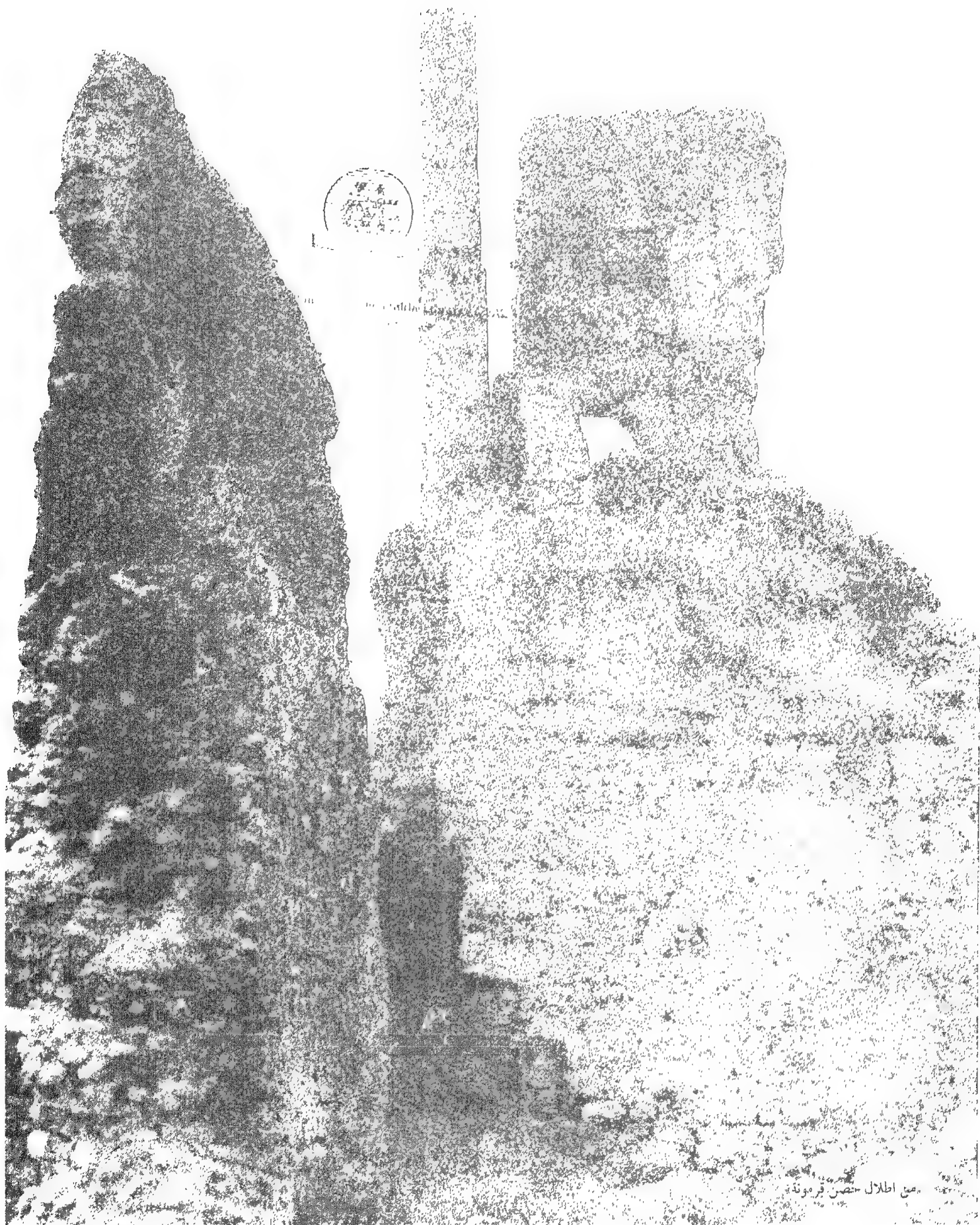
الرحمن الى ترميم التصدع الذي ألم بالنظام ، وترقيع الاقتصاد الذي نخرته الصراعات الداخلية المتلاحقة . ولعل ابن حفصون يشس ، في هذه الأثناء ، من جدوى المقاومة ، فجاء مصالحاً بعد ثلاث سنوات ، وكان له ما اراد .

وظل الوضع هادئاً هناك الى ان مات هذا بعد ثلاث سنوات ، ليشعل ابنه فتيل الثورة من جديد ، فيقتله اخوه ويصالح قرطبة ، ثم يثور هو الآخر من جديد ، ويتم القضاء على القلعة ومن فيها بعد خمس عشرة سنة من مجيء عبد الرحمن الى الحكم ، تلك القلعة التي ظلت أكثر من خمسة وثلاثين عاماً ، قبل تسلمه زمام الأمور تشكل للحكم المركزي واحداً من أشد هواجسها خطورة .

وكان عبد الرحمن الثالث ، في هذه الاثناء ، يكرس معظم وقته للبناء والتنظيم والادارة ، ويطعم الجيش



قنطرة قرطبة الرومانية بعد ان اصلحها العرب .





قصبة مالقة .

مع الفاطميين، تنبه الى أهمية تعزيز اسطوله البحري دفاعاً عن شواطئ الأندلس . فكرس لذلك كل جهده ووقته ، الى ان خلق قوة بحرية هائلة ، تستطيع التصدي لأي خطر مهما كان مصدره . غير ان الظروف لا تشاء له ان يستخدم هذه القوة ضد الفاطميين ، الذين ما لبثوا ان استولوا على مقاليد الحكم في مصر من كافور الاخشيدي ، وانصب اهتمامهم بعد ذلك على المشرق ، فارتفع عنه كابوس هذا الخطر المحدق ، ولو الى حين .

وفي الوقت الذي كانت يده اليمنى تمتشق الحسام ، كانت يده اليسرى تنضد المنشآت العمرانية حجراً فوق حجر ، حتى اذا ما انقشعت غيوم الثورات والفتن ، القى بالسيف جانباً وبدأ يعمل بيديه الاثنتين، فشيّد القصور ، وبنى الطرق ، وشق الترع ، وأنشأ المساجد ، ونال مسجد قرطبة الجامع من اهتمامه قدراً عظيماً ، فعمل على توسيعه باتجاه النهر ، و اضاف اليه منارة مذهبة عرفت بمنارة الناصر ، وأنشأ حول قرطبة سورها العظيم .

بهم الى اعلى المراكز العسكرية ضماناً لولائهم ، وتحسباً من مطامع غيرهم ، ممن قد تجرفهم التيارات السياسية المحلية لغير مصلحته . غير ان هذه الخطوة لم يحالفها التوفيق كما سنرى .

ولئن ظل الصقالبة بعيدين عن التيارات المحلية ، الا أن كثرة عددهم في الجيش وتبوؤ بعضهم مراكز قيادية فيه ، اثار ضغينة العناصر العربية والبربرية ، التي اصبحت تشكل اقلية في الجيش ، فبات مفتقراً الى عنصر الانسجام ، قادة وجنداً ، مما أدى الى هزيمة ماحقة لجيش الخلافة في واقعة الخندق ، التي قادها الخليفة بنفسه عام 939/327 ضد راميرو الثاني ملك ليون .

وكانت واقعة الخندق هذه خاتمة المعارك التي احتدمت بين الاسبان والخلافة اثناء عهد عبد الرحمن . ذلك ان الاسبان ظلوا منذ الفتح ، يتربصون بالمسلمين ، ويعدون للانقضاض عليهم واسترداد الأرض منهم . ومما كان يشجعهم على ذلك ، الصراع والتفتت داخل نظام الحكم العربي .

غير ان تحركات الاسبان تطورت مع الوقت لتتخذ شكلاً صليبيّاً اخذ يلهب حماس الاسبان ويستولي على مشاعرهم . وقد بلغت هذه المشاعر مستوى خطيراً مع تولي روميرو الثاني مقاليد الحكم ، ذلك انه ، اضافة الى قدرته القيادية الهائلة ، كان يتسم بنزعة صليبية جامحة . وظلت هذه الجبهة ، التي شهدت تحالفات بين عمالك غاليسيا وقشتالة ونابرة ، تتأرجح بين الاشتعال والهدوء ، الى ان مات روميرو الثاني ، ودب الخلاف بين اولاده ، وتردت الأحوال في مملكته . وكان من المفارقات العجيبة ، ان يلعب الناصر دوراً في حسم الخلاف بين ولدي روميرو ، ويفصل في أمر الحكم لأحدهما وهو شنجة ، الذي حفظ للخليفة جميله ، فعخيم على علاقاتها السلام والمودة .

غير أن هدوء الجبهة الشمالية لم يتح للناصر يوماً عميقاً . ذلك ان رياح الخطر الفاطمي اخذت تهب عليه من الجنوب عبر المضيق . وعبد الرحمن الناصر ليس بالرجل الذي يترك اقداره للمحظ . فبعد التحامات بحرية

ولو عدنا بخيالنا الى هذه المدينة انثذ ، لألفيناها تعج
بمئات الألوف من البشر ، كأنها خلية نحل ، لا تعرف
السكون ولا تخلد الى الراحة ، كما لو كانت في سباق مع
الزمن . فهي الآن عاصمة خلافة ، ولا بد لها من الظهور
بالمظهر الذي يليق بهذه الخلافة الصاعدة ، التي يعتلي
عرشها رجل جمع من الخصال ما ينذر لغيره أن يتحلى
بها .

فهو طموح ، اشبع طموحه بأن ارتقى الى مصاف
الخلافة .
وهو مثقف ، أقام معاهد العلم وشمل العلماء
برعايته .

وهو اديب مهد للادباء والشعراء الارض الخصبة التي
يترعرع فيها عذب الكلام وبلاغة التعبير .

وهو مرهف الحس ، وَشَمَ بذوقه الرفيع عاصمته
الجميلة بدرر النقش ولآلئ الفن .

وهو ارستقراطي ولا بد له من تتويج ذلك كله ، بانشاء
مدينة جديدة في اطراف قرطبة ، بعد ان اصبحت هذه
تضيق بسكانها الذين زاد عددهم عن نصف مليون من
البشر ، اراد لها ان تصبح العاصمة الادارية ، ومقر
الخلافة ، تنافس القاهرة المعز وبغداد الرشيد .

وعند سفح جبل العروس المطل على قرطبة ،
تشكلت خلية نحل اخرى جاء بها من المشرق ، من
بغداد ومن القسطنطينية ومن كل بلد فيه مهندس أو
بناء أو فنان أو حرفي ، حتى بلغ عدد المشتغلين في بناء
مدينة «الزهراء» هذه نحو عشرة آلاف ، ظلوا يعملون
في انشائها نحو اربعين عاماً ، والناصر يرقب قيام
الصرح الذي لم يكتب له ان ينعم به طويلاً ، اذ وافته
المنية عام 350/961 قبل استكمال بنائه تماماً ، ليصبح
كما جاء في وصف المؤرخين واحداً من اعظم المنجزات
الفنية في ذلك العصر ، واكثرها تجسيدا للترف والبذخ .
غير ان الاقدار تشاء لمدينة الزهراء ان تندثر بالسرعة
التي انشئت بها كما سرى . وتظل مدفونة تحت تراب

النسيان قروناً عديدة ، ليكتشفها عالم آثار اسباني في مطلع
القرن الحالي ، ويخرج حطامها حجراً حجراً من باطن
الأرض ، في محاولة للكشف عن معالم هذه المدينة التي
وئدت في مهدها .

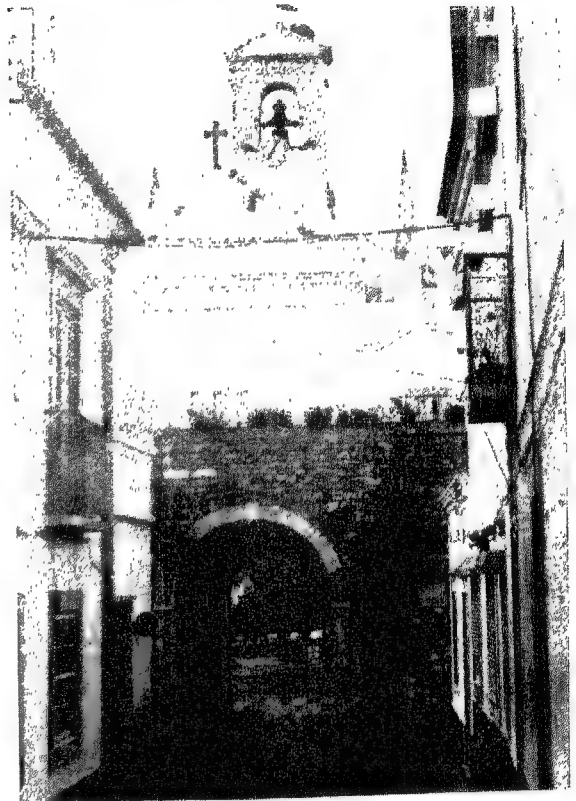
أما قرطبة فكانت قد بلغت ذروة مجدها ، تشع على العالم
نوراً ، وتزهو على عواصم العالم في عطائها العلمي والأدبي
والفني ، وتفخر بنفائس مكتباتها وكنوز معارفها ، تقيم
صرحاً حضارياً بعد آخر ، وتشيد مرفقاً عمرانياً تلو
الأخر ، تعمل نهاراً ، وتسهر ليلاً على ايقاع الدفوف
ورقص الجوارى وأنغام الأوتار وترجيع الموشحات ، التي
اشتهرت بها ليالي الأندلس الساحرة ، والتي ظل أثرها حتى
يومنا هذا واضحاً في الغناء الاندلسي المعروف
بالفلامنكو ، والخوندا .

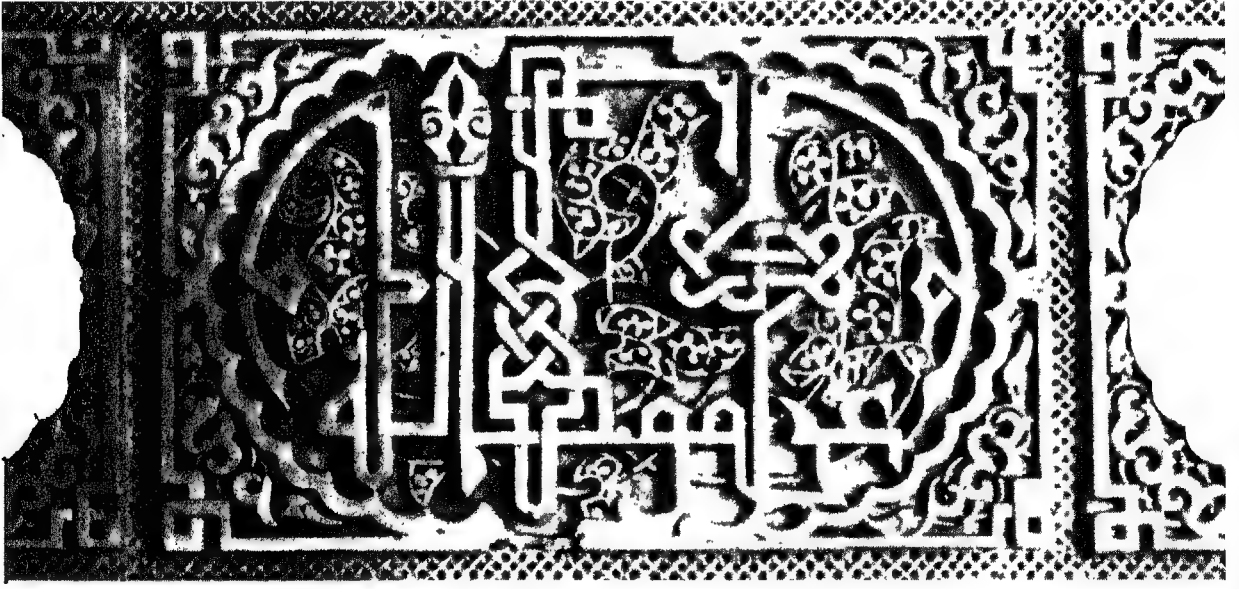
ولم تستقطب قرطبة طلاب العلم والمعرفة وعشاق
الشعر والغناء فقط . فقد شهدت عدداً من الزيارات
الدبلوماسية ، قام بها سفراء من الامبراطورية البيزنطية ،
التي كان يجلس على عرشها انثذ الامبراطور المثقف
قسطنطين السابع ، ومن الامبراطورية الرومانية المقدسة
التي كان يعتلي عرشها أوتو الأول ، فضلاً عن ممثلين عن
ملك ليون وملك نابرة الاسبانيين وغيرهم .

وهكذا أصبحت قرطبة ، كما وصفها الرازي « ام
المدائن وسرة الأندلس وقرارة الملك في القديم والحديث
والجاهلية والاسلام » . ووصفها عالم آخر بأنها « مدينة
ازلية من بنيان الاوائل طيبة الماء والهواء ، احدثت بها
البساتين والقرى والحصون والمياه والعيون من كل
جانب » . ووصفها ابن حوقل بقوله . . . « ان اعظم مدينة
بالاندلس هي قرطبة ، وليس بجميع المغرب لها شبيه ،
ولا بالجزيرة والشام ومصر ما يدانيها في كثرة أهل ، وسعة
رقعة ، وفسحة اسواق ، ونظافة محال ، وعمارة مساجد ،
وكثرة حمامات وفنادق » . ووصفتها الشاعرة الساكسونية
هروسويذا (Hroswitha) بأنها « زينة الدنيا » .
وقيل ان خمسين الف مصباح كانت تضيء طرق قرطبة
عندما كانت عواصم اوروبا غارقة في دياجير الظلام .



مناظر من مدينة الفارو بالبرتغال.





نقوش جصية تملو الفريزاً خزفياً في قصر اشيلية .

هذا البلد الذي رست قواعد الحكم فيه على أقبى الصخور وأصلبها ، مما يعجز وزيره عن التصدي له ؟ غير أن الخليفة المثقف ، جليس العلماء والادباء والمؤرخين والفلاسفة ، و تحليل الكتب والمخطوطات ، لم يعهد الى وزيره المصحفي بمهمة درء الخطر المحدق بالبلاد عندما بدأت رياحه تعصف من الشمال . . . من الممالك الاسبانية المتحفزة ، التي ظنت انه بزوال يد الناصر الحديدية القابضة على المهند ابدأ ، أصبح من السهل قطع يد المنتصر الرقيقة التي لا تعرف غير ملامسة الكتب والمخطوطات .

لقد كانت حسابات هذه الممالك مبنية على أسس واهية ، ذلك ان الخليفة الوديع القى بالكتاب من يده الناعمة ، وامتشق حسامه الدمشقي ، وقاد حملة لتأديب الملك شنجة ، ملك ليون ، الذي كان يدين بعرشه الى الخليفة الناصر، والذي حمل ، بعد ان تعزز شأنه بين الملوك الاسبان ، شعار الصليب ، ونقض العهد ، وبدأ يستعد للانقضاض على الحكم الاسلامي ، فهب الحكم المنتصر في وجهه على رأس جيشه عام 963/352 ، ففضى أولاً على قوات فرديناند امير قشتالة ، وارغم شنجة ملك ليون على تسليم الحصون التي اغتصبها من الخلافة ، واخذ بعض

وفي هذا الجو المفعم بالاستقرار السياسي ، الذي تدعمه قوة عسكرية هائلة ، ويعزز ركائزه اقتصاد مزدهر، يعتلي عرش الخلافة الزاهي عام 961/350 كهل كاد يبلغ من العمر خمسين عاما ، هو الحكم الثاني الخليفة المنتصر بالله ، الذي جاءه المجد على طبق من الذهب ، بدا زاهداً فيه ، لم ينبهر لبريقه . فقد شب عليه ، وشاب في كنفه ، ولا يطمع الى المزيد منه ، فإن امكنه المحافظة عليه ، فهو قانع قرير العين .

ذلك ان امرأ آخر كان يستحوذ على اهتمام الحكم وعقله ، ألا وهو الاختلاء بالكتب ، ومجالسة العلماء والادباء والمؤرخين والفلاسفة . فإن جاءه واحد من هؤلاء ، امتلأت حياته به ، وصفا يومه ، وان بعث بسفير الى بلد من البلدان ، حمله من الأموال ما يستطيع حمله لشراء الكتب له مهما بلغ ثمنها ، وان جاءه سفير من دولة ما بهدية ، فأفضل ما يتمناه ، مخطوطة يجلس اليها ، تغذي ذهنه المتعطش دوماً للمعرفة . أما إن قدم عليه واحد من رجال الحكم لمشكلة ، فيحيله الى وزيره المصحفي ، فله جميع الصلاحيات التي تخوله سلطة اتخاذ أي قرار دون مراجعته . فأني شاغل يمكن أن ينشأ في

الحصون التابعة لملك نابرة، وبالتالي سد امام هذه القوى سبل تهديد امن الدولة وسلامتها.

غير أن رياح الخطر لم تهب من الشمال فقط . ولئن زال خطر الفاطميين المباشر على الأندلس ، إلا أن نفوذهم في المغرب ظل قائماً ، بعد أن اعتمدوا قبيلة صهناجة لتتوب عنهم ريثما يوطدون اركان دولتهم في مصر .

وكانت قبيلة صهناجة البربرية هذه تتصارع على النفوذ مع قبيلة زناتة البربرية في المغرب . وكان من الطبيعي والحالة هذه ، ان تتحالف زناتة مع الخلافة الاموية في الأندلس . وفي غمرة الصراع على النفوذ ، اقتحم الصهناجيون معاقل الأمويين التي اقامها الناصر من قبل في سبتة ومليلية وطنجة ، واستولوا على الاخيرتين .

وكانت قد نشبت الثورة الادريسية الشيعية واتخذت من طنجة معقلاً لها ، فبعث المنتصر بحملة قضت على الثورة الادريسية واستعادت مواقع الخلافة في المغرب .

غير أن المنتصر توفي عام 976/366 دون ان تحسم الأوضاع في المغرب . ودون ان يختار من يستطيع الحفاظ على كرسي العرش الذي صنعه ابوه الناصر وملأه ، بل كان يفيض بحجمه عنه . فلقد انشغل عنه المنتصر بكتبه ، وزهد فيه ، ونذر ان تذكر وجوده وادرك عظيمته وشعر بما يمثله من ضخامة المسؤولية .

بل ان كتبه الهته عن ممارسة وظيفة الانجاب ، التي مارسها اسلافه الى درجة الافراط ، فتباهوا بالعشرات والعشرات من البنين والبنات . ولئن حوت مكتبته عشرات الألوف من الكتب والمخطوطات ، فإن ذريته اقتصرت على ولد واحد ، ولد له من جاريته الاسبانية الجميلة « صبح » التي ترجم اسمها عن الاسبانية (Aurora) ، والتي ربما اعملت فيه كل ما وهبها الله من فتنة وجمال وحيلة ، لتوقظ فيه الرغبة ، ولو مرة واحدة ، عليها تخرج من ذلك بولي عهد يضمن لها بقاء سيطرتها على القصر والدولة ، بعد أن يغيب سيدها الكهل .

وما ان انجبت صبح هشاماً حتى اتجهت برغباتها الثائرة ابدا الى رجل وسيم الطلعة ، متوقد الذكاء ، واسع الاطلاع ، بليغ اللسان ، استطاع ان يتسلل ، من خلال صفاته الفذة هذه ، عبر اسوار القصر ، التي امضى معظم عمره يكتب خلفها للعامة رسائلهم وتظلماتهم ، ثم يتدرج في مناصب الدولة خطوة خطوة ، الى ان تبوأ المنصب الثاني في الدولة ، بعد الوزير المصحفي ، والمنصب الأول في قلب الفاتنة المنتفذة صبح .

كان ذلك الرجل هو محمد بن ابي عامر ، الذي استعانت به صبح ، وبالوزير المصحفي ، في اقناع الخليفة باسناد ولاية العهد الى ابنها الطفل هشام ، ضد محاولات الفئة الثانية المنتفذة في القصر ، والمتمثلة في رجال حرس القصر من الصقالبة ورجال الجيش الأقوياء ، الذين كانوا يرشحون المغيرة بن عبد الرحمن شقيق الخليفة ، البالغ العاقل المحنك الوقور .

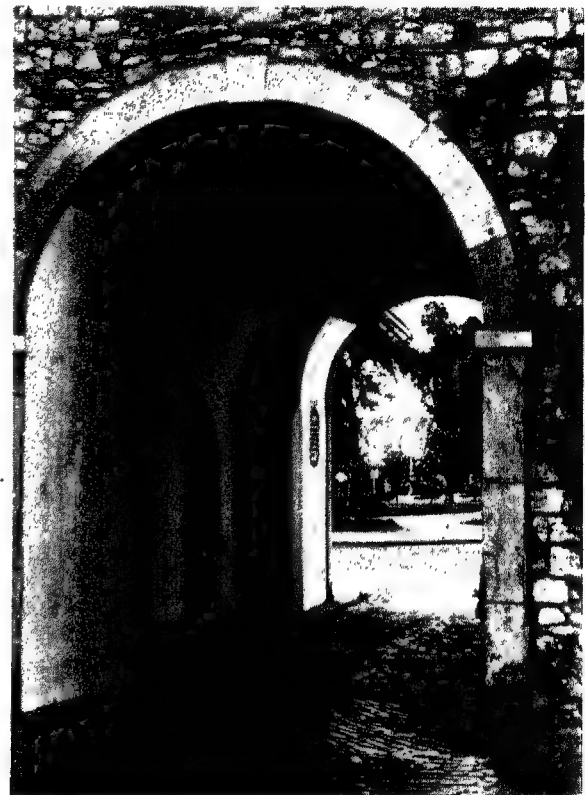
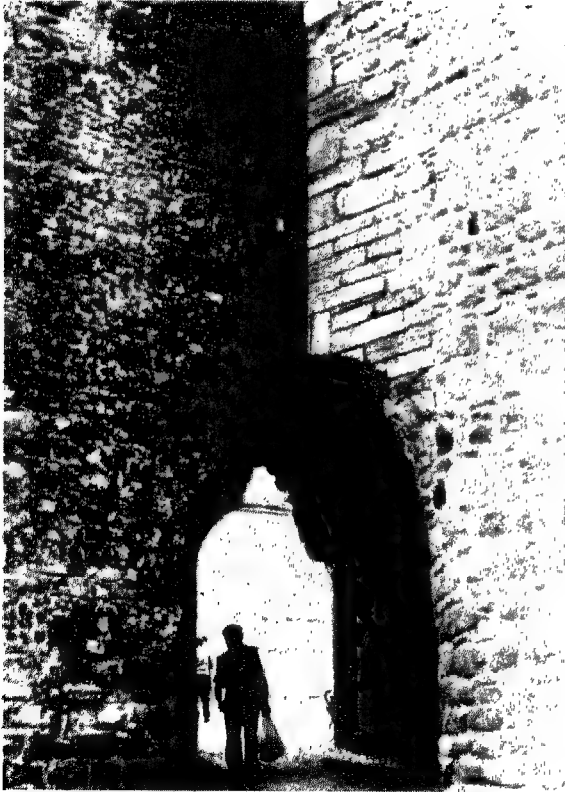
وظل الصراع هذا قائماً في أرجاء القصر الى أن فاز تكتل صبح والمصحفي وابن عامر في اقناع المنتصر باسناد ولاية العهد الى هشام تحت وصاية مجلس مكون من المصحفي وابن عامر .

وحمل الثالث المتحالف المصحفي وابن عامر وصبح الخليفة الطفل واجلسوه عقب وفاة ابيه عام 976/366 على طرف كرسي العرش واطلقوا عليه لقب امير المؤمنين الخليفة المؤيد بالله هشام بن الحكم ، ولم يكن عمره يزيد عن عشر سنوات .

وما ان انتهت عملية التنصيب حتى راح ابن عامر ينفذ مخطط التصفية الذي سيمهد له السبيل الى المنصب الأول في دولة الأندلس ، فبدأ بالمغيرة بن عبد الرحمن شقيق الملك ، الذي رشحه التحالف الآخر ، ذلك ان وجوده حياً سيظل بمثابة سيف مسلط على رقبة وعلى مخططاته ، فدبر لتصفيته خنقاً ، ثم اتجه بتفكيره الى حليفه القوي المتمرس ذي السلطان والقوة .

غير ان القضاء على المصحفي لم يكن بالامر الهين ، وهو الذي ظل صاحب الكلمة الأولى في بلاط المنتصر ، والذي

اثر في شلب بالبرتغال



اثر في شمترية الغرب بالبرتغال

كان يسند اليه الخليفة اخطر مهام الدولة عندما كان منهمكاً في التهام كتبه واحداً بعد الآخر .

وكان لا بد للعامري من حليف . فمن يكون اجدر من عدو الامس ، عدوه وعدو المصحفي ، رجل الجيش القوي الذي كان وراء ترشيح عم هشام ، المغيرة بن عبد الرحمن ، لولاية العهد . اما كيف يجعل من خصم الامس حليف اليوم ، فهذا من الأمور التي لن يصعب على العامري حلها . فمن استطاع ان يرتقي بنفسه من كاتب رسائل وتظلمات عند عتبة القصر الى رجل الدولة الثاني ، ولم يزد عمره عن الثلاثين عاماً ، لن تقف في وجهه اية عقبة ليرتقي ويصبح رجل الدولة الأول .

كان لرجل الجيش القوي غالب بن عبد الرحمن ، ذلك القائد المحنك الجريء ذي الشهرة الواسعة والشعبية العريضة ابنة . فأني رباط أقوى من رباط المصاهرة . بدأ العامري يتقرب الى القائد غالب ويتودد اليه ويراعيه ، الى ان ضمن ثقته وصداقته ، فتوج العلاقة الجديدة بعقد الزواج على ابنته .

وما ان فرغ العامري من وضع الختم على صفقة التحالف هذه ، حتى بدأ يخطط للخطوة التالية ، وهي تقليص مجال الوزير المصحفي رجل القصر القوي ، واقتلاع الريش من جناحيه تمهيداً لتصفيته .

بدأ العامري بتصفية حرس القصر الصقالبة النافذين . لم يكونوا ضد تنصيب الخليفة هشام المؤيد بالله ، وبالتالي مناوئين له هو وللمصحفي . وهل من حجة أقوى من هذه الحجة لضمان موافقة المصحفي على هذا الاجراء ، بل وضمان مباركته لهذه العملية التي تتسم ببعد النظر وبالحرص والحذر ؟

انطوت الحيلة على المصحفي ، ذلك أنه لم يعرف الى ما كان يرمي بعد النظر هذا ولحساب من . ذلك ان العامري ، وهو صاحب الشرطة ، انتقى من الرجال من يضمن ولاءه ، وأحلهم محل الصقالبة ، دون ان يدخل هذا الاستبدال الى قلب المصحفي أي شك أو ارتياب .

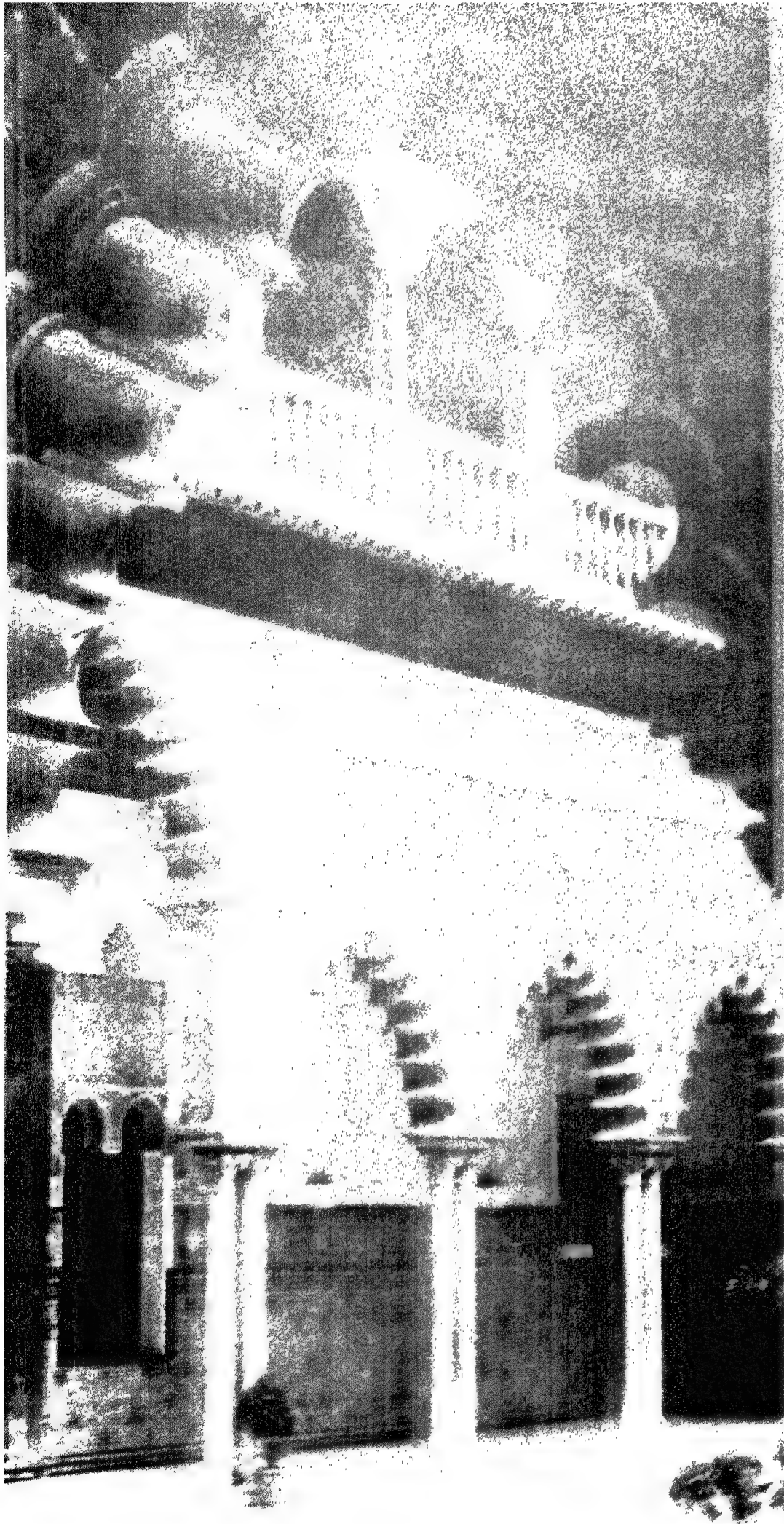
وقبل ان يبدأ العامري في التخطيط للمرحلة التالية جاءته فرصة العمر من حيث لا يدري . ذلك ان الاسبان في الشمال ، بدأوا يتحركون ، كعادتهم في بداية كل عهد جديد ، عندما تبدأ الصراعات الداخلية على الحكم ، وتستفحل المؤامرات والفتن .

بدأ التحرك هذه المرة في قشتالة التي هاجمت قلعة رباح القرية من طليطلة واحاقت بالحامية الاسلامية فيها وابادتها عن آخرها .

وكان الحكم العربي لا يترك مثل هذه الاعتداءات تمر دون عقاب سريع يرد فيه الصاع صاعين ، ويعود مزهواً بالنصر مفاخرأ بالجهاد ، فتنظم القصائد ، وتعالى الدعوات من المآذن والجوامع ، ويتألق نجم الحاكم والقائد .

غير ان الرجل الأول ، الوزير المصحفي ، الذي كان منشغلاً في تثبيت اركان نفوذه ، لم ير في هذه الهزيمة ما يبرر ابتعاده عن الساحة المحلية ، التي لم يكن مطمئناً اليها تمام الاطمئنان ، فانتهاز العامري فرصة العمر ، واقترح على الوزير ان يعهد اليه بقيادة حملة تأديبية ، تعيد الى الحكم العربي هيئته ، وتضرب على يد المتجربين وتلقنهم درساً لن ينسوه . وتنطلي الحيلة مرة أخرى على الوزير . ويجرز العامري نصراً طغى على التأثير النفسي الذي خلفته هزيمة قلعة رباح ، وعاد مضيفاً بذلك مؤهلاً جديداً الى قائمة مؤهلاته الطويلة .

وقد جاء ذلك ، بطبيعة الحال ، على حساب شعبية حليفه المصحفي ، الذي بدأ يحس بتفوق العامري عليه في الكثير من المجالات ، ويشم رائحة الخطر تفوح من ناحيته . وكان لا بد للعامري من القيام بعمل آخر يبهز الناس ، ويكرس صورة البطولة التي رسمها لنفسه بينهم ، فاشترك في حملة أخرى في الشمال بقيادة غالب ، والد زوجته وحليفه ، وعاد منها منتصراً ومنتزعاً اعجاب قائده العسكري الفذ ، واعجاب الجماهير التي قابلته بالتهليل والتعظيم . وكان اول ما فعله العامري قبل ان تخفت الاصوات المهللة أن أطاح ، بمعاونة صبح أم



فناء العذارى بقصر اشبيلية

مع البشكنس ، او انه استعان بمرتزة من الاسبان للقضاء على صهره ، فيشتبكان في معركة شرسة يسقط فيها القائد غالب ، تاركاً الميدان لزوج ابنته ، دون أي منازع ينارعه على نفوذ أو سلطة أو طموح .

وعاد ابن عامر الى قرطبة ليغسل من يديه آخر نقطة من دماء خصومه ، وليغسل من قرطبة آخر اثر للطابع الأموي فيها ، إلا ذلك اللقب الخلفي الذي ابقى عليه للشرعية فقط ، اذ انه اكتفى من الألقاب بالمنصور تاركاً لقب الخليفة لصاحبه الشرعي ، الصبي الذي كان قابلاً في حجر امه صبح ، في جزء قصي من كرسي العرش الضخم ، الذي لن يستطيع ملأه ابداً .

وهكذا اصبح ابن عامر الحاجب المنصور في عام 981/370 الملك غير المتوج للدولة الاسلامية في الأندلس ، التي اصبحت تعرف بالدولة العامرية نسبة له . فنقش اسمه على عملتها ، وصار الدعاء له من المنابر .

وان كان للناصر ان ينشئ مدينة الزهراء فللمنصور أن يقيم مدينة الزاهرة ، وان كان للزهراء ان تتألق لتصبح آية في الذوق والفن فستبزه الزاهرة عظمة وروعة ، وان عز على المنصور ان يحصل على روائع فن العالم ، كما فعل الناصر ، فليس على المنصور الا ان ينقلها من الزهراء الى الزاهرة ، فالمسافة بينهما قصيرة ولا فرق كبير بين زهراء وزاهرة ولا بين ناصر ومنصور .

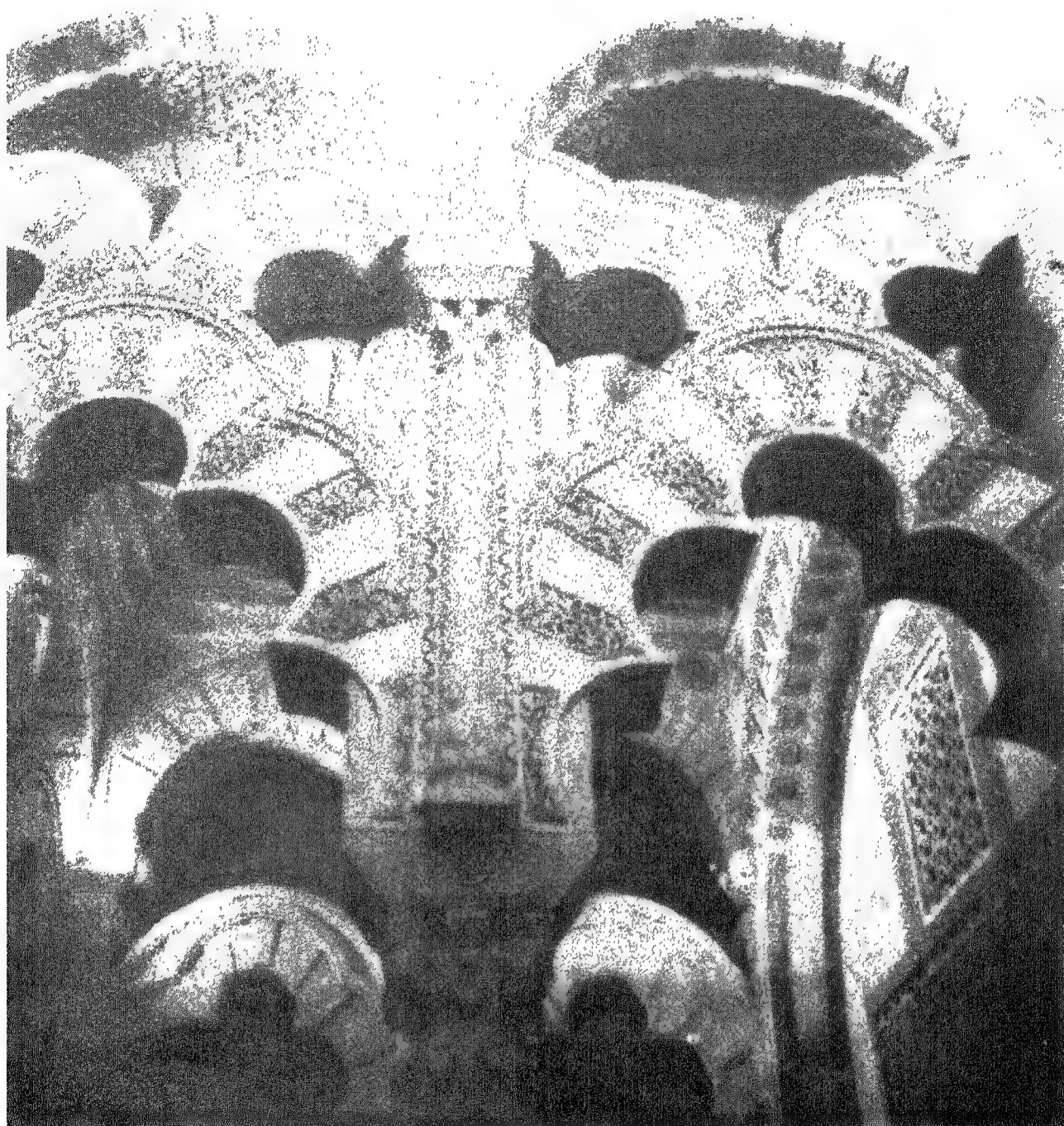
وهكذا انفرد الحاجب المنصور بالحكم المطلق ، الذي لم يجزؤ احد على منازعته فيه . فقد اطاح جميع الرؤوس التي كانت تدور فيها مجرد أفكار طموحه ، وعزز الجيش بعناصر قوية موالية تحميه من أي عدو داخلي او خارجي ، وجمع رصيماً من الانتصارات ضد اعدائه الاسبان المتربصين له في الشمال ، وانزل بهم الضربات القاسية واحدة بعد الأخرى ، فزاد عدد حملاته عن الخمسين ، عقد له لواء النصر فيها جميعها ، ولم ينهزم في واحدة منها على الإطلاق ، فانتزع ذلك له اعجاب الشعب الذي انسته هذه الانجازات العظيمة ، الطابع القمعي الذي اتسم به عهده .

الخليفة ، حاكم قرطبة ، محمد بن جعفر ، ابن الوزير المصحفي ، وجلس مكانه ، وبدأ يعد لحملة ثالثة ، بالاشتراك مع القائد غالب ، ما لبث ان عاد منها منتصراً ، وبصحبه هذه المرة القائد الفذ غالب ، فاستحق بذلك اكليل الغار وكرسي الزعامة الحقيقية ، فعين القائد غالب وزيراً موازياً للمصحفي ، ثم ما لبث ان عزل المصحفي والصق به تهمة الاختلاس والقي به في السجن الى ان قتل بتدبير منه .

وما كاد العامري يفرغ من مشكلة المصحفي الا وبدأ يخطط لاقتلاع ما تبقى من عثرات ما زالت تقف في سبيله الى الحكم المطلق ، الذي لا يريد ان ينارعه فيه منازع : غالب وصبح . اما صبح فكانت الاداة التي ظلّ يستخدمها لانتزاع الشرعية من ابنها الخليفة ، في كل ما قام به من اجراءات ، بدأها بعزل حاكم قرطبة ، ثم بتعيين نفسه مكانه ، ثم بتعيين غالب وزيراً مشاركاً للمصحفي ، ثم بعزل هذا الأخير والقائه في السجن بتهمة اختلاس أموال الدولة . وكانت اجراءاته هذه جميعها تتخذ بصورة شرعية ، وكل اوامره تصدر باسم الخليفة وتحمل خاتمه وتوقيعه . وكان خاتم الخليفة الطفل في يد أمه صبح .

أما غالب ، فقد بدأ يتوجس خيفة من زوج ابنته الجموح الذي لا حدود لطموحه . فقد استرق الاضواء منه ، في صميم اختصاصه ، في القيادة العسكرية ، في الحرب ، في الجهاد . ولعله أحس بأن دوره آت ، بل وآت عما قريب . وبدأ كل منهما يحفر حفرة للآخر .

جاءت المبادرة هذه المرة ، ليس من العامري ، بل من غالب الذي اقترح على زوج ابنته ان يشترك معه في حملة جهادية ، كعادتهما في السابق . وفي احدى الامسيات دعا القائد صهره الى وليمة يجتفي به فيها ، لم يلبث غالب اثناءها ان دخل مع صهره في عتاب رقيق ، انتهى بضربة سيف سددها العم الى صهره ، واتقاها الأخير ، الذي كان متحسباً لهذه البادرة ، وخرج منها بجرح سرعان ما برأ منه ، وهب لمحاربة خصمه الغادر ، الذي يقال انه تحالف



وبالرغم من تلوث يدي المنصور بالكثير من الدماء ، فقد كان رجلاً متديناً ، تلقى في مطلع حياته العلم والفقه واللغة في إحدى زوايا مسجد قرطبة الجامع ، مما زرع في قلبه قدراً من الايمان ، كان وراء نزعته الجهادية التي لم يبارح فيها أحد من قبله ولا من بعده في تاريخ الأندلس الطويل ، ودفع به الى توسيع مساحة المسجد الجامع بنحو ثلث مساحته الحالية ، ولو ان هذا الجزء الذي عرف باسمه لم يضارح الأجزاء الأخرى من حيث الزخرف والفن الرفيع . ولربما عكس هذا حقيقة شخصيته البعيدة عن طابع الفخامة والمظاهر العامة التي اخذت بالأفول في قرطبة منذ ان قبض على زمام الحكم . فركدت ، خلال السنوات الثلاثين التي قضاها على رأس الدولة ، حركة البناء ، وانفضت مجالس الانس ، وانفردت حلقات العلماء والأدباء والشعراء ، واخذ بريق قرطبة الساطع يخبو رويداً رويداً رغم الرخاء الاقتصادي الذي شهده هذا العهد ، نتيجة للاستقرار السياسي والسيطرة العسكرية .

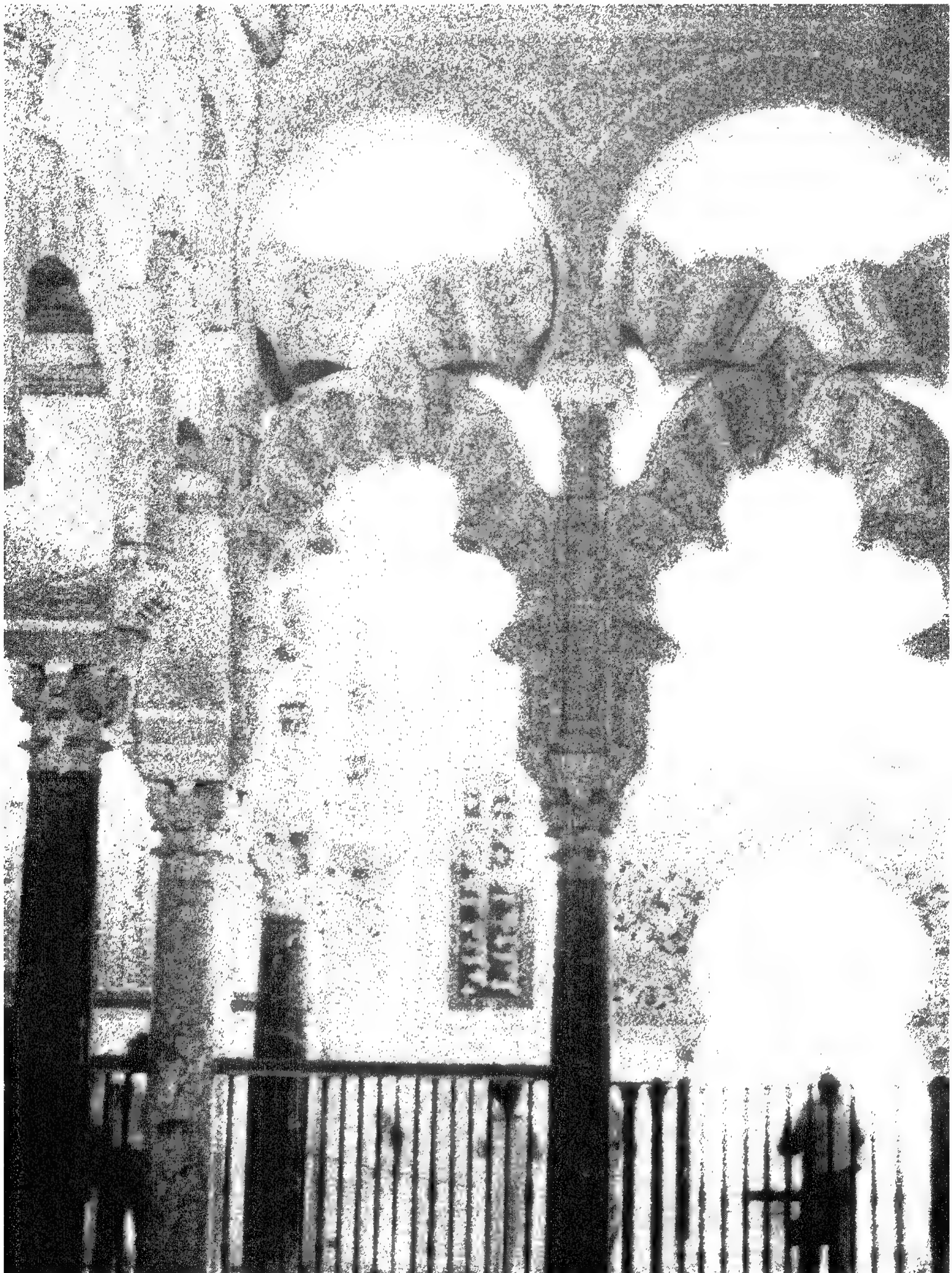
غير ان الحاجب المنصور ارتكب جريمة لن يغفرها له التاريخ . ذلك انه اعدم الآلاف من الكتب القيمة النادرة ، التي أفنى سلفه حياته وماله في سبيل الحصول عليها واستنساخها ، وخاصة الكتب التي تناولت مواضيع الفلسفة والمنطق والعلوم ، وذلك ارضاء للفقهاء الذين اخذوا يشككون في معتقداته الدينية ، فأحرق بعضها وأغرق البعض الآخر ، حتى ليقال ان مياه النهر في قرطبة اصطبغت بالسواد لكثرة ما بقي فيها من هذه الكتب .

ولما غاب المنصور عام 1002/393 ، بعد نحو ثلاثين عاماً من الحكم المطلق ، كان الخليفة الطفل قد شب دون ان يحظى من سلطات الحكم الا بسلطة التوقيع على المراسيم التي كان يعدها الحاجب المنصور ، بل انه ظل يرتع في مرابع القصر ، لا يأبه لما يجري خارجه ، بل ربما لم يعلم بأن دولة أخرى قامت خلف اسوار قصره ، واصبحت تعرف باسم خاص بها ، وان الحكم فيها اصبح وراثياً . فما دام هو الخليفة أمير المؤمنين المؤيد بالله ، وله حق التوقيع على المراسيم التي يعدها الحاجب ، فهو قانع ، سعيد ، قدير العين .

لم يناع عبد الملك بن محمد بن ابي عامر الذي اتخذ لنفسه لقب « المظفر » بعد وفاة أبيه ، اي منازع في وراثة الحجابة ، فاستأنف اعمال الجهاد مترسماً خطى والده ، خاصة وان الاسبان ، الذين اخذت مقاومتهم تتسم ، اكثر فأكثر ، بالطابع الصليبي ، قلبوا استراتيجيتهم الدفاعية ، التي فرضها عليهم الحاجب المنصور ، الى استراتيجية هجومية ، متتهزين ، كالعادة ، غياب القوي ، قبل ان يشتد غود الحاكم الجديد . غير ان ساعد الحاجب الجديد كان أشد مما تصوره اعداؤه فبطش بهم ، وشتت شملهم ، وسد الطريق امام تحركاتهم ، وظل يذكرهم سنة بعد أخرى في حملاته الجهادية ، بأن يد المسلمين طويلة ، وبأنها قادرة على البطش بهم في عقر دارهم .

ولئن لم يبلغ المظفر شأو ابيه الفذ ، فعلل السبب في ذلك أن القدر لم يمهله من الوقت ما أمهل اياه . فقد مات فجأة وهو في طريقه الى الجهاد عام 1009/399 ، ولما يمض على تسلمه زمام السلطة سبع سنوات . ولعله لم يعلم ، وهو يلفظ انفاسه الأخيرة ، انه عندما يدفن سيدفن معه عصر بكامله ، عصر الخلافة ، الذي التقف الحكم الاسلامي المركزي ، قبل ان يهوي الى دركات الانحطاط والتفسخ ، والذي اعاد للحضارة الاسلامية وميضها ، وجعلها اكثر سطوعاً ، وازهى بريقاً وتألقاً واشعاعاً . بل لعله لم يتصور ان تاريخ وفاته سيكون بداية الاصيل لعهد الاسلام التليد في شبه الجزيرة الايبيرية ، في حياة اندلس العرب .

ولو ظل قبر المظفر مفتوحاً لبضعة أشهر لاستقبل كذلك جثمان أخيه شنجول . وشنجول هذا ، واسمه الحقيقي عبد الرحمن بن محمد بن ابي عامر ، عرف بهذا الاسم نسبة لأمه التي انحدرت من عائلة شنجة الاسبانية . غير ان شنجول هذا لم يرث عن ابيه من الخصال الفذة ما يؤهله لوراثة المنصب الذي أفنى ابوه حياته لتثبيت اركانه ، وجعله الموقع الحقيقي للسلطة . ولم يرث عن ابيه ، قطعاً ، ميزة بعد النظر التي ضمنت له السلطة دون اللقب ، واللب دون القشور .



فشنجول لا تهمه السلطة ، ولا يرغب بالحكم ، إلا بقدر ما يبيؤه ذلك من ترف واهبة . ومن مظاهر الأبهة ، اللقب . وصاحب اللقب الحقيقي قزم قابع في حجر امه ، لا حول له ولا قوة . أما هو ، فهو ابن ذلك العملاق العظيم الذي روض الأعداء وطبق اسمه الآفاق ، واحتوى بقبضته الحديدية العز والامجاد . وان كان لا بد من بقاء الخليفة في منصبه ، فليكن هو ولي عهده .

وهكذا مارس الخليفة سلطته مرة اخرى ، فوقع على مرسوم يعين شنجول ولياً للعهد . وحمل شنجول المرسوم فرحاً به ، غير مدرك ان ما يحمله بيده لم يكن سوى جواز سفر الى الآخرة ، ذلك ان الامويين ، الذين كان لا يزال لهم بعض الوجود هبوا ، بقيادة محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، وبمعاونة اعداء العامريين ، فاستولوا على قرطبة ، مغتنمين فرصة غياب شنجول عنها ، وخلعوا الخليفة الرمز عن عرش الخلافة ، واعلن قائدهم محمد بن هشام المذكور نفسه خليفة عام 1009/399 متخذاً لقب « المهدي » ، بعد ان قضى على كل اثر من آثار العامريين بمن فيهم شنجول .

وقد اشارت الدلائل ، بادىء الأمر ، الى ان المهدي ، الذي اختار هذا اللقب واعداً بانبعث العهد الأموي ، قد يعيد الى الخلافة هيبتها ، والى حاضرتها رونقها وتآلقها ، والى الأمويين عزهم ومجدهم . غير ان الأمويين ، بين حاسد وطامع ، كانوا أول من بدأ يحفر للمهدي ، تبعثهم فشات أخرى لم تجد في الخليفة الجديد ملامح القيادة والحزم . فهو ليس بالناصر الذي التقف الامارة الأموية

قبل ان تبلغ الدرك الاسفل ، وارتنقى بها الى قمة المجد وذروة العظمة . فالأفذاذ لا يولدون كل يوم ، وما دام ان مصير الحكم مرتبطاً بشخصية الحاكم ، فإن زوال الحكم يتزامن مع زوال الحاكم ، وقد سنحت للامويين فرصتان ليسبغوا على الحكم صبغة مؤسسية ، ويضيفوا على الدولة مفهوماً قومياً ، غير انهم فشلوا في هذا وذاك ، اما بسبب النسيج المتنافر الذي تكون منه المجتمع الأندلسي ، او بسبب تغلغل الروح القبلية في اعماق زعمائهم ، مما اعماهم عن التفكير بارساء قواعد البقاء على صخرة أشد صلابة من صخرة الوراثة .

واستمر الحكم الاموي بعد ذلك مدة ربع قرن ، كان انجازه الوحيد تزايد الفتن والنعرات ، وسقوط العديد من الرؤوس ، وصياغة عدة القاب خلافة ، بين مستعين بالله ومستظهر بالله ومستكف بالله ومعتد بالله الى آخر ذلك من القاب ، الى ان ضاق صدر الوزير ابي الحزم بن جمهور ، ونقد صبره مما جرّه ذلك على البلاد من ويلات ، فانقض على بني امية . . . «ومشى البريد في الاسواق والارباض بأن لا يتبقى أحد في قرطبة من بني امية ، ولا يكتنفهم احد» . فدفن الخلافة مع هذه الرؤوس في حفرة عميقة ، وغطاها بحجر ثقيل ، نقش عليه تاريخ انتهاء الخلافة عام 1031/422 ، الذي يمكن اعتباره تاريخ بداية الغروب الطويل الذي بدأ الوجود الاسلامي يسير فيه ، قبل ان تنسدل عليه الستارة ، ويصبح واحداً من الحقب التي تتحدث عنها كتب التاريخ .

اسماء الخلفاء

1 - عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله)،
(912 / 300 - 961 / 350) أصبح خليفة عام (929 / 316).

2 - الحكم الثاني (المستنصر بالله)،
(961 / 350 - 976 / 366).

3 - هشام الثاني (المؤيد بالله)
(976 / 366 - 1013 / 403).

اسماء الحُجَّاب : (الدولة العامرية)

1 - محمد بن أبي عامر، الحاجب المنصور-
(976 / 366 - 1002 / 393).

2 - عبد الله بن محمد بن أبي عامر، المظفر-
(999 / 393 - 1009 / 1002).

3 - عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر (شنجول)-
(1009 / 399 - 1009 / 399).

المؤرخ	العام	المراقب	بتداول بيانها للمفسر
1030			- هشام بن محمد بن عبدالله بن عبد الرحمن الناصر . أطاح في ثورة بقيادة أبي الحزم بن جهور وبذلك انتهت الخلافة .
1025			- محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الرحمن الناصر (المستكفي) . - عبد الرحمن بن هشام (شقيق المهدي) (المستظهر بالله) .
1020			- يحيى بن علي (المقلي) . - القاسم بن حمود (الأمون) . - علي بن حمود (الناصر) .
1015			- سليمان بن الحكم بن سليمان ابن عبد الرحمن الناصر (المستعين) . - الخليفة هشام المؤيد (ثانية) .
1010			- الخليفة المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر
1015			
1000			
995			
990			الدولة العامرية
985			
980			- الخليفة هشام المؤيد (١٢ عاماً) .
975	الفاطميون	الفاطميون	
970			
965			
960	الفاطميون		- الخليفة الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن الناصر .
955			
950			
945			
940			
935	الأخشيدون	الأخشيدون	
930			- عبد الرحمن الناصر (خليفة) .
925			
920			
915			
910			- عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط (أميراً) .
905	العباسيون	العباسيون	
900	الطولونيون	الطولونيون	العباسيون

- الخليفة المهدي: ثار على شنجول وقضى على العامريين.. تعاقبت الفتن والثورات إلى أن قضى أبو الحزم بن جهور على الحكم الأموي المتآكل. بدأت نهاية الدولة العربية الموحدة واقتسم الحكم في الأندلس ملوك الطوائف.

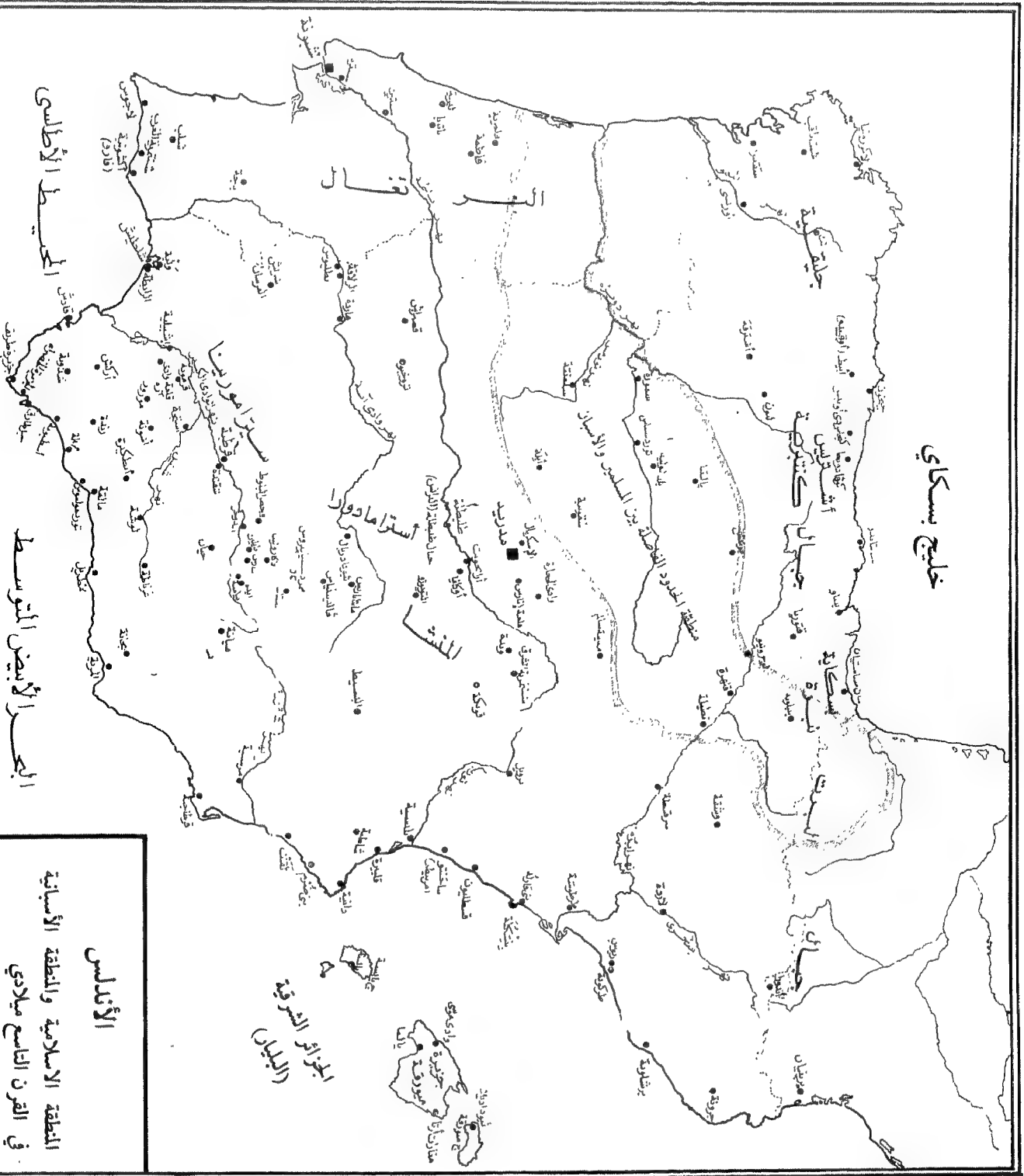
- الحاجب عبد الملك والحاجب شنجول: مات عبد الملك بعد سبع سنوات من الحكم. استصدر شنجول براءة من الخليفة الرمز بتعيينه ولياً لعهد الخلافة فخلعه الأمويون.

- الحاجب المتصور محمد بن أبي عامر: خلع الوزير المصحفي وسيطر على الخليفة الرمز وأصبح الملك غير المشوَّج. قام بغزوات جهادية عظيمة. ابنتى مدينة الزاهرة. أضاف جناحاً جديداً إلى الجامع يعادل ثلث مساحته الكلية. شكك الفقهاء بمعتقداته فأحرقوا أرضاء لهم، عدداً كبيراً من الكتب التي تتناول الفلسفة والعلوم التي كانت تزخر بها مكتبة قرطبة الكبرى.

- الخليفة الحكم المستنصر بالله: كرس معظم جهوده وحياته للعلم. أنشأ مكتبة قرطبة العظمى. شجع على انتشار العلم والأدب. وأصل توسيع المسجد الجامع بقرطبة. أنشأ الكثير من المدارس بما في ذلك مدارس مجانية للفقراء.

- الخليفة عبد الرحمن الناصر: أعلن نفسه خليفة عام 929. أخضع الثائرين وناقل الحكم المركزي من الأندلس. أنشأ قوة بحرية عظيمة. عمل على توسيع المسجد الجامع بقرطبة وأكمل قبة المحراب. أنشأ مدينة الزهراء. شهدت البلاد في عهده نهضة أدبية علمية عمرانية كبرى لم يشهد التاريخ العربي عضراً زاهراً كهذه.

خليج بسكاي





ملوك الطوائف - دولة المرابطين - دولة الموحدين

ملوك الطوائف : 1009/400 - 1141/536

عندما أمسك الوزير ابو الحزم جهور بزمام الحكم في قرطبة عام 1031/422 ، كان قد مر على الوجود العربي في الأندلس أكثر من ثلاثة قرون . ولو ان الحكم العربي لم يعمد طيلة هذه المدة الى خلق الأساس القومي الذي تتحطم على صخرته جميع مؤامرات التجزئة والتفتيت ، إلا ان بعض السواعد القوية استطاعت ، من آن الى آخر ، للملحة الاطراف المبعثرة ، واحتواء فسيفساء المجتمع المتنافرة ، والإبقاء على الوحدة الشكلية بحد السيف أحياناً ، وبقوة شخصية الحاكم أحياناً أخرى . فطالما ظل الساعد القوي ممسكاً بهذه الرقعة الفسيفسائية ، ظلت اجزاؤها في مكانها . ولكنها سرعان ما تتناثر وتختلط وتتبعثر عندما ينحسر ظله او تغيب قبضته . غير ان هذا الساعد كان في كثير من الأحيان بدلاً من ان يعمل على تثبيت اجزاء الفسيفساء هذه على قاعدة القومية ، واذا به التنافر بين عناصر المجتمع ، وشد اجزائها بعضها الى البعض الآخر ، كان يعمد في تكريس تنافره ، وتعميق هويته ، وتعظيم تباينه ، انطلاقاً من مبدأ فرق تسد .

وان كان التباين مقتصرأ بادئ الأمر على الناحية العددية ، بسبب توافد اعداد كبيرة من بربر المغرب ، إما كجنود جاء بهم العرب وجعلوا منهم القوام الرئيسي للجيش ، كما رأينا ، أو كمهاجرين اجتذبهم بلاد الأندلس الغنية الخصبة ، إلا أن بعض الحكام عمدوا ، تخوفاً من طموح اشراف العرب ومؤامراتهم وتكتلاتهم القبلية ، الى اسناد بعض المراكز الحساسة الى البربر بل وإلى الصقالبة ، الأمر الذي ادى الى تزايد نقمة العرب عليهم ، وتوسيع الهوة بين هاتين الفئتين الرئيسيتين .

بل أن بعض العرب ، كالامويين ، استعانوا بالبربر ، بعد القضاء على شنجول مثلاً ، ضد العرب الآخرين المناوئين لهم ، فاستغل البربر ذلك في القضاء على جميع

الفئات وتعزيز اتجاهاتهم هم الاستقلالية . ولما انتصر المستعين بالله الأموي على خصومه مثلاً ، قسم البلاد بين انصاره من البربر ، في حين استولى اعداؤه العامريون على بعض المدن الشرقية .

ولما قام الوزير ابو الحزم جهور بانتفاضته لم يكن باقياً في قبضة الحكم المركزي سوى حاضرتة قرطبة وجيان وبياسة . اما ما تبقى من المناطق التي كانت تابعة للحكم المركزي ، فقد استولت عليها مختلف الطوائف ، واقامت فيها ممالك بلغ عددها في وقت من الأوقات نحو عشرين مملكة اتخذ ملوكها القاباً رنانة فتحق بهم قول ابن رشيق القيرواني :

« مما يزهدني في أرض أندلسٍ

سماع معتضد فيها ومعتمد

القاب مملكة في غير موضعها

كأهر يحكي انتفاضا صولة الأسد

وهكذا أصبح العصر الذي عقب الخلافة يعرف بعصر ملوك الطوائف وأهمها :

بنو هود (عرب) : سرقسطة ،
1009/400 - 1141/536 .

بنو رزين (بربر) : شمترية الشرق ،
1011/402 - 1106/497

بنو حود (عرب) : قرطبة ، مالقة ، الجزيرة الخضراء ،
1016/407 - 1058/450

بنو عامر (موالٍ عامريون) : بلنسية ،
1021/412 - 1085/478

بنو الأفطس (بربر) : بطليوس ،
1022/413 - 1094/487

بنو عباد (عرب) : اشبيلية ،
1023/414 - 1091/484

بنو جهور (عرب) : قرطبة ،
1031/422 - 1070/463

بنو ذي النون (بربر) : طليطلة ،
1035/427 - 1094/487

ولئن شهدت اندلس الاسلام في عصر الطوائف بريقاً

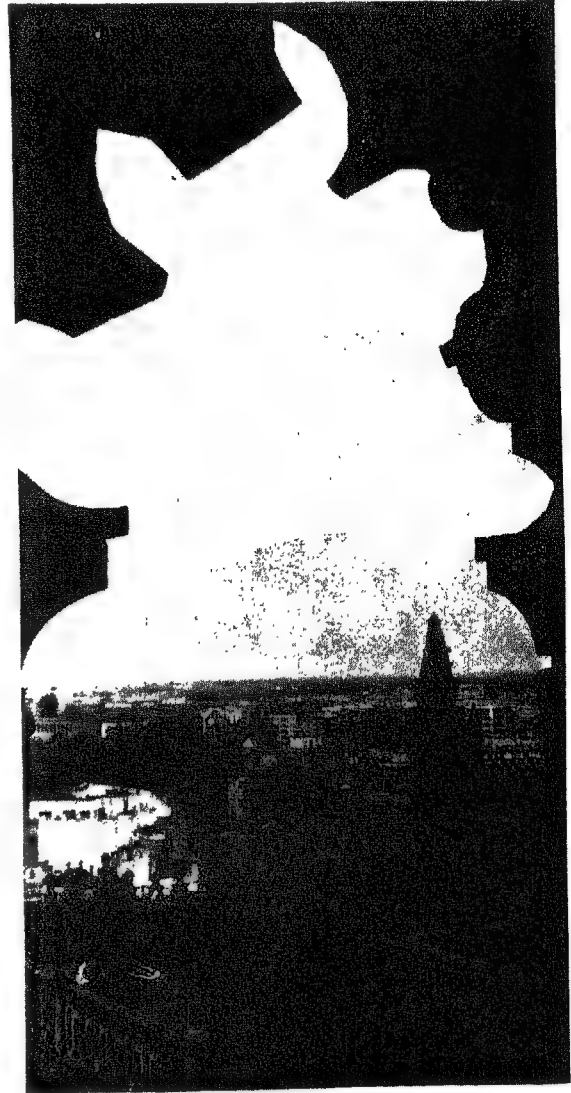
وباستثناء بعض المبادرات التي قام بها بنو عبد في
اشبيلية ، وبنو هود في سرقسطة ، لتشجيع العلماء وفتح
ابواب المجالس امامهم ، أسوة بالخلفاء من قبلهم ، فقد
كان همهم الأول والأخير الحفاظ على ممالكهم ، مهما كان
الثمن ، حتى لو أدى ذلك الى الارتقاء تحت اقدام
اعدائهم ، وهدر كرامتهم وكبريائهم ، بل ان بعضهم
كان يدفع الجزية الى ملوك الاسبان مقابل حمايتهم من
اخوانهم في الدين والجنس .

وهكذا تنقلب المفاهيم ، ويختلط الحابل بالنابل ،
فيتحد النصارى ، ويتفرق المسلمون ، وتفرض الجزية
على المسلمين ، بعد ان ظلوا يتقاضونها من الاسبان زهاء
أربعة قرون ، ويتعالى ذليل الأمس ، ويموت الشموخ
والكبرياء ، وتعود سيوف المسلمين الى اغمارها ، لا تنسل
منها الا لتهوي على رقاب اخوة لهم في الدين وفي المصير .
وبينما كان يسبح المقتدر بالله ، اشهر ملوك بني هود
بحمد الله على نعمائه قائلاً :

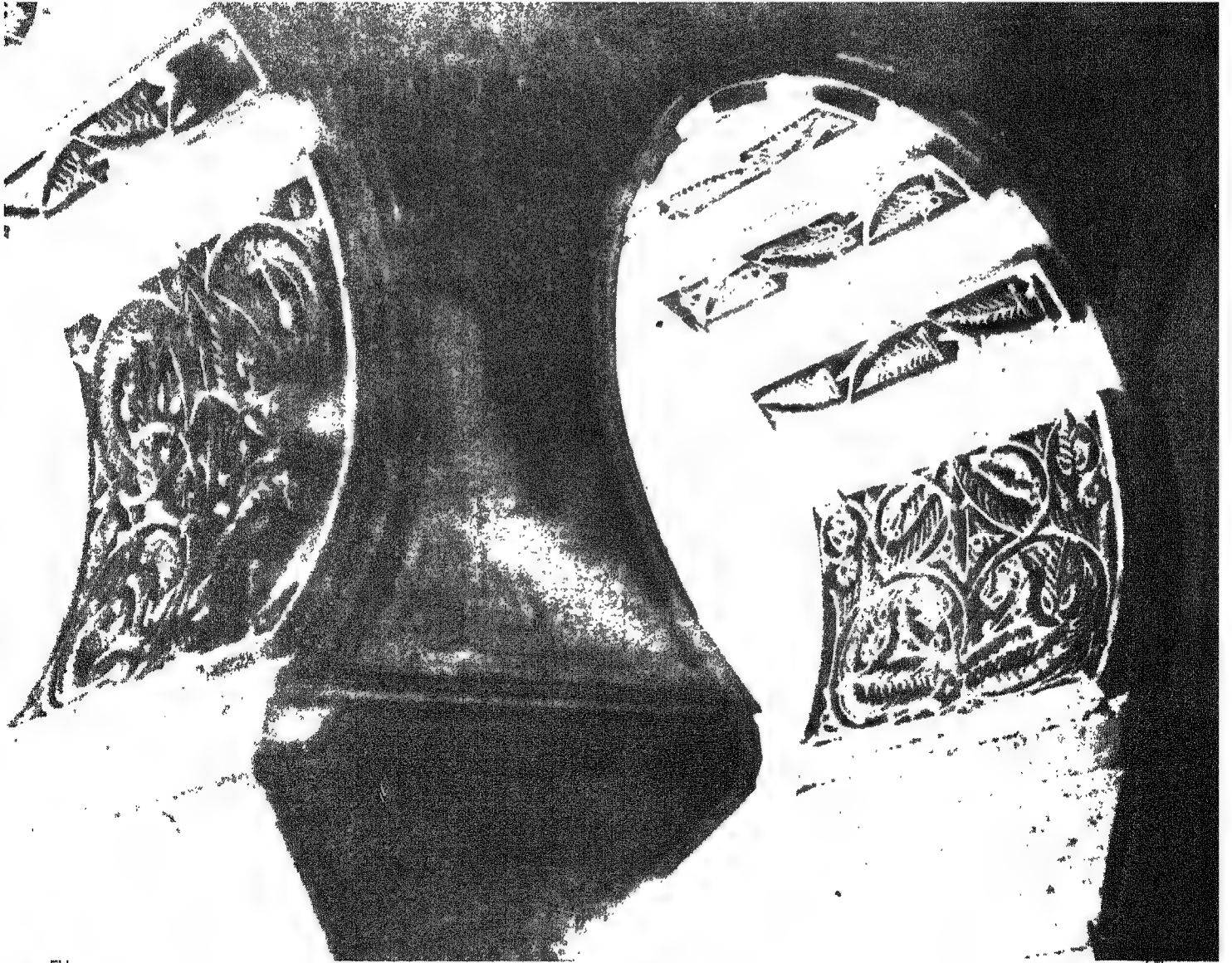
قصر السرور ومجلس الذهب
بكما بلغت نهاية الارب
لوم يحز ملكي خلافكما
كانت لدي كفاية الطلب

كان الفونسو السادس ملك قشتالة قد بلغ في احدى حملاته
جزيرة طريف في اقصى جنوب الأندلس ، اول موطىء
لقدم عربية ، ودخل البحر على صهوة جواده قائلاً « هذا
آخر بلاد الأندلس قد وطئته ، وهنا يجب ان تنتهي
بنودي » .

حضارياً يشبه ، في ظاهره ، بريق قرطبة في عهدها
الزاهر ، إلا أن الوجه الحضاري هذا اقتصر على صناعة
الكلمة أكثر من أي شيء آخر ، فانطلق الادباء والشعراء
يتبارون في التقرب الى الحكام ، وقد انفتحت لهم ابواب
كثيرة وليس باباً واحداً كأيام الخلافة ، فتنوعت
قصائدهم ، عاكسة روح ذلك العصر الذي اتسم
بالتشردم واللامبالاة وحياة الترف والمتعة ، فكثر المديح
والهجاء ، وزاد الغزل والفجور ، ونشأ فن الاستغاثه
والاستنجاد ، عندما بدأت تتعرض هذه الممالك القرمية الى
اخطار الزحف الاسباني .



منظر لمدينة اشبيلية من منارة الجيرالدا .



عقد من عقود قصر مالقة في القصبة .

ملك اشبيلية في مؤتمر « قمة » للتذاكر لا للاتحاد . فلما اشار بيده جنوباً تجاه المغرب ، حيث المرابطون ، استعاذوا بالله قائلين « السيفان لا يجتمعان في غمد واحد » وكان لا بد من ان يجيئهم بنفس بلاغتهم فقال ، « رعي الجمال خير من رعي الخنازير » . ولعل بلاغة التعبير وليس سلامة منطقه ، هي التي اقنعتهم بالاستنجد بالمرابطين .

ولئن ألهمت كلمات الفونسو هذه الحماسة في نفوس نصارى الاسبان ، وزادت من تكاتفهم ووحدتهم وتصميمهم ، إلا انها لم توقظ في قلوب ملوك الطوائف أي شعور بالتضامن ، أو أي احساس بأن خلاصهم انما هو في وحدتهم وفي التخلي عن انانيتهم ومطامعهم الشخصية . وجل ما فعلوه ان هرعوا الى كبيرهم المعتمد بن عباد ،

جاء المرابطون دونما أي تلكؤ ، بقيادة رئيسهم ومؤسس دولتهم يوسف بن تاشفين ، فهزم جيش الفونسو السادس في معركة « الزلاقة » الشهيرة الحاسمة عام 1086/479 ، وغاد ادراجة الى المغرب ، بعد ان ترك جزءاً من جيشه هناك درءاً لأي خطر قد يستجد . أما الملوك فقد عادوا الى رحاب قصورهم ، وكأن شيئاً لم يكن . لم يستجدوا فأنجدوا ، ونصر الله المؤمنين على أعدائهم ، وفت في عضدهم ، وشتت شملهم ؟

والاسبان الذين لم يستكينوا رغم تشرذمهم وتفرقهم ومنازعاتهم هم الآخرون منذ غزا المسلمون بلادهم قبل اربعة قرون ، والذين قدموا في سبيل استعادة بلادهم آلفاً مؤلفة من الارواح ، وقارعوا دولة المسلمين حتى عندما كانت في أوج قوتها وعظمتها ، واعتادوا الهزائم الواحدة تلو الأخرى ، دون ان يدب اليأس في قلوبهم ، لن تفت هزيمة أخرى في عضدهم ، خاصة وان اعداءهم بلغوا من الفرقة والانحطاط ما لم يبلغوه من قبل . فتوالى تحرشاتهم بالدويلات العربية ، ينهشونها قطعة قطعة .

وجاءت صرخات المسلمين هذه المرة ، ليس من الملوك بل من العامة والاعيان والفقهاء . . . اخذوا يصرخون بكل ما تصل اليه قرائحهم من روائح قصائد الاستنجاد والاستغاثة ، بما جعل المؤرخين للأدب الأندلسي يفردون لها باباً خاصاً أسموه « فن الاستنجاد والاستغاثة » .

لبى يوسف بن تاشفين مرة أخرى نداءات الاستغاثة عام 1090/483 ، أي بعد أربع سنوات من حملته الأولى ، فهزم اعداء المسلمين مرة أخرى ، لكنه خلع هذه المرة ، معظم ملوك الطوائف ، بعد ان رأى ما رآه من تخاذلهم ، بل وتواطؤ بعضهم مع العدو . وخلال ما يزيد قليلاً عن عشر سنوات ، ضم يوسف الأندلس الى دولته ، وقد تمت سيطرته على معظمها ، فأصبحت جزءاً من دولة المرابطين عام 1101/495 وعاصمتها مراكش .

ولما اراد يوسف بن تاشفين تثبيت سيطرته على الأندلس ، وأخذ بيعة اهلها ، جمع الفقهاء لهذا الغرض ، إلا انهم طالبوه باستصدار ولاية رسمية من الخليفة العباسي المستظهر بالله ، قبل ان تجب طاعته على الكافة ، فأرسل الى الخليفة رسولاً ومعه هدية كبيرة يطلب اليه ان يقلده ولاية البلاد . فكان له ما أراد ، ولقب بأمير المسلمين .

ولا بد ، قبل متابعة تطور أوضاع الأندلس في ظل حكم المرابطين ، من القاء نظرة سريعة على تاريخ هذه الدولة ، لنعي اثر نشأتها على تطور علاقتها بالأندلس .

لقد كانت نشأة دولة المرابطين وليدة صدفة . ذلك ان احد زعماء قبائل صهناجة البربرية ، التي كانت تسكن ما يعرف الآن بموريتانيا وهو يحيى الكدالي ، اراد لافراد قبيلته ان يلموا بالاسلام المأمأ سليماً ، فجاء بفتية اسمه عبدالله الغزولي يرشد الناس الى تعاليم الدين الحنيف .

غير ان افراد هذه القبيلة الذين كانوا يعيشون كيف اتفق ، لا يخضعون لقانون ولا ينظم حياتهم عرف ولا يعرفون من الاسلام غير اسمه ، لم يستطيعوا الانضباط ، ولم يتحملوا القيود التي اراد من خلالها ان ينظم حياتهم في اطار تعاليم الاسلام ، فانفضوا عنه ، سوى قلة منهم ، تبعته الى رباط قصي في الصحراء ، حيث أخذ يعلمهم ويعدهم الى الخروج ونشر تعاليم الدين .

ولم يمض أكثر من عشرين عاماً ، حتى استطاع هذا الفقيه ان يربى نشأ قوياً بآيمانه . ظل يرعاه ويزيد من عدد افراده ، الى ان بلغ من الضخامة والقوة ما دفعه الى التفكير بالاستفادة من ذلك في نشر تعاليمه التي تقوم على العلم والدين وحياة التقشف والزهد واصلاح الفساد وتطبيق الشريعة الاسلامية ، فأعلن الجهاد ، وخرج مع جماعته التي اصبحت تعرف « بالمرابطين » ، نسبة للرباط الذي اقاموا فيه ، او بالملثمين لأنهم كانوا يضعون اللثام على وجوههم . وما لبث الغزولي ان استشهد في تصادم مع السلطة لتؤول الزعامة الى اللمتوني الذي تخلى عنها لابن عمه يوسف بن تاشفين . وما لبث هذا ان هب الى توحيد

دولة الموحدين 1151/546 - 1268/667

لم يكن هناك كبير فرق بين الأساس الذي قامت عليه دولة الموحدين والأساس الذي قامت عليه دولة المرابطين قبلها ، فكلتا الدولتين ترجع في أصلها الى قبائل بربرية ، قادها الى الحكم رجل لم يكن راضياً عن الحياة الدينية التي يعيشها قومه ، فقام بإشعال الإصلاح ، وبلغت دعوته من القوة ما جعلها تقوى على الدولة وتودي بها .

وبدأت دعوة الموحدين على يد رجل من قبائل المصامدة في المغرب اسمه محمد بن تومرت ، ينتسب الى آل البيت ، وقامت دعوته على أساس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلى أساس التوحيد على طريقة الأشاعرة وهي تأويل المتشابه من آيات القرآن وحديث الرسول ، ومن هنا عرف أتباعه بالموحدين .

وكان محمد بن تومرت قد التقى ببعض الأئمة في المشرق ومنهم الغزالي ، وعاد الى المغرب ، وقد تزود بآراء وأفكار بدأ يبشر بها وينشرها فلاقت رواجاً ، لما عرف عنه من فصاحة وقوة حجة وورع وغيره متناهية على الدين .

وكان محمد بن تومرت متزماً في نهيه عن المنكر الى حد استفزاز مشاعر الناس العاديين والحكام على حد سواء ، وقد مارس هذا التزم في كل بلد مر به في رحلته الى المشرق ، وأثناء عودته الى المغرب . فكان لا يرى خيراً إلا سكبها ، ولا آلة طرب الا حطمها ، ولا ما جناً إلا أغلظ اليه في القول ووجه اليه الالهانة ، حتى الحكام لم ينجوا من لسع لسانه .

غير أن ما كان يشفع له امام الحكام والمحكومين ، ما كان يتسم به من تقوى وصلاح واستقامة . وكان الذي يشد الكثير من الناس اليه ، مقارنته للحكام الفاسقين المنحرفين الغافلين عن تعاليم الاسلام ، التي تقول بالتقوى وبمراعاة مصالح المسلمين .

ولما بدأ الحكام يضيّقون به ذرعاً ، ويستعدون للانتفاض عليه ، ابتعد بنفسه وبأتباعه عنهم ، والتجأ الى قبيلته ، حيث بدأ يكرس جهده في تعليم جماعته واعدادهم للدعوة .

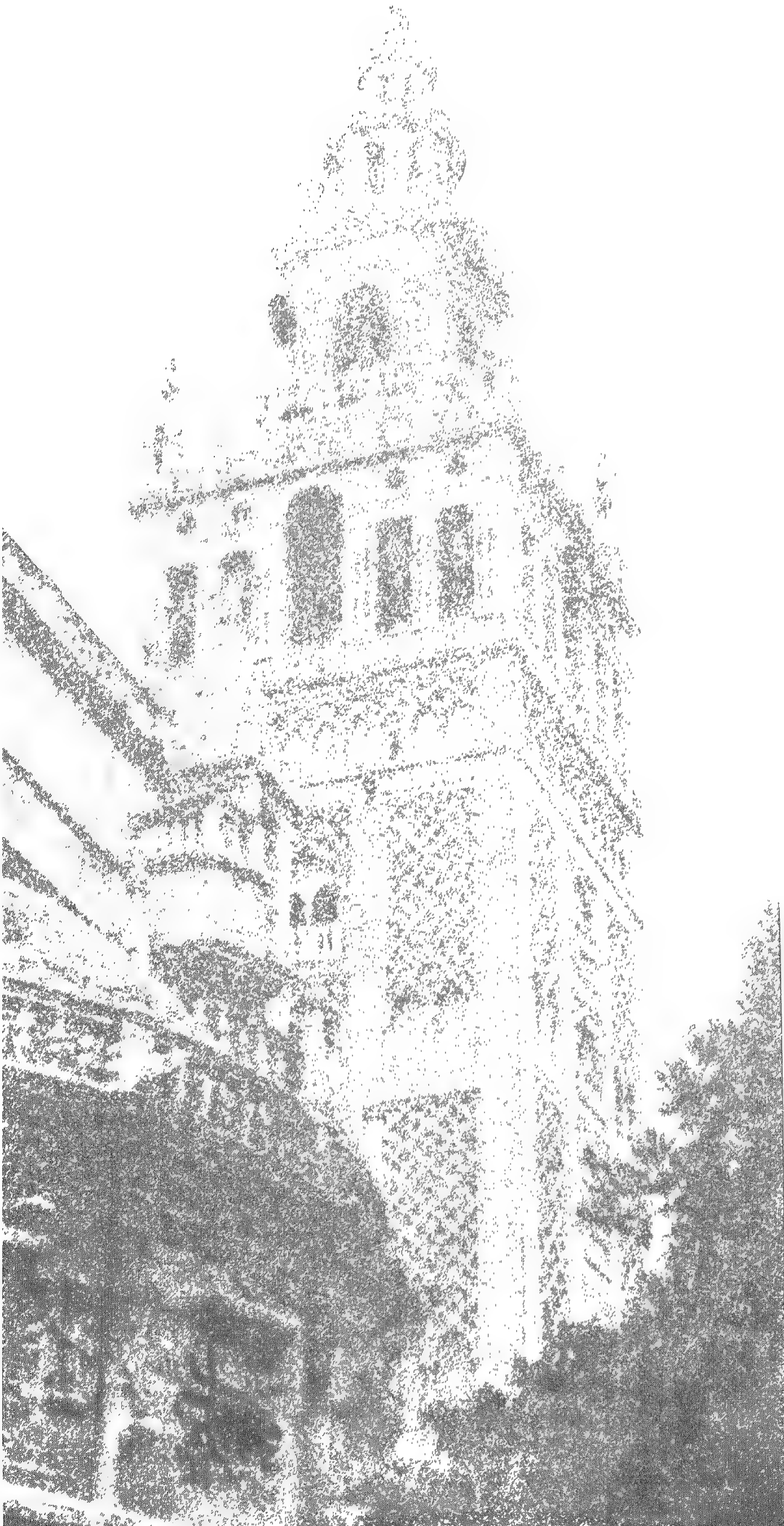
المغرب ، الى أن دخلت في طاعته الرقعة الممتدة من المغرب الى السودان ونهر النيجر .

ولقد رأينا فيما تقدم كيف ساقته الأقدار الى الأندلس ، التي ما فتىء ان ضمها الى دولته الضخمة ، وأنشأ لها عاصمة جديدة اسمها مراكش .

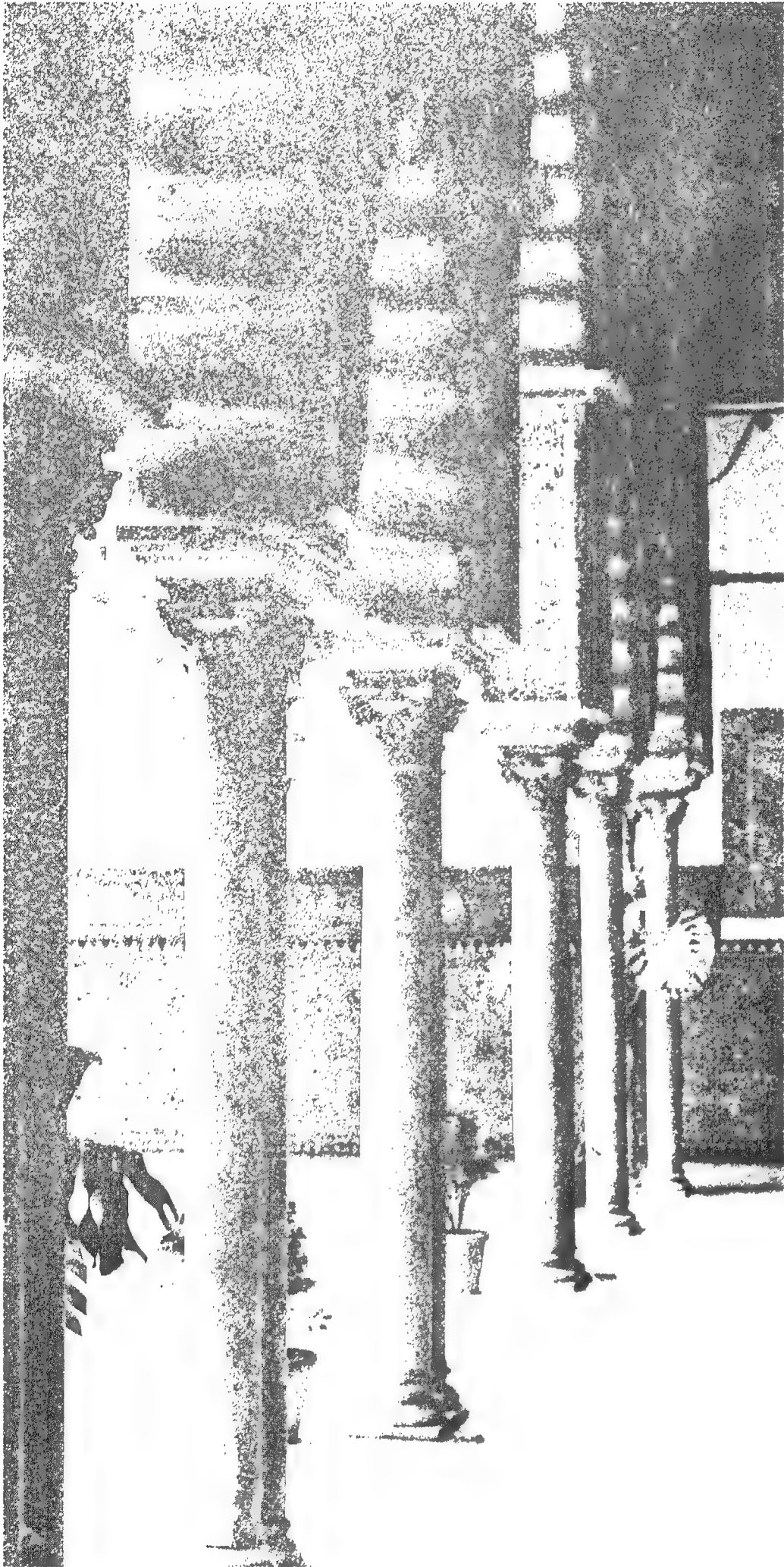
ومات يوسف بن تاشفين عام 1106/500 وقد بلغت دولته ذروة مجدها ، فورث الحكم فيها ابنه علي بن يوسف ، الذي ادى به تدينه الشديد ، وانصرافه الى التعمق في الفقه ، الى اغفال شؤون الحكم ، مما ادى الى اختلاله ، وإلى تضعف قوته العسكرية ، ثم الى انهيار بعض المواقع الاسلامية في قشتالة واراغون والبرتغال وغيرها ، وبالتالي الى سقوط دولة المرابطين في المغرب على يد الموحدين بقيادة عبد المؤمن بن علي خليفة المهدي بن تومرت عام 1145/540 .

ولم يأفل نجم دولة المرابطين دون ان تترك بصماتها على التراث العلمي والادبي في الأندلس . فقد انفتح عهد المرابطين على الادب والشعر والعلم ، واستقطب اصحاب الفنون والعلوم من الأندلس ، ورعاهم . وأغدق عليهم . وكان لتوحيد الأندلس والمغرب في دولة واحدة مترامية الاطراف اثره النفسي العظيم على سكان هذين القطرين ، اللذين اصبحا بلداً واحداً ، يعطي كل منهما الى الآخر ما هو بحاجة اليه . فكان المغرب يوفر للأندلس الحماية ، وكان الأندلس يغدق على المغرب المعرفة والثقافة والفكر ، الامر الذي ادى الى تعزيز النهضة العلمية والأدبية والفكرية في المغرب ، وإلى ازدهار الحياة الاجتماعية فيها وتكامل سكان البلدين واذابة التناقضات السياسية بينهما .

ولم يبخل المغرب في رعايته لارباب العلم والأدب . فشمّل عدداً من اعظم العلماء والمفكرين والأدباء برعايته ومنهم الطبيب ابو العلاء بن زهر ، وابنه الطبيب ابن زهر الاشبيلي ، والفيلسوف الكبير ابو بكر بن باجه ، الذي كان عالماً بالطب والموسيقى والأدب ، والفيلسوفان الشهيران أبو الوليد بن رشد ، وابو بكر بن طفيل ، وغيرهم كثير .



منارة الخير الدا باشيلية .



فناء المذارى بقصر اشبيلية .

عشرات الألوف من الاسرى. ومن أجل اعماله الانشائية اكمال جامع اشبيلية واتمام مئذنته التي تعرف الآن بالخيرالدا (La Giralda).

ولم يخل عصر الموحدين من العطاء الفكري والعلمي والادبي. فقد شجع خلفاء الموحدين علماء الفلسفة والحكمة كأبي بكر بن طفيل وأبي الوليد بن رشد الذي لخص كتب ارسطو. كما أنشأ يوسف بن عبد المؤمن مكتبة لا تقل قيمة وثراء عن مكتبة الحكم الأموي. واشتهر في عهد الموحدين أبو بكر بن زهر الطبيب الفيلسوف الشهير وكذلك الصوفي ابن عربي الحاتمي وابن سبعين والششتري، كما احتضن الموحدون أهل الأدب والقلم.

غير ان الاسبان لم يقبلوا بهزيمتهم الساحقة في الارك، وظلوا يستعدون للثأر، في ظل هدنة تم الاتفاق عليها إثر تلك المعركة. ولم تقتصر هذه الاستعدادات على اعداد الجيوش وتدريبها، ولكنها اتخذت صفة صليبية واضحة

طارقة باب جامع اشبيلية.



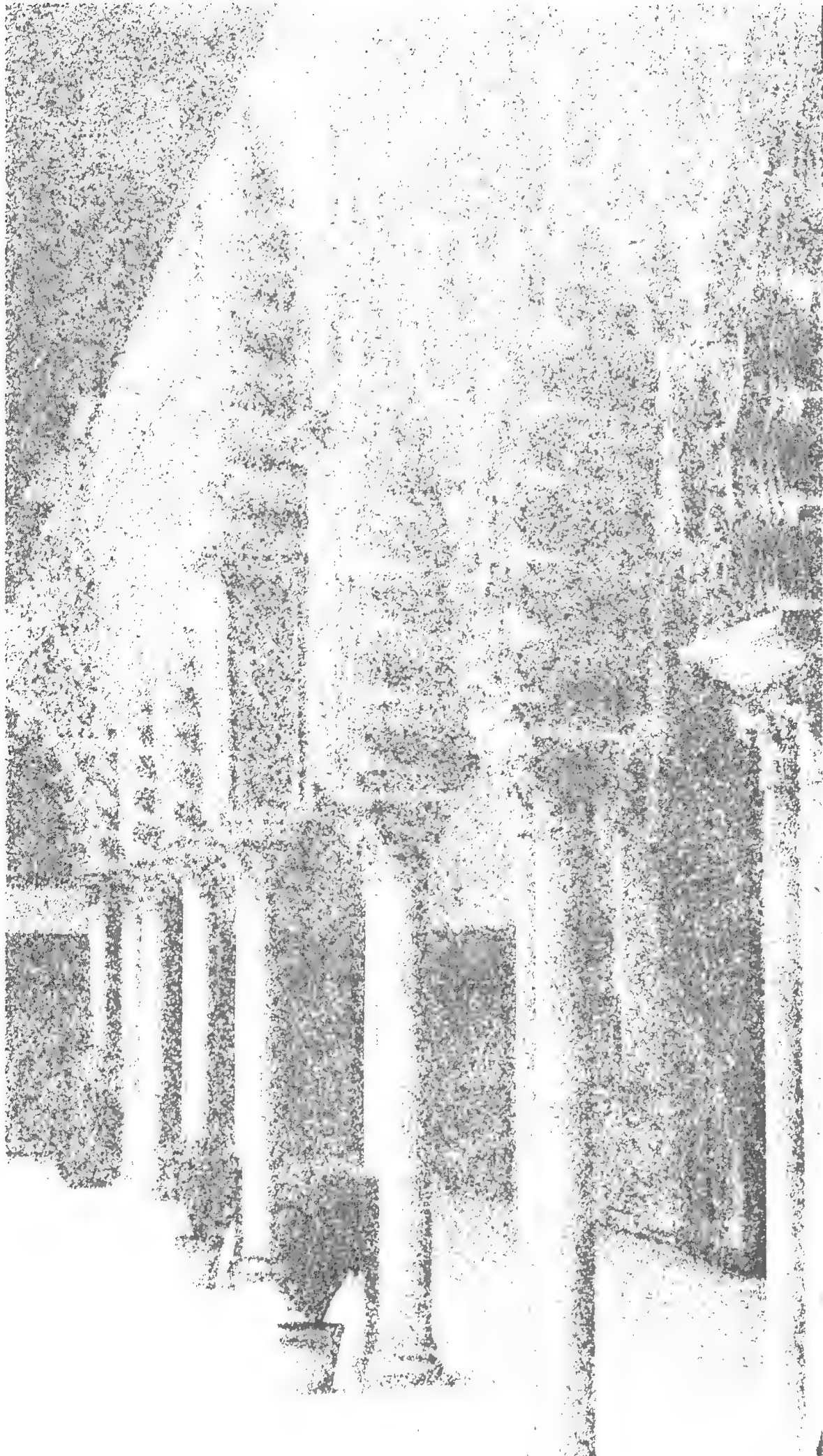
وبدأت تعاليم ابن تومرت تنتشر، ليس في قبيلته فحسب، ولكن في قبائل عديدة أخرى. واخذ الناس يفدون اليه من كل صوب وحذب، الى حد ان الدولة أخذت تتوجس خيفة من الخطر الكامن وراء حركته، فجهزت حمة للقضاء عليه ففضى هو عليها عام 1120/515.

وتوالى المعارك بين الموحدين والدولة الى ان مات ابن تومرت عام 1129/524، فخلفه احد اتباعه وهو عبد المؤمن بن علي الكومي، الذي ظل يقارع الدولة حتى قضى عليها وأقام دولة الموحدين عام 1151/546 واتخذ مراكش عاصمة لها.

وكانت لعبد المؤمن صلة بالأندلس، ترجع الى عام 1147/542 عندما استقبل وفوداً أندلسية جاءت لتعقد له البيعة وتستنجد به على عدوهم الذي أخذ يبتلع الموقع بعد الآخر، والمدينة بعد الأخرى بعد انفراط عقد دولة المرابطين.

وكانت أوضاع الأندلس قد تردت الى ان عادت الى ما كانت عليه ابان عصر ملوك الطوائف، وزاد ضغط الاسبان على المدن الاسلامية، فتعالت صرخات الاستنجد والاستغاثة من جديد، الى ان دخل عبد المؤمن ابن علي زعيم الموحدين الأندلس عام 1160/555، فاستعاد الكثير مما فقدته المسلمون من مواقع ومدن، وضمها الى ملكه وجعل من اشبيلية حاضرة لدولة الموحدين في الأندلس، وعين ابنه ابا يعقوب يوسف والياً عليها.

ثم توفي عبد المؤمن وخلفه ابنه ابو يعقوب في الحكم عام 1162/558، فكانت له جولات جهادية موفقة ضد العدو، كما عمل على التشييد والبناء، الى ان توفي بعد ذلك بنحو عشرين سنة، فخلفه ابنه ابو يوسف يعقوب المنصور، الذي دام حكمه خمس عشرة سنة، بلغت دولة الموحدين خلالها أوج عظمتها وقوتها، وكانت له مواقف جهادية رائعة توجهها بأهم غزواته ضد مملكة قشتالة، فانتصر على ملكها في معركة «الأرك» عام 1195/590 التي يقال انه كبد فيها العدو مائة الف قتيل بالاضافة الى



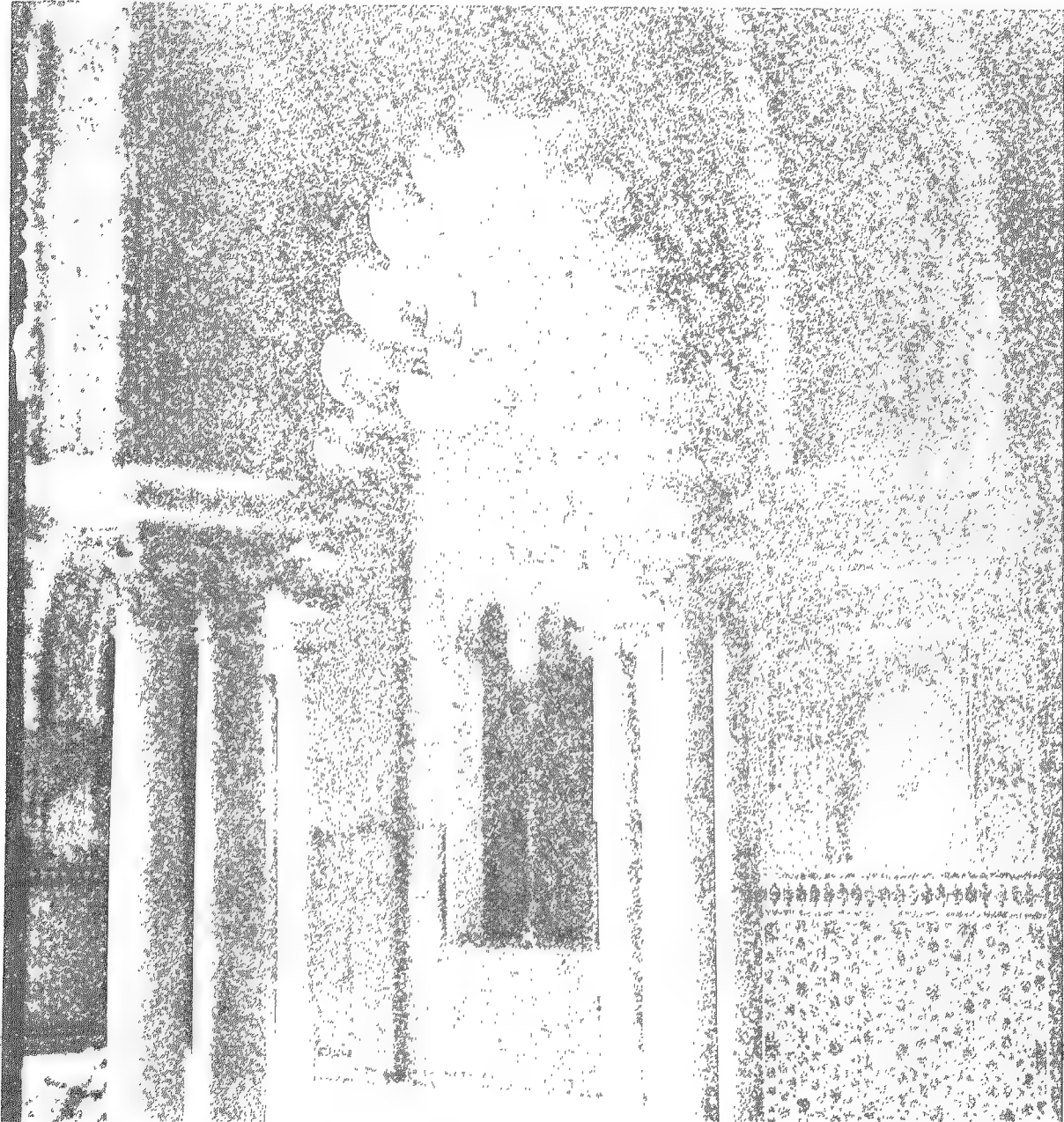
بهر العذارى في قصر اشيلبة .

المعالم ، بعد ان اتحد الفونس الثامن (Alfonso VIII) مع بطرة الثاني (Pedro II) واستعاناً ببقية ملوك الاسبان ، وجهم مع ملوك اوربا النصرانية ، حتى بالبابا الذي اسدهم بالمعونات المادية والمعنوية .

والتحمت جيوش النصراني بجيش المسلمين عام 1212/609 في معركة « العقاب » ، انهزم فيها المسلمون شر هزيمة ، ولم تنم لهم بعدها قائمة في تاريخ وجودهم بالاندلس . وبدأ الانحسار العربي ، واختدت أهم مدنه تساقط نباعاً ، فاستولى فرناندو الثالث (القديس) على قة طبة عام 1236/636 ، وسقطت كل من بلنسية ومرسية . عام 1239/637 ، الى أن بلغت حيوش قشالة مدينة

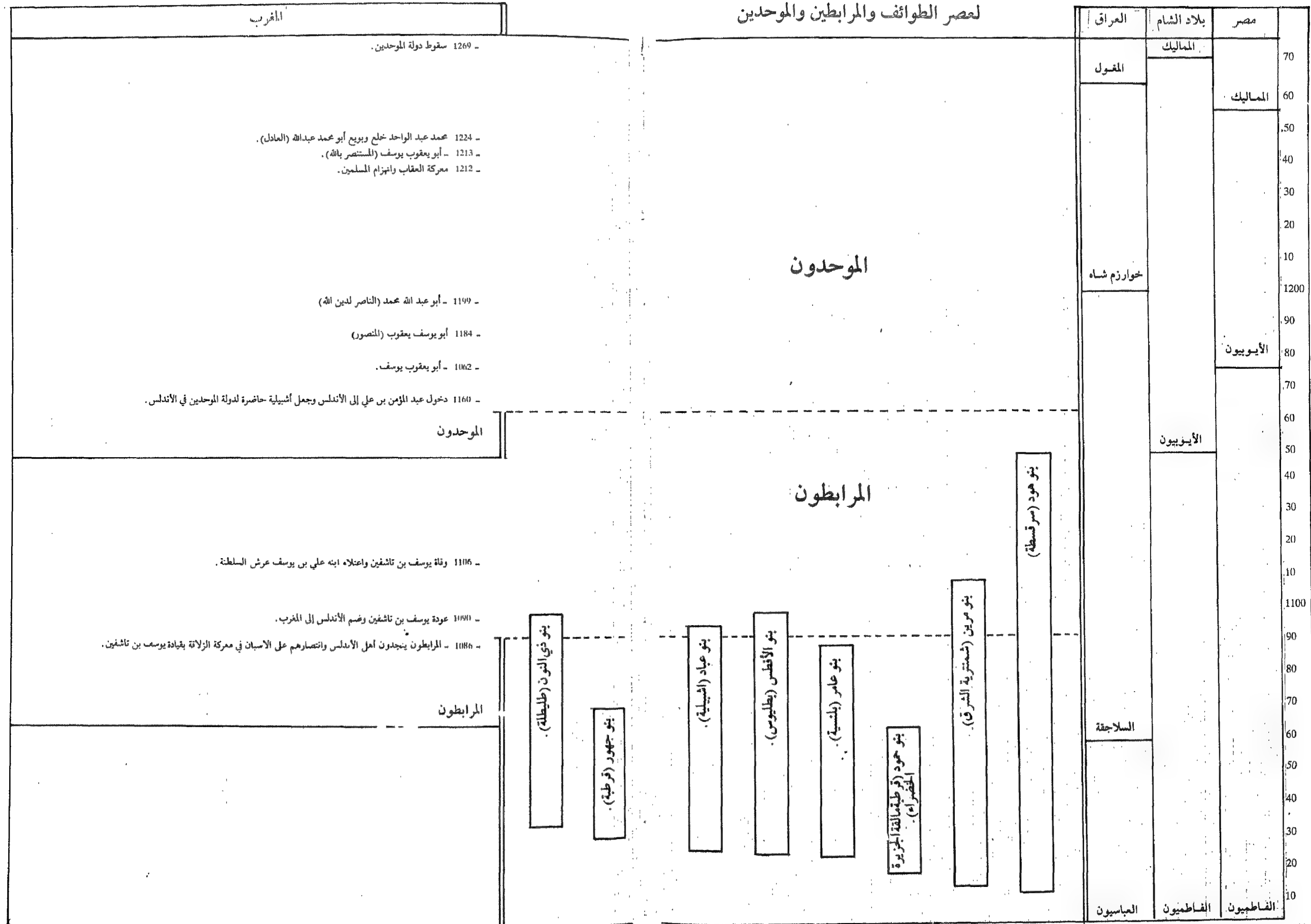
اشبيلية وحاصرتها لمدة 17 شهرا حتى سقطت عام 1248/648 . وبسقوط اشبيلية سقطت دولة الموحدين في الأندلس عام 1268/667 ، بعد أن أضفت على الأندلس ، وخاصة حاضرتة اشبيلية ، هالة من الأبهة والعظمة ، تجلت في قوتها الحربية ومكانتها السياسية ومآثرها الحضارية ، فاجتذبت وفوداً وسفارات من بلدان اوربية كان من بينها سفارة أوفدها ملك انجلترا هنري الثاني ، وأخرى أوفدها الملك شنجة السابع ملك نبرة .

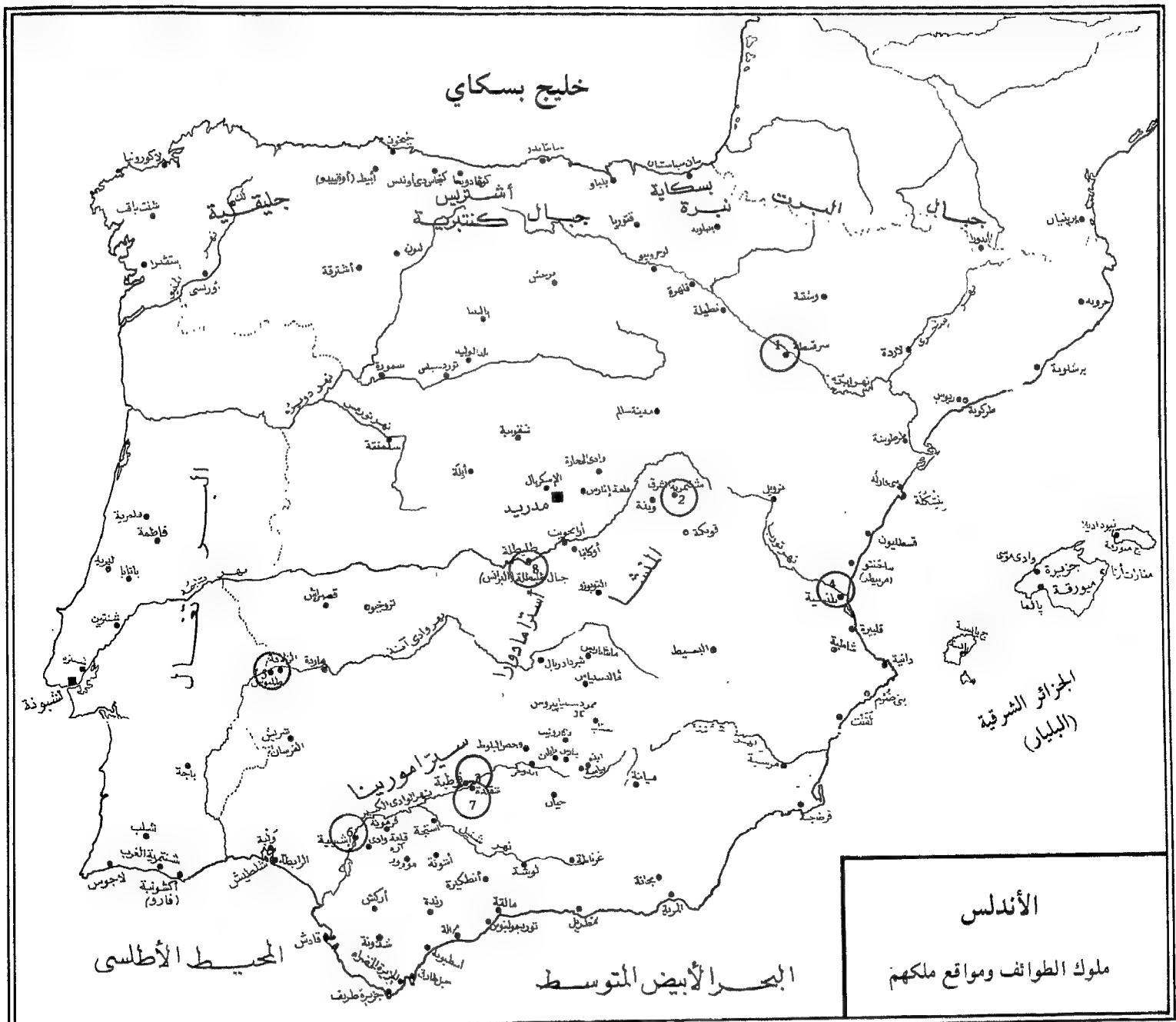
وبسقوط اشبيلية ودولة الموحدين في الأندلس بدا الوجود الاسلامي في الأندلس يشهد تحول الاصيل الى الغروب . . . الغروب الطويل .



جدول بياني

لعصر الطوائف والمرابطين والموحدين

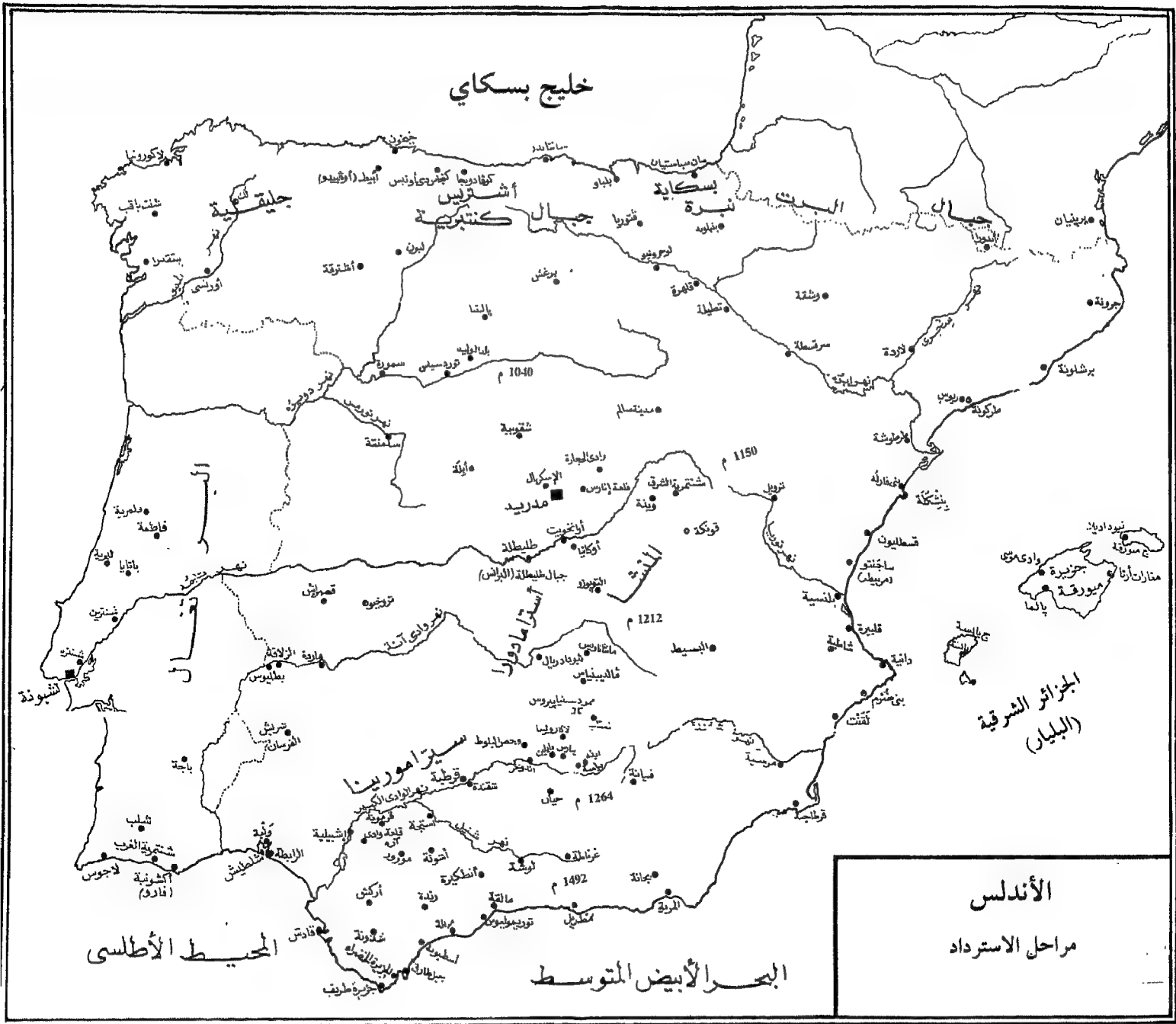




الأندلس

ملوك الطوائف ومواقع ملكهم

- 1 - بنو هود - سرقسطة .
- 2 - بنو رزين - شملتية الشرق .
- 3 - بنو هود - قرطبة .
- 4 - بنو عامر - بلنسية .
- 5 - بنو الأفطس - بطليوس .
- 6 - بنو عباد - أشبيلية .
- 7 - بنو جهور - قرطبة .
- 8 - بنو ذي النون - طليطلة .



«الغروب»

دولة بني الأحمر : الأندلس الصغرى

مرة أخرى فترعد وتبرق ، وتهذر وتعصف . . .

ويطول هذا الغروب ، كأن القدر أراد ان يمهل العرب عليهم يفيقون قبل ان تغيب آخر خيوط شمسهم المشرقة . . يطول اطول غروب عرفه البشر ، ويدوم أكثر من قرنين من الزمن ، شهد العالم اثناءهما دولاً تصعد وممالك تنقرض ، وشهد الأندلس خلاله عشرين ملكاً مسلماً يجلسون على عرش غرناطة ، الأندلس الصغرى ، وينزلون عنه ، وشهد جيوشاً عاتية تتجمع من كل حذب وصوب ، تنهياً للانقضاض على هذه المملكة الصغيرة الباقية ، والغروب يأبى ان يستسلم لظلام الليل الدامس .

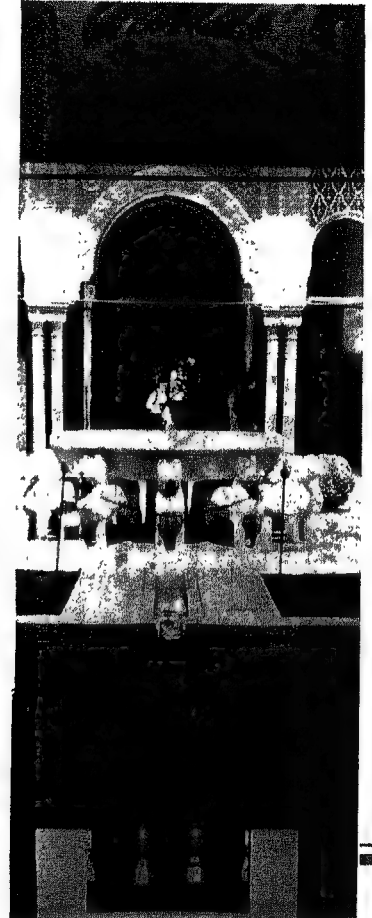
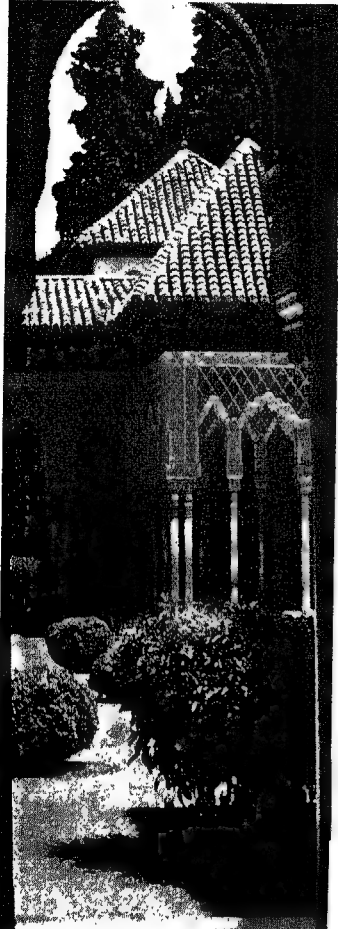
كان أطول غروب عرفه التاريخ . وكان اروع غروب عرفته الأندلس . وكان أقسى غروب عرفه العرب .

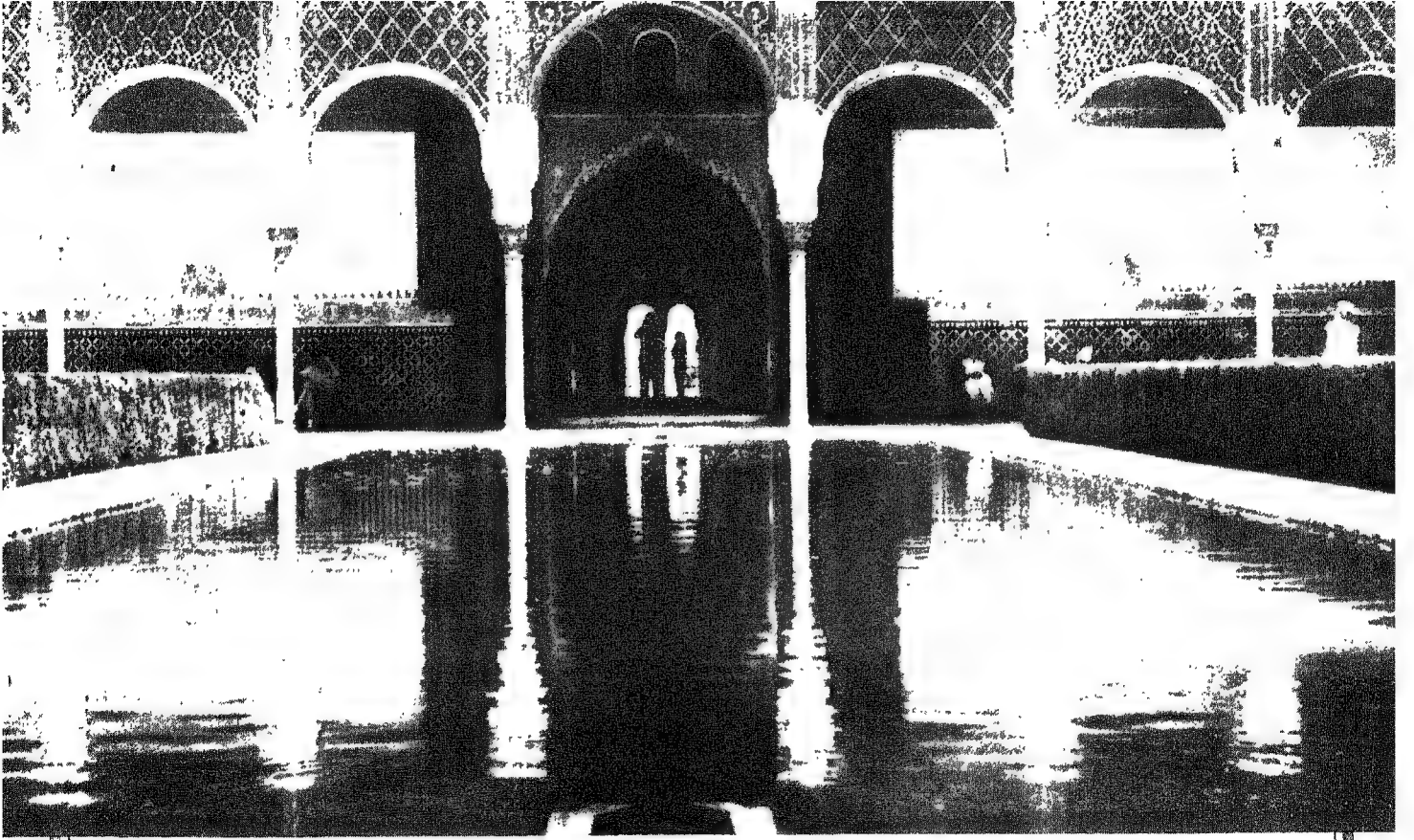
كان الحكم العربي في الأندلس قد انحسر وتقلص ، واقتصر على منطقة غرناطة ، التي جعل منها محمد بن يوسف بن نصر ، المعروف بابن الأحمر ، حاضرة لدولته التي كانت تضم بسطة ووادي آش وشريش ومالقة وجيان ، والمرية .

إذا حل الغروب اثر يوم شاحب ، جاء باهتاً ، غير لافت للنظر . وإذا حل اثر يوم تعاقبت فيه ومضات مشرقة وزخات عاصفة ، استمد من هذا التعاقب دراميته ، واستلهم منه مزاجيته ، وتشرب من تعاقب ألوانه ذهب شمسهِ ولجين غيومه ، فتعانقا في لوحة الهية فريدة ، تبعث في النفس خليطاً من الرهبة والخشوع ، وترك ، في معظم الاحيان ، لمسة من الكآبة والحزن ، تظل قابضة في أعماق النفس ، الى ان يحل الظلام ، وتنطوي صفحة أخرى من صفحات العمر ، لتبدأ صفحة جديدة مع انبلاج صبح اليوم التالي .

ولئن كانت اشراقة الوجود العربي في الأندلس خاطفة فإن غروبه كان طويلاً ، طويلاً جداً ، وكان غريباً ، غريباً حتى الوجد ، اختلطت فيه ازهى الألوان وأقتمها ، وتصارعت فيه بسمات الشمس الذهبية الدافئة ، مع دموع السحب القائمة الكثيرة ، وحارت الطبيعة فيه بين الرضا والغضب ، فهي تفتّر مرة عن قوس قزح ، وتكشم

هو الأسود بقصر الحمراء





فناء الريحان او البركة بقصر الحمراء بغرناطة .

اجمل مدن العالم ، وتزهو باعجاز عمراني فني فريد قلما عرف التاريخ له مثيلاً ، تحج اليه ملايين البشر كل سنة ، وتظل فاعرة الأفواه امام عظمتها ورشاقة هندسته وروعة نقوشه . وكان لهم باع كبير فيها التحفت به غرناطة الأدب العربي من روائع القصيد وبدائع النثر ، وما خلّفته من مآثر العلم والمعرفة .

كل ذلك في ظل الوان الغروب - الغروب الطويل .

ولئن بذل الانسان المسلم ، منذ وطئت اقدمه تراب الأندلس ، من دمائه وعرقه ما لم يبذله في أي مكان من تاريخه الطويل ، فإن هذه البقية التي ظلت متمسكة بتراتها العظيم ، حتى آخر معاقله ، هي جديرة بالخلود ، لو قدرت لها القيادة الحكيمة المنزهة عن المطامع . ولئن بدأ بنو الأحمر بداية تبشر خيراً ، وبرز منهم من الأبطال من تحلى بالرجولة والأنفة والكبرياء ، إلا ان نفوس الكثيرين ضعفت امام بريق السلطان وجاذبية الكرسي ، وتغلبت

وكان معظم المسلمين الذين اقاموا في بلاد الأندلس نحواً من ستة قرون قد رحلوا عنها الى المغرب وغيره ، اما قسراً أو خوفاً من انتقام . وبقي عدد ابي النروح ، وفضل البقاء في الأندلس ، إما تعلقاً بترابه الذي تغدق بدماء اجداده ، وبصروحه الحضارية التي عاصرها وشارك في اعلائها حجراً فوق حجر ، او استسلاماً لمشية القدر وخوفاً من المجهول .

وقد تعلق آمال هؤلاء الذين اصبحوا يعرفون بالمدجنين (Los Mudejares) ، بملوك غرناطة الذين توسموا فيهم الخير لخلاص المسلمين من محتتهم ، وانبلج صبح جديد يعيد الى الأندلس مجدها التليد ، فبدأوا يتوافدون على غرناطة ، وبينهم الكثير من أهل الفنون والحرف ، ومن الجنود الأشداء الذين آثروا ان يفتدوا الاسلام بدمائهم ، والجهد في سبيل استعادة عزة العرب وكرامتهم . فأسهموا بنهضة غرناطة وعظمتها ورصعوها بأجل لآلئ فهم لتصبح ، حتى يومنا هذا ، واحدة من

الشهوات على الايمان ، ورجحت مصلحة الحاكم على مصلحة المحكوم ، وبدأ النخر يدب في جسم هذه المملكة الباقية .

وفي هذا لم يختلف عهد غرناطة عن غيره من العهود . ذلك ان القبليّة والعصبية والانفرادية ظلت المعادلة الوحيدة التي يقوم عليها المجتمع وهي التي تتحكم بتفاعلاته ، فالفتن والمؤامرات والمناحرات ظلت تتوالى طيلة القرنين ونصف القرن التي ظل الغروب الطويل نحياً فيها على الأندلس الصغرى .

أما كيف ظلت هذه المملكة الصغيرة ممسكة بأهداب الغروب ، تؤجل انسداد ستارة الليل الدامس لأكثر من قرنين من الزمن ، فهذا ما يعجب له كل دارس لتاريخ العرب في الأندلس . ذلك ان بقية اجزاء الأندلس كانت قد انهارت خلال فترة قصيرة نسبياً ابان عهد الموحدين .

وكانت معنويات الاسبان قد بلغت من الارتفاع ما لم تبلغه منذ الفتح الاسلامي ، وأصبح لهم في حربهم حلفاء وفدوا لنجدتهم من جميع انحاء اوروبا ، وأعلنوا على المسلمين حرباً صليبية استهدفت اقتلاع جذور الاسلام من شبه الجزيرة الايبيرية . كل هذا والحصن الباقي من الحكم العربي ينزف من التطاحن والفتن ، في رقعة ضئيلة تفتقر الى ابسط قواعد الاستقرار والمنعة .

ومن غير المنطقي ، كما يحاول البعض تفسير هذه

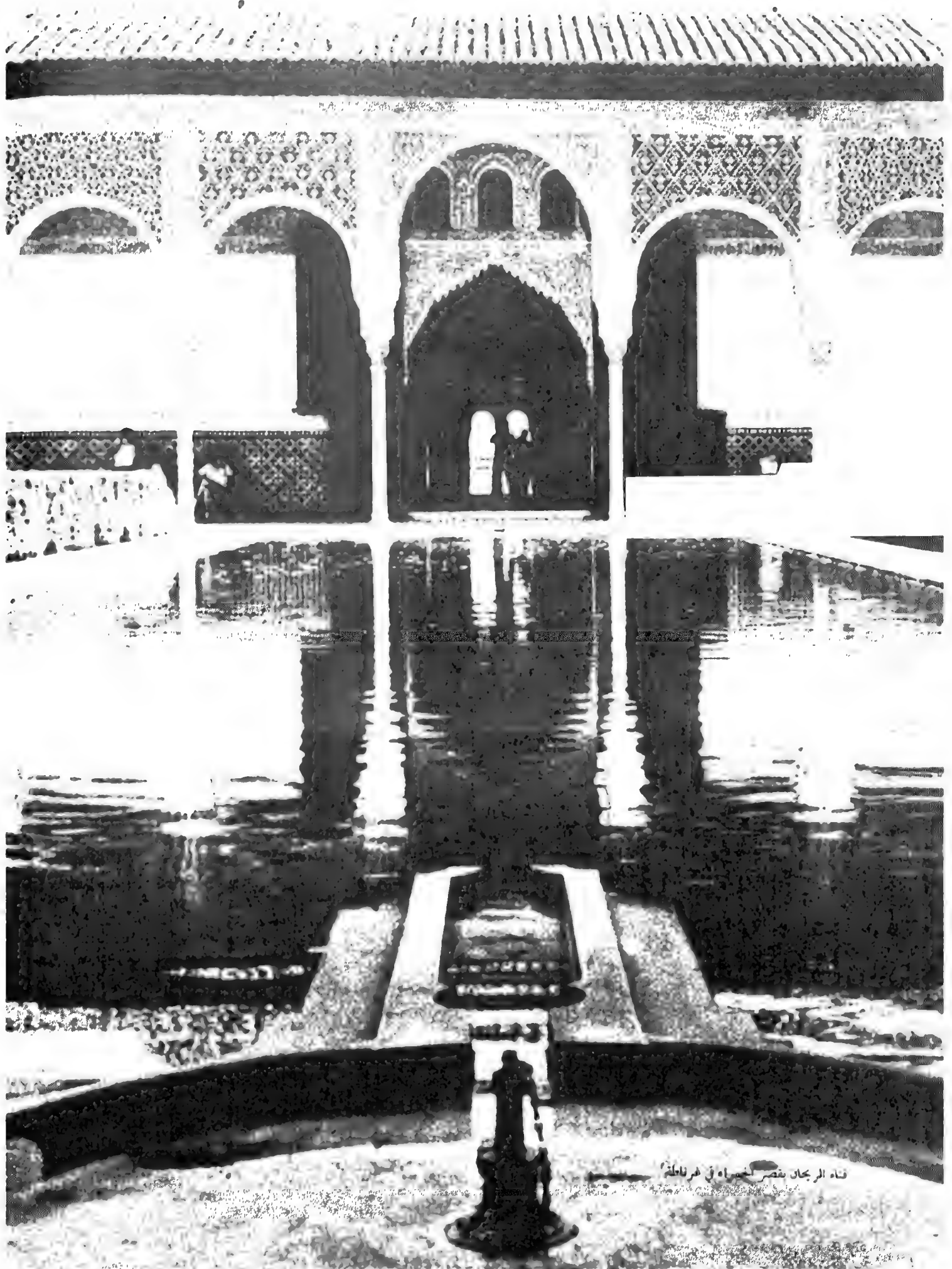
الظاهرة العجيبة ، ارجاع بقاء هذه المملكة الصغيرة ، في مثل هذه الظروف ، ولهذه المدة الطويلة ، الى صمود العرب فحسب . صحيح ان الانسان العربي استبسل ، كما لم يستبسل احد ، في الدفاع عن آخر معاقله ، وبذل في سبيل ذلك الكثير من الدماء الزكية ، غير أن هذا لم يكن يكفي وحده لوقف انسداد الستارة على الوجود العربي في مثل تلك الظروف لولا بعض العوامل الأخرى .

فموقع غرناطة المنيع كان واحداً من هذه العوامل التي ساعدت العرب في صمودهم . كما ان النجادات التي كانت تتوالى على المسلمين من اخوانهم في المغرب كانت عاملاً مهماً آخر . غير ان عاملاً آخر كانت له اهمية رئيسية وهو ان الاسبان ظلوا ، لمدة طويلة ، يتهيئون خوض حرب حاسمة مع المسلمين الذين لم يكونوا على استعداد للتفريط بآخر معاقلهم مهما كلفهم الأمر . فضلاً عن انهم رأوا ، على ما يبدو ، ان الصراع المتأجج بين المتنازعين على الحكم من العرب ، كفيل بأن يقوض ذلك الوجود دون ان يتكبدوا هم مشقة ذلك . وكان لسان حالهم يقول : فلتأكل النار بعضها بعضاً ، أما نحن فلننتظر .

ولقد قسا كثير من المؤرخين والكتاب على بني الأحمر لتسليمهم آخر معاقل المسلمين الى الاسبان ، واتهموهم بالتخاذل والجبن والتواطؤ . ولربما كان في ذلك الكثير من التجني على عهد وقف امام أضخم تحالف عسكري عرفته

فناء الريحان بقصر الحمراء في غرناطة .

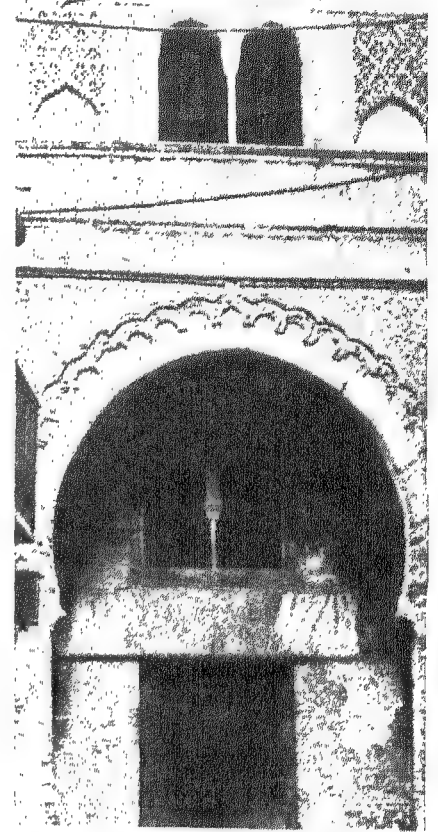




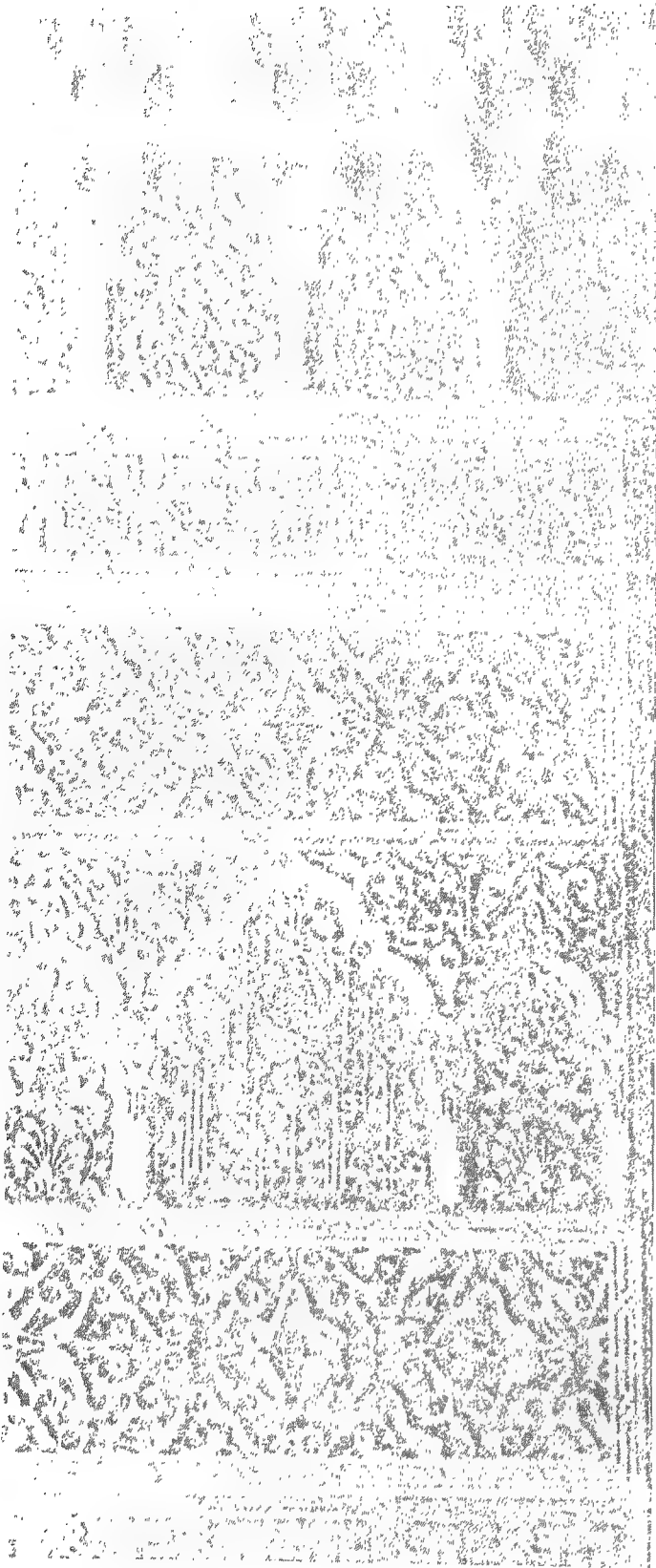
قناة المرجان بقصر الحمراء في غرناطة

تلك الحقبة من تاريخ البشر . فقد ظل صامداً أمام هجماته الشرسة مدة قرنين ونصف القرن من الزمن ، في حين انهارت دول وممالك اندلسية غيرها قبل ذلك خلال وسمة قصيرة من الوقت نسبياً ، كما أن التخاذل واللاسبالة والسواطو لم تكن حكراً على بني الأحمر ، بل عرفته الدويلات الاسلامية بعد التفتت الذي عانى منه الحكم اثر أفول الخلافة . ولئن انحطت نفوس بعض الحكام او الطامعين في جميع عهود المسلمين ، إلا أن معظمهم ظلوا على شموخهم وكبريائهم ، وظل الانسان العربي الأندلسي رافع الرأس ، يمنح ولا يمنح ، ويقدم ولا يحجم ، ويبي ولا يهدم .

وفد عرفت مملكة غرناطة رجالاً من هذا الطراز ومن ذاك ، ولا أفضل على ذلك مثلاً من قصة والد وولده ، هما السلطان ابو الحسن علي بن سعد ، الذي تبوأ عرش مملكة غرناطة في أواخر عهدها ، وهي على شفير الهاوية . كان جيش فرديناند وايزابيلا على أبواب مملكته . وكان أن



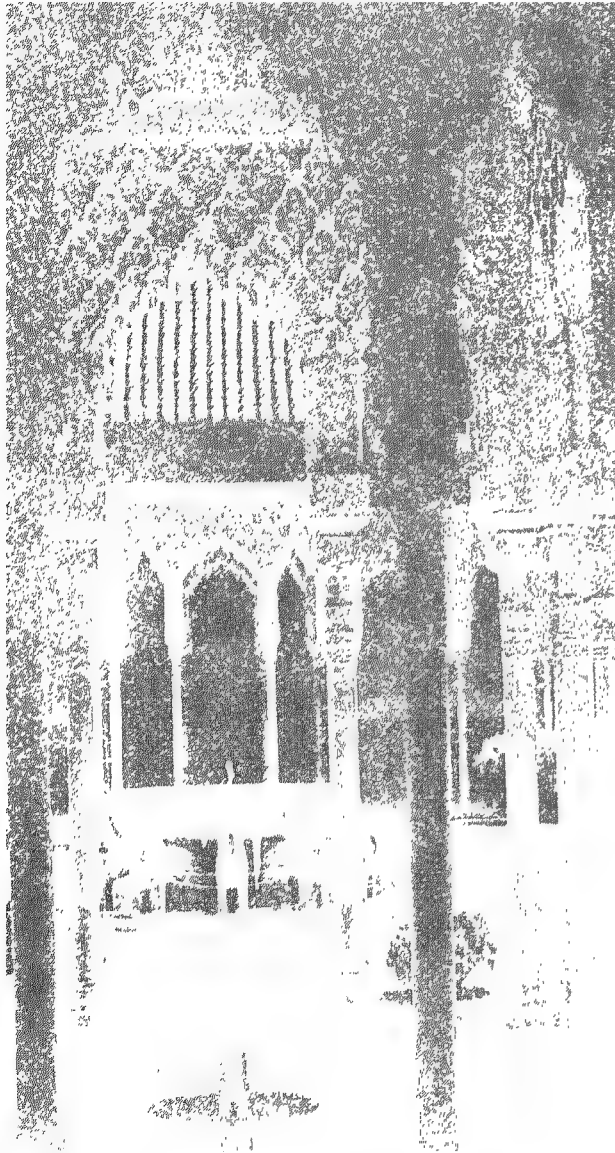
باب الفندق بقرناطة .



نقوش في جدران قصر الحمراء بقرناطة .



اسوار قصور الحمراء بقرناطة



هو الأسود بن نصر
الحمراء في قرناطة

وضراغم سكنت عرين رياسة
تركنت خيرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشى النضار جسومها
واذاب في الواهها البلورا
أشد كان سكونها متحرك
في النفس، لو وجدت هناك مثيرا

طلب السلطان ابو حسن اليهما مهادنته فقبلا ، شريطة ان يعترف بسيادة ملك قشتالة ، فرفض ، فبعثا اليه يطالبانه بدفع الجزية والخضوع لهما ، فقال لمبعوثي الملكين « اذهبوا واخبروا من ارسلكم ان الملوك الذين كانوا يؤدون الجزية قد ماتوا منذ زمن طويل ، وان دار الضرب في غرناطة عادت لا تضرب ذهباً ولا فضة ، ولا تضرب الا سيوفاً وحراباً » .

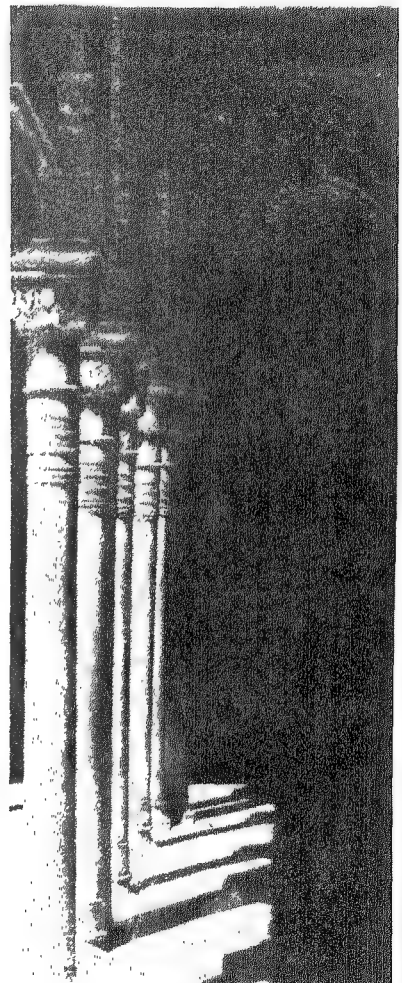
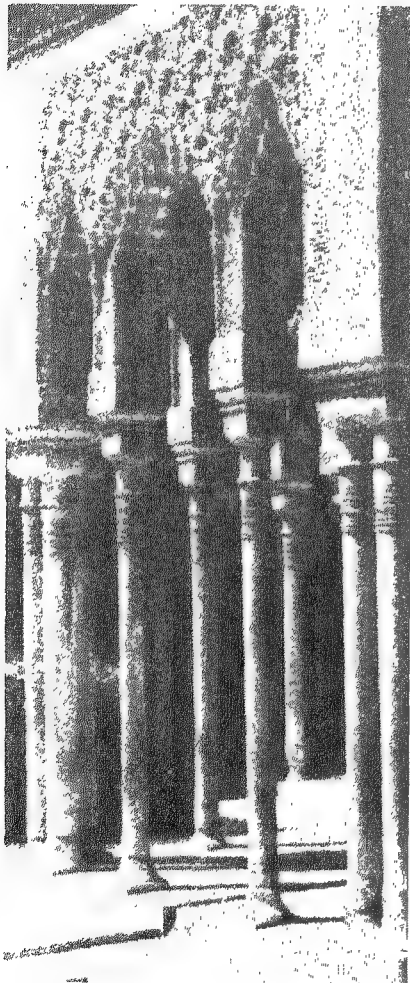
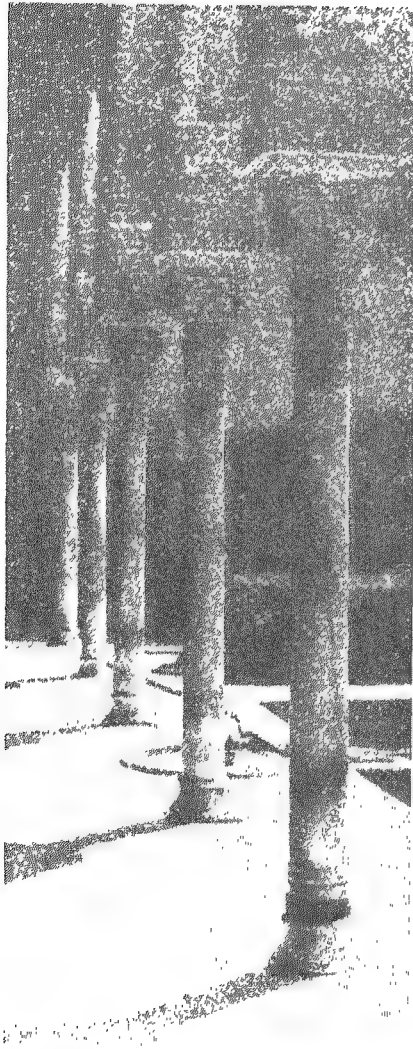
كان الاب من هذا الطراز ، وظل على حاله طوال مدة حكمه التي استمرت أكثر من عشرين عاماً ، ظل خلالها صامداً كصخور غرناطة المحيطة بقصره .

أما ابنه ابو عبدالله ، فهو الذي سلم مفاتيح غرناطة آخر حصون الاسلام لنفس الملكين ، فرديناند وايزابيلا . ولا يدخل ابو عبدالله هذا في عداد الطراز الآخر من المخلوقات ، لمجرد انه استسلم وسلم مفاتيح غرناطة الى اعدائه ذليلاً مطأطأ الرأس ، ولكن ايضاً لأن دناءته وطمعه الى الكرسي دفعاه الى خيانة والده واجهاض استبساله ونخوته وشموخه ، تمهيداً للانقضاض على عرشه .

وتتخضب اركان قصر الحمراء بالدماء ، ويظل العرش يتأرجح بين الاب وابنه ، بينما فرديناند وايزابيلا يتمتعان ، عن كذب ، بلون هذه الدماء القاني ، الى ان ادركت الشيخوخة الاب فعهد بالملك لأخيه الزغل . وقد بلغ تعطش أبي عبدالله الابن ، الذي عرف بالشقي ، الى السلطة الى درجة انه استغاث بفرديناند وايزابيلا ضد عمه .

واستمر الصراع بين افراد العائلة العربية الواحدة ، في الوقت الذي كانت فيه جيوش النصارى الأوروبية المتحالفة ، التي كانت حتى الأمس القريب غارقة في متاهات العداوة والصراع ، تزحف على آخر معاقل المسلمين تحت شعار الصليبية . وفي الوقت الذي ظل الزغل ممسكاً فيه بقبضة السيف دفاعاً عن آخر معاقل المسلمين ، بعث ابن اخيه ابو عبدالله ينيء فرديناند وايزابيلا على دخولها مالقة وتحويل مسجدها العظيم الى كنيسة .

ولما دب اليأس في قلب الزغل سلم ما كان بيده من البلاد الى الأعداء . اما ابو عبدالله حليف النصارى فقد تفوق في قصره ، قصر الحمراء ، بعد أن تبين له ان حلفاءه استغلوا خيائته لإضعاف المسلمين ، وانهم منقضون عليه لا محالة . وبدأ حصار المدينة . وبعث حليف الامس يطالب ابا عبدالله بالاستسلام فقبل ، والتقى بالملكين فرديناند وايزابيلا ، فمد يده الى فرديناند بمفاتيح غرناطة ، آخر معاقل الاسلام في الأندلس قائلاً « هذه المفاتيح هي آخر ما بقي من سلطان العرب في اسبانيا ، خذها فقد أصبح لك ملكنا ومتاعنا واشخاصنا ، كما قضت مشيئة الله تعالى ، فتقبلها بالرافة التي وعدت بها ، والتي نتظرها منك » . ثم ادار ظهره وكانت شمس يوم 2 كانون الثاني - يناير 1492 تبرز من الشرق ، وشمس الوجود الاسلامي العربي تغرق في دجى التاريخ ، بعد ذلك الغروب الطويل الطويل .



لعبة الأعمدة
في هو الاسود بقصر الحمراء .

آخر العهد بالجزيرة كانت
بعد عرك من الزمان وضررس
فتراها تقول : راية جيش
باد بالامس بين اسر وخص
ومفاتيحها مقاليد ملك
باعها الوارث المضيع ببخر
خرج القوم في كتائب صم
من حفاظ لوكب الدفن خرس
ركبوا بالبحار نعشاً وكانت
تحت آبائهم هي العرش امس
رب بان لهادم وجموع
لمشت ومحسن لمحسن

(شوقي)

		<p>محرم ٨٩٧ - 1492 سقوط غرناطة. - 1487 - 1492 أبو عبد الله (المرّة الثانية). - 1483 أبو عبد الله محمد الرعل (عم أبي عبد الله) - 1482 أبو عبد الله (المرّة الأولى).</p>
	<p>1464 - 1479 اتحاد قشتالة وأراغون - 1469 رواج فرناندو وإرييلا - 1462 سقوط جبل طارق بيد القشتاليين.</p> <p>- 1446 محمد العاشر الأعرج (المرّة الثانية) - خلع - 1445 يوسف الخامس (المرّة الأولى) - خلع. - 1442 محمد العاشر (الأعرج) (المرّة الأولى) - خلع - 1332 أبو عبد الله الأيسر (المرّة الثالثة) - خلع - 1432 أبو الحجاج يوسف الرابع. - 1430 أبو عبد الله الأيسر (المرّة الثانية) - خلع - 1428 محمد التاسع، أبو عبد الله الصغير. - 1417 أبو عبد الله محمد الثامن (الأيسر) (المرّة الأولى) - خلع. - 1408 يوسف الثالث (شقيق محمد السابع). - 1394 محمد السابع (ابن أبي الحجاج). - 1391 أبو الحجاج يوسف الثاني (شقيق محمد الخامس). - 1362 محمد الخامس (المرّة الثانية). - 1360 أبو عبد الله محمد السادس - خلع - 1359 اسماعيل الثاني (شقيق محمد الخامس) - خلع. - 1354 محمد الخامس بن أبي الحجاج (المرّة الأولى) - خلع. - 1333 أبو الحجاج يوسف الأول (شقيق أبي عبد الله) - اعتيل. - 1325 أبو عبد الله محمد الرابع (ابن أبي الوليد) - اغتيل. - 1314 أبو الوليد اسماعيل (شقيق محمد الأول) - اعتيل. - 1309 نصر (شقيق أبي عبد الله) - أُرغم على التنازل. - 1302 أبو عبد الله محمد الثالث - خلع. - 1272 محمد الثاني (ابن محمد الأول). - 1287 سقوط جزيرة منورقة. - 1278 عبر السلطان مرّة أخرى فحشي محمد الثاني من مقاصده فتحالف مع ملك قشتالة ضده. - 1275 وصول بحلة من السلطان المريني ونشوب معركة كرى انتصر فيها المسلمون بالقرب من استجة. - 1268 سقوط أشبيلية. - 1267 سقوط مرسية، توقيع معاهدة بين محمد الأول والفرنس العاشر.</p>	<p>- 1463 أبو الحسن علي بن سعد - خلع. - 1463 سعد بن محمد (المرّة الثانية) - خلع. - 1462 يوسف الخامس (المرّة الثانية) - 1458 سعد بن محمد (المرّة الأولى) - خلع. - 1446 محمد العاشر الأعرج (المرّة الثانية) - خلع - 1445 يوسف الخامس (المرّة الأولى) - خلع. - 1442 محمد العاشر (الأعرج) (المرّة الأولى) - خلع - 1332 أبو عبد الله الأيسر (المرّة الثالثة) - خلع - 1432 أبو الحجاج يوسف الرابع. - 1430 أبو عبد الله الأيسر (المرّة الثانية) - خلع - 1428 محمد التاسع، أبو عبد الله الصغير. - 1417 أبو عبد الله محمد الثامن (الأيسر) (المرّة الأولى) - خلع. - 1408 يوسف الثالث (شقيق محمد السابع). - 1394 محمد السابع (ابن أبي الحجاج). - 1391 أبو الحجاج يوسف الثاني (شقيق محمد الخامس). - 1362 محمد الخامس (المرّة الثانية). - 1360 أبو عبد الله محمد السادس - خلع - 1359 اسماعيل الثاني (شقيق محمد الخامس) - خلع. - 1354 محمد الخامس بن أبي الحجاج (المرّة الأولى) - خلع. - 1333 أبو الحجاج يوسف الأول (شقيق أبي عبد الله) - اعتيل. - 1325 أبو عبد الله محمد الرابع (ابن أبي الوليد) - اغتيل. - 1314 أبو الوليد اسماعيل (شقيق محمد الأول) - اعتيل. - 1309 نصر (شقيق أبي عبد الله) - أُرغم على التنازل. - 1302 أبو عبد الله محمد الثالث - خلع. - 1272 محمد الثاني (ابن محمد الأول). - 1287 سقوط جزيرة منورقة. - 1278 عبر السلطان مرّة أخرى فحشي محمد الثاني من مقاصده فتحالف مع ملك قشتالة ضده. - 1275 وصول بحلة من السلطان المريني ونشوب معركة كرى انتصر فيها المسلمون بالقرب من استجة. - 1268 سقوط أشبيلية. - 1267 سقوط مرسية، توقيع معاهدة بين محمد الأول والفرنس العاشر.</p>
<p>1261</p>	<p>- 1247 سقوط شاطبة - 1246 سقوط جيان. - 1244 سقوط دانية. - 1237 سقوط بلنسية ومرسيه. - 1236 سقوط قرطبة. - 1230 سقوط جزيرة ميورقة. - 1212 معركة العقاب وإهزام المسلمين.</p>	<p>- 1238 محمد الأول (ابن يوسف بن الأحمر). (المؤسس).</p>

ولا غلب إلا الله

- 1 - محمد الأول بن يوسف بن الأحمر - (1238 / 635 - 1272 / 671) .
- 2 - محمد الثاني (ابن محمد الأول) - (1272 / 671 - 1302 / 701) .
- 3 - أبو عبد الله محمد الثالث (المخلوع) - (1309 / 701 - 1309 / 713) .
- 4 - نصر (شقيق أبي عبد الله) - (1309 / 708 - 1314 / 713) .
- 5 - أبو الوليد إسماعيل (شقيق محمد الأول) - (1314 / 713 - 1325 / 725) .
- 6 - أبو عبد الله محمد الرابع (ابن أبي الوليد) - (1325 / 725 - 1333 / 733) .
- 7 - أبو الحجاج يوسف (الأول) (شقيق أبي عبد الله) - (1333 / 733 - 1354 / 755) .
- 8 - محمد الخامس بن أبي الحجاج (المرّة الأولى) - (1354 / 755 - 1359 / 760) .
- 9 - إسماعيل الثاني (شقيق محمد الخامس) - (1359 / 760 - 1360 / 761) .
- 10 - أبو عبد الله محمد السادس - (1362 / 761 - 1391 / 793) .
- 11 - محمد الخامس (المرّة الثانية) - (1362 / 763 - 1391 / 793) .
- 12 - أبو الحجاج يوسف الثاني (شقيق محمد الخامس) - (1391 / 793 - 1394 / 797) .
- 13 - محمد السابع (ابن أبي الحجاج) - (1394 / 797 - 1408 / 811) .
- 14 - يوسف الثالث (شقيق محمد السابع) - (1408 / 811 - 1417 / 820) .
- 15 - أبو عبد الله محمد الثامن (الأيسر) المرّة الأولى - (1417 / 820 - 1428 / 831) .
- 16 - محمد التاسع، أبو عبد الله الصغير - (1428 / 831 - 1430 / 833) .
- 17 - أبو عبد الله الأيسر (المرّة الثانية) - (1430 / 833 - 1432 / 835) .
- 18 - أبو الحجاج يوسف الرابع - 1432 / 835 توفي بعد شهرين .
- 19 - أبو عبد الله الأيسر (المرّة الثالثة) - (1432 / 835 - 1442 / 845) .
- 20 - محمد العاشر الأعرج (المرّة الأولى) خلع .
- 21 - يوسف الخامس (المرّة الأولى) لبضعة أشهر وخلع .
- 22 - محمد العاشر الأعرج (المرّة الثانية) - (1446 / 849 - 1458 / 863) (خلع) .
- 23 - سعد بن محمد (المرّة الأولى) - (1458 / 863 - 1462 / 867) (خلع) .
- 24 - يوسف الخامس (المرّة الثانية) - (1462 / 867 - 1463 / 868) .
- 25 - سعد بن محمد (المرّة الثانية)، خلعه ابنه أبو الحسن علي .
- 26 - أبو الحسن علي بن سعد - (1463 / 868 - 1482 / 887) (خلع) .
- 27 - أبو عبد الله محمد الزغل (عم أبي عبد الله) - (1482 / 887 - 1487 / 888) .
- 29 - أبو عبد الله (المرّة الثانية) - (1487 / 888 - 1492 / 897) .

«الليل الدامس»

الليل الدامس

وقف ، ابو عبدالله على قمة التل المطل على غرناطة ، يلقي نظرة أخيرة على آخر معاقل مملكته التي سلم مفاتيحها الى فرديناند وايزابيلا . وكان ينخرط بالبكاء في البقعة التي اصبحت تعرف فيما بعد بـ « آخر حشرات المغربي » ، عندما شدته امه من طرف جبته قائلة :

« ابك مثل النساء ملكاً مضاعاً

لم تحافظ عليه مثل الرجال »

وتبعها ابو عبدالله يجر اذيال الحنية والحسرة ، الى ان ابتلعه الوادي الذي يفصل بين حاضرة ملكه البائد ومنفاه في أندرش (Andrax) ، حيث وافق الملكان المنتصران على أن يظل فيه هو وعائلته . ولم يكن ابو عبدالله يعلم انهما لن يلبثا ان ينقضا عهدهما هذا له ويأمره بمغادرة شبه الجزيرة الايبيرية ليذهب الى المغرب ويموت فيها ، وتظل ذريته تعيش هناك على صدقة الاوقاف الاسلامية شحاذين اذلاء .

ولربما لم يتصور ابو عبدالله ، عند التوقيع على معاهدة التسليم مع الملكين فرديناند وايزابيلا ، ما سيكون عليه حال المسلمين بعد استسلامهم وكيف سيكون انتقام الاسبان النصراري منهم ، فهل تصور يا ترى ان ينقض ملكان معاهدة وقعا عليها ومهراما بخاتميهما واقسما بشرفهما الملكي بأن يراعيا شروطها ويعملا على تنفيذ نصوصها كاملة ؟ كانت هذه المعاهدة تتكون من سبعة وستين شرطاً تحدد كيف تكون عليه معاملة الاسبان للمسلمين الباقين في دولة اسبانيا النصرانية ، رأينا ان ندرج أهم ما جاء فيها ، حسبما اورده المقرري في نفح الطيب .

«تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال وابقاء الناس في اماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم ، ومنها اقامة شريعتهم على ما كانت ولا يحكم أحد عليهم الا بشريعتهم ، وان تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك ، وأن لا يدخل النصراري دار مسلم ولا يغصبوا احداً ، وأن لا يولى على المسلمين إلا مسلم أو يهودي ممن يتولى عليهم

من قبل سلطانهم قبل ، وان يُفتك جميع من أسر في غرناطة من حيث كانوا ، وخصوصاً اعياناً نص عليهم ، ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه لملكه ولا سواه ، والسلطان يدفع ثمنه لملكه ، ومن أراد الجواز للعدو لا يمنع ، ويجوزون في مدة عينت في مراكب السلطان لا يلزمهم الا الكراء ثم بعد تلك المدة يعطون عشر ما لهم والكراء ، وان لا يؤخذ أحد بذنب غيره ، وان لا يقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم ، وان من تنصر من المسلمين يوقف أياماً حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى ، فإن أبى الرجوع الى الاسلام تمادى على ما أراد ، ولا يعاقب على من قتل نصرانياً أيام الحرب ، ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العداوة ، ولا يكلف المسلم بضيافة اجناد النصارى ولا يسفر لجهة من الجهات ، ولا يزيدون على المغارم المعتادة ، وترفع عنهم جميع المظالم والمغارم المحدثه ، ولا يطلع نصراني للسور ، ولا يتطلع على دور المسلمين ، ولا يدخل مسجداً من مساجدهم ، ويسير المسلم في بلاد النصارى آمناً في نفسه وماله ، ولا يحمل علامة كما يحمل اليهود وأهل الدجن ، ولا يمنع مؤذن ولا مصل ولا صائم ولا غيره من أمور دينه ، ومن ضحك منه يعاقب ، ويتركون من المغارم سنين معلومة ، وان يوافق على كل الشروط صاحب رومه ويضع خط يده . . . »

لم يدم احترام الاسبان لشروط المعاهدة أكثر من سبع سنوات بدأوا بعدها يسومون العرب والمسلمين وحتى الموالي أبشع صنوف الاضطهاد والتعذيب . وكانت حجتهم في نقض المعاهدة ان المسلمين نقضوها عندما ثاروا عام 1500/1499 ضد محاولة الاسبان تعميدهم وتنصيرهم بالقوة .

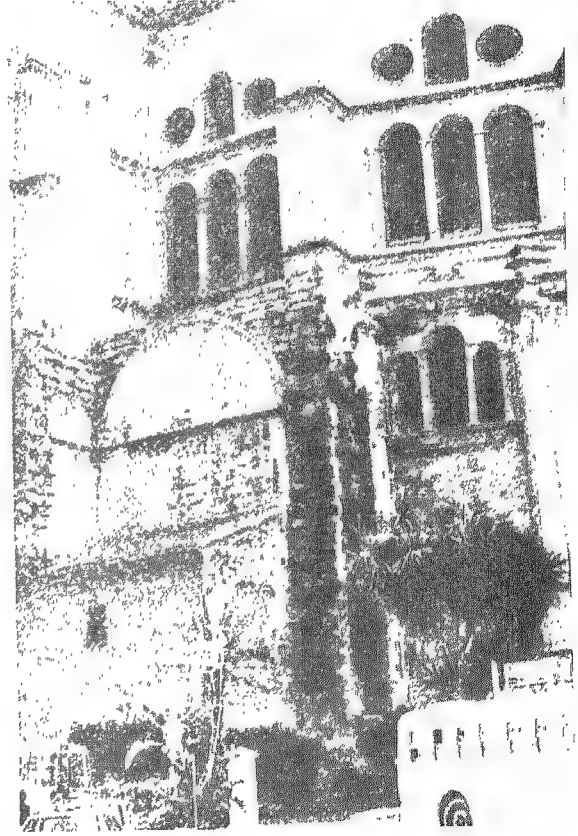
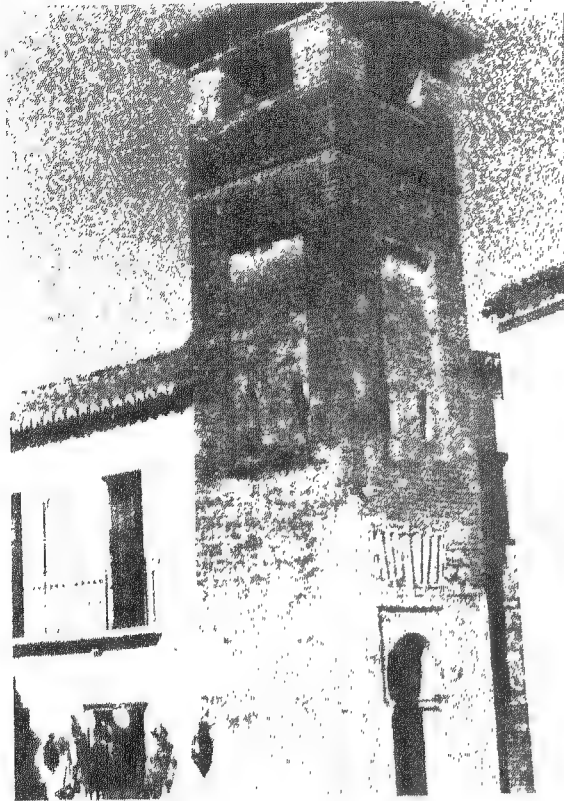
كان ستار الظلام الخالك قد بدأ ينسدل على اسبانيا النصرانية ، وأخذت تتفجر في نفوس ملوكها ورجال الدين فيها أبشع ما عرفه التاريخ من مشاعر الحقد والتعصب ، وتغلي في قلوبهم شهوة البطش والتعذيب ، وتطفح من اكبادهم العفنة سموم الغدر والخيانة ،

وهم الفاتحون المنتصرون الأقوياء ، تركوا للمغلوب حرية العبادة ، واقامة الكنائس والمعابد ، وحتى القضاء بين النصارى ظل في ايدي قضائهم . نسيت اسبانيا كل ذلك عندما اجبر حكامها المسلمين على التنصر كرهاً ، وأمروا بقطع رؤوس الذين لا يتنصرون من المسلمين رجالاً ونساءً وشيوخاً وأطفالاً .

بل ان ذلك كله لم يكن كافياً بالنسبة للراهب بيليدا الذي طالب بقتل العرب المنتصرين وغير المنتصرين لتعذر التأكد من صدق ايمانهم ، بحجة نرك اسرهم لربهم في الحياة الأخرى ، فهو وحده يعلم ما يصدرهم ، فيدخل الجنة من كان ايمانه حقيقياً ، والنار من كان ايمانه مزيفاً . والعجب في الأمر ان الاكليروس اخذ برأيه هذا ، لولا ان الحكومة خشيت من اشتداد المقاومة ، فاسرت بطرد جميع العرب عام 1610

غير أن امر الطرد لم يشف عليل هؤلاء المتعصبين المتعطشين للدماء . فقد ذكر غوستاف لوبون مثلاً ، ان

المنذنة الوحيدة الباقية في رُندة



كنديائية مالقة ويرى قوس الجامع الذي بنيت فوقه .

فيتصرفون ذلك التصرف الذي يندى له جبين الانسانية خزيًا وعاراً .

وانجرفت اسبانيا في هذا الطوفان العارم متناسية تعاليم النصرانية السمحة ، تحت من صميم كيانها ، بأشنع الوسائل ، الأمة التي انارت ظلماتها بمشاعل المعرفة ، وزرعت تراثها بالخيرات ، وغرست في قلوب أهلها روح التعايش والتآخي ، ونشرت في أرجائها بذور التسامح والمحبة ، واقامت في ربوعها صروحاً حضارية ظلت ترسل اشعاعها على العالم قروناً عديدة ، وما تزال هي ذاتها ، حتى يومنا هذا تزدهر وتفتخر على العالم بأسره .

نسيت اسبانيا النصرانية أو تناست كل ذلك في غمرة ذلك الحقد والتعصب الديني الذي غشَّى قلوب حكامها ورجال الدين فيها . نسيت ، أو تناست ان العرب لم يكرهوا نصرانياً واحداً على اعتناق الاسلام ، بل انهم ،

بعد طرد العرب منها . فقد أغلقت ابواب مصانعها وجفت بساتينها وتقلصت مدنها الزاهرة لتصبح مجرد قرى خيبت عليها وحشة المقابر . فأصبحت قرطبة ذات نصف المليون نسمة عبارة عن قرية صغيرة عمها الخراب ، لم يبلغ عدد سكانها ، حتى اليوم ، نصف ما كان عليه عندما كانت حاضرة الدولة العربية ، وكذا مدريد وطليلة واشبيلية وغرناطة حيث توفقت فيها جميعها الصناعة الحرفية ، وظلت هكذا حتى القرن الثامن عشر ، عندما اضطرت اسبانيا الى جلب عمال من الخارج للقيام بالأعمال الصناعية الضرورية .



كندراية طليطلة اقيمت مكان الجامع عام ١٤٩٣ .

ولا شك في ان محاكم التفتيش نجحت في تحقيق اغراضها ، ذلك ان سكان اسبانيا عادوا لا يقرأون غير كتب العبادة ، ولا يعرفون عملاً غير العمل الديني او العسكري ، بعد ان قضت على كل من توسمت فيه قليلاً من ذكاء أو قدراً من معرفة ، فأصبح أهلها ، كما قال

الراهب بيليدا شعر بالارتياح اذ علم أن ثلاثة ارباع المسلمين المطرودين قد قتلوا وهم في طريقهم الى المنفى في شمال أفريقيا ، وكان يتبجح بأنه قتل هو ورجاله مائة الف مهاجر من قافلة واحدة كانت تتألف من مائة وأربعين الف مهاجر وهي في طريقها الى المغرب . ويسدر بعض المؤرخين ، أن عدد المسلمين الذين تم طردهم منذ استسلام غرناطة بلغ نحو ثلاثة ملايين مسلم . ويقول غوستاف لوبون في وصف ذلك « . . . ولا نعد ملحمة سان بارتلمي ازاء تلك المذابح سوى حادث تافه لا يؤبه له ولا يسعنا سوى الاعتراف بأننا لم نجد بين وحوش الفاتحين من يؤاخذ على اقترافه مظالم قتل كتلك التي اقترفت ضد المسلمين » .

ولم تقتصر جرائم محاكم التفتيش على العرب المسلمين وحدهم ، بل انها عمدت الى اباداة النصارى الذين كانت تجد فيهم قدراً من النباهة والفتح والمعرفة ، فقد حرمت البلاد من ثلاثة ملايين من السكان كانت لهم الامامة الثقافية والصناعية والزراعية والتجارية والعلمية والأدبية ، وكنمت انفساس سكانها من النصارى ، وطمست معالم النهضة العلمية والفكرية التي خلفها العرب المسلمون ، فكأنها كانت تخاف من النور ، وتخشى المعرفة ، وترتعد من الثقافة ، لأن في ذلك كله خطراً على هيمنتها وسلطانها ، في غيبة البديل الفكري والحضاري .

ومع رحيل السواعد التي قامت عليها الزراعة والصناعة والتجارة ، والفنون ، وهجرة العقول التي استندت اليها النهضة الفكرية والأدبية والعلمية ، لم يبق لدى الاسبان سوى السواعد التي تعلمت من العرب حمل السيوف . فالاسبان كانوا يحتقرون جميع المهن سوى مهنة الكهنوت والجندي ، وما لبث جيشهم ان أصبح اقوى جيوش اوروبا ، تعظم اسبانيا عندما يعظم وتعظم قيادته ، وتنحط مع انحطاطه وانحطاط قباده ، ذلك انه في غياب أي مظهر من مظاهر المدنية والتحضر ، لم يبق في اسبانيا سوى قوتها العسكرية .

ولو استعرض الانسان تاريخ الأمم لما عرف امة انحطت كما انحطت اسبانيا ولا بالسرعة التي انحطت بها

طرف من أطراف امبراطوريتها الشاسعة . فأُنْ لها ان تفعل ذلك ، وأعين سكانها ظلت معصوبة عن المسيرة الحضارية التي شيد العرب صروحها في أراضيهم ، والتي أخذ بها العالم المتحضر آنئذ ، في الوقت الذي عمدوا هم الى طمس معالمها وتدمير آثارها بل والى ازالتها من ذاكرتهم .

ولا عجب ان احصاء اجري في اواخر القرن التاسع عشر اظهر أن ثلاثة ارباع سكان اسبانيا ، أي 12 مليون شخص من مجموع سكانها الذي بلغ 16,620,000 نسمة كانوا اميين لا يقرءون ولا يكتبون . ولا عجب ، بما جاء على لسان لوقا ملاده في مجلة الجمعية الجغرافية بمديرد عام 1882 ، ان 45 في المائة من الأراضي الزراعية لم تعد صالحة للزراعة ، بالرغم من أنها كانت تزخر بالخيرات ايام العرب ، وانه برغم جميع الجهود ، لم تقم فيها صناعة ، وهي تضطر الى الاستعانة بالأجانب للقيام بأبسط انواع العمل ، وللاضطلاع بجميع الأعمال المتصلة بالعلوم والصناعة .

المؤرخون ، سكاناً وليس رجالاً ، وأصبحت هذه البلاد التي شعت بعلومها على العالم ابان عهد العرب ، تخلو من اية مدرسة للعلوم ، بل كما يقول الكاتب الاسباني كنبومانسي : لم يكن في اسبانيا كلها حتى عام 1776 كيميائي واحد يستطيع صنع ابسط التراكيب الكيميائية ، ولا من يستطيع بناء قارب شراعي ، ولم يسمع اطباء اسبانيا شيئاً عن الدورة الدموية الا بعد اكتشافها بقرن ونصف من الزمن . بل يقال ان سكان مديرد اقترحوا في عام 1760 ازالة الأقدار التي كانت تملأ شوارع البلد وتفوح منها الروائح الكريهة ، فرد عليهم المسؤولون بأن اباءهم العقلاء كانوا يعرفون ما يصنعون ، وان عليهم أن يعيشوا مثلهم ، ذلك ان ازالة هذه الأقدار قد تؤدي الى عواقب لا يمكن التنبؤ بها .

وظل هذا حال اسبانيا لعدة قرون ، بلغت فيها قوتها العسكرية ما جعلها أقوى امة في أوروبا ، فامتدت اجنحتها عبر اوروبا وعبر المحيط الى العالم الجديد، دون ان تضییء شمع حضارية واحدة ، لا في أراضيها، ولا في أي



وقد كتب في اواسط القرن التاسع عشر المؤرخ الانكليزي « بكل » في وصف اسبانيا « انها لا تزال نائمة هادئة ، فاقدة للحس ، غير شاعرة بكل ما يجري في بقية العالم ، أي معدودة غير موجودة ، لا تمثل سوى مشاعر القرون الوسطى وأفكارها ، وما يحزن فيها كثيراً اقتناعها بحالها واعتقادها بأنها ارقى أمم أوروبا ، مع انها أكثرها تأخرًا ، وهي فخورة بكل ما يجب ان يحمر وجهها منه خجلاً ، فخورة بقديم آرائها وتدينها ، وبقوة ايمانها وبسرعة تصديقها الطائش الذي لا حد له ، وبرفضها لإصلاح معتقداتها وعاداتها ، وبحقدتها على الملحدن . . . ومن مجموع هذه الأمور تتألف تلك الخلاصة الكثيرة التي تسمى اسبانيا » .

وقد أورد بارتولومي بن ناصر ، المؤرخ الفرنسي في كتابه L'inquisition Espagnol xve-xixe Siecle الصادر عام 1980 ، نقلاً عن سجلات محاكم التفتيش في اسبانيا ، بعض التفاصيل عن التعسف الذي مارسه الحكم في اسبانيا ضد المسلمين الذين فضلوا البقاء في اسبانيا فقال ، ان الملكة ايزابيلا اصدرت في عام 1502 ، أي بعد استسلام غرناطة بعشر سنوات ، قراراً يفرض على المسلمين التنصر ، وبالتالي اجبر المسلمون على الخضوع لمراسم التعميد والاعتراف للقساوسة ، واتباع مراسم الولادة والدفن ، حسب التعاليم النصرانية ، بل واجبار المسلمين على دفن امواتهم في مقابر النصارى . كما حرم عليهم الذبح على الطريقة الاسلامية ، بل كان يفرض عليهم اكل لحم الخنزير ويحظر عليهم اكل اللحوم يوم الجمعة ، حسب تعاليم الكنيسة . وقد أغلقت حمامات غرناطة عام 1501 ، بأمر الكنيسة التي دفعت بأن الاستحمام من الأعمال المخالفة للطبيعة وبالتالي كان المدجن الذي يستحم يعتبر غير متنصر . كما حرمت الكنيسة اقتناء الكتب والمخطوطات العربية المتعلقة بالدين الاسلامي وفرضت تسليمها الى السلطات التي كانت تقوم بجلد المخالفين علناً ، وبسجنهم مع الأشغال الشاقة ، ومصادرة املاكهم . كما منع المسلمون من حمل السلاح ، ومن ارتداء الزي العربي ، أو التكلم بالعربية أو رقص

الزمره (Sambra) ، الرقصة العربية الدارجة انذاك .

وقد وردت في سجلات محاكم التفتيش بعض التفاصيل العجيبة ، التي تبين مدى تسلط الحكم ورجال الدين وعكوفهم على اجتثاث جذور الاسلام في بلادهم ومحو الشخصية العربية فيها . والأسماء التي ترد في هذه الأمثلة ، وان كانت أسماء اسبانية ، فإن اصحابها مسلمون كما سنرى ، اضطروا الى اتخاذ اسماء اسبانية لاختفاء شخصيتهم وانتمائهم الديني .

فقد سجن ليونور هيرناندس لانها شوهدت تقرب ظهور الهلال في آخر ليلة من ليالي شهر رمضان ، وسجن زوجها لأنه ذهب الى أصحابه يبشرهم بثبوت الرؤيا وبحلول عيد الفطر . وسجن غابرييل ماوروتو لأنه شوهد وهو يذبح شاة على الطريقة الاسلامية . وسجن ماريما ميرينو لأنها جمعت من معارفها الزكاة لتوزيعها على الفقراء . وفي عام 1538 سجن خوان دي بورغوس في طليطلة لأنه اقام وليمة في منزله وقدم الكسكس لضيوفه ، الذين انهم السهرة برقص « الزمره » . وسجن يوانا وهي تجارية من مالقة لأنها قالت « يا الله » استعانة به سببانه وتعالى في رفع حمل ثقيل . وسجن آخر لأنه حاول ان يتذكر شيئاً ما غاب عن ذاكرته ، فقال « اللهم صل على النبي » . وسجن خوان سييرا عام 1573 لأنه شوهد وهو يغسل رأس ابنه بالماء الساخن ، بعد ان اكراه على تعميده ، وذلك بقصد ازالة اثر ماء التعميد من رأسه . وكثيراً ما كان المسلمون يأخذون أولاداً سبق تعميدهم متظاهرين بأنهم أولادهم . ومن ذلك امثلة كثيرة .

وكان كلما زاد الضغط على المسلمين ، زادت مقاومتهم ، واتسعت الهوة بينهم وبين النصارى بعد أن ظلت تربطهم بهم صلات ودية طيلة القرون الطويلة التي كانوا يعيشون فيها معاً في ظل الدولة الاسلامية .

ولما تبين للسلطات انه من غير المعقول ازالة الايمان من صدور المسلمين وغرس عقيدة جديدة في قلوبهم بين ليلة وضحاها ، عمدوا الى انتهاج سياسة اعتبروها أبعد امدأ وأكثر تعقلاً وذلك بفضل تأثير شارل الخامس . فصدرت

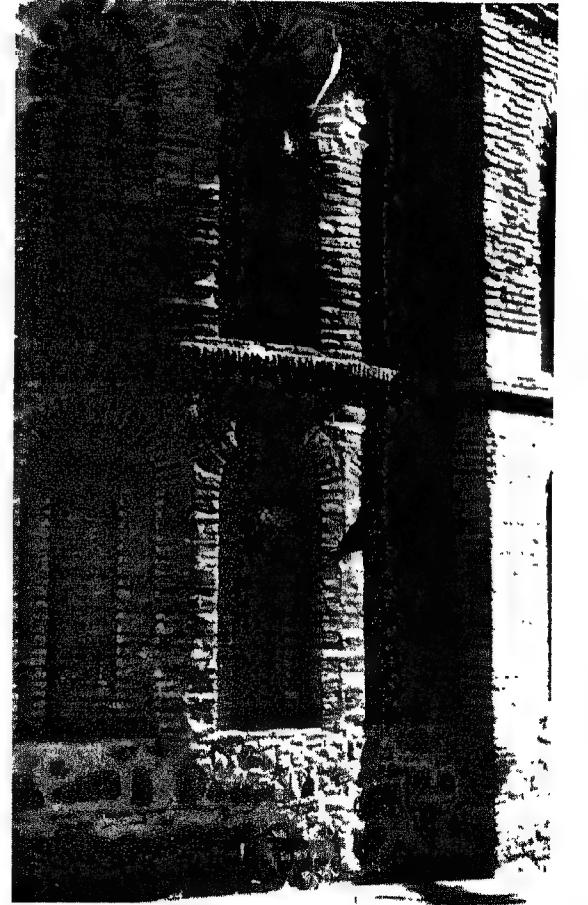
عن الصروح التي اندثرت بحثاً عن صروح الحضارة التي فشلت هي في اقامتها . فأنشأت المدارس والجامعات ، وبدأ بناؤها يرون في تاريخ الحضارة العربية الاسلامية ما يشرف ماضيهم ولا يلوثة . ويرون في الوجود العربي في بلادهم طيلة القرون الثمانية وجهة الخير ، وبدأت تنحسر عقد الشك وتنقشع غيوم الغضب ثم بدأت علاقة اسبانيا بالعرب تتسم بالاحترام المتبادل وتقوم بينها صلات ودية على جميع الأصعدة . بل انك لتجد بين أهل الأندلس اعداداً ضخمة من المثقفين الذين يفخرون بأندلسيتهم وباحتمال انتمائهم العرقي الى العرب . ومن الطبيعي سماع البعض يقول ، إنه لولا الوجود العربي لكانت اسبانيا حتى الآن بلداً خالياً من أي مظهر من مظاهر المدنية .

وظل الحال على هذا النوال الى ان جاء فيليب الثالث ، وأصدر امره بطرد المسلمين من اسبانيا عام 1610 كما رأينا .

ظلت اسبانيا تعيش في هذا الظلام الدامس حتى مطلع القرن العشرين . اقامت اثناء ذلك امبراطورية لم تكن تغرب عنها الشمس ، وفقدتها بالسرعة التي قامت بها ، ذلك انها كانت تطفئ ولا تنير ، وتهدم ولا تبني ، وتكره ولا تحب .

ولما بدأ عصر الانفتاح يخيم على العالم في مطلع هذا القرن ، بدأت تصل الى اسبانيا اشعاعات حضارية كان لا بد لها ان تفتح الأذهان التي ظلت منغلقة على الجهل والتعصب ، فانفتحت على العالم تدريجياً . وبدأت تنفض عن ماضيها المشرق في ظل الاسلام غبار الجهل ، وتنقب

وتعظم الضغط على المدجنين بشكل خاص ، أثر غارات القراصنة الاتراك والمغاربة على السواحل الاسبانية ، حيث كان بعض المدجنين يتعاونون معهم ويهربون على مراكبهم الى شمال افريقيا ، ثم يعودون في عمليات انتقامية مع هؤلاء القراصنة . فصدرت اوامر عام 1579 تمنع المدجنين من الاقامة في المناطق الساحلية من الأندلس ، وملاحقتهم اينما كانوا بقصد الصاق اية تهمة بهم لمصادرة اموالهم التي كانت السلطات بحاجة اليها لصد حملات الاتراك ضد السواحل الاسبانية ، والتي كانت تحتاج اليها محاكم التفتيش لتمويل عملياتها التي كانت تقوم بها ليس ضد المسلمين فقط ولكن ايضاً ضد اليهود والنصارى الذين جاھروا بآراء تقدمية لا تتفق والتعنّت الديني الذي أطبق بفكيه على العقول والقلوب .

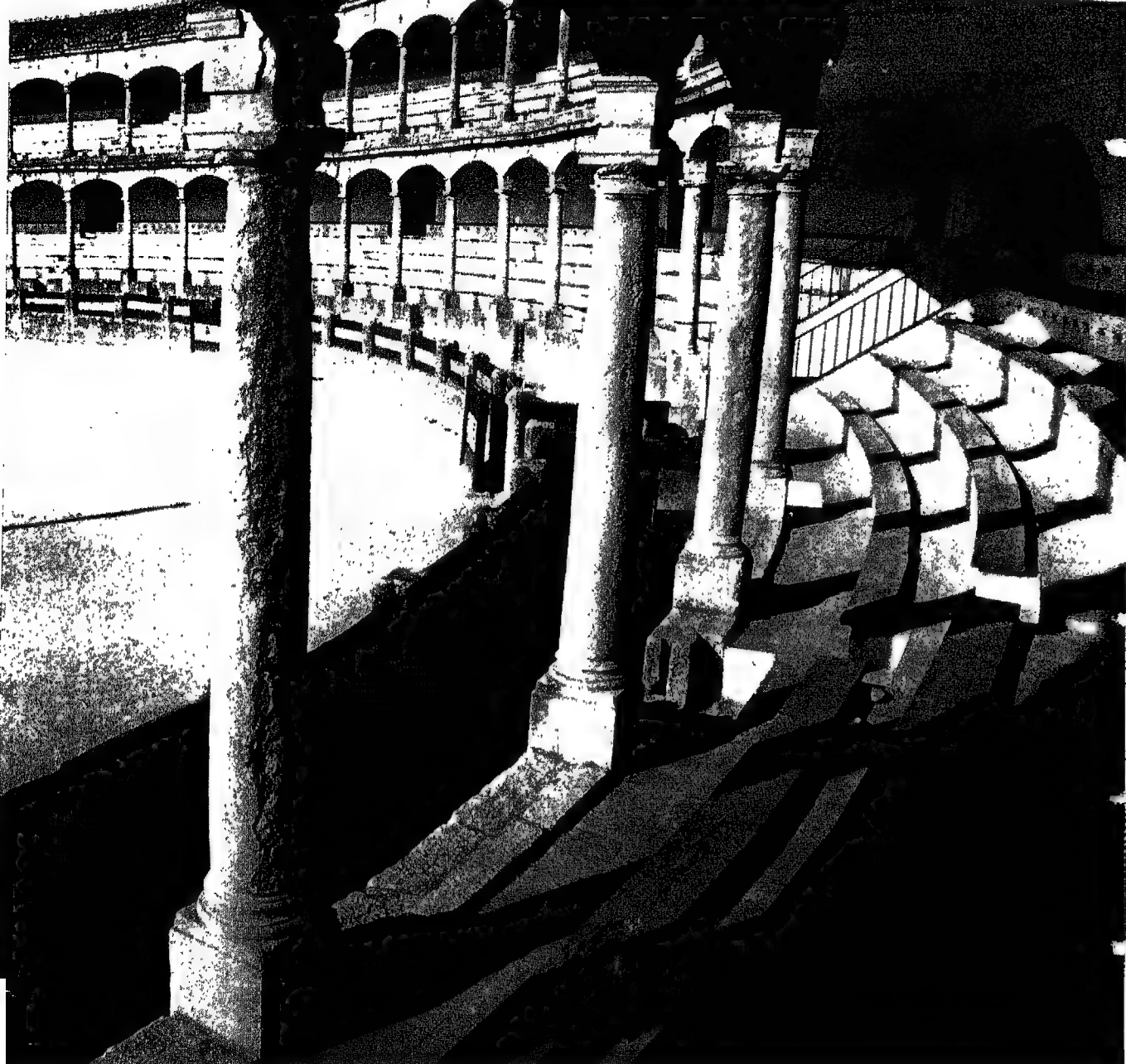


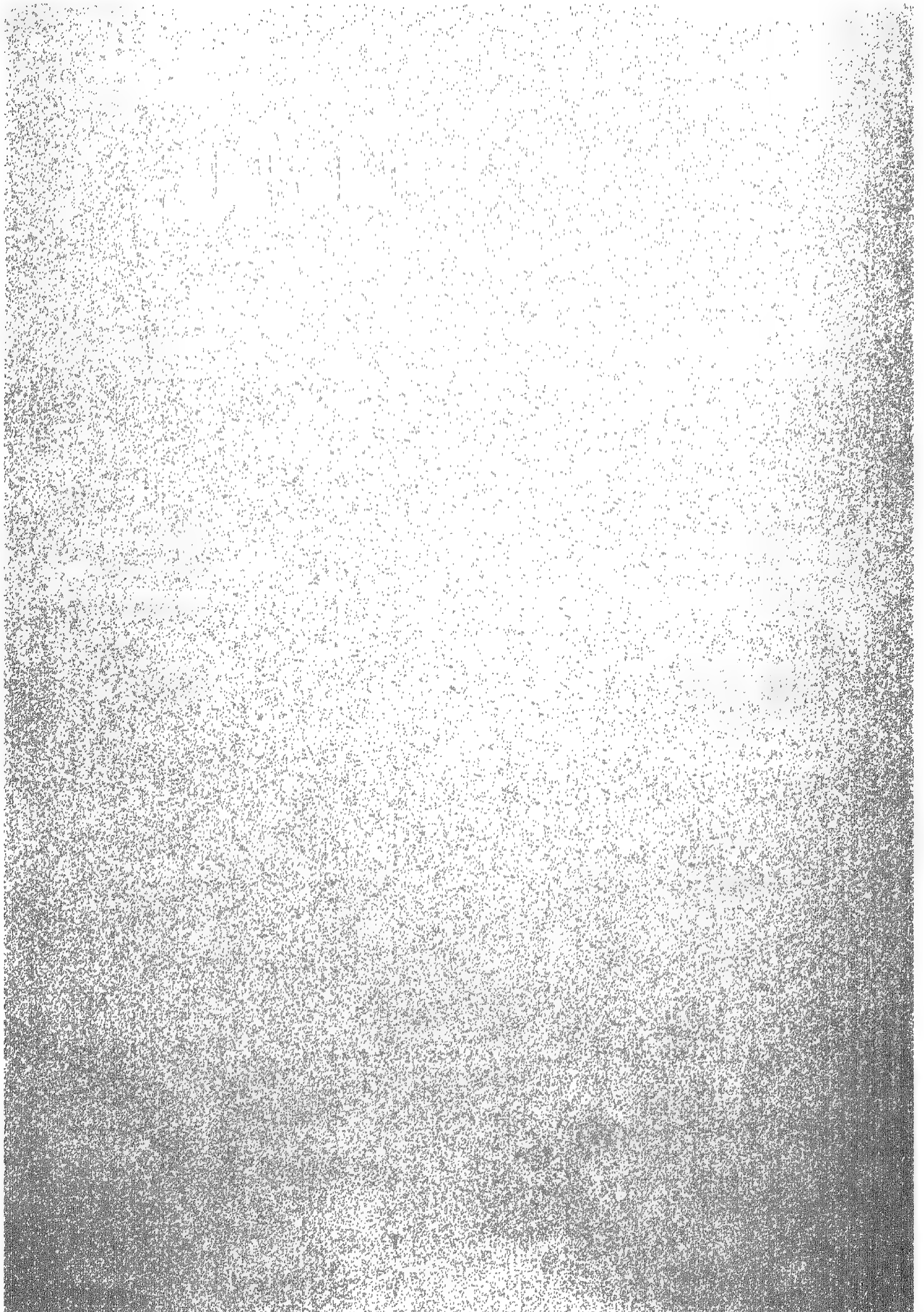
احدى واجهات بوابة طليطلة .

لائحة من الفونسو مانريكه ، الرئيس الخامس لمحكمة التفتيش في اشبيلية ، تحدد ما يمكن للمدجنين عمله وما عليهم الامتناع عنه . غير أن العقاب على المخالفة كان من القسوة ، بحيث أدى الى قيام ثورة المدجنين عام 1569 وهروبهم من المراكز الكبرى التقليدية ، التي كانوا يعيشون فيها ، وبيع املاكهم خوفاً من مصادرتها ، وانتشارهم في أماكن متفرقة في قشتالة وغيرها .

وعبثاً ذهبت الجهود المتكررة لاذابة المسلمين في بوتقة المجتمع الاسباني النصراني . وفي عام 1566 نشرت في فالنسية تعاليم الكنيسة باللغتين العربية والقشتالية تحت عنوان (Doctrina Christiana) ، وشجعت السلطات على التزاوج المختلط ، غير ان الاسبان احجموا عن ذلك بحجة ان دم المدجنين غير نقي .

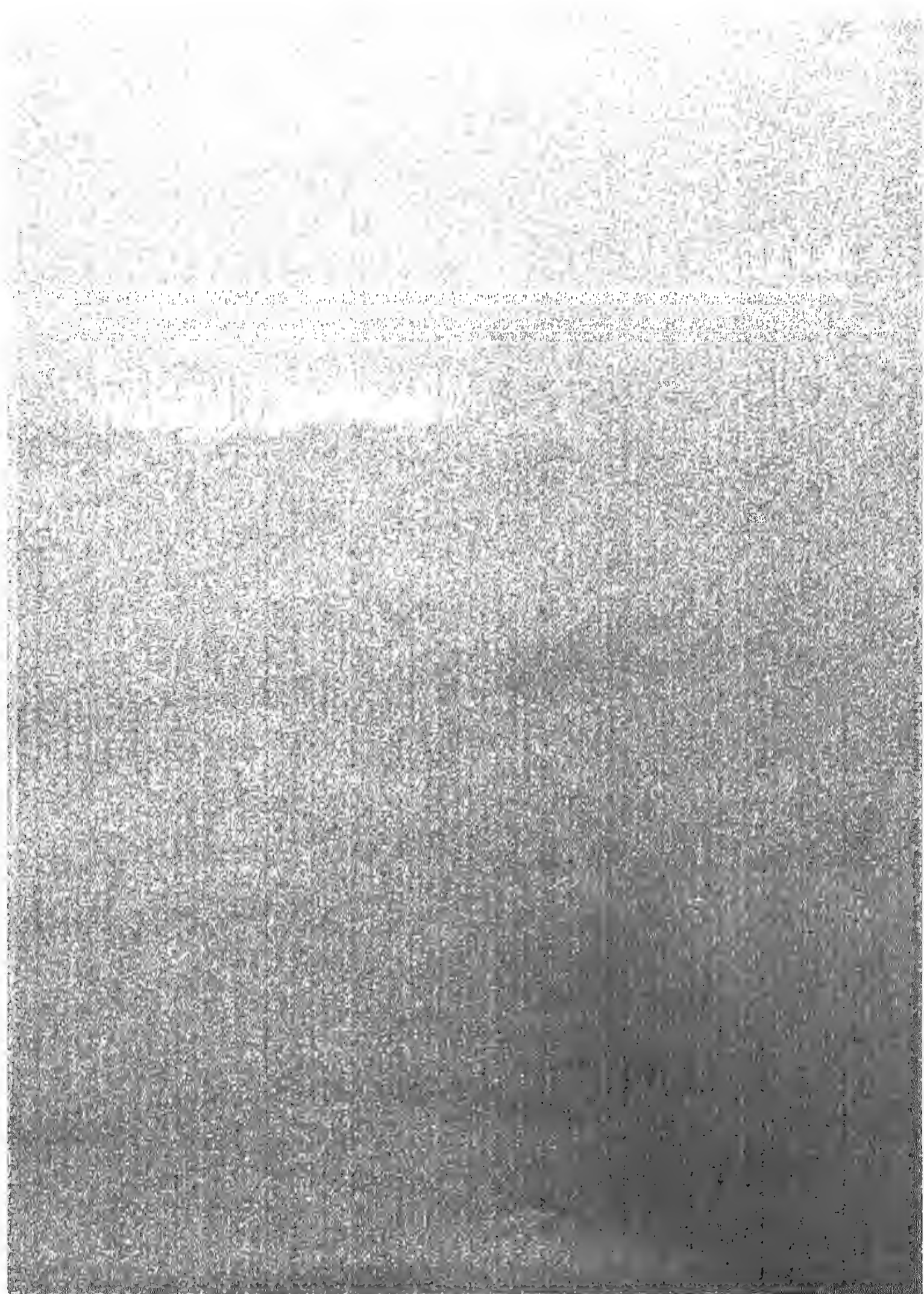
حلبة مصارعة الثيران في رُندة
وهي اقدم حلبة مصارعة في اسبانيا







سورۃ الف



تراث العرب الحضاري

نشأة الحضارة العربية

لو اننا احصينا عدد الأيام التي مرت على المسلمين خلال القرون الثمانية التي أمضوها في الأندلس ، دون ان يعملوا سيوفهم في رقاب بعضهم بعضاً ، لما زادت في مجموعها عن سنوات قليلة . والسؤال الذي يطرح نفسه على كل دارس لتاريخ العرب في الأندلس هو : ترى كيف استطاع العرب ان يقيموا هذا الصرح الحضاري العظيم في ظل ظروف كهذه ، ناهيك عن جهود الفتح المتواصلة تقريباً ، سواء في شبه الجزيرة الايبيرية أو في ما وراء جبال البرت والجهود التي بذلت في صد محاولات الطامعين بهم من كل حذب وصوب .

فإن آمنة بالمعجزات ، لوجدنا سؤالاً آخر يطرح نفسه أمامنا وهو : اذا استطاع العرب ، بمعجزة ، ان يحققوا كل ذلك ، بالرغم من هذه الظروف ، فيا ترى الى أي حد كان يمكن أن يذهبوا في مسيرتهم الحضارية ، لو انهم احتفظوا بسيوفهم لرقاب أعدائهم فقط ، وكرسوا طاقاتهم ، جميع طاقاتهم ، في العمل الخلاق ، الذي برهنوا على أنه متأصل فيهم ، بل هو من صلب طبيعتهم وتكوينهم .

وان كان من الصعب ان نجد اجابة بسيطة عن التساؤل الأول ، فليس من العسير أن نتصور وضع العرب في الأندلس ، بل وضع العالم بأسره ، لو تحقق الافتراض الذي يتصور العرب في حالة اتحاد وتوافق وتعاضد ، كما لن يكون من العسير تصور وضع العرب الآن ، في أواخر القرن العشرين ، لو انهم يقفون صفاً واحداً في مواجهة الطامعين والمغتصبين .

ولو أمحنا خيالنا أن يسرح قليلاً ، وتصورنا مسلمي الأندلس وقد رفرت فوق رؤوسهم راية الوحدة والتضامن منذ وطئت اقدامهم أرض شبه الجزيرة الايبيرية ، لما عجزنا عن تصور زحف عربي حضاري يعم أوروبا بأجمعها قبل ان يصلها نور الحضارة بقرون عديدة ، ولما عجزنا عن

تصور العرب يفعلون في بلدان أوروبا ما فعلوه في الأندلس ، وبالتالي لما استطاعت الكنيسة أن تغرق أوروبا في متاهات الجهل والشعوذة ، وتعصب أعين أهلها عن مسيرة التقدم والمعرفة قروناً عديدة ، ولما تجمعت قوات أوروبا تحت شعار الصليب للقضاء على أصحاب الحضارة التي جعلت من الأندلس المشعل الذي ظل يضئ على العالم ويمهد له سبل التقدم والازدهار .

فالعرب كانوا سيقيمون ، كما أقاموا في الأندلس ، الجامعات والمستشفيات والمصانع والمزارع قبل أن تعرفها أوروبا بقرون عديدة . فإن تصورنا ذلك كله ، فلربما تصورنا كذلك ان النهضة الحديثة التي عرفها العالم الغربي كانت ستبدأ ولا شك ، قبل الموعد الذي بدأت فيه بقرون ، ولتغير مجرى التاريخ بأكمله .

واذا أردنا جواباً عن تساؤلنا الأول وهو : كيف تسنى للعرب اقامة ذلك الصرح الحضاري العظيم ، في ظل هذه الظروف ، فعلينا ان نستعرض بإيجاز نشأة تلك الحضارة ومظاهرها وأبعادها .

لئن امكن التغلب على صعوبة الايجاز بعض الشيء ، في السرد التاريخي للوجود العربي في الأندلس ، بأن اقتصرنا هذه الحكاية على اهم الأحداث فقط ، الا ان محاولة الايجاز في عرض الوجه الحضاري هي اشبه بمحاولة اغتراف كوب من مياه المحيط للتدليل على ماهيته . فإن وردت في هذه الصفحات بعض لمحات ، ليس إلا عن ذلك الصرح الهائل ، فليعلم القارئ أنها مجرد قطر من غيث .

وقبل الشروع في عرض هذه اللمحات الحضارية ، لا بد من القاء نظرة سريعة مرة أخرى على النسيج الذي تكوّن منه المجتمع الاندلسي الذي جاء بهذه الحضارة .

كانت أولى موجات الفتح الاسلامي تتكون ، كما رأينا ، من البربر ، جاءت مع طارق بن زياد ، وأن الموجة الثانية ومعظمها من العرب جاءت مع موسى بن نصير ، وان موجات أخرى بربرية وعربية وفدت الى الأندلس بقصد الاستقرار ، بعد استكمال عملية الفتح . غير ان

ويتفتق ذهنه عن أرقى ما وصل إليه العالم من علم ومعرفة .

لم يكن في البلد الذي فتحه ذلك العربي الكثير مما كان يمكن له أن يتعلمه . كما أن المرحلة الأولى من وجوده في الأندلس كانت بمثابة امتداد للخط الجهادي الذي بدأ السير به منذ غادر موطنه الأصلي . وكانت مشاعره الدينية المتدفقة ، وروحه الجهادية المتوقدة ، وتحفزه أبداً للمزيد من الفتح وللمزيد من النصر ، عوامل ظلت تسيطر ، قدرأ من الوقت ، على عقله وقلبه ، وتجعله في غفلة عن أمور الدنيا الأخرى ، ناهيك عن أنه لم يكن يعلم بعد ، أن كان وجوده في هذه الديار الجديدة سيطول ويدوم ، أم أنه سيتابع مسيرة الفتح الى اصقاع أخرى .

ولم يدرك ذلك العربي أن الأندلس سيصبح مستقراً له إلا بعد أن اعتلى عبد الرحمن الداخل عرش الامارة ، مقيماً بذلك دولة أموية في الغرب ، بعد أن غربت شمسها في الشرق .

والعربي الذي انطلق من الصحراء ، وفتح بلاد الشام ، وقضى على امبراطورية الفرس ، وقلص من حجم امبراطورية بيزنطة واستولى على مصر ، ثم قفز الى شبه الجزيرة الايبيرية ، بعد معارك في الشمال الافريقي دامت زهاء سبعين عاماً ، لم يكن ، في الواقع ، كما يصوره بعض المؤرخين المغرضين من الأجانب ، ذلك الجلف الجاهل المتعطش ابداً للدماء . اذ لو صح ذلك ، لما استطاع مثل هذا ان يقيم في غضون قرن واحد من الزمن ، تلك الحضارة الزاهرة التي ما زالت تضيء على البشرية ، ولما استطاع نشر عقيدة ما فتئت تشع على العالم من أقصاه الى أدناه نوراً وهداية .

فالحضارة لا يأتي بها جلف خلا قلبه من مشاعر انسانية ، وافنقر عقله الى بذور ثقافية وتاهت عنه خصال النبل والاصالة . فلقد قامت دول وامبراطوريات قبل الامبراطورية العربية ويعدها ، وزالت جميعها دون ان تترك للعالم أثراً حضارياً يذكر . فلا العبرانيون ولا البربر ولا الترك ولا المغول استطاعوا ان يوقدوا شمعة حضارية

البربر ظلوا يشكلون غالبية سكان الأندلس من المسلمين ، واستقر معظمهم مجبرين في المناطق الجبلية الشمالية ، وأن أجناداً من بلدان عربية مختلفة وفدت كذلك إلى البلاد ، واستقرت فيها ثم أتى بعض الحكام بالعديد من الصقالبة الذي ينتمون إلى أصول عرقية مختلفة .

وكان البربر أسرع الفئات امتزاجاً بالسكان المحليين ، ذلك أنهم لم يكونوا قد انصهروا في البوتقة العربية تماماً ، كما أن قلة منهم ظلت على نصرانيتها ، كما يقول بعض المؤرخين ، ناهيك عن خلفيتهم ذات الصلة بهذه البلاد ذلك أنهم كانوا يقطنون شبه الجزيرة الايبيرية ، قبل أن يطردوهم القوط منها إلى الشمال الأفريقي .

ولم تتأخر الفئات الأخرى من الفاتحين كثيراً عن البربر في الامتزاج بأهل البلاد . وتقبل بعض المصادر أن عدد الاسبانيات اللاتي تزوجن من الغزاة المسلمين خلال الفترة الأولى للفتح زاد عن ثلاثين ألفاً ، كانت أولاهن أرملات الملك لذريق التي تزوجها أول والٍ للأندلس ، عبدالعزيز ابن القائد موسى بن نصير . وقلما توقف هذا التزاوج المختلط ، ذلك أن معظم القادمين جاءوا بدون عائلاتهم ، مما أدى إلى نشوء أجيال جديدة جرت في عروقها دماء مختلطة ، كثيراً ما أتت بنتائج ايجابية ، سواء من الناحية الفكرية أو الاجتماعية .

ولم يمض وقت طويل بعد فتح المسلمين لاسبانيا حتى دخل الاسبان بأعداد كبيرة في الدين الإسلامي ، إما عن ايمان ، أو لمصالح اقتصادية ومعيشية . كما نشأت طبقة أخرى في ذلك المجتمع ، وهي فئة الاسبان المستعربين الذين بقوا على نصرانيتهم ، وإن أخذوا بعادات العرب ولغتهم وثقافتهم ، وعاشوا بينهم بحرية واحترام متبادل .

ولقد تساءلنا في مقدمة حكايتنا هذه كيف كان لذلك العربي الأمي الذي جاء من الصحراء . والذي تصلبت يده على مقبض سيفه ، أن يصوغ بيده ، بعد أن انفرجت عن مقبض سيفه ، بعضاً من أجمل ما عرفه العالم من فن ، وينطلق من وجدانه أجزل ما عرفه من أدب وشعر ،

في خدمة البشرية ، ذلك لافتقار هذه الشعوب الى المقومات الأساسية التي لا تقوم حضارة بدونها .

والعربي ، حتى قبل الاسلام ، كان يتحلى بخصال قلما عرفتها شعوب أخرى ، كان يتسم بالشجاعة والاقدام والنخوة والنجدة والكرم والكبرياء والفروسية الأصيلة ، وهي خصال تنبع من النبل والاصالة وهي من العوامل التي تدفع المرء الى تحقيق المزيد من التقدم والترقي .

ولقد كانت للعرب قبل الاسلام حضارة ، لم تكن دون حضارة الاشوريين والبابليين تقدماً . ولكن حالت ظروفهم الطبيعية والجغرافية دون قيام الكثير من الصروح العمرانية التي تدل ، مادياً ، على مدى تقدمهم الحضاري ، خلاف ما بقي في اليمن ، وما عرف عن حضارته العظيمة وسدوده الجبارة ، إلا أن حضارتهم الأدبية الثقافية كانت راسخة قبل الاسلام بمدة طويلة ، وبلغوا بلغتهم وأدبهم شأواً كبيراً من الرقي والنضج . كما ان اختلاطهم بأرقى امم العالم حضارياً ، من خلال صلاتهم التجارية ، حقق لهم كذلك خلفية ثقافية ، ساعدتهم على استيعاب كل ما استجد عليهم في البلدان التي فتحوها . ولولا ذلك الاستعداد الفطري ، والخلفية الثقافية ، لما استطاع ذلك العربي البدوي ان يتقبل ، ولا ان يقدر ، ولا أن يستوعب المظاهر الحضارية التي شهداها في تلك البلدان .

كما أن العربي البدوي ، ما كان له ان يحقق انتصاراته الحربية المذهلة على جيوش الفرس وبيزنطة النظامية المتمرسه ، التي احترفت الحروب منذ مئات السنين ، وكانت لها ملامكاتها ونظمها العسكرية المدروسة المجربة ، لولا استعداد ذلك العربي البدوي القتالي وشجاعته المتأصلة في نفسه . فقد انهزم العربي ، رغم بسالته ، في اولى اصطداماته الحربية مع الفرس وبيزنطة ، ذلك انه ذهب اليها وهو لا يعلم من فنون الحرب أكثر مما كان يعرفه عندما كان يغزو القبائل المجاورة ، أو يهاجم قوافل التجار أثناء عبورها الصحراء . غير أن خلفيته القتالية سهلت له اقتباس فنون الحرب من اعدائه ، والتعرف الى سلاحهم

وأساليبهم القتالية ، وسرعان ما واجههم وبزهم وحقق ما حقق من انتصارات مذهلة .

ولقد دفع الكبرياء بالعربي ، بعد ان حقق ما حقق من انتصارات حربية باهرة ، الى السعي نحو الارتقاء بنفسه ليصبح بمستوى الانجاز العسكري والسياسي الذي حققه بعد أن أصبحت له امبراطورية امتدت اطرافها من الهند الى المحيط الاطلسي . كما ان اعتزاز ذلك العربي بقبيلته وأمه ما كان ليجعله يقبل بوجود من يُفضله تقدماً ولا علماً ولا ثقافة . فلقد أصبح سيد العالم ولا بد ان تقوم سيادته لا على السيف وحسب ، ولكن على الكتاب كذلك .

ولقد وجد هذا البدوي في الاسلام ما دفعه الى انتهاز العلم ، وسمع نبيه يقول « اطلبوا العلم من المهد الى اللحد » . ورأى مدى ما يمكنه أولو الفضل من احترام لأهل العلم وما يفعله قادته تشجيعاً لهم وتقديراً لعطائهم .

ولم يقف اهتمام العرب الفاتحين عند تقبل الحضارة التي سبقتهم اليها الأمم الأخرى التي جاءت قبلهم . بل انهم ما تركوا فرصة تفلت دون الاستفادة بها . ولقد اسهم خلفاء المسلمين في ذلك اذ اجتذبوا بكافة الوسائل والطرق ، رجال العلم والأدب للاستفادة من معارفهم ، ولو أدى ذلك الى استخدام القوة ، كما فعل أحد خلفاء العباسيين ، الذي أعلن الحرب على قيصر الروم لاجباره على السماح لأحد العلماء المشهورين في بلاده بالتدريس في بغداد . ناهيك بما فعلوه لاغراء العلماء بالمال والجاه ، مما جعل هؤلاء يتوافدون من جميع أنحاء العالم على بغداد وقرطبة والاسهام في ارساء قواعد التعليم فيهما .

ولقد حاول بعض المؤرخين المغرضين المتعصبين ايهام العالم بأن العرب ما كانوا إلا مقلدين لمن سبقهم من أصحاب الحضارات القديمة كالآغريق والرومان والفرس وغيرهم ، وبأن الفضل في أساس العلوم الحديثة يرجع الى الآغريق . ولربما كان هؤلاء محققي في دعواهم هذه لو ان العرب وقفوا عند حد الأخذ بما وجدوه من علوم وآداب قديمة . غير أن ذلك ما لم يفعله العرب . نعم لقد أخذ

العرب مما قدمته الحضارات القديمة ، كما أخذت كل حضارة من هذه الحضارات مما سبقها من حضارات . غير ان العرب بنوا على أساس ما أخذوه من الاغريق والرومان والفرس وقدماء المصريين صروحاً علمية جبارة ونقلوا ، من خلال لغتهم ، هذه العلوم القديمة الى العالم ، بعد ان كادت تندثر اثارها لعدم كتابتها بلغة حية عالمية كاللغة العربية انذاك .

وفي اقامة ذلك الصرح العلمي الجبار ، انتهج العرب نهجاً جديداً ، اذ اتبعوا نهج التجربة والاختبار في كل ما وقعت عليه أيديهم من نظريات ، وكل ما استجد لعلمائهم من آراء ، الأمر الذي ساعدهم في تحقيق تلك الاكتشافات العلمية العظيمة في ميادين الكيمياء والجبر والمثلثات والفلك والطب والتعدين . وظلت الكتب العلمية التي وضعها عظماء العلماء العرب ، المصدر الوحيد لتعليم الكثير من هذه المواضيع حتى امس القريب ، بل ان بعض النظريات العلمية ما زالت تعرف بأسماء أصحابها العرب حتى اليوم .

إذاً عندما بدأت تظهر بوادر النهضة العلمية في الأندلس كانت قد سبقتها نهضة علمية أدبية في بلاد المشرق العربي ، شجعت عليها واحتضنتها الخلافة العباسية في بغداد ، بادئة باستقطاب علماء ومترجمين قاموا بترجمة نفائس الكتب الأدبية والفلسفية والعلمية ، من اليونانية والفارسية والهندية وغيرها ، ثم بتدريس هذه المواد المترجمة في مختلف المعاهد التي انشئت في بغداد وغيرها .

ويرجع الفضل الأكبر في التشجيع على انتهاز العلم في العصر العباسي الى الخليفة المأمون (198-813/833) ، الذي يقول ابن النديم عنه انه استلهم هذا الاهتمام ، اثر منام رأى فيه ارسطو يحفره على رعاية العلم والعلماء ويشجعه على التمسك بمبدأ التوحيد .

وكان أول ما فعله الخليفة المأمون ، ان عمل على توسيع مكتبة دار الحكمة في بغداد ، فبلغت في عهده قمة عظمتها . وكان قد سبقه الى جمع نفائس كتب البيزنطيين والاعريق ، في المواضيع العلمية والفلسفية ، كل من

الخليفة المنصور ، والخليفة هارون الرشيد . وقد جند المأمون افضل المترجمين لنقل هذه الكتب الى العربية ، ومن أشهرهم الفلكي الفارسي ابن نوبخت الذي كان يترجم من الفارسية ، والغزاري ، وهو من أصل عربي ، وكان يترجم من السنسكريتية ، وحنين بن اسحق ، وهو مسيحي من الحيرة ، وكان ابنه اسحق يترجم كذلك كتب الطب من الاغريقية والسريانية ، وثابت بن قرّة الرياضي الفلكي ، وموسى بن شاكر الفلكي وأولاده الثلاثة ، محمد واحمد والحسن وغيرهم . كما أنشأ الخليفة هارون الرشيد ، عند توليه الخلافة ، مستشفى في بغداد ، مستعيناً بطبيب نسطوري اسمه جبرائيل بن بختشوع ، كان رئيساً لمدرسة الطب في جنديشاور . وقد بنيت مستشفيات أخرى عديدة على نسقه فيما بعد .

وهكذا بدأت النهضة العلمية واتسع نطاقها بعد ان جمع العلماء العرب موادها من مختلف المصادر ، وترجموها الى اللغة العربية مضيفين اليها من مكتشفاتهم وتعليقاتهم ، ومستعينين في ذلك ، كما رأينا ، بعلماء من مختلف الأمم ، الى جانب العلماء العرب الذين برزوا على مراحل مختلفة ، ليصبخوا اعلاماً في تخصصهم ، ما زال العالم يستشهد بأرائهم ونظرياتهم حتى يومنا هذا . وأصبحت اللغة العربية هي الوسيلة التي انتقلت بواسطتها العلوم والآداب والفلسفة والمنطق والجغرافيا الى مختلف البلدان .

وظل ركب العلم سائراً في المشرق العربي بنشاط لا يعرف الكلال ، وأصبحت بغداد مصنعاً للعلماء والأدباء والمفكرين ، ومسرحاً لمجادلات فلسفية ، ومناقشات علمية ، اذكت شعلة المعرفة ، وشحذت عقول طلاب العلم والأدب في كل مكان .

مظاهر النهضة الحضارية في الأندلس

بالرغم من العداء المستحكم بين امويي الأندلس وعباسي بغداد ، فإن العهد الأموي مشى مع الركب الحضاري ، الذي كان قد قطع شوطاً كبيراً في مسيرته ببغداد . بل ان الحكام الامويين الأوائل كانوا يتلهفون على

متابعة هذه المسيرة ، ويتطلعون الى تقصي سيرتها من المسافرين العائدين من المشرق ، الذين كانوا يذهبون اما للحج او التجارة او الدراسة .

وكما أن الحاكم في بغداد كان أول من شمل نشأة النهضة العلمية والأدبية برعايته وتشجيعه ، فقد كان الأمر كذلك في الأندلس .

وكان أول من اسهم في ارساء قواعد الانطلاقة الفكرية العلمية في الأندلس عبد الرحمن الداخل ، عندما بدأ في انشاء جامع قرطبة العظيم ، الذي أنشئ للعبادة والعلم ، شأنه في ذلك ، شأن معظم الجوامع التي ابتناها المسلمون في الأندلس ، حيث كان العلماء والفقهاء والادباء يعقدون فيها ، لطلاب المعرفة ، حلقات تدرس فيها مختلف المواضيع .

وما أن تولّى الحَكَمُ الثاني الحكم حتى بدأ يجمع نفائس الكتب ويعمل على استنساخها ، وعلى انشاء مكتبة قرطبة ، التي اصبحت في عهده تضارع مكتبة دار الحكمة ببغداد . كما أخذ يشجع العلماء وطلاب العلم على انتهاز المعارف ، ويغدق عليهم الأموال ، لحفزهم على الاستزادة ، فأنشأ في قرطبة مدرسة في كل حي من احيائها ، كما أسس سبعاً وعشرين مدرسة للفقراء ، كان يدفع هو نفقاتها لكي يتيح لجميع افراد الشعب فرص التعليم .

غير ان العديد من الكتب القيمة التي امتلأت بها مكتبة قرطبة وخاصة ما يتصل منها بالفلسفة والمنطق ، اُحرق أو دفن أو أغرق بأمر من الحاجب المنصور كما رأينا ، وذلك ارضاء لرجال الفقه المتزمتين ، الذين عمدوا الى التشكيك في إيمانه ، وقد عوض بعضها في عهد ملوك الطوائف الذين لم يكونوا يتنافسون في السيادة والانتشار وحسب ، ولكن ، ولحسن الحظ ، في رعاية النهضة العلمية في البلاد .

وكان أول من انجبت النهضة الفكرية الاندلسية المفكر الفيلسوف ابن مسرة الذي توفي عام 931/319 ، وان كان لا يقارن بالكندي المفكر العملاق ، الذي انجبه المشرق

العربي قبل ذلك بأكثر من نصف قرن . وكان أهم عمل ترجمة في مجال الطب ، كتاب ديوسكوريدس الطبي ، الذي تلقاه عبد الرحمن الثالث هدية من امبراطور بيزنطة . غير ان عظماء العلماء والفلاسفة الذين برزوا في الأندلس تأخروا حتى القرن السادس هجري / العاشر ميلادي ، كابن طفيل الطبيب الذي ألف التحفة الخالدة « حي بن يقظان » وابن رشد الطبيب والفيلسوف العظيم وكاتب التعليق الشهير على أعمال ارسطو ، والطبيب ابو مروان ابن زهر ، الذي اشترك مع ابن رشد في وضع الموسوعة الطبية الشاملة ، والفلكي البطروجي والفيلسوف ابن باجه وابن حزم وغيرهم ممن استقطبتهم الأندلس المنفتحة بعد ان فروا من التعسف الذي بدأت وطأته تشتد على المفكرين المنفتحين في ظل التسلط التركي على الخلافة العباسية .

ولعل أهم ما قدمه الأندلس الى اوروبا على الاطلاق الأرقام العربية ، التي ما زالت تستخدم في جميع أنحاء العالم ، والتي نقلت عن الأرقام الهندية ، بفضل الترجمة التي اضطلع بها رياضي المشرق العظيم الخوارزمي ، لكتاب هندسند ، والذي ترجم بدوره من العربية الى اللاتينية ، الأمر الذي أدى الى قيام مدرسة علمية جديدة في أوروبا ، تناولت علم الحساب الجديد هذا ، بأعداده التسعة والصفير ، وأصبحت تعرف بالمدرسة الخوارزمية ، وحتى ذلك الحين كان العالم يستخدم الحروف الأبجدية اللاتينية للتعبير عن الأرقام ، مما كان يجعل من الأعمال الحسابية أمراً في منتهى الصعوبة والتعقيد ، خاصة وان اوروبا لم تكن حتى ذلك الوقت تعرف الصفير .

ولقد انتقلت ، بفضل عرب الأندلس وصقلية ، الى أوروبا ، اختراعات واكتشافات عربية كثيرة على جانب كبير من الأهمية في مجالات الفيزياء والكيمياء والميكانيكا ، مما لا يتسع المقام للدخول في تفاصيلها ، وهي معروفة لكل من يهتم بتاريخ هذه العلوم .

ومن أهم المكتشفات التي أخذتها أوروبا عن عرب الأندلس ، البوصلة وهي ، وان كانت قد اخترعت أصلاً

في الصين ، فإن تطوير استخدامها في الملاحة جاء بفضل العرب ، ذلك ان مخترعيها لم يستخدموها لهذا الغرض قط . وقد ادخل العرب كذلك استخدام الاسطربال في علوم الفلك ومنهم من انتقل الى أوروبا .

كما اهتم عرب الأندلس باستغلال مناجم الكبريت والنحاس والزنك والحديد والذهب . وبرعوا في الدباغة وفي فن تسقية الفولاذ الذي كان يستخدم في صناعة السلاح التي اشتهرت بها طليطلة والتي ما زالت تهتم بها حتى الآن .

على أن الحركة العلمية الفكرية في الأندلس لم تقتصر ، بعد ان استتببت جذورها ، وبلغت ما بلغته من زخم ، على الاطار الكاديمي وحده ، بل تعدته الى التطبيق العملي في مجالات متعددة كالطب والجراحة والزراعة والصناعة ، فانشئت مستشفيات ، كانت تجري فيها عمليات جراحية معقدة ، كما تطور الطب البيطري ، واستخدم العرب التلقيح الاصطناعي قبل ان تعرفه أوروبا بقرون . وحققت الزراعة تقدماً ما زال أثره قائماً حتى الآن ، فشقت الترع واقيم نظام ري متقدم ، ما زال يستخدم حتى يومنا هذا . وادخلت محاصيل زراعية جديدة كالحمضيات والكثير من الخضار كالسبانخ والهلين الى جانب السكر والقطر والكتان وغيرها كالتوت ، الذي كان يستخدم في تربية دودة القز المستوردة من الصين في انتاج خيوط الحرير وصناعة المنسوجات الحريرية .

وبفضل الانتاج الزراعي تطورت صناعة الانسجة القطنية والكتانية والبسط الصوفية والجلود المدبوغة والورق ، الذي كان له أعظم فضل في انتشار الثقافة العربية في البلدان الأوروبية ، نظراً لانخفاض تكاليفه قياساً الى ورق البردي والحرير اللذين كانا يستخدمان في الكتابة حتى ذلك الوقت . ولئن كان الصينيون هم أول من اخترع الورق ، فإن ورق الصين كان يصنع من شرائح دودة القز ، التي تستخدم في استخراج خيوط الحرير . وكانت قد أدخلت هذه الصناعة الى مدينة سمرقند قبل فتح العرب لها . فاقبش العرب طريقة الصينيين في صنع

الورق ، واستخدموا القطن في ذلك بدلاً من الشرائح التي لم تكن تنتج في بلادهم ولا في أوروبا . ثم طور العرب هذه الصناعة باستخدام السمال والنفايات ، فاستطاعوا انتاج ورق ، بتكاليف منخفضة ، محدثين بذلك ثورة صناعية علمية لم يسبق لها مثيل .

ولقد سبق العرب اهل أوروبا في هذه الصناعة بما لا يقل عن قرن من الزمن ، حيث ان اقدم مخطوطة معروفة في أوروبا مكتوبة على هذا النوع من الورق يرجع تأريخها الى عام 1270 م ، وهي عبارة عن رسالة بعث بها جوانفيل الى الملك سان لويس قبل وفاته ، أي بعد حملته الصليبية الأولى الى مصر ، في حين ان في برشلونة مخطوطة لمعاهدة السلم المعقودة بين الاذفونش الثاني ملك ارغونة والاذفونش الرابع ملك قشتالة بتاريخ 1187 م وقد كتبت على ورق صنع في مصنع شاطبة العربي . كما استخدم الورق في طباعة أوراق النقود وورق اللعب الذي عرفته أوروبا ، فضلاً عن لعبة الشطرنج والضامة من خلال عرب الأندلس . كما نشأت صناعات اخرى كالصابون والزجاج المذهب والجلود المطرزة والمذهبة والمفضضة وصناعة الخشب المطعم بالصدف والعاج والنحاس المزخرف والفخار .

وقد عم الأندلس ازدهار اقتصادي عظيم جعل موانئه التجارية كاشبيلية ومالقة وفالنسيا ودينيا والمرية تزدهم بالسفن القادمة من المشرق ، المحملة بالأقمشة الدمشقية وبالبهارات الشرقية وغيرها لتعود بمنتجات المصانع الأندلسية من البسط الصوفية والفراء والأغطية والمطرزات والحزف والمجوهرات والجلود المدبوغة والأسلحة الطليطلية الشهيرة وما الى ذلك .

ولقد كان العرب أول من استخدم المدافع في الحروب بأوروبا . فقد صنع الأندلسيون قنابل من البارود الذي اكتشف اصلاً في الصين ، واستخدموها في حروبهم ضد الاسبان في بازا عام 1325 م . وفي اليقنت عام 1331 ، وفي الجزيرة الخضراء عام 1342 ، وفي معركة كريسبي عام 1346 . وكانت هذه المدافع تثير الرعب والفرع في قلوب الأعداء الذين وصفوها بفوهات الشيطان . ومن غريب ما

ذكره المؤرخ رشيد الدين ، ان القائد المغولي كوبلاي خان كان قد استعان بالعرب عندما كان يحاصره الصينيون في مدينته فان تشينج ، فأوفد اليه حليفه السلطان العربي مهندسين من العرب ، صنعوا له سبع آلات كبيرة تطلق السهام عند انفجار البارود ، مما ساعد في فك الحصار عن المدينة عام 1233 م . ومن الواضح ان اهل الأندلس ، قد أخذوا هذه التكنولوجيا عن المشرق العربي .

أما في الميدان المعماري ، فقد خلق أهل الأندلس كما لم يخلق أحد في العالم انذاك ، وإن تلك الآثار اليسيرة التي لم يعف عليها الدهر ، ما زالت تقف شاهداً على ذلك النبوغ الهندسي الفذ والذوق الرفيع الذي بلغه هذا الفن ابان الحكم العربي هناك ، كقصور الحمراء في غرناطة ، وجامع قرطبة الكبير ، ومنازة الخير الدا في اشبيلية ، أو بعد سقوط المدن الأندلسية تبعاً في يد الاسبان ، الذين استبقوا المهندسين والبنائين وعمال الزخارف العرب لبناء قصورهم كقصر اشبيلية الشهير .

ونرجع هنا الى تساؤلنا الذي أوردناه في مقدمة حكايتنا عن ذلك العربي وكيف كان له ، وهو الذي لم تعرف يده سوى مقبض السيف ، ان يقيم تلك الصروح العمرانية التي ما زال العالم يدهش لها حتى يومنا هذا .

مما لا شك فيه ان العالم الذي انتشر فيه الاسلام ، كان يتمتع بحضارة متقدمة جداً ، ان كان في بلاد الهند أو بلاد الفرس ، أو في البلاد السورية او العراقية ، أو التركية ، وان تلك الحضارات كانت تتفاعل في ما بينها ، وتتفاعل مع ما عرفته الامبراطورية البيزنطية من اتجاهات حضارية متقدمة . ولما جاء الاسلام ، ووحد بين سكان هذه البلاد عقائدياً ، وفرض لغة القرآن عليهم ، انصهرت مواهبهم ومعارفهم الفنية في بوتقة واحدة ، من خلال وحدة اللغة ووحدة المعتقد .

ولم يرفض العرب الذين جاءوا بمعتقدهم السماوي ، تراث الشعوب الأخرى في المناطق التي بسطوا عليها سلطاتهم ، سواء من اعتنق منهم الاسلام أو من بقي على دينه . اللهم إلا في ما يتعلق بالنحت وخاصة نحت الشكل

البشري وذلك لاسباب معروفة . بل ان العرب شجعوا أصحاب الفنون والعلوم ، الذين بدأ يأخذ الواحد منهم من فنون الآخر ، مما أدى الى اثناء النتاج الفني والهندسي والمعماري والزخرفي ، وإلى خلق مزيج ، راح يأخذ طابعاً متشابهاً من حيث التعبير والشكل ، أصبح يعرف بالفن الاسلامي ، وان ظلت هنالك بعض الصفات العامة التي ميزت ، وبصورة شكلية ، بين فنون المناطق المختلفة ، كشكل المآذن وزخرفها ، والخطوط العربية وغير ذلك .

ولعل من أهم العوامل التي ساعدت على اتساق الفن الاسلامي ، ان الاسلام لم يجعل فرقاً بين الفن المعماري الديني والمدني ، وبالتالي ، لم يفرض طابعاً خاصاً من الفن لغرض معين ، مما أدى بالفن الاسلامي لأن يصبح دينامياً من حيث نوعيته ونتاجه ، على نحو اتاح له ان يتفاعل مع الطاقات الفنية التي برزت حتى بين السكان غير المسلمين ، لا بل ان يستوعبها . فأسهمت هذه الفئات اسهاماً نشطاً في تطور الفن الاسلامي دون ان تغير من جوهره .

وكان للحركة التجارية التي نشطت بين مختلف أجزاء الامبراطورية الاسلامية ، أكبر الأثر في تعريف أصحاب الفن في بلد ما بفنون البلدان الأخرى ، مما أدى الى التقليد ثم الاقتباس فالاندماج .

رأينا اذاً كيف استطاع ذلك البدوي القادم من الصحراء ان يستغل ذكائه الفطري ، ومقومات شخصيته الفذة ، في تقبل مظاهر الحضارة التي وجدها حوله ، ثم في اقتباسها وهضمها وصقلها وصهرها في بوتقة تقاليده وخلفيته ، وكيف انه جعل من ذلك كله ، الأساس الذي أقام عليه صرحه الحضاري العظيم .

ورأينا أيضاً كيف ان أهل الأندلس تفاعلوا مع عطاء أهل المشرق الفني والأدبي والعلمي وجعلوا من هذا العطاء أساساً أقاموا عليه صرحهم العظيم الذي أضاء ظلمات العالم آنئذ ، فجاء قوياً في محتواه ، ورقيقاً في مظهره ، ثم عن قوة الشخصية ورقة الشمائل .

وتراث أهل الأندلس ، كتراث أي شعب من شعوب

تصورها على حقيقتها بما فيها من تناسق ورشاقة وحساسية وشاعرية وجلال .

ولقد التقطت أثناء زيارتي المتكررة للأندلس الافاً من الصور ، اخترت منها ، لضيق المجال ، مجموعة صغيرة ، وقصرت اختياري على أهم الآثار والمواقع ، التي سنقوم بزيارتها معاً بعد اطلالتنا على الجناح الأدبي .

الشعر الأندلسي

العرب صاغة الكلم
والشعر اجمل جواهرهم
والشعر العربي احلى شعر عرفه لسان البشر
فلا عجب ان يحب العربي شعر قومه
فهو يسكر لسماعه ، ويسكر لإنشاده ،

يقوله ان احب

ويقوله ان كره ،

يقوله ان مدح

ويقوله ان هجا ،

يقوله ان انتصر

ويقوله ان انكسر ،

يقوله ان افتخر

ويقوله ان تذلل ،

يقوله ان فرح

ويقوله ان حزن ،

يقوله في كل مناسبة

ويقوله بلا مناسبة ،

فهو جزء منه ، من حياته ، من ماضيه ومن حاضره
بل هو كذلك من مستقبله . واينما ذهب العربي ، أخذ معه
جزءاً من وطنه ، من ثقافته ، من تاريخه من تقاليده
وعاداته . وعندما ركب العربي صهوة جواده منطلقاً الى
الجهاد في الأندلس ، حمل معه كل هذه الأشياء ، الى

الأرض ، جاء مرآة لتاريخهم وشخصيتهم وظروفهم .
والدارس لثراث أهل الأندلس المعماري يستطيع ، من
دون عناء كبير ، أن يدرك الأطوار المختلفة لتاريخ
الأندلس ، مما خلفه أهله من تراث .

والحديث عن فن العمارة يطول ، ولا مجال له في هذا
الكتاب . كما أنه لا مجال للخوض في موضوع الأدب
الأندلسي ، ذلك ان البحث فيهما يتطلب مجلدات
ومجلدات .

غير أنه من غير المعقول الانطل ، في عرضنا هذا ، على
هذين الجناحين العظيمين من الصرح الأندلسي ، وإن
بصورة عابرة . وسنقتصر في اطلالتنا على الجناح الأدبي ،
على استعراض مجموعة من الشعر الأندلسي الذي قيل في
مختلف المناسبات ، نختم به هذه الحكاية ، حكايتنا في
الأندلس .

أما جناح فن العمارة ، فستكون زيارتنا له من خلال
الصورة . وفي هذا الصدد قال المؤرخ الكبير غوستاف
لوبون في كتابه (حضارة العرب) ، « . . . ولا نرى غير
طريقة واحدة لوصف الآثار الماثلة ، وهي عرض
صورها . فصور البانتيون والحمراء وافروديت أولى من
مجموعة الكتب التي وضعها جميع مؤلفي العالم لوصفها ،
ولقد أصاب من قال ، ان صورة متقنة خير من مائة صفحة
في الوصف ، وليس من المبالغة أن يقال ، انها خير من مائة
مجلد » .

قال غوستاف لوبون ذلك قبل قرن من الزمن ،
ويحتوي كتابه « حضارة العرب » على 363 صورة و 10
لوحات .

وايماناً مني بقيمة الصورة في مثل هذا المجال ، واجلاً
مني لروائع فننا العربي الخالد ، رأيت ان اسهم بعدستي ،
املاً في أن افي هذه الروائع بعض حقها ، فأعطي للقارئ
صورة بصرية واقعية لبعض نواحي العبقرية الفنية ، التي
تتجلى في الصروح المعمارية التي اقامها العرب في
الأندلس ، والتي طالما عجزت اقلام العباقرة عن وصفها
وظلت حتى يومنا هذا تقف حياها برهبة واجلال ، غير
قادرة على اعطاء صورة ذهنية وافية ، تتيح للقارئ

جانب ايمانه بالرسالة التي وهب حياته لنشرها في العالم ، رسالة الحق والتوحيد .

ومن الطبيعي ان يحمل ذلك العربي معه الشعر الذي اعتاد سماعه وانشاده . ومن الطبيعي ان ينشد في موطنه الجديد على نحو ما كان ينشد في موطنه الأصلي . ومن قال ان عرب الأندلس كانوا مقلدين لأهل المشرق في كل شيء بما في ذلك الشعر، فلربما صح ادعاؤه بالنسبة الى اولى فترات الاستقرار فقط . ذلك ان حياة اهل الأندلس في وطنهم الجديد كانت امتداداً ، لا أكثر ، لحياتهم في موطنهم الأصلي . فلما تطورت حياتهم الجديدة في وطنهم الجديد ، بفضل الظروف السياسية والعسكرية والمعيشية والاجتماعية التي عاشوا في ظلها ، وبفضل اختلاطهم بأجناس جديدة من البشر ، بما لها من ظروف معيشية واجتماعية خاصة كانت جديدة عليهم ، تأقلموا في البيئة الجديدة وتطور اسلوب التعبير والتفكير ، وتطور بالتالي الشعر الأندلسي ، ليتخذ طابعاً خاصاً ، يعكس ، فيما يعكس ، سعادة الأندلسي بحياته الجديدة ، في وطنه الجديد ، بخيراته العظيمة ، وبجوه المعتدل ، وطبيعته الشاعرية ، ووداعة من عاشر من أهل البلاد ممن اندمجوا في البيئة العربية .

ولهذه الأسباب ، كان الشعر في المراحل الأولى مطابقاً للشعر المشرقي التقليدي في شكله ومضمونه ، وان تطور المضمون حسب الاطار الفكري الذي خلقت فيه البيئة الجديدة ، كوصف جمال الطبيعة الخلابة ، والتعبير عن الحنين الى بلد الاجداد .

ومع تطور النهضة العلمية في البلاد تطور نوع جديد من الشعر هو الشعر العلمي ، ثم عندما بدأت تتساقط الممالك والمدن في يد الأعداء تطور نوع جديد آخر من الشعر ، هو شعر الاستغاثة بالمسلمين في المغرب وغيره لنجدتهم ضد أعدائهم النصارى .

ولعل أكثر ما يميز الشعراء الأندلسيين عن غيرهم من الشعراء العرب ، رقة الفاظهم وعذوبتها وسهولتها وشفافيتها ، فكلما تم تقع على الاذن خفيفة ناعمة ،

وتسرب الى اعماق النفس بحنان ورفق . ولربما رجع ذلك الى طبيعة البيئة التي تحيط بهم ، بما تميزت به من اعتدال وما زخرت به من خضرة ومياه فياضة عذبة .

ومن الطبيعي ان تفيض قرائح الشعراء ، في مثل هذه البيئة الخلابة ، بأرق قصائد الغزل والحب واحلاها ، سواء كان غزلاً حسياً أو تعبيراً عن مشاعر وجدانية حقيقية . ولا بد هنا من الاشارة الى الجمال البشري الذي اكتشفه العرب بين اهل البلاد ، الذين كانت تجري في عروقهم دماء مختلطة ، يونانية ورومانية وجرمانية وبربرية وقوطية ، فبهرهم جمال نساء اسبانيا الشقراوات واوحى اليهم بالكثير من الشعر الرقيق .

أما أكثر انواع الشعر الأندلسي شهرة والذي يميزه عن غيره تماماً فهو الموشح الذي ابتكره اهل الأندلس في اواخر القرن الثالث الهجري وظل حكراً عليهم ، يغنونه في امسياتهم ، فرادى وجماعات ، بل انه نظم أصلاً من اجل الغناء ، وبالتالي كان الموضوع الأساسي الذي تناوله الموشح هو الغزل اصلاً ، وان نظمت موشحات كثيرة في مواضيع مختلفة كالمديح والتصوف وما الى ذلك .

الموشح والغناء

ولا بد لنا من وقفة هنا ، نعرض فيها بإيجاز لهذا اللون الشعري الذي ابتدعه اهل الاندلس ، واصبح أشهر ما عرف به الأندلسي على الصعيد الأدبي ، وهو اللون الشعري الذي تواكب في تطوره مع فن الغناء فغذاه بالكلمة واستلهم منه الشكل التعبيري .

يرجع تاريخ الموشح الى اواخر القرن الثالث الهجري . ويكاد يجمع المؤرخون على ان رائد الموشح هو الشاعر الضرير مقدم بن معافي ، الذي كان يسكن (قبرة) بجوار قرطبة ، في عهد الاميرين عبدالله وعبد الرحمن الثاني ، في اواخر القرن الثالث واول القرن الرابع الهجري ، التاسع / العاشر ميلادي . غير ان اعمال هذا الشاعر اندثرت كما اندثرت اعمال بعض من خلفه مباشرة في هذا المضمار ، ولعل ذلك يرجع الى ان موشحاتهم لم تكن قد بلغت مستوى النضج بعد ، ولأن الشعراء

الكلاسيكيين ، أي شعراء الفصحى ناصبوا هذا اللون من الشعر العداء قبل ان يشب عن الطوق وتنفذ جذوره الى اعماق المسيرة الأدبية .

ولعل الفضل في ارساء قواعد هذا اللون الشعري يرجع الى ابي بكر عبادة بن ماء الساء في عصر الطوائف ، ثم الى ابن رافع ، ثم الأعمى التطيلي ، ويحيى بن بقي ، وأبي بكر الأبيض ، وأبي بكر بن باجه وغيرهم ، كابراهيم ابن سهل الاسرائيلي الذي برز في القرن السابع الهجري ، ولسان الدين الخطيب ، في القرن الثامن ، ثم ابن زمرك ، وزير محمد الخامس بن الأحمر ، وأبي يحيى بن عاصم في القرن التاسع .

ونظراً للعلاقة العضوية بين الموشح والغناء ، فقد كان من الطبيعي ان يركز الموشح بادىء ذي بدء على الغزل ، ولما كان الغناء يتم في نطاق مجالس الشراب واللهو ، أصبح الموشح يتناول وصف هذه المجالس ، ويتطرق الى المجون وما يتصل بذلك ، ثم اصبح يقال في مجالات اخرى كالمجد والهجاء والتصوف والزهد .

ونظراً لسلسلة اسلوب الموشحات وبساطة تعابيرها ووضوح ايقاعها الموسيقي ، ولكونها ، كما قال اميليو غارثيا غوميث ، « الصوت القادم من السوق » فقد اجتذب بالاضافة الى عامة الشعب من العرب المولدين والمستعربين ، الذين لم يقتصر اهتمامهم بها على الاستماع والتقدير ، بل تطور الى المشاركة في النظم والغناء في مجالس مشتركة ، كانت تجمع بين محبي الموشح والغناء مهما كان مذهبهم . وكان من الطبيعي ، ازاء ذلك ، ان يُضمّن الشعراء مفردات وتعابير أعجمية في صميم الموشح وخاصة في الخرجة ، وهي القفل الاخير من الموشحة ، رغم أن كثيراً من هذه الخرجات الاعجمية سقطت من معظم الدواوين لصعوبة استنساخها انشد ، وحلت محلها خرجات عربية ، عامية وفصحى .

ومن الوان الشعر الأخرى التي ابتدعها أهل الأندلس ، فن الزجل ، الذي اشتهر في عهد المرابطين على يد زجال الأندلس الشهير ابي بكر بن قزمان . ويمكن القول بأن

الزجل جاء وليداً للموشح ، الذي تعشقت له العامة لسلاسته ، وحلو كلامه ، وتصويره للحياة العادية اليومية ، وصياغته السهلة البعيدة عن التكلف والتنميق ، فנסجوا على منواله بلغتهم العامية ، دون التقيد بقواعد الاعراب ، وسموا هذا النتاج الأدبي بالزجل .

ولئن كان أهل المشرق لا يلمون كثيراً بهذا اللون من الأدب الأندلسي ، لورود تعبيرات عامية كثيرة فيه ، غير معروفة في المشرق ، إلا أن أهل المغرب العربي يعرفونه ويستمعون اليه ويواظبون على احياؤه ، وهو مفهوم لديهم ، ذلك ان الكثير من تعابيره العامية لا يزال يستخدم في بلادهم ، بفضل هجرة معظم أهل الأندلس الى بلاد المغرب بعد خروجهم منه .

ويشيد مؤرخو الأدب الأندلسي الأجانب مثل ، خوليان ريبيرا ، واميليو غارثيا غوميث ، وليفي بروفنسال ، بهذا اللون الادبي على انه شعر صادق اصيل جاء من صميم وجدان افراد الشعب ، وعبر عن ابسط الاحاسيس التي تحتلج في صدورهم .وقد اعتبر هؤلاء الشعراء ابن قزمان شاعر الأندلس الأول ، وواحداً من المع شعراء العصور الوسطى ، في أي لغة من اللغات المعروفة انذاك ، وقالوا انه يقف على قدم المساواة مع أي من شعراء العرب قاطبة . أما المواضيع التي تطرق اليها الزجل فلم تكن تختلف في جوهرها عن المواضيع التي تناولها الموشح .

ومن الجدير هنا ان نعرض لأثر الموشح والزجل في فن الغناء الأندلسي ، وتأثير البيئة المحلية الثقافية وغيرها عليهما من حيث الشكل والموضوع .

وقبل الخوض في ذلك لا بد لنا ان نعرض للمؤثرات اللغوية والتفاعلات التي حدثت بين اللغات المتداولة بين السكان انذاك .

فاستناداً الى كتابات ابن القوطي ، والى ما ورد في تاريخ قضاة قرطبة للخوشاني ، وغير ذلك من المصادر ، استطاع المؤرخ الاسباني خوليان ريبيرا ان يخرج باستنتاجات حول انتشار اللغة الرومانسية بين عرب الأندلس ، وهي لغة مشتقة من اللاتينية ، اتخذت اشكالاً مختلفة في مناطق

مختلفة من شبه الجزيرة الايبيرية ، الى ان تبلورت ، في آخر المطاف ، على النحو الذي اصبحت عليه اللغة الاسبانية . وقد خلص ريبيرا الى أن عرب الأندلس كانوا يتقنون اللغتين العربية والرومانسية ، ويتكلمون بهما بطلاقة متساوية ، وانهم ظلوا كذلك حتى عهد الموحيدين ، وإلى حد ما ، حتى بعد ذلك ايضاً .

وقد افترض ريبيرا ايضاً ان المام العرب باللغة الرومانسية لم يقتصر على المحادثة فقط . فقد كانوا ينظمون ويغنون بالرومانسية كما كانوا ينظمون ويغنون بالعربية ، بل انهم كانوا احياناً يعبرون ، فيما ينظمون ، باللغتين معاً في القصيدة الواحدة .

ويقول المؤرخ الاسباني المعاصر اميليو غارثيا غوميث ، ان التيفاشي ، الذي عاش في القرن السابع الهجري / الثالث عشر ميلادي يقول نقلاً عن ابن سعيد ، عن ابن دريدة عن ابن حسيب ، ان اهل الأندلس كانوا ، في اوائل العهود ، يغنون على طريقة النصارى ، أو على طريقة حداة الابل .

ولما توطدت اركان الدولة الاموية ، وبدأت بوادر النهضة الثقافية الأندلسية تتبلور ، في عهد عبد الرحمن الثالث ، وما اعقب ذلك من انشاء مكتبة قرطبة العظيمة ، في عهد الحكم الثاني ، ثم انتشار الثقافة العربية واللغة العربية بين الاسبان المستعربين ، بدأ التفاعل الثقافي واللغوي بين العرب والمستعربة يتخذ شكلاً محلياً ، حين تداخلت اللغتان العربية العامية والرومانسية ، واصبحت تستعير الواحدة منهما مفردات الأخرى ، الى ان اصبحتا بمثابة لغة تداول يومي تكاد تكون واحدة بين الفئتين ، سرعان ما استخدمت في نظم الموشح والزجل ، اللذين كانا يشكلان المادة التي قام عليها الغناء بالدرجة الأولى .

ولما كانت كلتا الفئتين تنظم وتغني بلغة مشتركة ، فقد كان من الطبيعي ان تأخذ كل فئة من الفئتين الشكل الموسيقي الذي كان معروفاً لدى الفئة الأخرى . ولما كان الشكل الموسيقي العربي أكثر تطوراً وتقدماً من الشكل

القوطي البدائي ، حتى منذ بداية العهد الأموي ، وخاصة بعد وفود زرياب ، وما أحدثه من ثورة تجديدية في صياغة النغم وفن العزف والغناء ، فقد طغى الشكل الموسيقي العربي على نظيره القوطي ، وظل أثره قائماً على الجمل الموسيقية التي ما زالت متداولة في الغناء الأندلسي حتى الآن .

وكان الشكل الموسيقي الذي مارسه الموسيقيون الأندلسيون العرب ، بقدر كبير من الالمعية ، حسباً ورد في بحوث ريبيرا وغيره ، هو « النوبة » ، وهي عبارة عن سلسلة من الاغاني المجمعة في حركات موسيقية مختلفة حسب ترتيب مقرر ، مؤلفة بأسلوب موسيقي واحد . وقد بلغ عدد النوبات أصلاً اربعاً وعشرين نوبة حسب عدد ساعات اليوم الواحد . غير ان عدداً منها اندثر اثره لسوء الحظ ، كما ان ما بقي منها ليس بكامل .

والنوبة ، حسباً ورد في هذه البحوث ، شكل موسيقي معقد ، يخلو من التعبيرية الدينامية ، تتزايد الحركات الموسيقية فيه بصورة مطردة ، ابتداء من منتصف النوبة حتى نهايتها . وتشتمل النوبة على عنصرين موسيقيين مميزين ، هما اللحن الآلي والصوتي ، والايقاع . وثمة عدد متباين من الألحان تسبقها مقدمة موسيقية آلية . ويقحم في النوبة نوع آخر من الغناء هو « الموال » .

وثمة نوع آخر من الأغاني ، يعرف بالانشاد ، يستخدم في بعض الاحيان كمقدمة ، وقد استخدم في وقت من الأوقات في الربط بين مختلف الحركات . ويبدأ بعد المدخل ، في واحد من أشكال المقدمة ، اداء السلسلة الغنائية حسب نظام ايقاعي مخطط . والايقاع ، الذي يتسم دائماً بالتعقيد هو العنصر الذي يميز كلا من الأجزاء الخمسة التي تتكون منها النوبة ، والتي تسمى حركات النوبة بأسمائها وهي : البسيط ، والقائم والنصف ، والبطيحي ، والدرج وقدام .

ويرجع الفضل في كتابة القواعد التي تحكم أداء النوبات وأسلوبها الى ذلك الموسيقي العبقرى زرياب ، الذي تتلمذ على اسحاق الموصلي في بغداد ، وقدم في

الظروف التي نعرفها الى الاندلس في عهد عبد الرحمن الثاني . وبالإضافة الى وضع هذه القواعد ، التي اضيفت على الفن الموسيقي طابعاً علمياً ، اسس زرياب في قرطبة معهداً موسيقياً أشبه بما يعرف الآن بالكونزيرفاتوار ، بدأ على نسق مدرسة اسحاق الموصلي في بغداد ، ثم اتخذ نهجاً جديداً قائماً بذاته فيما بعد .

ولقد عمل زرياب على ادخال أغان شرقية قديمة ذات اصول اغريقية - فارسية ، كانت بمثابة القلب اللحني الاصيل للموسيقى الأوروبية التي كانت معروفة قبل تلك العصور ، كما انه اضاف ، كما نعلم ، وترأ خامساً الى اوتار العود .

واذا نظرنا الى موقع الموسيقى العربية الأندلسية ، من حيث مضمونها التاريخي ، وجدنا ان العرب كانوا أول من اعاد الكشف عن النظريات الموسيقية الاغريقية وغثيل هذه النظريات واثرائها . كما ان اثر هذه الموسيقى على أوروبا في العصور الوسطى ، كان أكثر عمقاً وأهمية مما يعتقد الناس عموماً .

فقد كتب بين القرنين التاسع والثالث عشر ميلادي ما يقدر بنحو مائتي بحث موسيقي لبعضها أهمية عظيمة . وقد عرفت اديرة أوروبا الرئيسية هذه البحوث ودرستها . وأدت الآثار الفنية ، التي خلفها واضعو النظريات الموسيقية من العرب ، الى بذور الموسيقى الأوروبية ، كما يتبين من الترانيم الرومانسكية الأولى التي عرفت في اسبانيا النصرانية وجنوب فرنسا ، كما يتبين من تطور الموسيقى الدينية فيهما . ويتضح هذا التأثير كذلك من عدد الآلات الموسيقية التي اصبحت متداولة بصورة اعتيادية في أوروبا ، والتي يرجع بعضها الى اصول شرقية وفارسية ، كالعود والقانون والربك ، في حين يرجع البعض الآخر الى اصل اغريقي ، كالأرغن .

وقد شاع الشكل الشعري المعروف بالموشح ، والشكل الشعري الذي عرف بالزجل ، شيوعاً عظيماً خلال القرون الوسطى ، عندما اصبحت جنوب أوروبا تأخذ بأسلوب الحياة في قصور حكام الأندلس ، وخاصة

بروفانس بفرنسا ، حيث بدأت تظهر اولي بوادر الترف واداب الفروسية ومظاهر التقدم الاجتماعي في بلاط الحاكم ، وانتقلت اليها الموسيقى العربية الأندلسية وآلاتها بفضل التروبادور ، الذين كانوا ينتقلون من بلد الى آخر في جميع انحاء أوروبا النصرانية .

ويشير مؤرخو الموسيقى العربية والأوروبية في العصور الوسطى الى وجود أشكال من الزجل الاصيل في بعض أعمال الكثير من التروبادور القدامى ، مثل جيوم دي بواتيه (Guillaume de Poitiers) وآدام دي لا آل (Adam de la Halle) وجيوم دي ماشو (Guillaume de Machaut) ، منذ القرنين الثاني عشر والثالث عشر ميلادي . كما ظهر الزجل في ايطاليا ، لأول مرة في احدى قصائد جاكوبوني داتودي (Jacopone da Todi) ، احد اتباع القديس فرانسيسكو دي أسيسي (St. Francesco D'Assisi) وانتشر العديد من الأعمال الشعرية في القرون الرابع عشر الى السادس عشر .

وقد أنشأ الملك الفونسو العاشر (Alfonso X) (الحكيم) (1230-1284) في اسبانيا النصرانية بلاطاً ازدهرت فيه ارفع عناصر الحضارة العربية ، كما أنشأ معاهد تعليمية ، درست فيها مادة الموسيقى الى جانب الرياضيات والفلك والهندسة ، حسب ما كان يعمل به في مراكز الدراسة العربية . ومن بين المؤلفات التي تتكون منها مجموعة الفونسو (اناشيد القديسة مريم) (Cantigas de Santa Maria) وعددها 417 انشودة ، بلغ عدد ما صنف منها على انها تنتمي الى اصول زجلية 335 انشودة .

وتشكل الرسوم الدقيقة التي زخرفت بها عناوين أناشيد دي لور (Cantigas de Loor) مصدراً ثميناً لدراسة الآلات الرومانسكية والقوطية والعربية ، إذ انها تظهر عدداً من الموسيقيين العرب ، يعزفون على الطبل والعود والبوق والقانون والغائطة والكمنجة والرباط والدربة .

وتقسم الآلات الموسيقية العربية الأندلسية الى أربعة اقسام هي :

1- الآلات الوترية ذات القوس ، ومنها الكمنجة (أو الكمان) والربابة .

2- الآلات الوترية التي تعزف بضرب الوتر ، ومنها العود والقنطرة والطنبور والبزق والقيثارة والجنك (وهو هارب عربي من اصل فارسي) والمعزف والقانون والسنطور (وهو نوع من القانون) .

3- آلات النفخ ، ومنها الارغن والشبابة والغائطة (وهي مزار القربة) والمزمار والناي والشاهين (القصبة) والسرناي أو الدوناي (وجاء من الهند وبلاد الفرس) والزمير (المجوز) .

4- آلات الايقاع ، ومنها البندير والدف والدربكة والقصبة والحلة والجلاليل والقراقب والصنج والزيل والطبل والطار والطرنية والطرية .

ولقد رأينا مما تقدم ، ومن الآلات الموسيقية التي استخدمها العرب في الأندلس ، ان الموسيقى العربية ، تأثرت بما سبقها من موسيقى الحضارات التي عرفها العالم قبل العرب ، كالموسيقى الاغريقية والفارسية والهندية ، وان العرب وضعوها في قوالب تقوم على قواعد علمية اصيلة ، وان هذه الموسيقى العربية قد تفاعلت مع غيرها من فنون الموسيقى المعاصرة ، كالموسيقى الفارسية والبيزنطية والقوطية ، وصهرتها في بوتقة فنية جديدة ، تفاعلت معها ، وأخذت منها وأعطتها ، ووضعت حصيلة ذلك التفاعل في قوالب موسيقية تقوم على أسس علمية لا تقل في دقتها وعمق مفاهيمها عن أي علم من العلوم التي انكب العرب على النهوض بها ضمن مسيرتهم الحضارية الوضاء .

ورأينا كذلك كيف ان البحوث العلمية الموسيقية نقلت فن الموسيقى العربية الى أوروبا وأثرت موسيقاها ، من خلال الأديرة ، التي عكفت على دراستها والتعمق في أصولها ، حتى في الموسيقى والتراجم الدينية ، وكيف انها وصلت الى بلاط الأسر الحاكمة بفضل التثريبادور المتنقلين ، وأصبحت من مظاهر الترف والحضارة في قصور الحكام والملوك .

فاذا كان هذا أثرها في الاصقاع البعيدة عن المجتمع الأندلسي ، فلنا ان نتصور مدى تأثيرها في البيئة التي نشأت فيها هذه الموسيقى وتطورت . واذا ما أخذنا بعين الاعتبار ، ان لغة الغناء كانت اللغة المتداولة في المجتمع الأندلسي بشقيه العربي والاسباني ، وبمشاركة من افراد هذين الشقين معاً ، وبأن اللحن الذي غني به الموشح والزجل تأثر ، ولو الى قدر محدود ، باللحن المتداول بين السكان الأصليين ، وأنه اثر ، الى حد بعيد ، في الذوق الموسيقي لهؤلاء الناس ، بفضل تقدمه وتطوره وتلونه ، امكنا تصور مدى تأثير الموسيقى العربية على الموسيقى الأندلسية ، وهو التأثير الذي ما زال واضحاً في اغاني الفلامنكو ، والخوندا وغيرها من الأغاني الشعبية المتداولة حتى الآن وخاصة في منطقة الأندلس باسبانيا .

ومن السهل على المستمع العربي العادي ، مهما كان المامه محدوداً بتاريخ الموسيقى وتطورها وقواعدها ، ودون ان يعرف كلمة اسبانية واحدة ان يتعرف ، عند استماعه لاغنية فلامنكو أو خوندا ، الى الموال ، ذلك اللون المحبب من الغناء الذي نشأ على سماعه في كل ناحية من نواحي وطنه الكبير ، وان يربط بين صوت العود وصوت القيثارة وبين نقر الصنج ونقر الكاستانيت

ولئن بدأت في بلاد المشرق منذ عهد قريب نزعة الى احياء القديم من الموسيقى العربية ، إلا انها لم تتعد ذلك النوع من الموسيقى الذي بدأ يتطور منذ أوائل القرن الحالي . أما المغرب العربي فصلته بالموسيقى الأندلسية لم تنقطع ، بل ان الجهود الحثيثة الصادقة ، ما فتئت تبذل للحفاظ على هذا التراث الخالد وحياته وبعثه ، كما أن هنالك تعاوناً وثيقاً بين معاهد موسيقية مغربية واسبانية ، من اجل اعادة بناء ذلك الجسر الذي من شأنه ان يفتح آفاقاً جديدة لمزيد من التفاعل والحوار الفني ، وان يتيح بدوره لأهل المشرق التعرف على وجه حضاري آخر ، مما خلفه اجدادنا العظام في شبه الجزيرة الايبيرية .

وقبل استعراض نماذج من الشعر الأندلسي ، لا بد من العرض لطبيعة اهل الأندلس وخصائصهم وصفاتهم ،

لنتعرف على هؤلاء الذين جاءوا بهذه الدرر النفيسة ، التي صاغها أسياذ الكلم من الأندلسيين .

لقد سبق ان رأينا كيف تكوّن نسيج هذا المجتمع ، الذي اختلطت فيه دماء العرب بدماء أهل البلاد ، الذين كان يجري في عروقهم اصلاً خليط من دماء مختلفة ، وندالية وقوطية ورومانية ويونانية وجرمانية وما الى ذلك ، بما ادى الى نشوء اجيال جديدة ، جمعت بين نواح عرقية متعددة الأصول والخصال ، وهو خليط كثيراً ما يؤدي الى بروز صفات ايجابية سواء من الناحية الذهنية او البدنية .

وقد كثر نسل العرب في الأندلس ، بفضل انتشار عادة اقتناء الجوّاري والاماء من الاسبانيات وغيرهن . ولئن كان للزواج المختلط واقتناء الاماء والجوّاري من الاجنبيات نتائج سلبية ، في بعض الاحيان ، بسبب التنافس بين الامهات لحساب اولادهن ، وتجنّس الاسبانيات ، في كثير من الاحيان ، على القصور لحساب العدو ، غير ان نتائج هذا الاختلاط ، كانت له آثار اجتماعية ايجابية أيضاً ، ذلك انه اسهم في كثير من الحالات اسهاماً عظيماً في النهضة الفكرية التي شهدتها الأندلس .

ومما اشتهر به اهل الأندلس ، كبرياؤهم وانفتهم وحرصهم على صون كرامتهم ، وهذه خصلة من أبرز خصال الاسبان حتى يومنا هذا . ولذلك قلما امتدت في الأندلس يد متسول الا لحاجة حقيقية ، ذلك ان اهل الأندلس كانوا اكره ما يكرهون رؤية يد تمتد سائلة ، اذا كانت قادرة على العمل .

ولعل هذا يفسر صفة الحرص الذي كان يوصف به اهل الأندلس ، والذي يوصف به الاسبان حتى الآن . فالاندلسيون ، لكبرياؤهم ، كانوا مدبرين ، غير متلافيين ولا مبذرين ، وذلك لا لشيء ، إلا لأنهم يخشون العوز والفاقة وذلل التسول .

وقد اشتهر اهل الأندلس كذلك بنظافتهم ، وفي ذلك قال المقرئ « واهل الأندلس اشد خلق الله اعتناءً بنظافة

ما يلبسون وما يفرشون وغير ذلك مما يتعلق بهم ، وفيهم من لا يكون عنده الا ما يقوته يومه ، فيطويه صائماً ويتناح صابوناً يغسل به ثيابه ، ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها » .

أما من حيث الملبس فقد اقلع أهل الأندلس ، باستثناء الفقهاء والقضاة ، عن عادة التعمم . بل كانوا يرتدون نوعاً من البرنس الذي ما زال يرتديه أهل المغرب الأقصى ، وكانوا يستخدمون الغفائر ، وهي اشبه بطرحة تلتف حول العنق وترسل الى الظهر . وكان العلماء يرسلون ضفائر شعرهم الى الامام من تحت الاذن اليسرى . وكانت النساء الاندلسيات يتسمن بالاناقة ، ويكثرن من الحلي ويغلب عليهن طابع البذخ . وكان أكثر الأندلسيات محجبات واميات ، ولو ان عدداً منهن برز في عالم الأدب ، مثل ولادة بنت المستكفي ، وحفصة بنت الحاج الغرناطية ، وام الكرام بنت المعتصم ، واعتماد جارية المعتمد بن عباد وغيرهن .

وكان أهل الأندلس يحبون العلم ، وينفق الواحد منهم الكثير مما لديه في سبيل تحصيله . وكانت المساجد تغص دائماً بطلاب العلم الذين كانوا يتتلمذون على العلماء في مختلف المواضيع . وكان للعلماء في الأندلس منزلة عظيمة في المجتمع الأندلسي .

ولعل اكثر ما كان يشغف به أهل الأندلس فضلاً عن العلم والشعر ، الغناء . وقد اشتهر عدد من المغنين والموسيقيين والراقصين ، من الجنسين ، في الأندلس ، وخاصة اشبيلية مدينة المرح واللهو ، حتى ليقال ان الأندلسي يفضل ان يعيش على الكفاف مع الغناء ، على ان يعيش مترفاً بدونه .

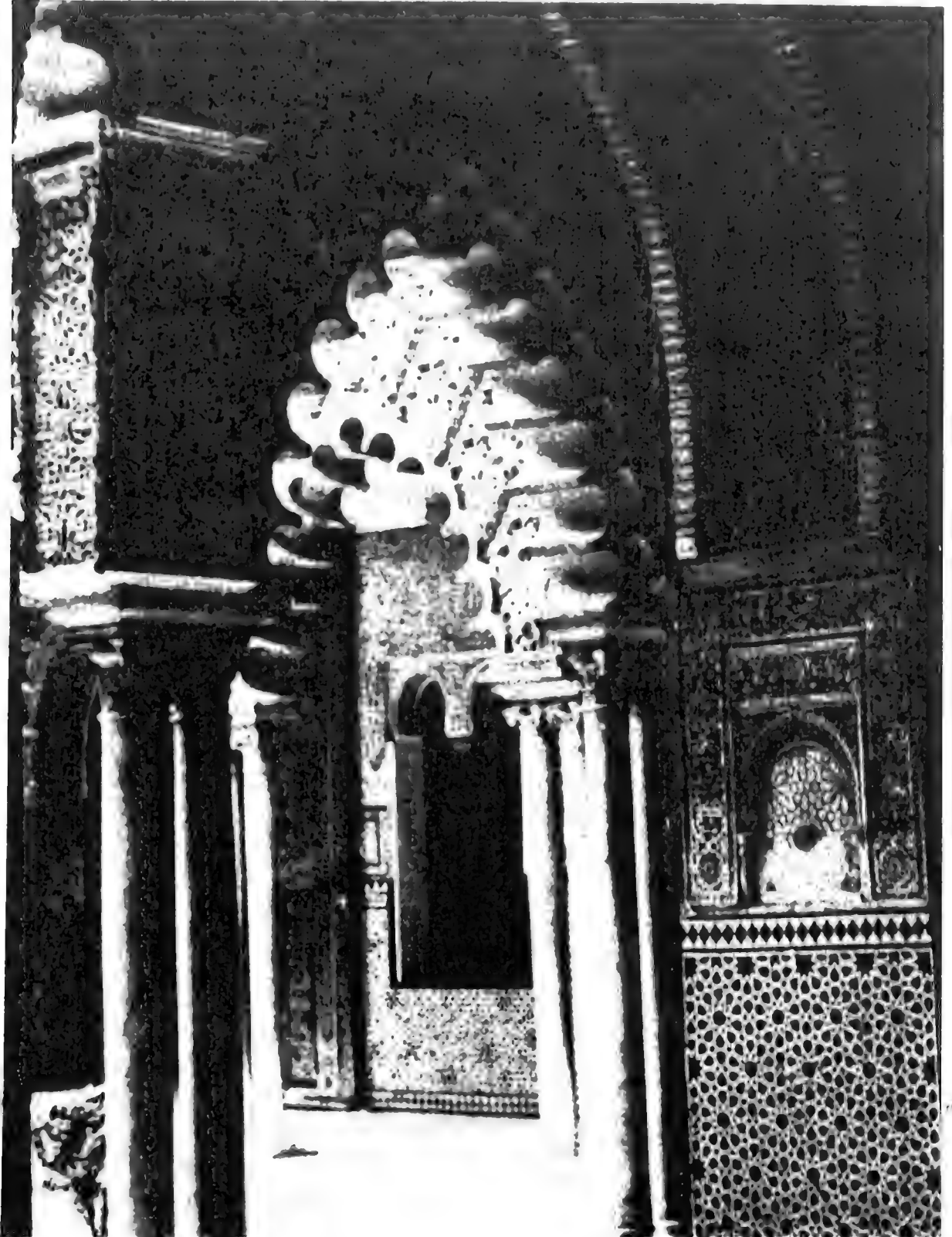
وكانت الفروسية المثالية من ابرز صفات اهل الأندلس . وفي هذا يقول غوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب) « كان للفروسية العربية شروطها ، كما للفروسية الاوروبية التي ظهرت بعدها ، فلم يكن المرء ليصير فارساً إلا اذا تحلّى بهذه الخصال العشر : الصلاح ، والكرامة ، ورقة الشمائل والقريحة الشعرية ،

جاء ، على مرارته ، بأبلغ القصيد واصدقه ، تعبيراً عن
التفجع والالم .

ولقد اخترت هذه المجموعة الصغيرة من الشعر
الأندلسي ، الذي قيل في مختلف المجالات والمواضيع ،
لاحاطة الفارسي ببعض ما انتجته قرائح اجدادنا العظام في
فردوسنا الضائع .

والفصاحة ، والقوة ، والمهارة في ركوب الخيل والقدرة على
استعمال السيف والرمح والنشاب »

وفي مثل هذا الحم الره ما نطعم ، المعجم بالخيال . المرح
والجمال ، انطلقت احلى القصائد واعذبها ، حتى اذا ما
بدأ نجم العرب يأفل في هذه الربوع الجميلة ، وينهار ذلك
الصرح الجبار ، وتنقلب افراح النصر الى اتراح الهزيمة ،
بدأت تنحشر اصوات الغناء المرح لتصير نحيباً وعويلاً



بقاة من الشعر الاندلسي

في الغزل

قُضِبَ من البان ماست فوق كُثبانٍ
وَلَيْنَ عَنِّي، وقد أزمعن هجراني
مَلَكْنِي مَلِكاً ذَلَّتْ عزائمُه
للحُبِّ، ذُلَّ أسير موثق عانٍ
مَنْ لي بمغتصبات الروح من بدني؟
غَصْبْنِي في الهوى عِزِّي وسلطاني!
(الحكم بن هشام)، في خمس من جواريه أعرض عنه وكان
مولماً بهن.

وقال فيهن أيضاً . . . :

ظُلٌّ من قَرِط حُبِّه مملوكا
ولقد كان قبل ذاك مَلِكَا
إن بكى أو شكى الهوى زيد ظلما
وبعاداً يُدْنِي جِماماً وشيكا
تركته جاذراً القصر صَبَا
مستهما، على الصعيد تريكا
يجعل الخدُ واضعاً فوق تُرْبِ
للذي يرتضي الحرير، أريكا
هكذا يحسن التذلل للحر
إذا كان في الهوى مملوكا



أضحى الثنائي بديلاً من تدانينا

وناب عن طيب لقياسنا تجافينا
ألا وقد حان صُبحُ الليل صَبَحْنَا
حِينَ فقام بنا للحين ناعينا
مَنْ مُبْلَغُ المُلْسِينَا بانتزاجهم
حُزْناً مع الدهر لا يَبْلَى وبُلينا
أَنَّ الزمانَ الذي ما زال يُضحكنا
أُنساً بقربهم قد عاد يُبْكينا
غِيْظُ العدا مِنْ تساقينا الهوى فدعوا
بأن نَقْصُر فقال الدهرُ آمينا
فانحلَّ ما كان معقوداً بأنفسنا
وانبث ما كان موصولاً بأيدينا
بالأمس كُنَّا وما يُخْشَى تفرُّقنا
واليوم نحنُ وما يُرْجَى تلاقينا
يا ليت شعري ولم نُعْتَبِ أعاديكمُ
هل نال حظاً من العُتْبَى أعادينا
لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم
رأياً ولم نتقلد غيره دينا
كُنَّا نرى اليأس تُسْلِينَا عوارضه
وقد يثسنا فما لليأس يغرينا
بتتم وبنا فما ابتَلَتْ جوانحنا
شوقاً إليكم ولا جَعَتْ مآقينا
نكاد حين تناجيكم ضمائرنا
يقضي علينا الأسى لولا تأسينا
حالت لفقدكم أيماناً فعدتْ
سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا
إذ جانب العيش طلق من تألفنا
وموردُ اللهو صافٍ من تصافينا
وإذ هصرنا فنون الوصل دانيةً
قُطِرَها فجنينا منه ما شينا
ليُسَقِّ عهدكم عهد السرور فما
كتم لأرواحنا إلا رباحينا

لا تحسبوا نايكم عنا يغيرنا
 أن طال ما غيّر النَّاي المَحِينَا
 واللّه ما طلبت أهواؤنا بدلاً
 منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا
 يا ساري البرقي غاد القصر فاسق به
 من كان صرف الهوى والود يسقينَا
 واسأل هنالك هل عني تذكرنا
 إلفاً تذكره أمسى يُعِينَا
 ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا
 من لو على البعد حياً كان يحيينا
 من لا يرى الدهر يقضينا مساعفةً
 فيه وإن لم يكن عنا يقاضينا
 من بيت ملك كأن الله أنشأه
 مسكاً وقد أنشأ الله الورى طينا
 أو صاغه ورقاً محضاً وتوجّه
 من ناصع التبر إبداعاً وتحسينا
 إذا تأود أدته رفاهيةً
 توم العقود وأدمته البرى لينا
 كانت له الشمس ظنراً في تكلله
 بل ما تجلّى لها إلّا أحيينا
 كأنما أثبتت في صحن وجنته
 زهر الكواكب تعويداً وتزيينا
 ما ضر أن لم نكن أكفاءه شرفاً
 وفي المودة كافٍ من تكافينا
 يا روضة طالما أجنّت لواحظنا
 ورداً جلاه الصبا غصاً ونسرينا
 ويا حياة تملينا بزهرتها
 منى ضروباً ولذات أفانينا
 ويا نعيماً خطرنا من غضارته
 في وشي نغمى سحننا ذيله حينَا

لسا نسدملك إجلالاً وتكرمةً
 وقدرك المعتلي عن ذاك يغنينَا
 إذا انفردت وما شورك في صفة
 فحسبنا الوصف إيضاحاً وتبيينَا
 يا جنة الخلد أبدلنا بسلسلها
 والكثير العذب زقوماً وغسلينا
 كأننا لم نبث والوصل ثالثنا
 والسعد قد غص من أجفان واشينا
 سران في خاطر الظلماء تكتمنا
 حتى يكاد لسان الصبح يفشينَا
 لا غرو في أن ذكرنا الحزن حين نهت
 عنه النهى وتركنا الصبر ناسينا
 إنّا قرأنا الأسى يوم النوى سوراً
 مكتوبةً وأخذنا الصبر تلقينا
 أما هواك فلم نعدل بمشربه
 شرباً وإن كان يروينا فيظلمينا
 لم نجف أفق جمال أنت كوكبه
 سالين عنه ولم نهجره قالينا
 لا اختياراً تجنبناك عن كذب
 لكن عدتنا على كره عوادينا
 ناسى عليك إذا حُثت مشعشةً
 فينا الشمول وغتنا مغنينَا
 لا أكوس الراح تبدي من شمائلنا
 سيما ارتياح ولا الأوتار تلهينا
 دومي على العهد ما دما محافظةً
 فالحر من دان إنصافاً كما دينا
 فما استعضنا خيلاً عنك يحسنا
 ولا استعذنا حبياً عنك يغنينَا
 ولو صبا نحونا من أفق مطلعته
 بدر الدجى لم يكن حاشاك يصبينَا

أبلى وفاء وإن لم تبدلي صلة
 فالطيف يقنعنا والذكر يكفيننا
 وفي الجواب متاع لو شفعت به
 يبض الأيادي التي ما زلت تولينا
 عليك مني سلام الله ما بقيت
 صباة بك تخفيها وتخفيننا
 ابن زيدون، في ولادة

١٦٣

ومرتجة الأعطاف أما قوامها
 فلذن، وأما ردفها فرداخ
 الممت فصار الليل من قصر به
 يطير، وما غير السرور جناح
 وبث وقد زارت بأنعم ليلة
 يعانقني حتى الصباح صباح
 على عاتقي من ساعديها حمائل
 وفي خصرها من ساعدي وشاح!!
 بأبي غزالاً غارلته مقلتي
 بين العذيب وبين شطي باري
 وسألت منه زيارة تشفي الجوى
 فأجابني منها بوعدي صادق
 طبنا ونحن من الدجى فيه لجة
 ومن النجوم الزهر تحت سراق
 عاطيته والليل يسحب ذيله
 صهباء كالمسك الفتيق لناشق
 وضممته ضم الكمي لسيفه
 وذؤابته حمائل في عاتقي
 حتى إذا مالت به سنة الكرى
 رزحته شيتاً وكان معانيقي
 أبعده عن أضلع تشنقه
 كي لا ينأم على وساد خافق
 لما رأيت الليل آخر عمره
 قد شاب في ليم له ومفارق
 ودعت من أهوى وقلت تأسفاً:
 أعزز علي بأن أراك مفارقي

علي بن عطية البلنسي

١٦٣

طال عمر الليل عندي
 مذ تولعت بصدي
 يا غزالاً نقض العهد
 ولم يوف بوعدي
 أنسيت العهد إذ بتنا
 على مفرش ورد
 واجتمعنا في وشاح
 وانتظمتنا نظم عقد
 ونجوم الليل تحكي
 ذهباً في لازورد
 وتعانقنا كفصنين
 وقدانا كقد

عبد الرحمن الخامس (المستظهر بالله)



كانها حين تخطو في تأودها
 قضيب نرجسة في الروض مياس
 كأنما خلدها في قلب عاشقها
 ففيه من وقعها حفر وسواس
 كأنما مشيها مشي الحمامة لا
 كد يعاب ولا بطاء به باس
 (ابن حزم)



أغار عليك من عيني ومني
 ومنك ومن زمانك والمكان
 ولو أني خبأتك في عيوني
 إلى يوم القيامة ما كفاني
 (ولادة في ابن زيدون)



يا من غدوت بها في الناس مشتهراً
 قلبي يقاسي عليك الهم والفكر
 إن غبت لم ألق إنساناً يؤانسني
 وإن حضرت فكل الناس قد حضروا
 (ابن زيدون في ولادة)



يا مهجة المشتاق ما أوجعك!
 ويا أسير الحب ما أخضعك!
 ويا رسول العين من لحظها
 بالرد والتبليغ ما أسرعت!
 تذهب بالسر فتأتي به
 في مجلس يخفى على من معك
 كم حاجة أنجزت إبرازها
 تبارك الرحمن ما أطوعك!
 (الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن)

فتكات لحظك أم سيف أبيك
وكؤوس خمر أم مراشف فيك
أجلاد مرففة وقتك مهاجر
ما أنت راحمة ولا أهلوك
يا بنت ذي السيف الطويل نجاهه
أكذا يجوز الحكم في ناديك؟
عينك أم مغناك موعدا وفي
وادي الكرى نلقاك أم واديك؟
منعوك من سينة الكرى وسروا فلو
عشروا بطيف طارق ظنوك
ودعوك نشوى ما سقوك مدامة
فإذا تننى عطفك اتهموك
حسبوا التكحل في جفونك جيلة
تا لله ما بأكفهم كحلوك!

(ابن هانيء الأندلسي)



ألسب من وصالك ما كُسيْتُ
وأعزل عن رضاك وقد وليْتُ
وكيف، وفي سبيل هواك طوي
لقيت من المكاره ما لقيت
فديتك، ليس لي قلب فأسلو
ولا نفس فأنف إن جفيت
فإن يكن الهوى داءً مُميتاً
لمن يهوى، فإني مُستميت
أسير عليك عتياً ليس يبقَى
وأضمر فيك غيظاً لا يبيت
وما ردى على الواشين إلا
«رضيت بجور مالكتي رضيت»
(ابن زيدون، في ولادة)

أغائبة عني وحاضرة معي
أناديك، لما عيل صبري، فاسمعي
أفي الحق أن أشقى بحبك أو أرى
حريقاً بأنفاسي، غريقاً بأدمعي
ألا عطفة تحيا بها نفس عاتق
جعلت الردى منه بمرأى وسمع
صليني بعض الوصل، حتى تبيني
حقيقة حالي، ثم ما شئت فاصنعي
(ابن زيدون، في ولادة)



ودع الصبر محب ودعك
ذائع من سيره ما استودعك
يقرع السن على أن لم يكن
زاد في تلك الخطا إذ شيعك
يا أخوا البدر سناء وسنى
حفظ الله زماناً أطلعك
إن يطل بعدك ليلى فلکم
بت أشكو قصر الليل معك!

(ابن زيدون، أمير شعراء الغزل، في ولادة بنت المستكفي)



لَمَّا التَقِينَا وَقَدْ قِيلَ: الْمَسَاءُ دَنَا
وَغَابَتِ الشَّمْسُ أَوْ لَادَتْ وَلَمْ تَغِبْ
وَأَضْلَعِي بَيْنَ مُنْقَضٍ وَمُنْقَصِفٍ
وَأَدْمَعِي بَيْنَ مُنْهَلٍّ وَمُنْسَكِبٍ
وَأُمْلِئْتَنِي «أُمُّ الْمَجْدِ» قَائِلَةً:
بِمَنْ أَرَاكَ أَسِيرَ الْوَجْدِ وَالطَّرِبِ؟
فَقُلْتُ: قَلْبِي مَسْبِيٌّ، وَإِنَّا لَوْ
كُتِمَتْ سِرِّي، لَمْ أَكْتُمِكَ كَيْفَ سَبِي
وَأَعْرَضْتُ ثُمَّ قَالَتْ: قَدْ أَسَأْتُ بِنَا
ظَنًّا! أَيْجُمَلُ هَذَا مِنْ ذَوِي الْأَدَبِ؟
فَقُلْتُ: إِنِّي أَمْرُؤُ لَمَّا لَقَيْتُكُمْ
وَالْمَرْءُ وَقَفَ عَلَى الْأَرْزَاءِ وَالتُّوبِ
سَبَبْتُ فُؤَادِي ذَاتُ الْخَالِ قَادِرَةٌ
وَلَا نَصِيبَ لَهَا مِنْهَا سِوَى النَّصِيبِ
أَلْهُو بِهَا، وَهِيَ تَلْهُو فِي بُلْهِنِيَّةٍ
شَتَانٍ وَاللَّوْ بَيْنَ الْجَدِّ وَاللَّعِبِ
أَصَابَتِ الْقَلْبَ لَمَّا أَنْ رَمَتْهُ، وَلَوْ
رَمَتْهُ أُخْرَى إِذْنٌ لَا شَكَّ لَمْ تُصِيبِ
فَقَالَتْ: أَشْكُ إِلَيْهَا، مَا لَقِيتَ وَلَا
تَرْهَبْ، فَلَمْ تُبْلَغِ الْأَمَالُ بِالرَّهَبِ
عَسَى هَوَاكَ سَيُعِدِّيهِا فَيُنْصِبِيهَا
وَقَدْ يَكُونُ الْهَوَى أَعْدَى مِنَ الْجَرَبِ
فَقُلْتُ: أَعْظَمُهَا، بَلْ مَا أَكَلَمَهَا
إِلَّا أَشَارَ إِلَيَّ الْمَوْتُ مِنْ كَثَبِ
قَالَتْ: أَنَا أَتَوَلَّى ذَاكَ فِي لَطْفٍ
فَقَدْ أَوَّلَفَ بَيْنَ الْمَاءِ وَاللَّهَبِ
فَقُلْتُ: مِثْلَكَ مَنْ يُرَجَى لِمَعْضَلَةٍ
لَا زَلَّ فِي غِبْطَةٍ مَمْتَدَّةِ الطُّنْبِ
صَبْلِيهِ أَوْ فَاقْتَلِيهِ فَالْجِمَامُ لَهُ
خَيْرٌ مِنَ الْهَجَرِ فِي جَهْدٍ وَفِي تَعَبِ
فَلَوْ تَرَانِي قَدْ اسْتَسْلَمْتُ مُرْتَقِبًا
مِنْهَا حَنَادَ الرِّضَا أَوْ جَفَوَةَ الْغَضَبِ

حتى إذا ما ألانت تلك جانبها
والقلب مهما أُرِّمَ تسكينه يجب
طِفِقْتُ الثَّمَّ كَفِيَّهَا وَقَدْ جَنَحَتْ
إِلَيَّ تَضْحَكُ بَيْنَ الْعُجْبِ وَالْعَجَبِ
لِلَّهِ مِثْلِي مَا أَدْنَى سَجِيَّتِهِ
مِنْ الْمَعَالِي وَأَنَاهَا عَنِ الرِّيبِ
كَمْ مَأْثِمٍ مُسْتَلَدٍّ قَدْ هَمَمْتُ بِهِ
فَلَمْ يَدْعُنِي لَهُ دِينِي وَلَا حَسْبِي

(أبو العباس أحمد بن عبد الله، التطيلي)، متغزلاً بفتاة تدعى
«للذيدة» متخذاً أسلوب الحوار مع امرأة تدعى أم المجد.



وقالوا

في التغزل بالنصرانيات

عساك بحق عيساك، مريحة قلبي الشاكي
فإن الحسن قد ولأك إحيائي وإهلاكي
وأولعني بصُلبانٍ، ورهبانٍ ونسائك
ولم آتِ الكنائس عن هوى فيهنّ لولاك
وها أنا منك في بلوى، ولا فرج ليلواك
ولا أسطيعُ سلواناً، فقد أوثقت أشراكي
فكم أبكي عليك دماً ولا ترئين للباكي
نؤيرة إن قلّيت فإنني أهواك أهواك
(ابن الحداد)



وبين المسيحيات لي سامريّة
بعيد عن الصب الحنفي أن تدنو
مثلثة قد وحد الله حسنهما
فثنّني في قلبي بها الوجد والحزن
وفي معقد الزنار عقر صبابتي
فمن تحته دغص ومن فوقه غصن
وفي ذلك الوادي رشاً أضلعي له
كناس، وقمري فؤادي له وكن
(ابن الحداد)



وقالوا

في التغزل بالغلمان

صباح شيم أم برق بدا
أم سنا المحبوب أوزى أرندا؟
هب من مرّقه منكسرا
مُسبلاً للكُم مُرخ لردا
تمسح النعسة من عيني رشاً
صائد في كل يوم أسدا
لهو من دلّ عراه زبدا
من صريح لم يخالط زبدا
قلت: هب لي يا حبيبي قبلة
تشف من عسك تبريح الصدا
انثنى يهتز من منكبه
مائلاً لطفاً وأعطاني اليدا
كلما كلمني قبلته
فهو إمّا قال قولاً ردا
كاد أن يرجع من لثمي له
وارتشافي الثغر منه أزردا
شربت أعطافه ماء الصبا
وسقاه الحسن حتى عرّدا
فإذا استنجزت يوماً وعده
قال لي يَمطل: ذكّرني غدا
(أبو عامر بن شهيد)



وقالوا

في الحكمة

أَرَى أَهْلَ الْيَسَارِ إِذَا تُؤْفُوا
بَنُوا تِلْكَ الْمَقَابِرَ بِالصَّخُورِ
أَبَوْا إِلَّا مُبَاهَاةً وَفَخْرًا
عَلَى الْفُقَرَاءِ حَتَّى فِي الْقُبُورِ
فَإِنْ يَكُنِ التَّفَاضُلُ فِي ذُرَاهَا
فَإِنَّ الْعَدَلَ فِيهَا فِي الْقُعُورِ
أَلَمَّْا يُبْصِرُوا مَا خَرَّبَتْهُ الدُّ
هُورُ مِنَ الْمَدَائِنِ وَالْقُصُورِ؟
لَعَنُوا أَبْيَهُمُ لَوْ أَبْصَرُوهُمْ
لَمَا عُرِفَ الْغَنِيُّ مِنَ الْفَقِيرِ
وَلَا عُرِفُوا الْعَبِيدُ مِنَ الْمَوَالِي
وَلَا عُرِفُوا الْإِنَاثُ مِنَ الذَّكَوْرِ
وَلَا مَنْ كَانَ يَلْبَسُ ثَوْبَ صُوفٍ
مِنَ الْبَدَنِ الْمُبَاشِرِ لِلْحَرِيرِ!
إِذَا أَكَلَ الثَّرَى هَذَا وَهَذَا
فَمَا فَضْلُ الْكَبِيرِ عَلَى الْحَقِيرِ؟

(يحيى بن الحكم الغزالي، حكيم الأندلس)



وَقَوِيَّتُهُ يَسْقِي الْمَدَامَ كَأَنَّهُ
قَمَرٌ يَدُورُ بِكَوْكَبٍ فِي مَجْلِسٍ
مَتَارُجُ الْحَرَكَاتِ تَنْدَى رِيحُهُ
كَالْغَصَنِ هَزَّتْهُ الصُّبَا بِتَنْفُسٍ
يَسْعَى بِكَأْسٍ فِي أَنْامِلِ سَوْسَنِ
وَيُدِيرُ أُخْرَى مِنْ مُحَاجِرِ نَرْجِسٍ
عَنَّا بِكَأْسِكَ، قَدْ كَفَتْنَا مُقْلَةً
خَوْرَاءَ قَاتِمَةٍ بِسُكْرِ الْمَجْلِسِ

(أبو بكر بن عمار)



وقالوا

في الزهد

يا ذنوبي ثَقُلْتُ والله ظهري
بأن عُدري، فكيف يُقبل عُدري؟
كلما تُبْتُ ساعة عُدْتُ أخرى
لضروبٍ مِن سوء فعلي ومُجري
ثَقُلْتُ خُطوتي وفُزدي تَفْزِي
غَيْهَبُ الليل فيه عن نور فجر
دَبَّ موتُ السكون في حركاتي
وخبأ في رماده خُمرَ جمري
وأنا حيثُ سِرْتُ أَكُلُ رِزْقِي
غَيْرَ أن الزمانَ يَأْكُلُ عمري!
كلما مَرَّ مِنْهُ وَقْتُ بَرْنَجٍ

من حياتي، وجدتُ في الريح خُسْري
يا رفيقاً بعبده ومُحيطاً
عِلْمُهُ باختلاف سِرِّي وجَهْري
مِلْ بقلبي إلى صلاحِ فسادي
منه، واجبُرْ برأفةٍ منك كُنْسي
وأَجِرْني مما جَنَأَ لسانِي
وتَنَاجَتْ بِهِ وَسَاوِشْ فِكْري

(ابن حمديس الصقلي)



إني نظرت إلى المرأة قد جُلِيَتْ
فأنكرتُ مُقلتاي كُلَّ ما رَأَتْ
رَأَيْتُ فِيهَا شُوَيْخاً لَسْتُ أَعْرِفُهُ
وكنْتُ أَعِهُدُهُ مِنْ قَبْلِ ذاك فَتَى
فقلْتُ: أَيْنَ الَّذِي بِالْأَمْسِ كَانَ هُنَا؟
مَتَى تَرَحَّلَ عَنْ هَذَا الْمَكَانِ؟ مَتَى؟
فاستضحكتُ ثُمَّ قَالَتْ وَهِيَ مُعْجَبَةٌ:
إِنَّ الَّذِي أَنْكَرْتَهُ مَقْلَتَاكَ أَتَى
كَانَتْ سُلَيْمَى تَنَادِي يَا أَخِي وَقَدْ
صَارَتْ سُلَيْمَى تَنَادِي الْيَوْمَ يَا أَبْتَا!
(أبو بكر محمد بن عبد الملك في الشيخوخة)



مَثَلُ الرِّزْقِ الَّذِي تَطْلُبُهُ
مَثَلُ الظِّلِّ الَّذِي يَمْشِي مَعَكَ
أَنْتَ لَا تَدْرِكُهُ مُتَّبِعاً
فَإِذَا وَلَيْتَ عَنْهُ تَبِعَكَ

(ابن مرج الكحل)



وقالوا

في التصوف

لقد تَهتُ عَجَباً بالتجرُّدِ والفقرِ
فلم أندرج تحت الزمان ولا الدهرِ
وجاءت لقلبي نفحةً قُدسيَّةً
فغبتُ بها عن عالمِ الخلق والأمرِ
طويتُ بساطَ الكون، والطِّيَ نشرُهُ
وما القصدُ إلَّا التركُ للطِّي والنشرِ
وغمَّضت عَيْنَ القلبِ غيرَ مُطَلِّقٍ
فألفيتني ذاك الملقَّبَ بالغيرِ
وصَلتُ لمن لم تنفصل عنه لحظة
ونزَّهتُ من أعني عن الوصلِ والهجرِ
وما الوصفُ إلَّا دُونُهُ، غيرَ أنني
أريد به التشبيبَ عن بعض ما أدري
وذلك مثلُ الصُّوتِ أيقظ نائماً
فأبصرُ أمراً جَلَّ عن ضابطِ الحُضُرِ
فقلتُ: له الأسماء تبغي بيانَه
فكانت له الألفاظ سِتْراً على سِتْرِ
(أبو الحسن الشُّشْتَرِي)



قد تلذذتُ جفبةً بأمورٍ
فتأملتُها، فكانت خيالاً
أنا في حالتي التي قد تراني
إن تأملتُ أحسنُ الناس حالاً
منزلي حيث شئتُ من مستقرٍ
الأرض، أسقى من المياه زلالاً
ليس لي كُسوةٌ أخاف عليها
من مُغيرٍ، ولن تَرَى لي مالا
أجعل الساعِدَ اليمينَ وسادي
ثم أنني - إذا انقلبْتُ - الشمال
ليس لي والدٌ ولا مولودٌ
لا - ولا حَزْتُ مُذْ عَقَلْتُ عِيالاً

(أبو الوهب العبَّاسي القرطبي)



أسيرُ الخطايا عند بابك واقفُ
على وَجَلٍ مما به أنت عارفُ
بخافٍ لم يغِبْ عنك غَيْبُها
ويرجوك فيها، فهو راجٍ وخائفُ
ومَن ذا الذي يُرجى سواكَ ويُتَقَى
وما لك في فصل القضاء مخالفُ؟
فيا سيدي لا تُخزني في صحيفتي
إذا نُشِرَتْ يومَ الحسابِ الصحائفُ
(ابن الفرضي القرطبي)



وقالوا

في المديح

أشهابٌ في دُجَى الليل ثَقَبُ
 أم سِراجٍ نَارُهُ ماءُ العِنبِ
 قهوةٌ لو سَقَيْتُهَا صَخْرَةً
 أَوْرَقَتْ بِاللَّهُوِ مِنْهَا والطَّرَبُ
 ما دَرَى خَمَارُهَا عَاصِرُهَا
 فحديثُ الصدقِ فيها كالكَذِبِ
 دفنوا اللذةَ فيها حَيَّةً
 وأتى الدهرُ عليها وذهبَ
 قلتُ إذ أبرزها في قَعْبِهِ:
 أهَيَ بِنْتُ الكرمِ أم أمُّ الحِقَبِ
 ومليحُ الدُّلِّ إنَّ عَلَّ بِهَا
 قلتُ: نجمٌ في فَمِ البدرِ غربُ
 شَعَشَعَ القهوةُ في صَوْبِ الحَيَا
 وسقاني فضلةً مما شربَ
 فتَلَأَفَى في فَمِي من كَاسِهِ
 ماءُ كَرَمٍ وغمَامُ وشَبِ
 وشدا من مدحِ يحيى نغماً
 هزُّ منه الملكُ عِطْفِيهِ طَرَبُ
 من مُعزِّ الدينِ في الفخرِ له
 خيرٌ جَدًّا وتميمٌ خيرٌ أبُ
 ملكٌ عن ثَغْرَةِ الدينِ اتَّقَى
 ورَمَى الأعداءَ بالجيشِ اللَّجِبِ
 ظاهراً الأخلاقِ مألوفُ العلى
 طيِّبُ الأعراقِ مصقولُ الحسبِ
 عادلٌ تعكفُ بالحمدِ على
 ذكرِهِ أفواهٌ عُجَمُ وعربُ
 ابنِ حمديس، (في مدح الأمير يحيى بن تميم بن المعز)



حقيقتي هَمْتُ بها وما رآها بصري
 ولو رآها لغدا قَتِيلَ ذاك الحَوَرِ
 فعندما أبصرتُها صِرتُ بحكمِ النظرِ
 فبتُ مسحوراً بها أهيمُ حتى السَّحَرِ
 يا حذري من حذري لو كان يغني حذري
 والله ما هَيَّيْتُ جِمالَ ذاك الخَفَرِ
 في حسنِها من ظَبْيَةٍ ترعى بذاتِ الخَمَرِ
 إذا رنتُ أو عطفتُ تسي عِقولَ البشرِ
 كأنما أنفاسُها أعرافُ مسكِ عَطِرِ
 كأنها شمسُ الضحَى في النورِ أو كالقَمَرِ
 إذا أسفرتُ أبرزها نورَ صباحِ مُسْفِرِ
 أو سَدَلْتُ غِيَّيَها سوادَ ذاك الشَّعَرِ
 يا قمرًا تحت دُجَى خذي فؤادي وذري
 عيني لكي أبصرَكم إذ كان حظي نظري
 (الشيخ محي الدين بن عربي)



وقالوا

في الهجاء

أهل الرياء لِيَسْتُم ناموسكم
كالذئب يُدَلج في الظلام المعاتم
فملكتم الدنيا بمذهب مالك
وقسمتم الأموال باسم القاسم
وركبتم شُهَبَ البغال بأشهب
وبأضبح صِيغَت لكم في العالم

(الأبيض الإشبيلي)، في هجاء الفقهاء المرائين



وقال فيهم أيضاً:

قُلْ لِلإمام سَنَّا الأئمة مالك
نور العميُون ونُزهة الأسماع:
لله ذَرَكٌ من إمامٍ ماجِدٍ
قد كنت راعيناً فنعم الراعي
فمضيت محموداً النقية طاهراً
وتركتنا قَنَصاً لشر سباع
أكلوا بك الدنيا وأنت بمعزل
طاوي الحفا مُتَكَفِّت الأضلاع
تشكوك دنيا لم تزل بك برة
ماذا رفعت بها من الأوضاع!



وقال (ابن خفاجة) فيهم كذلك:

دَرَسُوا العلوم ليملكوا بجداهم
فيها صدور مراتب ومجالس
وتزهدوا حتى أصابوا فرصة
في أخذ مال مساجد وكنائس!

أدر المدامة فالنسيمُ قد انبرى
والنجمُ قد صرَفَ الجنان عن السرى
والصبحُ قد أهذى لنا كافورة
لما استردَّ الليلُ منه العنبرا
والروض كالحننا كساء زهرة
وشباً وقلده نداء جوهرا
أو كالغلام زفا بورد خدوده
خجلاً وتباة بآسهن مُعَدِّرا
روض كان النهر فيه معصم
صافٍ أطل على رداء أخضرا

الوزير بن عمار، (في مدح المعتضد بن عباد)



إن المرباط باخلل بنواله
لكنه بعماله يتكرم!
الوجه منه مخلق لقبيح ما
يأتيه، فهو من أجله يتلثم
(اليكي الاشيلي)، لي المرباطين الذين كانوا يعرفون أيضاً
بالمثمين

وقال فيهم أيضاً:

في كل من ربط اللثام دناءة
ولتواتته يعملو على كيوان
لا تطلبن مرباطاً ذا عفة
واطلب شعاع النار في الغدران^(١)

عكف الزبير على الضلالة جامداً
ووزيره المشهور كلب النار
ما زال يأخذ سجدة في سجدة
بين الكؤوس ونغمة الأوتار!
فلذا اعتراه السهو سبح خلفه
صوت القيان ورنة المزمارة
(الأبيض الاشيلي) في هجاء الأمير الزبير أحد أمراء
المرباطين.

رايت آدم في نومي فقلت له:
أبا البرية إن الناس قد حكموا
أن البرابر تثل منك. قال: إذن
حرأ طالقاً إن كان ما زعموا
(السمير) في هجاء البربر

وقالوا

في الاستعطاف

سجايَاك إن عافيتْ أندي وأسمح
وعذرك إن عاقبتْ أجلى وأوضح
وإن كان بين الخطتين مزيّة
فأنت إلى الأدنى من الله أنجح
حنانيك في أخذي برأيك لا تُقطع
عُداتي، وإن أثنوا عليّ وأفصحوا
وماذا عسى الأعداء أن يتزيّدوا
سوى أن ذنبي واضح مُتصحّح
نعم لي ذنب: غير أن لحلمكم
صفة يزل الذنب عنها فيسفح
وأن رجائي أن عندك غير ما
يخوض عدويّ اليوم فيه ويمرح
ولم لا، وقد أسلفت وذا وخدمة
يكرّان في ليل الخطايا فيصبح؟
وهبني وقد أعقبتْ أعمال مُفسد
أما تفسد الأعمال تُمتّ تبصّح؟
أقلني بما بيني وبينك من رضا
له نحو روح الله باب مُفتح
وعفّ على آثار جرم جنيته
بنفحة رُحمتي منك تمحو وتصفح
ولا تلتفت رأي الوشاة وقولهم
فكل إناء بالذي فيه ينضح
وما ذاك إلا ما علمت... فلإنني
إذا ثبت لا أنفك أسو وأجرح

(الوزير أبو بكر محمد ابن عمار)، يستعطف المعتمد بن عباس
من منفاه.



هبني أسأت فأين العفو والكرم
إذ قادني نحوك الإذعان والندم
يا خير من مُدّت الأيدي إليه: أما
ترثني لشيخ نعاه عندك القلم
بالغت في الحطّ فاصفح صفح مقتدر
إن الملوك إذا ما استرجموا رجموا
المصحفي (يستعطف الحاجب المنصور من سجنه).



عفا	الله	عنك!	ألا	رحمة
أبعدا	تجود	بغفوك	إن	أبعدا
لئن	جلّ	ذنبي،	ولم	أعتمده
ألم	تر	عبدًا	عفا	ورشيده
ومفسد	أمر	تلافيته	فأصلح	ما
أقلني!	أقالك	من	لم	يزل
يقيك،	ويصرف	عنك	الردى	

المصحفي، (يستعطف الحاجب المنصور من سجنه)



في الرثاء

يقولون: صبراً! لا سبيل إلى الصبر
سأبكي وأبكي ما تطاول من عمري
هوى الكوكبان: الفتح ثم شقيقه
يزيد، فهل بعد الكواكب من صبر؟
أفتح: لقد فتحت لي باب رحمة
كما بيزيد الله قد زاد في أحري
هوى بكما المقدار عني ولم أمت
وأدعى وفيّاً قد نكصت إلى الغدر
توليتما والسّن بعد صغيرة
ولم تلبث الأيام أن صئرت قدري
فلو عذتما لاخترتما العود في الشرى
إذا أنتما أبصرتما في الأسر
يعيد على سمعي الحديد نسيجه
ثقيلاً، فتبكي العين بالحس والنقر
معي الأخوات الهالكات عليكم
وأكمما الشكلى المضرمة الصدر
أبا خالد: أورثتني البث خالداً
أبا النصر: مذ ودعت ودعتي نصري
وقبلكما ما أودع القلب خسرة
تجدد طول الدهر، تكل أبي عمرو
(المعتمد بن عباد في رثاء ولديه الذين قتلها يوسف بن
ناشفين).



أيّا رشاقة غصن البان ما هصرَكَ
ويا تالف نظم الشمل من نثرَكَ؟
لا صبر عنك! وكيف الصبر عنك وقد
طواك عن عيني الموج الذي نثرَكَ؟
أيّ الثلاثة أبكي فقده بدم
عميم خلّيك أم معنك أم صغرَكَ؟
من أين يقبح أن أفنى عليك أسى
والحسن في كل فن يقتفي أثرَكَ
كنت الشبيبة إذ ولت، ولا عوض
منها، ولوربح الدنيا الذي خسرَكَ!
ما كنت عنك مطيلاً بالهوى سفري
وقد أطلت لحيني في البلى سفرَكَ
أقول للبحر إذ أغشيتني نظري:
ما كدر العيش إلا شربها كدرَكَ!
هلا نظرت إلى تفتير مقلتها؟
إني لأعجب منه كيف ما سحرَكَ!
يا وجه جوهرة المحجوب عن بصري
من ذا يقيقك كسوفاً قد علا قمرَكَ؟
دولة الوصل إن ولّيت عن بصري
فالقلب يقرأ في صحف الأسى سمرَكَ!
وما نجوت بنفسي عنك راغبة
وإنما مدّ عمري قاصر عمرك!
(ابن حمديس)، في رثاء جاريته جوهرة التي ماتت غرقاً



وقال فيها أيضاً:

وَأَوْحَشْتَنَا مِنْ فِرَاقِ مُؤَنِّسَةٍ
يُمَيِّتُنِي ذِكْرُهَا وَيُخَيِّبُهَا
يَا بَحْرُ أَرَخَصْتَ غَيْرَ مُكْتَرَبٍ
مَنْ كُنْتُ لَا لِلْبَيْعِ أَغْلِيهَا
جَوْهَرَةٌ كَانَ خَاطِرِي صَدْفًا
لَهَا، أَقْيَاهَا بِهِ وَأَحْمِيهَا
أَبْتُهَا فِي جَشَاكَ مَغْرَقَةٌ
وَبْتُ فِي سَاحِلِكَ أَبْكِيهَا
وَنَفْحَةُ الطَّيِّبِ فِي ذَوَائِبِهَا
وَصِبْغَةُ الْكَحْلِ فِي مَاقِيهَا
عَانَقَهَا الْمَوْجُ ثُمَّ فَارَقَهَا
عَنْ ضَمَّةٍ فَاضَ رَوْحُهَا فِيهَا!



في الحنين

يَا هَبَّةً بَاكَرْتُ مِنْ نَحْوِ دَارِيْنِ
وَأَفْتُ إِلَيَّ عَلَى بُعْدِ تَحْيِيْنِي
سَرَتْ عَلَى صَفْحَاتِ النَّهْرِ نَاشِرَةً
جَنَاحَهَا بَيْنَ خَيْرِي وَنَشْرِينِ
رَدَّتْ إِلَى جَسَدِي رُوحَ الْحَيَاةِ وَمَا
خِلْتُ النَّسِيمَ إِذَا مَا مِتْ يُحْيِيْنِي
مَرَّتْ عَلَى عُقْدَاتِ الرَّمْلِ حَامِلَةً
مِنْ سِرِّكُمْ خَبْرًا بِالْوَحْيِ يَشْفِيْنِي
عَرَفْتُ مِنْ عَرَفِهِ مَا كُنْتُ أَجْهَلُهُ
لَمَّا تَبَسَّمْ فِي تِلْكَ الْمِيَادِيْنِ
نَزَوْتُ مِنْ طَرَبٍ لَمَّا هَفَا سَحْرًا
وِظْلٌ يَنْشُرُنِي طَوْرًا وَيَطْوِيْنِي
خِلْتُ الشَّمَالَ شَمُولًا إِذْ سَكِرْتُ بِهَا
سُكْرًا بِمَا لَسْتُ أَرْجُوهُ يَمْنِيْنِي
أَهْدَتْ إِلَيَّ أَرِيْجًا عَنْ شِمَائِلِكُمْ
فَقُلْتُ: قَرَّبَنِي مَنْ كَانَ يُقْصِيْنِي
وِخِلْتُ مِنْ طَمَعٍ أَنَّ الْلِقَاءَ عَلَى
إِثْرِ النَّسِيمِ، وَأَضْحَى الشَّوْقُ يَخْدُونِي
يَا مَنْ يُزَيِّنُ لِي التَّرْحَالَ عَنْ بَلَدِي
كَمْ ذَا تَحَاوَلْتُ نَسْلًا عِنْدَ عَنِّيْنِ!
وَأَيْنَ يَعْدِلُ عَنْ أَرْجَاءِ قَرْطَبَةٍ
مَنْ شَاءَ يَظْفَرُ بِالدُّنْيَا وَيَالِدِيْنِ؟
قُطِرَ فَسِيخٌ وَنَهْرٌ مَا بِهِ كَدْرٌ
خَفَّتْ بِشَطْطِهِ أَلْفَاؤُ الْبَسَاتِيْنِ
يَا لَيْتَ لِي عَمَرَ نَوْحٍ فِي إِقَامَتِهَا
وَأَنَّ مَالِي فِيهَا كَنْزُ قَارُونِ
كَلَاهُمَا كُنْتُ أَفْنِيَهُ عَلَى نَشْوَا
تِ الرِّاحِ نَهْبًا وَوَضَلَ الْخُورِ وَالْعَيْنِ
وَأِنَّمَا أَسْفِي أَنِّي أَهِيْمُ بِهَا
وَأَنَّ حَظِّي مِنْهَا حَظُّ مَغْبُونِ!
أَرَى بِعَيْنِي مَا لَا تَسْتَطِيعُ يَدِي
لَهُ، وَقَدْ حَاوَلْتُ مَنْ قَدَرُهُ دُونِي!

في الفكاهة

يا ليت شعري، إذ أومى إلى فمه،
أحلقه لهوات أم ميادين؟
كانها - وخبيث الزاد يضررها -
جهنم قذفت فيها الشياطين
تبارك الله ما أمضى أسنته!
كانما كل فك منه طاحون
كانما الحمل المشوي في يده
ذو النون في الماء لما عضه النون
لف الجداء بأيديها وأرجليها
كانما افتترستهن السراحين
وغادر البط من مثنى وواحدة
كانما اختطفتهن الثواحين
يخفف الزور من قرن إلى قدم
وللبلاعيم تطريب وتلحين
كانما كل ركن من طبائعه
نار، وفي كل عضو منه كانون
قوموا بنا فلقد ريعت خواطرتنا
وجاذبتنا الأعنات البراذين
نصحتكم فخذوا من شذقه وزراً
أولاً فأنتم سويق فيه مطحون
فليس ترويه أمواه الفرات، ولا
يقوته فلك نوح وهو مشحون
ابن هانيء الأندلسي، (في وصف رجل أكل)



وأنكد الناس عيشاً من تكون له
نفس الملوك وحالات المساكين
قالوا: الكفاف مقيم، قلت: ذاك لمن
لا يستخف إلى بيت الزراجين
ولا يبلبله هب الصبا سحراً
ولا يلطفه عزف الرياحين
ولا يهيم بتفاح الخدود ورماً
ن الصدور وترجيع التلاحين
لا تجتني راحة إلا على تعب
ولا تنال العلا إلا من الهون
وصاحب العقل في الدنيا أخوكدر
وإنما الصفوف فيها للمجانين
يا آمري أن أحت العيش عن وطن
لما رأى الرزق فيه ليس يرصيني
نصحت، لكن لي قلباً ينازعني
فلو ترحلت عنه حلة دوني
لألزمت وطني: طوراً تطاوعني
قود الأمانى، وطوراً فيه تعصيني
مذلاً بين عرفاني: وأضرب عن
سير لأرض بها من ليس يدريني
هذا يقول: غريب ساقه طمع
وذاك حين أريه البر يجفوني
إليك عني آمالي... فبغذك يه
يديني، وقربك يطغيني ويغويني
يا لحظ كل غزال - لست أملكه
يدنو، ومالي حال منه تدنيني
ويا مدامة دبر لا أليم به
لولا كم كان ما أعطيت يكفيني
لأضبرن على ما كان من كدر
لمن عطاياه بين الكاف والنون

أبو القاسم القرطبي، (عندما رق حاله في قرطبة هاجر إلى
المغرب بناء على نصيحة أصدقائه، فحن إلى قرطبة وقال هذه
القصيدة التي اقتطفنا منها هذه الأبيات).

في وصف الأندلس وطبيعتها ومدنها

في أرض أندلس تلتدُ نِعماءُ
ولا يفارقُ فيها القلبُ سرّاً
وليس في غيرها بالعيش مُتَنَفِّعٌ
ولا تقوم بحق الأنسِ صِهْبَاءُ
وأين يُعَدَّلُ عن أرضٍ تُخَضُّ بها
على المدامة أمواه وأفياء؟
وكيف لا تُبْهِجُ الأبصارُ رُؤْيَها
وكلُّ أرضٍ بها في الوشي صنعاء؟
أنهارها فضة، والمسكُ تربتها
والخزُّ رَوْضُها، والدُّرُّ حَصْبَاءُ
وللهواء بها لُطْفٌ يَرِقُّ به...

مَنْ لا يَرِقُّ، وتبدو منه أهواءُ
ليس النسيمُ الذي يَهْفُو بها سَحْراً
ولا انتشارُ لآلي الطلِّ أنداءُ
ولأنما أَرَجُّ النَّدَّ استثارَ بها
في ماء وَرْدٍ فطابت منه أرجاءُ
وأين يبلغ منها ما أُصْنِفَتْ
وكيف يحوي الذي حازته إحصاء؟
قد مُيزَتْ من جهات الأرض حين بَدَتْ
فريدةً وتولَّى مَيزَها الماءُ
دارت عليها نِطاقاً أَبْحَرُ خَفَقَتْ
وَجَدَأَ بها، إذ تَبَدَّتْ وفي حسناء
لذاك يَتَسِمُ فيها الزهرُ من طَرَبٍ
والطيرُ يشدو، وللأغصان إصفاءُ
فيها خلعتُ عِذارِي، ما بها عَوْضٌ،
فهي الرياضُ وكلُّ الأرضِ صحراءُ
(ابن سفر المريني)



وعشية: كم كنت أرقب وقتها
سمحتُ بها الأيامُ بعد تعذر
فالروضُ بين مُفَضِّضٍ ومُدْهَبٍ
والزهرُ بين مُدْرَهِمٍ ومدنرٍ
والورقُ تشدو، والأراكة تنشي
والشمسُ ترفلُ في قميصٍ أصفر
والنهرُ مرقوم الأباطيح والرِّيا
بمَصْنَدَلٍ من زهره ومُعْصَفَرٍ
وكانه وكان خضرة شطه
سيفٌ يُسَلُّ على بساطٍ أخضرٍ
نهرٌ يهيم بحسنه مَنْ لم يهيم
ويُجيد فيه الشَّعرُ مَنْ لم يَشْعُرِ
ما اصفرَّ وجهُ الشمسِ عند غروبها
إلا لفرقه حُسنُ ذاك المنظر
(ابن مرج الكحل)



وليلٍ بِتْ أَكَلُوهُ بهيمٍ
كَأَنَّ عَلَى مَفَارِقِهِ غُرَاباً
كَأَنَّ سماءَهُ بحرٌ خِضَمٌ
كَسَاهُ الموجُ مُلْتَطِماً حَبَاباً
كَأَنَّ نَجْوَاهُ الزَّهرُ الهوادي
وَجَوَهُ أَخْضَلَتْ تَبْغِي الثَّوَابِ
كَأَنَّ كَوَاكِبَ الجوزاء شَرَبَ
تَعَاطِيهِمْ وَلَا تَلْذُهُمْ شَرَاباً
كَأَنَّ الْفِرْقَدِينَ ذَوَا عَتَابٍ
أَجَالاً طَوَّلَ لَيْلَهُمَا الْعَتَابِ
كَأَنَّ بَقِيَةَ الْقَمَرِ الْمُؤَلَّى
كُتِبَ مُدْنَفٌ يَشْكُو اجْتِنَاباً
(طاهر بن محمد)

وقالوا...

في الخمر ومجالس الإنس والطرب والمجون

رُبُّ كَأْسٍ قَدْ كَسَتْ جُنْحَ الدُّجَى
ثَوْبَ نَوْرِ مِنْ سَنَاهَا يَقْقَا
ظَلْتُ أَسْقِيهَا رَشَاءً فِي لَحْظِهِ
سِنَّةً تُورِثُ عَيْنِي أَرْقَا
خَفِيتُ لِلْعَيْنِ حَتَّى خِلْتُهَا
تَتَّقِي مِنْ لَحْظِهِ مَا يَتَّقِي
أَشْرَقَتْ فِي نَاصِعٍ مِنْ كَفِّهِ
كَشَعَاعِ الشَّمْسِ لَأَقَى الْفُلُقَا
فَكَانَ الْكَأْسُ فِي أَنْحَالِهِ
صُفْرَةً النَّرْجِسِ تَعْلُو الْوَرْقَا
أَصْبَحْتُ شَمْساً وَقُوَّةً مَغْرِباً
وَيَدُ السَّاقِي الْمُحَيِّ مَشْرِقَا
فَإِذَا مَا غَرَبَتْ فِي قَمِهِ
تَرَكْتُ فِي الْخَدِّ مِنْهُ شَفَقَا
(مروان بن عبد الرحمن - الطليق)



وَهْوَيْتُهُ يَسْقِي الْمُدَامَ كَأَنَّهُ
قَمَرٌ يَدُورُ بِكَوْكَبٍ فِي مَجْلِسِ
مُتَارَجٍ الْحَرَكَاتِ تَنْدَى رِيحُهُ
كَالْغُصْنِ هَزَّتُهُ الصَّبَا بَتْنَفْسِ
يَسْعَى بِكَأْسٍ فِي أَنْأَمْلِ سَوْسَنِ
وَيُدِيرُ أُخْرَى مِنْ مُحَاجِرِ نَرْجِسِ
عَنَّا بِكَأْسِكَ، قَدْ كَفَّتْنَا مُقْلَةً
خَوْرَاءَ قَائِمَةً بِسُكْرِ الْمَجْلِسِ
(ابن عمار)

نَامَ طِفْلُ التَّبْتِ فِي حِجْرِ النَّعَامِ
لَا هَتَازَ الطَّلُّ فِي مَهْدِ الْخَزَامِ
وَسَقَى الْوَسْمِيَّ أَغْصَانَ النِّقَا
فَهَوَّتْ ثَلْثُمُ أَفْوَاهِ النَّدَامِ
كَحَلِّ الْفَجْرِ لَهُمْ جَفْنُ الدُّجَى
وَعَدَا فِي وَجْهَةِ الصَّبْحِ لِنَامَا
تَحْسَبُ الْبَدْرَ مُحَيًّا ثَيْلِ
قَدْ سَقَتْهُ رَاحَةُ الصَّبْحِ مُدَامَا
حَوْلَهُ الزَّهْرُ كُؤُوسٌ قَدْ غَدَّتْ
بِسَكَّةِ اللَّيْلِ عَلَيْهِنِ خِتَامَا
(يحيى بن هذيل)



لَهُ نَهْرٌ سَالٌ فِي بَطْحَاءِ
أَشْهَى وَرُوداً مِنْ لَمَى الْحَسَاءِ
مُتَعَطِّفٌ مِثْلُ السَّوَارِ، كَأَنَّهُ
وَالزَّهْرُ يَكْنُفُهُ مَجْرُ سَمَاءِ
قَدْ رَقَّ حَتَّى ظَنَّ قَوْساً مُفْرَغاً
مِنْ فَضِيَّةٍ فِي بُرْدَةِ خَضْرَاءِ
وَعَدَّتْ تَحْفُ بِهَ الْغُصُونُ كَأَنَّهَُا
هُدْبٌ تَحْفُ بِمُقْلَةٍ زُرْقَاءِ
وَلَطَالَمَا عَاطِيَتْ فِيهِ مُدَامَةً
صَفْرَاءَ تَخْضِبُ أَيْدِي النَّدْمَاءِ
وَالرِّيحُ تَعْبَثُ بِالْغُصُونِ وَقَدْ جَرَى
ذَهَبُ الْأَصِيلِ عَلَى لَجَيْنِ الْمَاءِ
(أبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة)



باكرَ اللّهُوَ وَمَنْ شَاءَ عَتَبَ
 لَا يَلْدُ الْعَيْشُ إِلَّا بِالطَّرَبِ
 مَا تَوَانِي مَنْ رَأَى الزَّهَرَ زَهَا
 وَالصَّبَا تَمَرَحُ فِي الرُّوضِ حَبِ
 يَا نَسِيمًا عَطَرَ الْأَرْجَاءَ، هَلْ
 بَعَثُوا ضِمْنَكَ مَا يَشْفِي الْكَرْبَ
 هُمْ أَغْلُوهُ وَهُمْ يَشْفُونَهُ
 لَا شِفَاءَ اللَّهُ مِنْ ذَاكَ الْوَصَبِ
 كُلُّ هَذَا قَدْ دَعَانِي لِذَنِّي
 مَلَكْتُ رِقِّي عَلَى مَرِّ الْحَقْبِ
 قَهْوَةُ أَبِيسُمْ مِنْ عَجَبٍ لَهَا
 عِنْدَمَا تَبِيسُ عُجْبًا عَنْ حَبِ
 حَاكَبِ الْخَمْرِ، فَلَمَّا شَعَشَعْتُ
 قُلْتُ: مَا لِلْخَمْرِ بِالماءِ التَّهَبُ؟
 اسْقِنِيهَا مِنْ يَدَيِّ مُشَبِّهًا
 بِالذِّي يَحْوِيهِ طَرْفٌ وَشَنَبُ
 لَا جَعَلْتُ الدَّهْرَ نُقْلِي غَيْرَ مَا
 لَدُّ لِي مِنْ رِيْقٍ ثَغِيرٍ كَالضَّرْبِ
 لَا جَعَلْتُ الدَّهْرَ رِيْحَانِي سَوَى
 مَا بِخَدِّيهِ مِنَ الْوَرْدِ انْتُخِبِ
 (أبو الحسن علي بن سعيد العنسي)



قُمْ فَاسْقِنِي وَالرِّيَاضُ لَا يَسَّةُ
 وَشَيْئًا مِنَ النُّورِ حَاكَهُ الْقَطَرُ
 فِي مَجْلَسٍ كَالسَّمَاءِ لَاحَ بِهِ
 مِنْ وَجْهِ مَنْ قَدْ هَوَيْتُهُ بَدْرُ
 وَالشَّمْسُ قَدْ عَصَفَرْتُ غَلَاثِلَهَا
 وَالْأَرْضُ تَنْدِي ثِيَابُهَا الْخُضْرُ
 وَالنَّهْرُ مِثْلُ الْمَجْرُ حُفَّ بِهِ
 مِنَ النَّدَامَى كَوَاكِبُ زُهْرُ
 (علي بن أحمد)

وَلَقَدْ شَرِبْتُ الرِّيحَ يَشْطَعُ نُورُهَا
 وَاللَّيْلُ قَدْ مَدَّ الظَّلَامَ رِدَاءَ
 حَتَّى تَبْلُدَى الْبَدْرُ فِي جَوَازَاهُ
 بَلِكًا تَنَاهَى بِهَجَّةٍ وَبِهَاءِ
 وَتَنَاهَضَتْ زُهْرُ النُّجُومِ يَحْفُهُ
 لَالَاؤُهَا فَاسْتَكْمَلَ السَّلَاةُ
 لَمَّا أَرَادَ تَنْزُهَاً فِي غَرْبِهِ
 جَعَلَ الْبِظَلَّةَ فَوْقَهُ الْجُوزَاءُ
 وَتَرَى الْكَوَاكِبَ كَالْمَوَاكِبِ حَوْلَهُ
 رَفَعْتُ ثُرَيَّاَهَا عَلَيْهِ لِوَاءِ
 وَحَكَيْتُهُ فِي الْأَرْضِ بَيْنَ مَوَاكِبِ
 وَكَوَاعِبِ جَمَعْتُ سَنًا وَسَنَاءِ
 إِنْ نَشَرْتُ تِلْكَ الدَّرُوعَ خَنَادِسًا
 مَلَأْتُ لَنَا هَذِي الْكُؤُوسَ ضِيَاءِ
 وَإِذَا تَغَنَّدْتَ هَذِهِ فِي مِزْهَرٍ
 لَمْ تَأَلْ تِلْكَ عَلَى التَّرِيكِ غِنَاءِ
 (المعتمد بن عباد)



وَمُؤَسِّلِينَ عَلَى الْأَكْفِ خُدُودَهُمْ
 قَدْ غَالَهُمُ نَوْمُ الصَّبَاحِ وَغَالَنِي
 مَا زِلْتُ أَسْقِيهِمْ وَأَشْرَبُ فَضْلَهُمْ
 حَتَّى سَكِرْتُ وَنَالَهُمْ مَا نَالَني
 وَالْخَمْرُ تَعْرِفُ كَيْفَ تَأْخُذُ حَقَّهَا
 إِنِّي أَمَلْتُ إِنْاءَهَا فَأَمَالَني
 (أبو بكر محمد ابن عبد الملك بن زهر)



يقول آخر الفضول وقد رآنا
على الإيمان يغلبنا المجون:
أتنتهكون شهر الصوم؟ هلاً
حماه منكم عقل ودين؟
فقلت: اصحب سوانا، نحن قوم
زنادقة مذهبنا فنون
ندين بكل دين غير دين الر
عاع، ما به أبداً ندين!
يحي على الصبح الدهر ندعو
وليس يقول لنا: أمين
فيا شهر الصيام إليك عنا
إليك... ففيك أكفر ما نكون
الوزير الكاتب أحمد بن طلحة، (الذي كلفه مجونه حياته)



في وصف القصور

قصر لو أنك قد كحلت بنوره
أعنى لعدا إلى المقام بصيرا
واشتق من معنى الحياة نسيه
فيكاد يحدث للعظام نشورا
أعيت مصانعه على القرس الألي
رفعوا البناء وأحكموا التدبيرا
ومضت على الروم الدهور وما بنوا
لملوكنهم شها له ونظيرا
أذكرتنا الفردوس حين أريتنا
غرفا رفعت بناءها وقصورا
أبصرته فرأيت أبداع منظر
ثم انشيت بناظري محسورا
وظننت أنني حالم في جنة
لما رأيت الملك فيه كبيرا
وضراغم سكنت عرين رياة
تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشى النصار جوسمها
وأذاب في أفواها البلورا
أسد كان سكونها متحرك
في النفس، لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكايتها فكأنما
أفعت على أذبارها لشورا
وبديعة الثمرات تعبوا نحوها
عيناي بحر عجائب مسجورا
شجيرة ذهبية نزعنت إلى
سحر يؤثر في النهى تأثيرا
قد صولجت أغصانها فكأنما
قنصت لهن من الفضاء طورا
وكأنما تآبى لوقع طيرها
أن تستقل بنهضها وتطيرا

وقالوا...

في النقد السياسي

نم تـمادت هذه الطوائف
 تخلفهم من آلهم خوالف
 دانت بدين الجور والعُدول
 إذ سلبت عقائل العقول
 فأهملوا البلاد والعباد
 وعطلوا الثغور والجهاد
 واشتغلت أذهانهم بالخمير
 وبالأغاني وسماع الزُمير
 وزادهم في الجهل والخذلان
 أن ظاهروا عصابة الصُلبان
 لما طوت صدورهم من غُل
 واختار البعض حال الكل
 فاستولت الروم على البلاد
 واستعبدوا حرائر العباد
 وقتلوا الرجال كيف شاءوا
 وضاع دلو الدين والرشاء
 وإذا أطال القوم، أسرى القدر
 نخوهم خشفاً وما إن شعروا
 فإذا أراد الله نصر الدين
 استصرخ الناس ابن تاشفين
 فجاءهم كالصبح في إثر الغسق
 مُستدركاً لما تبقى من رَمَق
 وأقى أبو يعقوب كالعقاب
 فجرد السيف عن القراب
 وواصل السير إلى الرُلافة
 وساقه ليومها ما ساقه
 لله دَر مثلها من وقعه
 قامت بنصر الدين يوم الجمعة
 وللشرك هناك عرشه
 ولم يُغن عنه يومه أذفشه

من كل واقعة ترى منقارها
 ماء كسلسال اللجين نميراً
 خرس تُعد من الفصاح فإن شدت
 جعلت تُغرّد بالمياه صفيراً
 وتريك في الصهرج موقع قَطْرِها
 فوق الزبرجد لؤلؤاً منشوراً
 ضحكك محاسنه إليك كأنما
 جعلت لها زُهر النجوم ثغوراً
 ومضفح الأبواب ثيراً نظروا
 بالنفث فوق شكوله تنظيراً
 تبدو مسامير النضار كما علت
 فلك النهد من الحسان صدوراً
 خلعت عليه غلائلاً وزميمة
 شمس ترد الطرف عنه حسيراً
 وإذا نظرت إلى غرائب سقفه
 أبصرت رَوْضاً في السماء نصيراً
 وضعت به صنّاعه أعلامها
 فارتك كل طريدة تصويراً
 وكأنما للشمس فيه ليقة
 مشقوا بها التزيق والتشجيراً
 يا مالك الأرض الذي أضحي له
 ملك السماء على العداة نصيراً
 كم من قصور للملوك تقدمت
 واستوجبت لقصورك التأخيراً
 فعمرتها وملكك كل رئاسة
 منها ودمرت العدا تدميراً
 (ابن حمديس في وصف قصر المنصور وبركة القصر بمدينة
 باجة)



وقالوا...

في رثاء المدن والممالك

لكل شيء إذا ما تم نقصان
فلا يُغمر بطيب العيش إنسان
هي الأمور - كما شأنتها - دُولُ
من سره زمن ساءت أزمان
وهذه الدار لا تبقي على أحد
ولا يدوم على حال لها شأن
وصار ما كان من مُلك ومن ملك
كما حكى عن خيال الطيف وشنان
فجائع الدهر أنواع مُنوعة
وللزمان مَسَرَّات وأحزان
وللحوادث سُلوأ يُسهلها
وما لما حل بالإسلام سُلوأ
دعى الجزيرة أمر لا عزاء له
هوى له أحد وإنهدَّ نهلان
أصابها العين في الإسلام فازت زأت
حتى خلت منه أقطار وبلدان
فاسأل بالنسيئة: ما شأن مُرسيّة؟
وأين شاطبة أم أين جيان؟
وأين قرطبة دار العلوم، فكم
من عالم قد سما فيها له شأن؟
وأين حمص وما تحويه من نُزوة
ونهرها العذب فياض وملآن؟
قواعد كُن أركان البلاد فما
عسى البقاء إذا لم تبق أركان؟
تبكي الحنيفة البيضاء من أسف
كما بكى لفراق الألف هيمان
على ديار من الإسلام خالية
قد أقفرت ولها بالكفر عُمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما
فيهن إلا نواقيس وصُلبان

فوجب الخلق الذي الخلاعه
وصرخوا ليوسف بالطاعة
واتصل الأمر على نظام
وامتد ظل الله للإسلام
(أبو طالب عبد الجبار)



يا أهل أندلس خثوا مطيكم
فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه، وأرى
ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط
من جاور الشر لم يأمن عواقبه
كيف الحياة مع الحيات في سَفَط؟
(ابن الفسال)



أرى المملوك أصابتها بأندلس
دوائر السوء لا تبقي ولا تذُر
ناموا وأسرى لهم تحت الدجى قمر
هوى بأنجمهم خسفاً وما شعروا
وكيف يشعر من في كفه قدح
يحدو به مُلهية: الناي والوتر؟
(أبو القاسم بن الجد)



مما يزهدني في أرض أندلس
سماغ معتضد فيها ومعتمد
القاب مملكة في غير موضعها
كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد
(ابن رشيق القيرواني)

حتى المحاريبُ تبكي وفي جامدة
حتى المنابرُ تَرثي وفي عِيدَانِ
يا غافلاً وله في الدهر موعظة
إن كنت في سنةٍ فالدهرُ يقظانُ
وما شياً مَرِحاً يُلهيه مَوطِئُهُ
أبعدَ جِمْصٍ تَغْرُ المرةَ أوطانُ؟
تلك المصيبةُ أنستَ ما تَقْدُمُهَا
وما لَهَا مَعَ طويلِ الدهرِ نِسيانُ
يا رَاكِبِينَ عِتَاقَ الخيلِ ضَايِرَةً
كأنها في مجالِ السَّبْقِ عِقْبَانُ
وحاملين سيوفَ الهند مُرَهَفَةً
كأنها في ظلامِ النَّقْعِ نِيرَانُ
ورَاتِعِينَ وراءَ البحرِ في دَعَةِ
لهم بأوطانهم عِزٌّ وسلطانُ
أعندكم نبأ من أهل أندلسٍ
فقد سَرَى بِحَدِيثِ القومِ رِكبانُ؟
كم يستغيثُ بنا المستضعفون وهم
قتلى وأسرى فما يهتزُّ إنسانُ
ماذا التقاطعُ في الإسلامِ بينكم
وأنتم يا عبادَ الله إخوانُ؟
ألا نفوسُ أبياتٍ لَهَا هَمَمٌ
أما على الخير أنصارُ وأعوانُ؟
يا مَنْ لِدَلَةِ قومٍ بعد عَزِّهِمْ
أحَالَ حَالَهُمْ كَفَرٌ وطغيانُ؟
بالأمسِ كانوا ملوكاً في منازلهم
واليومَ هم في بلادِ الكفرِ عُبدانُ!
فلو تراهم حيازي لا دَلِيلَ لهم
عليهم من ثيابِ الدُّلِّ ألوانُ!
ولو رأيت بُكاهم عند بَيْعِهِمْ
لَهَالِكِ الأمرُ واشتَهَوْتُكَ أحزانُ!
يا رَبُّ أُمٍّ وِطْفَلٍ جِلَّ بينهما
كما تَفَرَّقَ أرواحُ وأبدانُ

وطفلةٍ مثلِ حُسْنِ الشمسِ إذ طلعت
كأنما هي ياقوتٌ ومَرْجَانُ
يَقودُهَا العِلْجُ للمكروهِ مُكْرَهَةً
والعينُ باكيةٌ والقلبُ خَيْرَانُ!
لمثل هذا يذوب القلبُ من كَمَدٍ
إن كَانَ في القلبِ إِسلامٌ وإيمانُ!
(أبو البقاء الرندي)



تبكي السماء بدمع رائحٍ غادٍ
على البهاليل من أبناء عِبَادٍ
على الجبال التي هُدَّتْ قواعدها
وكانت الأرضُ منهم ذاتُ أوتادٍ
يا ضيفُ أَقْفَرِ بَيْتِ المَكْرَمَاتِ فَخْذُ
في ضَمِّ رَحْلِكَ واجمع فَضْلَةَ الزادِ
ويا مؤمِّلَ وَاذِيهِمْ لَيْسَكُنْهُ
خَفَّ القُطَيْنُ وَجَفَّ الزَرْعُ بالوادي
نسيْتُ إِلَّا غَدَاةَ النهرِ كَوْنَهُمْ
في المُنْشآتِ كَأَمَوَاتٍ بِالْحَادِ
حُطَّ القِنَاعُ فلم تُسْتَرْ مُخَدَّرَةٌ
وَمُزَّقَتْ أَوْجُهُ تَمْزِيْقَ أَبْرَادِ
تَفَرَّقُوا جِيرةً من بعد ما نشأوا
أهلاً بأهلٍ وأولاداً بأولادِ
حَانَ الوداعُ فَضَجَّتْ كُلُّ صَارِخَةٍ
وصارخٍ من مُفْدَاةٍ ومن فَادِي
سارت سفائنهم والنوُجُ يَتْبَعُهَا
كأنها إبِلٌ يَحْدُو بِهَا الحادي
كم سَالَ في الماءِ من دمعٍ وكم حَمَلَتْ
تلك القِطَائِعُ من قِطْعَاتِ أَكْبَادِ
مَنْ لِي بِكُمْ يا بني ماءِ السماءِ إِذَا
ماءُ السماءِ أبى سَقِيّاً حَشَى الصادي؟
(الوزير أبو بكر محمد بن عيسى - ابن اللبانة)

من الموشحات

عبث الشوق بقلبي فاشتكى
ألم الوجد فلبت أدمعي

أيها الناس فؤادي شغف
وهو من بغي الهوى لا يُصِفُ
كم أداريه ودمعي يكف
أيها الشادن من علمكما
بسهام اللحظ قتل السبع؟
بذر تم تحت ليل أغطش
طالع في غصن بان متشي
أهيف القد بخد أرقش
ساحر الطرف وكم ذا فتكا
بقلوب الأسد بين الأضلع

أي ريم رفته فاجتنبا
وانثى يهتز من سكر الصبا
كقضيپ هزة ريح الصبا؟
قلت: هب لي يا حبيبي وصلكا
واطرح أسباب هجري ودع

قال: خدي زهره مذ فوقا
جردت عيناى سيفاً مرففا
خذراً منه بان لا يقطفا
إن من رام جناه هلكا
فازل عنك علال الطمع

ذاب قلبي في هوى ظبي غريز

وجهه في الدجن صبح مستنير
وفؤادي بين كففيه أسير
لم أجذ للصبر عنه مسلماً
فانتصاري بانسكاب الأدمع
(ابن بقي)



هل درى ظبي الجوى أن قد حنى
قلب صب حله عن مكس
فهو في حر وخفق مثلاً
لعبث ريح الصبا بالقبس

يا بدوراً أطلعت يوم النوى
غوراً تسلك في نهج الغر
ما لقلبي في الهوى ذنب سوى
منكم الحسن ومن عيني النظر
أجتني اللذات مكلوم الجوى
والتذاذي من حبيبي بالفكر
كلما أشكوه وجداً بسما
كالربا بالعارض المشجس
إذ يقيم القطر فيها مائما
وهي من بهجتها في عرس

غالب لي غالب بالتودة
بأبي أفديه من جاف رقيق
ما رأينا مثل نغر نضده
أفحواناً عصرت منه رجيق
أخذت عيناه منه العربدة
وفؤادي سكرة ما إن يقيق

فَاجِمُ الْجَمَّةِ مَغْسُولُ اللَّمَى
أَكْحَلُ اللَّحْظِ شَهِيُّ اللَّعْسِ
وَجْهَهُ يَتَلَوُ الضُّحَى مُبْتَسِمًا
وَهُوَ مِنْ إِعْرَاضِهِ فِي عَبَسِ
* * *

أَيُّهَا السَّائِلُ عَنْ ذُلِّي لَدَيْهِ
لِي جَزَاءُ الذَّنْبِ وَهُوَ الْمَذْنِبُ
أَخَذْتُ شَمْسَ الضُّحَى مِنْ وَجْتِيهِ
مَشْرِقًا لِلصَّبِّ فِيهِ مَغْرِبُ
ذَهَبْتُ أَدْمَعُ أَجْفَانِي عَلَيْهِ
وَلَهُ خَدُّ بِلَحْظِي مُدْهَبُ
يَطْلُعُ الْوَرْدُ بِغَرْسِي كُلَّمَا
لَاخِظْتُهُ مَقْلَتِي فِي الْخُلْسِ
لَيْتَ شِعْرِي أَيُّ شَيْءٍ حَرَمًا
ذَلِكَ الْوَرْدُ عَلَى الْمَغْتَرَسِ؟
* * *

كُلَّمَا أَشْكُو إِلَيْهِ حُرْقِي
غَادَرْتَنِي مَقْلَتَاهُ ذَيْفًا
تَرَكْتُ الْحَاظِلَةَ مِنْ رَمَقِي
أَتَرْتُ النَّمْلَ عَلَى صُمِّ الصَّفَا
وَأَنَا أَشْكُرُهُ فِيمَا بَقِيَ
لَسْتُ الْحَاةُ عَلَى مَا أَتَلَفَا
فَهُوَ عِنْدِي عَادِلٌ إِنْ ظَلَمَا
وَعَدُولِي نَظْفَهُ كَالْخَرَسِ
لَيْسَ لِي فِي الْحَبِّ حُكْمٌ بَعْدَمَا
حَلَّ مِنْ نَفْسِي مَحَلُّ النَّفْسِ
مَنْهُ لِلنَّارِ بِأَحْشَائِي اضْطِرَامُ
يَلْتَطِي فِي كُلِّ حِينٍ مَا يَشَا
وَهِيَ فِي خَدَّيْهِ بَرْدٌ وَسَلَامُ
وَهِيَ ضَرْبُ وَحْرِيقٍ فِي الْحَشَا
أَتَقِي مِنْهُ عَلَى حُكْمِ الْغَرَامِ
أَسَدُ الْغَابِ وَأَهْوَاءُ رَشَا

قُلْتُ لَمَّا أَنْ تَبَدَّى مُعْلَمًا
وَهُوَ مِنَ الْحَاظِلَةِ فِي خَرَسِ:
أَيُّهَا الْآخِذُ قَلْبِي مَغْنَمًا
اجْعَلِ الْوَصْلَ مَكَانَ الْخُمُسِ
(ابن سهل الإسرائيلي)



جَادَكَ الْغَيْثُ إِذَا الْغَيْثُ هَمَى
يَا زَمَانَ الْوَصْلِ بِالْأَنْدَلِسِ
لَمْ يَكُنْ وَصْلُكَ إِلَّا حُلْمًا
فِي الْكَرَى أَوْ خُلْسَةِ الْمُخْتَلِسِ
* * *

إِذْ يَقُودُ الدَّهْرُ أَشْتَاتَ الْمُنَى
نَنْقُلُ الْخَطْوَ عَلَى مَا تَرُسُّمُ
زُمرًا بَيْنَ فُرَادَى وَنُثَا
مِثْلَمَا يَدْعُو الْحَجِيجُ الْمَوْسِمُ
وَالْحَيَا قَدْ جَلَّلَ الرُّوضِ سَنَا
فَنَغُورُ الزَّهْرَ فِيهِ تَبَسُّمُ
وَرَوَى التُّغْمَانُ عَنْ مَاءِ السَّمَاءِ
كَيْفَ يَزُوي مَالِكُ عَنْ أَنْسِ
فَكَسَاهُ الْحُسْنُ ثَوْبًا مُعْلَمًا
يَزْدَهِي مِنْهُ بِأَبْهَى مَلْبَسِ
* * *

فِي لَيَالٍ كَتَمْتُ سِرَّ الْهَوَى
بِالدُّجَى لَوْلَا شُمُوسُ الْغُرَى
مَالَ نَجْمُ الْكَاسِ فِيهَا وَهَوَى
مُسْتَقِيمُ السَّيْرِ سَعْدُ الْأَثَرِ
وَطَرَّ مَا فِيهِ مِنْ غَيْبِ سَوَى
أَنَّهُ مَرُّ كَلْمَحِ الْبَصْرِ

حينَ لَدَ النومِ شيئاً أو كَمَا
هَجَمَ الصَّبْحُ هَجُومَ الحَرَسِ
غَارَتِ الشَّهْبِ بِنَا أو رُبَّمَا
أَثَرْتُ فِينَا عَيُونُ النَّرَجِسِ
* * *

أَيُّ شَيْءٍ لا مَرِيءَ قد خَلَصَا
فَيَكُونُ الرُّوضُ قد مُكِّنَ فِيهِ؟
تَنْهَبُ الأزْهَارُ فِيهِ الْفُرَصَا
أَمِنْتُ مِنْ مَكْرِهِ مَا تَتَّقِيهِ
فَإِذَا الْمَاءُ تَنَاجَى وَالْحَصَا
وَحَلَا كُلَّ خَلِيلٍ بِأَخِيهِ
تُبْصِرُ الْوَرْدَ غَيْرَ بَرِّمَا
يَكْتَسِي مِنْ غَيْظِهِ مَا يَكْتَسِي
وَتَرَى الْأَسَّ لَبِيًّا فَهَمًّا
يَسْرِقُ السَّمْعُ بِأَذْنِي فَرَسِ
* * *

يَا أَهْمِلَ الْحَيَّ مِنْ وَادِي الْغَضَا
وَيَقْلِبِي مَسْكَنَ أَنْتُمْ بِهِ
ضَاقَ عَنْ وَجْدِي بِكُمْ رَحْبُ الْفَضَا
لَا أَبَالِي شَرْقَهُ مِنْ غَرْبِهِ
فَاعِيدُوا عَهْدَ أُنْسٍ قد مَضَى
تُعْتِفُوا عَبْدَكُمْ مِنْ كَرْبِهِ
وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَخِيُوا مُغْرَمًا
يَتَلَاشَى نَفْسًا فِي نَفْسِ
حَبَسَ الْقَلْبَ عَلَيْكُمْ كَرَمًا
أَفْتَرَضُونَ عَفَاءَ الْحُبْسِ؟
* * *

وَيَقْلِبِي مِنْكُمْ مُقْتَرِبُ
بِأَحَادِيثِ الْمُنَى وَهُوَ بَعِيدُ
قَمَرٌ أَطْلَعَ مِنْهُ الْمَغْرِبُ
شِقْوَةُ الْمُضْنَى بِهِ وَهُوَ سَعِيدُ

قد تَسَاوَى مُحْسِنٌ أو مُذْنِبُ
فِي هَوَاهُ بَيْنَ وَغْدٍ وَوَعْدِ
أَخَوَزُ الْمُقْلَةِ مَغْسُولُ اللَّمَى
جَالَ فِي النَّفْسِ مَجَالَ النَّفْسِ
سَدَّدَ السَّهْمَ فَاصْصَى إِذْ رَمَى
بِفَوَادِي نَبْلَةٍ الْمُفْتَرِسِ
* * *

إِنْ يَكُنْ جَارَ وَخَابِ الْأَمَلِ
فَفَوَادُ الصَّبِّ بِالشَّوْقِ يَذُوبُ
فَهُوَ لِلنَّفْسِ حَيْبٌ أَوَّلُ
لَيْسَ فِي الْحُبِّ لِمُحِبِّ دُنُوبُ
أَمْرُهُ مُعْتَمَلٌ مُمْتَثَلُ
فِي ضُلُوعٍ قد بَرَّاهَا وَقُلُوبُ
حَكَمَ اللَّحْظَ بِهِ فَاحْتَكَمَا
لَمْ يُرَاقِبْ فِي ضِعَافِ الْأَنْفُسِ
يُنْصِفُ الْمَظْلُومَ مِمَّنْ ظَلَمَا
وَيُجَازِي الْبَرَّ مِنْهَا وَالْمُسِي
* * *

مَا لِقَلْبِي كُلَّمَا هَبَّتْ صَبَا
عَادَهُ عَيْدٌ مِنَ الشَّوْقِ جَدِيدُ؟
جَلَبَ الْهَمُّ لَهُ وَالْوَصْبَا
فَهُوَ لِلْأَشْجَانِ فِي جَهْدٍ جَهْدُ
كَانَ فِي اللَّوْحِ لَهُ مُكْتَبَا
قَوْلُهُ: «إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدُ»
لَا عِجَّ فِي أَضْلَعِي قد أَضْرِمَا
فَهِيَ نَارٌ فِي هَشِيمِ الْيَبْسِ
لَمْ يَدْعُ فِي مُهْجَتِي إِلَّا ذِمًّا
كِبَاءُ الصَّبْحِ بَعْدَ الْغَلَسِ
* * *

سَلِّمِي يَا نَفْسُ فِي حُكْمِ الْقَضَا
وَأَعْمُرِي الْوَقْتَ بِرُجْعَتِي وَمَتَابُ

وَدَعِيَ ذَكَرَ زَمَانٍ قَدْ مَضَى
 بَيْنَ عَتَبِي قَدْ تَقَضَّتْ وَعِتَابِ
 وَاصْرِفِي الْقَوْلَ إِلَى الْمَوْلَى الرُّضَى
 مُلْهِمِ التَّوْفِيقِ فِي أَمِّ الْكِتَابِ
 الْكَرِيمِ الْمُتَنَهَى وَالْمُتَنَمَّى
 أَسَدِ السَّرْجِ وَبَذْرِ الْمَجْلِسِ
 يُنْزَلُ النَّصْرُ عَلَيْهِ مِثْلَمَا
 يُنْزَلُ الْوَحْيُ بِرُوحِ الْقُدُسِ

مُصْطَفَى اللَّهِ سَمِيِّ الْمُصْطَفَى
 الْغَنِيِّ بِاللَّهِ عَنْ كُلِّ أَحَدٍ
 مَنْ إِذَا مَا عَقَدَ الْعَهْدَ وَفَى
 وَإِذَا مَا قُبِحَ الْخَطْبُ عَقَدَ
 مِنْ بَنِي قَيْسِ بْنِ سَعْدٍ وَكَفَى
 حَيْثُ بَيْتُ النَّصْرِ مَرْفُوعُ الْعَمَدِ
 حَيْثُ بَيْتُ النَّصْرِ مَحْبِيُّ الْجَمَى
 وَجَنَى الْفَضْلِ زَكِيُّ الْمَغْرَسِ
 وَالْهَوَى ظِلُّ ظَلِيلٍ خَيَّمَا
 وَالتَّدَى هَبَّ إِلَى الْمَغْتَرَسِ

هَآكِهَ يَا سَيْطَ أَنْصَارِ الْعُلَى
 وَالَّذِي إِنَّ عَثَرَ الدَّهْرِ أَقَالَ
 غَادَةَ أَلْبَسَهَا الْحُسْنَ مَلَا
 تَبَهَّرَ الْعَيْنَ جَلَاءَ وَصِقَالَ
 عَارَضَتْ لَفْظًا وَمَعْنَى وَحَلَى
 قَوْلٍ مِنْ أَنْطَقَهُ الْحُبُّ فَقَالَ:

«هَلْ دَرَى ظَبْيُ الْجَمَى أَنْ قَدْ حَمَى
 قَلْبَ صَبِّ حَلَّةٍ عَنْ مَكْنَسِ
 فَهُوَ فِي خَرٍّ وَخَفَقٍ مِثْلَمَا
 لَعِبَتْ رِيحُ الصَّبَا بِالْقَبَسِ»
 (لسان الدين بن الخطيب)

أَيُّهَا السَّاقِي إِلَيْكَ الْمُشْتَكِي
 قَدْ دَعَوْنَاكَ وَإِنْ لَمْ تَسْمَعْ
 وَنَدِيمٍ هِنْتُ فِي غُرْتِهِ
 وَبَشْرِبِ الرَّاحِ مِنْ رَاحِيهِ
 كَلِمَا اسْتَيْقَظَ مِنْ سَكْرَتِهِ
 جَذَبَ الرِّقَّ إِلَيْهِ وَأَتَا
 وَسْقَانِي أَرْبَعًا فِي أَرْبَعِ

غُضُنُ بَانَ مَالٍ مِنْ حَيْثُ اسْتَوَى
 بَاتَ مِنْ يَهْوَاهُ مِنْ قَرْطِ الْجَوَى
 خَفِقَ الْأَحْشَاءُ مَوْهُونَ الْقُوَى
 كَلِمَا فَكَّرَ فِي الْبَيْنِ بَكَى
 وَيَحَهُ يَبْكِي لَمَّا لَمْ يَقَعْ!

مَا لِعَيْنِي عَشِيَتْ بِالنَّظَرِ؟
 أَنْكَرْتُ بَعْدَكَ ضَوْءَ الْقَمَرِ
 وَإِذَا مَا شَتَّ فَاسْمَعْ خَبْرِي
 عَشِيَتْ عَيْنَايَ مِنْ طَوْلِ الْبُكََا
 وَبَكَى بَعْضِي عَلَى بَعْضِي مَعِي

لَيْسَ لِي صَبْرٌ وَلَا لِي جَلْدُ
 يَا لَقَوْمٍ هَجَرُوا وَاجْتَهَدُوا
 أَنْكَرُوا شَكَاوِي مِمَّا أَجِدُ
 إِنَّ مِثْلِي حَقُّهُ أَنْ يَشْتَكِي
 كَمَدَ الْيَاسِ وَذُلَّ الطَّمَعُ

كَبِدُ حَرَى وَدَمْعُ يَكِفُ
 يَعْرِفُ الذَّنْبَ وَلَا يَعْتَرِفُ
 أَيُّهَا الْمُعْرِضُ عَمَّا أَصِفُ
 قَدْ نَمَّا حُبُّكَ عِنْدِي وَزَكَ
 لَا تَقُلْ فِي الْحُبِّ إِنِّي مُدْعِي
 (ابن زهر)

مُسْتَطَارَ الْعَقْلِ مَقْصُوصَ الْجَنَاحِ
مَا عَلَيْهِ فِي هَوَاهُ مِنْ جَنَاحِ

يَا عَلِيَّ أَنْتَ نُورُ الْمُقْبَلِ
جُدْ بَوَصْلِ مَنْكَ لِي يَا أَمَلِي
كَمْ أَغْنَيْكَ إِذَا مَا لُحْتَ لِي:
طَرَقْتُ وَاللَّيْلُ مَمْدُودُ الْخَنَاحِ
مَرْحَبًا بِالشَّمْسِ مِنْ غَيْرِ صَبَاحِ
(محمد بن عبد الملك بن زهر)

شَابَ مِسْكَ اللَّيْلِ كَافُورُ الصَّبَاحِ
وَوَشَّتْ بِالرُّوضِ أَعْرَافُ الرِّيحِ

فَاسْقِنِيهَا قَبْلَ نُورِ الْفَلَقِ
وِغْنَاءِ الْوُزْقِ بَيْنَ الْوَرَقِ
كَاحْمَرَارِ الشَّمْسِ عِنْدَ الشَّفَقِ
نَسَجَ الْمَرْجُ عَلَيْهِا حِينَ لَأَخِ
فَلَكَ اللَّهُوْ وَشَمْسُ الْإِضْطِبَاحِ

وَعَزَالَ سَامَنِي بِالْمَلِكِ
وَبَرَى جِسْمِي وَأَذَكِي حُرْقِي
أَهْيَفَ عَنْهُ مَشَاهِيرُ الصُّفَاحِ
وَأَنْشَتَ بِالذُّعْرِ أَغْصَانُ الرِّيحِ

صَارَ بِالذُّلِّ فَوَادِي كَلِفَا
وَجُفُونِي سَاهِرَاتٍ وَطَفَا
كَلِمَا قُلْتُ: جَوَى الْحُبِّ انْطَفَا
أَتَرْضَى الْقَلْبَ بِأَجْفَانِ صِحَاخِ
وَسَبَى الْعَقْلَ بِجِدِّ وَمِزَاحِ

يُوسُفِيُّ الْحُسْنِ عَذْبُ الْمُتَبَسِّمِ
قَمَرِي الْوَجْهِ لَيْلِي اللَّمَمِ
عَنْتَرِي الْبَاسِ عَنِّي الْهَمَمِ
عُصْنِي الْوَصْلِ مَهْضُومِ الْوِشَاخِ
مَادِرِي الْوَصْلِ طَائِي السُّمَاحِ

قَدْ بِالْقَدِّ فَوَادِي هَيْفَا
وَسَبَى عَقْلِي لَمَّا انْعَطَفَا
لَيْتَهُ بِالْوَصْلِ أَحْيَا دَيْفَا

وقالوا...

في الاستغاثة

أَدْرِكْ بِخَيْلِكَ خَيْلَ اللَّهِ أَنْدَلُسَا
إِنْ السَّبِيلَ إِلَى مَنَاجِيهَا دَرَسَا
وَهَبْ لَهَا مِنْ عَزِيزِ النَّصْرِ مَا التَّمَسَتْ
فَلَمْ يَزَلْ مِنْكَ عِزُّ النَّصْرِ مُلْتَمَسَا
يَا لِلْجَزِيرَةِ أَضْحَى أَهْلُهَا جَزْرًا
لِلْحَادِثَاتِ، وَأَمْسَى جَدُّهَا نَعْسَا
فِي كُلِّ شَارِقَةِ إِمَامٍ بَاقِقَةٍ
يَعُودُ مَاتَمُّهَا عِنْدَ الْعِدَا عُرْسَا
وَفِي بَلَنَسِيَةٍ مِنْهَا وَقُرْطُبَةٍ
مَا يَنْسِفُ النَّفْسَ أَوْ مَا يَنْزِفُ النَّفْسَا
مَدَائِنُ حَلَّهَا الْإِشْرَاكِ مُبْتَسَمَا
جَذْلَانِ، وَارْتَحَلَ الْإِيمَانُ مُبْتَسَا
وَصَبَّرَتْهَا الْعَوَادِي الْعَائِثَاتُ بِهَا
يَسْتَوْجِشُ الظَّرْفُ مِنْهَا ضِعْفًا مَا أُنْسَا
يَا لِلْمَسَاجِدِ عَادَتْ لِلْعِدَا بَيْعًا
وَلِلنَّدَاءِ غَدَا أَثْنَاءَهَا جَرَسَا
لَهْفِي عَلَيْهَا إِلَى اسْتِرْجَاعِ فَائِثِهَا
مَدَارِسًا لِلْمَثَانِي أَصْبَحَتْ دُرْسَا

وَأَرْبُعًا نَمَمْتُ أَيْدِي الرِّبْعِ لَهَا
مَا شَتَّتَ مِنْ خِلْعٍ مَوْشِيَةٍ وَكَسَا
كَانَتْ حَدَاقُ لِلْأَحْدَاقِ مُوَيْقَةً
فَصُوحُ النَّضْرِ مِنْ أَدْوَاجِهَا وَعَسَا
سِرْعَانِ مَا عَاتَى جَيْشُ الْكُفْرِ وَاحْزَبَا
عَيْتَ الدَّبِي فِي مَغَانِيهَا الَّتِي كَبَسَا
فَإِنْ عَيْشُ جَنِينَاهُ بِهَا خَضِرَا
وَإِنْ غَضُنُ حَنِينَاهُ بِهَا سَلِسَا؟
مَخَا مُحَاسِنُهَا طَاغِ أُنْبِيحُ لَهَا
مَا نَامَ عَنْ هَضْمِهَا جِينَا وَمَا نَعَسَا

صَلَّ حَبْلَهَا أَيُّهَا الْمَوْلَى الرَّحِيمُ فَمَا
أَبْقَى الْمِرَاسُ بِهَا حَبْلًا وَلَا مَرَسَا
وَأَخِي مَا طَمَسَتْ مِنْهَا الْعُدَاةُ كَمَا
أَخْيَيْتَ مِنْ دَعْوَةِ الْمَهْدِيِّ مَا طَمَسَا
أَيَّامَ سِرَّتِ لِنَصْرِ الْحَقِّ مُسْتَبَقَا
وَبِتُّ مِنْ نَوْرِ ذَاكَ الْهَدْيِ مُقْتَبَسَا
وَقَمْتُ فِيهَا بِأَمْرِ اللَّهِ مُتَنَصِّرَا
كَالصَّابِرِ اهْتَزَّ أَوْ كَالْعَارِضِ انْبِجَسَا

هَذِي رَسَائِلُهَا تَدْعُوكَ مِنْ كَثْبٍ
وَأَنْتَ أَفْضَلُ مُرْجُوٍّ لِمَنْ يَنْسَا
تَوْمُ يَحْيَى بْنُ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ أَبِي
حَفْصٍ مُقْبَلَةٌ مِنْ ثَرْبِهِ الْقُدْسَا
يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمَنْصُورُ أَنْتَ لَهَا
عَلِيَاءُ تُوسِعُ أَعْدَاءَ الْهَدْيِ نَعْسَا
وَقَدْ تَوَاتَرَتْ الْأَنْبَاءُ أَنَّكَ مِنْ
يُحْيِي بَقِيَّةَ مَلُوكِ الصُّفْرِ أَنْدَلُسَا
طَهَّرَ بِلَادَكَ مِنْهُمْ إِنَّهُمْ نَجَسُ
وَلَا طَهَارَةَ مَا لَمْ تَغْسِلِ النَّجَسَا
وَأَوْطَىءَ الْفَيْلَقُ الْجَرَّارَ أَرْضَهُمْ
حَتَّى يُطَاطِءَ رَأْسًا كُلُّ مَنْ رَأَسَا
وَانْصَرَّ عَيْدًا بِأَقْصَى شَرْقِهَا شَرْقَتِ
عِيُونُهُمْ أَذْمُعًا تَهْمِي زَكَاً وَخَسَا
هُمْ شَيْعَةُ الْأَمْرِ وَهِيَ الدَّارُ قَدْ نُهَكَتِ
دَاءً، مَتَى لَمْ تُبَاشِرْ حَسْمَهُ انْتَكَسَا
فَامْلَأْ هَنِيئًا - لَكَ التَّائِيدُ - سَاحَتَهَا
جُرْدًا سُلَاحِبَ أَوْ خَطِيئَةً دُعَسَا
وَاضْرِبْ لَهَا مَوْعِدًا بِالْفَتْحِ تَرْقُبَهُ
لَعَلَّ يَوْمَ الْأَعَادِي قَدْ أَتَى وَعَسَى
(الأمير زيان ابن الأبار بن أبي الحجاج مستجداً بسلطان تونس)

نادتكَ أندلسُ فلبَّ نداءها
 واجعل طواغيت الصليب فداءها
 صرخت بدعوتك العلية فاجبها
 من عاطفاتك ما بقي خوباءها
 وبها عبيدك لا بقاء لهم سوى
 سبل الضراعة يسلكون سواءها
 دُفِعُوا لأبكار الخطوب وعونها
 فهم الغداة يصايرون غناءها
 تلك الجزيرة لا بقاء لها إذا
 لم يضمن الفتح القريب بقاءها
 أشفى على طرف الحياة دماؤها
 فاستبق للذين الحنيف دماءها
 حاشاك أن تفنى حشاشتها وقد
 قصرت عليك نداءها ورجاءها

إيه بلنسية وفي ذكراك ما
 يُمرى الشؤون دماءها لا ماءها
 بأبي مدارس كالطلول دوارس
 نسخت نواقيس الصليب نداءها
 ومصانع كسفت الضلال صباها
 فيخاله الرائي إليه مساءها
 أما العلوج فقد أحوالها حالها
 فمن المطيق علاجها وشفاءها؟
 مولاي هاك مُعادة أنباءها
 لتنبئ منك سعادة أبناءها
 جرّد طباك لمحو آثار العدا
 تقتل ضراغمها وتسب طباءها
 واستدع طائفة الإمام لغزوها
 تسبق إلى أمثالها استدعاءها

هبوا لها يا معشر التوحيد قد
 آن الهوب وأحرزوا عليها

أولوا الجزيرة نُصرة إن العدا
 تبغي على أقطارها استيلاءها
 نُقصت بأهل الشرك من أطرافها
 فاستحفظوا بالمسلمين نماءها
 خوضوا إليها بحرهما يُصبغ لكم
 زهواً وجوبوا نحوها بيضاءها
 وأنى الصريح مُتوباً يدعو لها
 فلتجملوا قصد الثواب ثوابها
 دارُ الجهاد فلا تفتكم ساحة
 ساءت بها أحيائها شهداءها
 (صاحب بلنسية، يستنجد بسلطان يونس)



هل من معين في الهوى أو مُنجِد
 من مُتهم في الأرض أو مِن مُنجِد؟
 هذي سبيل الرشيد قد وضحت فهل
 بالعدوتين من امرى مسترشِد؟
 هذا الجهاد رئيس أعمال التقى
 خذ منه زادك لارتحالك تسعيد
 هذا الرباط بأرض أندلس، فرخ
 منه لما يُرضى إلهك واغتد
 من ذا يُطهر نفسه بعرمة
 مشحودة في نصير دين محمد؟

كم جامع فيها أعيد كنيسته
 فأهلك عليه أسى ولا تتجلد
 أسفاً عليها أقفرت صلواتها
 من قانتين وراكعين وسجدا
 كم من أسير عندهم وأسيرة
 وكلاهما يبغي الفداء فما فدي!

كم من عقيلةٍ مَعشِرٍ معقولةٍ
 فيهم تودُّ لو أنَّها في ملحدٍ
 كم من تقيٍّ بالسلاسلِ مؤثقي
 ييكي لأخرٍ في الكبولِ مُقيّدٍ
 وشهيدٍ مُعترِكٍ توزَّعةٍ الرَّذى
 ما بين حَدِّي ذابلٍ ومُهَنَّدٍ
 ضجَّت ملائكةُ السماءِ لحالهم
 ويكى لهم من قلبه كالجلَمَدِ
 أفلا تدوب قلوبكم إخواننا
 مما ذهَّانا من رَدَى أو من رَدِي؟
 أكذا يعيث الرومُ في اخوانكم
 وسيوفكم للثارِ لم تُنْقَلِدِ؟
 أنبي مَريِّبٍ أنتم جيراننا
 وأحقُّ من في صرخةٍ بهم أبتدي
 * * *

أبني مَريِّبٍ والقبائلُ كلُّها
 في المغرب الأدنى لنا والأبعدِ
 كُتِبَ الجهادُ عليكم فتبادروا
 منه إلى الفرضِ الأحقِّ الأوكدِ
 هذي الثُغورُ بكم إليكم تشكي
 شكوى العديمِ إلى الغنيِّ الأوحدِ
 ما بَالُ شَمْلِ المسلمين مُبَدِّدًا
 فيها، وشَمْلِ الضدِّ غير مُبَدِّدٍ؟
 أنتم جيوشُ الله ملء فضاءه
 تأسون للدينِ الغريبِ المفردِ
 ماذا اعتذارُكم غداً لنبيكم
 وطريقُ هذا العُدْرِ غيرُ مُمَهَّدٍ؟

(أبو عمر المرابط)، باسم سيده ابن الأحمر،
 يستجِد فيها بالسلطان يعقوب



أحقاً خبا من جَوِّ رُنْدَةٍ نُورُها
 وقد كُسِفَتْ بعدَ الشمسِ بُدُورُها؟
 وقد أظلمت أرجاؤها وتزلزلت
 منازلُها ذاتُ العلا وقُصورُها؟
 أحقاً خليلي أن رُنْدَةً أقفرت
 وأزعجَ عنها أهلها وعَشيرُها؟
 وهُدَّت مَبانيها وثَلَّت عُروشُها
 ودارت على قطبِ التفرُّقِ دُورُها؟
 تَسَلَّمها جِزْبُ الصليبِ وقادها
 وكانت شُروداً لا يُقادُ نُفُورُها
 فبادَ بها الإسلامُ حتى تقطعت
 مناسِبها واستأصلَ الحقُّ زُورُها
 وأصبحت الصُّلبانُ قد عُبِدتُ بها
 تماثيلُها دُونِ الإلهِ وَصُورُها
 * * *

فواخسرتا كم من مساجدٍ حُوِّلَتْ
 وكان إلى البيتِ الحرامِ شُطُورُها!
 فمِحْرابُها يشكو لمنبرها الجوى
 وآياتُها تشكو الفراقِ وسُورُها
 * * *

ويا مِلَّةَ الإسلامِ هل لك عَودةٌ
 لأرجائها يشفي الصدورُ صُدُورُها؟
 وهل تسمع الأذانَ صوتَ الأذانِ في
 معالمها يعلو بذاك عَفيرُها؟
 ويا لَعزاء المؤمنين لِفَاقَةٍ...
 على الرغمِ أغنى من لديها فقيرُها
 لأندلسَ ارتجَّت لها وتَضَعُضَعَتْ
 وَحَقُّ لَدَيْها مَحُوها ودُورُها
 مَنازِلُها مَضدورةٌ وبِطاحُها
 مدائنها مَوْتُورةٌ ونُغُورُها
 تَهائِثُها مَفجوعةٌ ونُجودُها
 وأحجارُها مَصدوعةٌ وصُخورُها

وأحيائها تُبدي الأسى وجمادها
يكاد لفرط الحزن يبدو ضميرها
على فرقة الدين الذي جاءها به
بشير الأنام المصطفى ونذيرها

أضغنا حقوق الرب حتى أضاعنا
وقضت عرى الإسلام ألا يسيرها
وملأنا لم نعرف الدهر عرفها
من النكر، فانظر كيف كن نكيرها
بشقوتنا الخذلان صاحب جمعنا
وبؤنا بأحوال ذميم حضورها
بعضيانا استولى علينا عدونا
وعاثت بنا أسد العدا ونمورها
نعم سلبوا أوطاننا وثقوسنا
وأموالنا قتيلاً أباحت وفورها
غلوها بلا مهر وما غمرت لهم
قناة، ولا غارت عليهم ذكورها
وقد عوت الإفرنج من كل شاهي
علينا، فوقت للصلب نذورها
وجاءت إلى استئصال شافة ديننا

جيوش كموج البحر هبت دبورها
معاشر أهل الدين هبوا لصعقة
وصاعقة وارى الجسوم ظهورها
أصابنا منار الدين فأنهد ركنه
وزعزع من أكنافه مستطيرها
وذبت أفاعيها إلى كل مؤمن
وعض بأكباد الثقا عقورها
أنادي لها عجم الرجال وعربها
نداء سرة الفقر إذ ضل عيرها
وأستغفر الأذى فالادنى فريضة
على زمر الإسلام جلّت أجورها
ألا وارجعوا يا آل دين محمد
إلى الله يغفر ما اجترحت غفورها

ومن كل ما يردى النفوس تطهروا
فليس يزكى النفس إلا طهورها
ألا واستعدوا للجهاد عزائمها
يلوح على ليل الوغى مستطيرها
بأسد على جرد من الخيل سبق
يدع الأعدى سبقها وزئيرها
بأنفس صدق موقنات بأنها

إلى الله من تحت السيوف مصيرها
يمين هدى إن تتقوا الله تنصروا
وتحفظوا بآمال يشوق غريها
فلا يخذل الرب المهيمن أمة
تدين بدين الحق وهو نصيرها
وإن أنتم لم تفعلوا فترقبوا
بوادى سخط ليس يرجى فتورها
وأيام ذل واهتضام وفرقة
يطاول آناء الزمان قصيرها
وليس لها يا كاشف الكرب ملجأ
إذا لم يكن منك التلافي ظهورها
أغث دعوات المستغيثين إنهم
بيابك موقوفو الحشاشات بورها
دعوناك، أماناك، جئناك خشعا
بأنفس استولى عليها قصورها
فأرسل على هذا العدو رزية
يروح ويغدو بالبوار مبيرها
يشتت شمل الكفر تشتت بقمة
وينظم شمل المسلمين حصيرها
(لشاعر مجهول)

وقالوا...

من الزجل

وهو فن ابتدعه الأندلسيون وقالوه في مختلف المناسبات وشاع بين الخاصة والعامة لسهولة نظمته وفهمه، وهو لا يخضع في نظمته لقواعد النحو والإعراب، كما أنه بعيد عن التكلف والتنميق.

دنيا هي كما تراها فاجتهد واريح زمانك
كل يوم وكل ليلة لا تخلي مهرجاناتك
واشتفي عليه من قبل أن يجيء الموت في شانك
لسن ذي عندك مصيبة والدنيا حياء؟

ساع دون شرب عندي لا شكل ولا ملاحه
وأش يوم بلا رقاعه وأش يوم بلا وقاحه؟
لسن نعد اللذ لذه ولا يدّ الراح راحه
حتى تدخل شفة الكاس بالشراب بين شفتيا
ابن قزمان، (إمام الزجالين - في الخمر)

ثلاث أشيا في البساتين
لسن تجد في كل موضع
النسيم والخضر والطير
شيم وأنزّه واسمع
قم ترى النسيم يؤلول
والطيور علة تفرد
والشمار تنثر جواهر
في بساط من الزمرد
وبوسط المرج الأخضر
سفي كالسيف المجرد

شبهت

بالسيف لما
شفيت الغدير مدرع

ورذاذاً دق ينزل
وشعاع الشمس يضرب
فترى الواحد يفضض
وترى الآخر يذهب
والنبات يشرب ويسكر
والغصون ترقص وتطرب
وتريد يجي إلينا
ثم تستحي وترجع
مدغليس ، (في وصف الطبيعة)

والشمار تنشر حليّه
بشباب بحل زرجد
والرياض تلبس غللاً
من نبات فحل زمرّد
والبهار مع البنفسج
يا جمال أبيض فازرق

والندى والخير والاش
والراح والظل والما
والمليح خلطي مهاود
والرقيب أصم أعمى
وزمير من قم ساحر
وغنا من كف سلمى
والزجاج ملح مجزغ
والشراب أصفّر مروق

يا شراباً مَرَّ ما أحلاك!
 علقم أت ممزوج بسكر
 بالذي رَزَقَن حَبَّكَ
 من نشر عليك جوهر؟
 وترى لش تشكي ضر؟
 لش نراك رقيق أصفر؟
 ما أظن إلا ألم بك
 أو مليخ لا شك تعشق
 ابن قزمان، (في الطبيعة والخمر)



مَنْ وَلِيَّ
 في أمة أمراً ولم يعدل
 يُعزَل.
 إلا لحاظ الرشا الأكلل



جُرَتْ في
 حُكْمِكَ في قَتْلِي يَا مُسْرِفَ
 فأنصف
 فواجب أن يُنصف المنصف
 وأراف
 فإن هذا الشوق لا يراف
 علل
 قلبي بذاك البارد السلسل
 يتجلى
 ما بفؤادي من جوى مُشعل



إنما
 تبرُّز كي تُوقد نار الفتن
 صَنَمًا
 مُصَوِّراً في كل شيء حسن
 إن رمى
 لم يُخط من دون القلوب الجنن

كيف لي
 تخلص من سهمك المرسل
 فصل
 واستبقني حياً ولا تقتل



يا سنا
 الشمس ويا أبهى من الكوكب
 يا منى
 النفس ويا سُؤلي ويا مَطلبي
 ها أنا
 حل بأعدائك ما حل بي!

عذلي
 من ألم الهجران في مغزل
 والخلي
 في الحب لا يسأل عمن



أنت قد
 صيرت بالحسن من الرشد غي
 لم أجِد
 في طرفي حبك ذنباً علي
 فأتيد
 وإن نشأ قتل شيأ فشي
 أجبل
 ووالني منك يد المفضل
 فهي لي
 من حسنات الزمن المقبل



ما اغتدى
 طرفي إلا بسنا ناظرينك
 وكذا
 في الحب ما بي ليس يخفى عليك
 وكذا
 أنشد والقلب رهين لذك

THE

قيل في قرطبة:

وأين يعدل عن أرجاء قرطبة
من شاء يظفر بالدنيا وبالدين؟
قطر فسيح ونهر ما به كدرٌ
جفت بشطيه ألفاف البساتين
يا ليت لي عمر نوحٍ في اقامتها
وأن مالي فيها كنز قارون
كلاهما كنت أفنيه على نشوات
الراح نهياً ووصل الحُور والعَيْن
وإنما أسفي اني أهيم بها
وأن حظي منها حظ مغبون
أرى بعيني ما لا تستطيل يدي
له، وقد حازه من قَدْرُهُ دوني
وأنكد الناس عيشاً من تكون له
نفس المملوك وحالات المساكين

وقيل أيضاً:

بأربعٍ فاقت الأمصار قرطبةً
منهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة
والعلم أعظم شيءٍ وهو رابعها

لم يدخر عبد الرحمن جهداً ولا مالاً من أجل جعل هذا المسجد تحفة فنية ، يفوق في عظمته ايأ من مساجد الأندلس . غير أن عبد الرحمن توفي قبل استكمال بنائه ، فأتى ذلك الجزء منه ابنه هشام ، ثم اضاف اليه عبد الرحمن بن الحكم أجزاء أخرى في الناحية الجنوبية عام 833/218 . وقام محمد بن عبد الرحمن بتجديده وبانشاء مقصورة فيه . ثم عمل ولده عبدالله بن محمد على انشاء ممر مسقوف يصل بين الجامع وقصر الامارة .

وأسهى في انشاء هذا الجامع كذلك عبد الرحمن الناصر فجدد واجهته واقام في عام 951/340 منارة جديدة له ، مكان المنارة التي أنشأها الأمير هشام بن عبد الرحمن ، فأصبحت تعرف بمنارة الناصر وكانت مربعة الشكل يرقى اليها الصاعد على سلم ويهبط من سلم آخر ، وجعل في قمته ثلاث كرات ضخمة اثنتان من الذهب ، والأخرى من الفضة ، كانت تبهر الأنظار عندما تقع عليها أشعة الشمس .

ثم أحدث ولده الحكم المستنصر في المسجد بعض التحسينات والزيادات المهمة كالمحراب الثالث الذي جاء قمة في الفن والابداع ، يقف امامه الانسان مشدوهاً لجمال زخرفته ، وبديع نقوشه ، حيث تكسوه زخارف فسيفسائية ارسل بها قيصر القسطنطينية هدية الى الحكم وارسل معها الفنانين الذين قاموا بتركيبها حسب الرسوم العربية . وتعلو المحراب قبة رائعة الجمال ، وخلفه مقصورة لاستراحة الامراء والخلفاء .

وكان آخر من اسهم في بناء هذا المسجد العظيم الحاجب المنصور وذلك عام 987/377 ، فأصبح الجامع يمتد شرقاً مما جعل مساحته تزيد بنحو الثلث ، وأصبح عدد سواريه الفأ وأربعمائة وسبع عشرة سارية وثرياته مائتين وثمانين .

وقد لعب هذا الجامع ، كما رأينا ، دوراً مهماً جداً في الحياة الدينية والادارية والعلمية في قرطبة والاندلس عموماً ، ذلك انه بالاضافة الى دوره الاصلي كمسجد

قرطبة ثكلى ، حزينه .

قرطبة ، حاضرة الدولة العربية في الأندلس لأكثر من خمسة قرون ، ظلت قابعة في مسجدها منذ انهيار الخلافة تبكي أولادها من غير دموع . فقد جف دمعا منذ قرون ، وان لم تحف دموع زائريها من المسلمين عند دخولهم المسجد .

قرطبة المتألقة ، حاملة مشعل الحضارة ، لم تبتسم مرة واحدة منذ سقوطها في يد النصارى عام 1236/636 .

قرطبة الحية النابضة بالحركة كخلية النحل ، المترامية الأطراف ، التي كان يسكنها أيام الحكم العربي أكثر من نصف مليون نسمة ، يخيم عليها سكون المقابر ، وقد تقلص حجمها فأصبحت بمثابة قرية كبيرة ، لا يزيد عدد سكانها عن ربع ما كان عليه أيام العرب .

قرطبة ينحصر جمالها في الحي الذي حافظ على طابعه العربي ، الحي العربي الذي يحيط بالمسجد . وأول ما يسأل عنه الزائر هو المسجد (La Mezquita) .

والفضل في بناء هذا المسجد الجامع يرجع الى عبد الرحمن الداخل الذي أمر ببنائه عام 786/170 في مكان الكنيسة القوطية ، التي يقال انه دفع ثمنها مائة الف دينار لأصحابها النصارى . ومن الواضح أنه استعان في بنائه بعرفاء (مهندسين) وبنائين سوريين ، لما في طابع هذا المسجد الجامع من تأثير سوري ، اذ انه يشبه في بعض نواحيه المسجد الأموي في دمشق والمسجد الأقصى في القدس .

جامع ، فقد كان منبره يستخدم في تلاوة القرارات والمراسيم الادارية ، وفيه تؤخذ البيعة للحاكم ، كما أصبح بمثابة الجامعة الأولى في الأندلس ، تخرج فيها عدد من عباقرة الآداب والعلوم والفقه .

وقد تعرض مسجد قرطبة الى قدر كبير من التشويه ، عندما أقامت الكنيسة الكاثوليكية ، في عدد من أركانه ، هياكل نصرانية عديدة ، ورفعت على الكثير من جدرانه صلباناً وتمائيل ، جاءت متنافرة مع طرازه العربي الاسلامي ، لدرجة ان العديد من المؤرخين الاسبان اعربوا عن اشمئزازهم وسخطهم لما صنعتته يد التعصب المقيت الذي مارسه رجال الكنيسة ، ذلك التعصب الذي أعماهم عن أهمية الحفاظ على أعظم الآثار الفنية التي عرفها بلدهم . حتى ان شارلكان ، الذي أذن اصلاً باقامة هيكل رئيسي داخل الجامع ، غضب عندما شاهد ذلك التشويه والتجني ، وقال ساخطاً للمسؤولين عن اقامة الهيكل : « لقد بنيت هنا ما كان يمكن بناؤه في أي مكان آخر ، وقضيت بذلك على ما كان أثراً فريداً من نوعه في العالم » . وكان للجامع عدة أبواب رائعة الزخرف لم يبق منها سوى ثلاثة ، وله فناء جميل مليء بأشجار النارج .

كان بجوار الجامع قصر روماني قديم اتخذته الولاة مقراً لهم ، وعمل امراء بني امية على توسيعه وتحسينه ، فجعلوا منه قصراً على جانب من الفخامة والجمال ، وجروا اليه المياه واقاموا في جنباته البرك والنوافير ، و اضافوا اليه اجنحة وقصوراً أخرى . إلا أنها تعرضت للحرائق أكثر من مرة بعد سقوط قرطبة في يد الاسبان ولم يبق منها ما يدل على انها كانت قائمة في يوم من الأيام .

وكان عبد الرحمن الداخل قد بنى قصراً على النمط السوري ، في ضواحي قرطبة اسماه قصر الرصافة ، تيمنا بقصر اجداده في دمشق ، تحيط به حدائق غناء ، جلب لها ، من دمشق وغيرها ، أشجاراً غريبة عن الأندلس ، كالنخيل والرمان ، وغير ذلك من أشجار الفاكهة والثمار ، وقال عند استكمال بناء القصر وقد حن الى بلده الأصلي :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة
تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى
وطول التناهي عن بني وعن أهلي
نشأت بأرض انت فيها غريبة
فمثلك في الإقصاء والمتأى مثلي
سقاك غواذي المزن من صوبها الذي
يسحّ ويستمرى السماكين بالوبل

مدينة الزهراء

ومن المعالم الرائعة التي اندثرت تماماً ، وظلت مطمورة تحت طبقات التراب ، حتى مطلع القرن الحالي ، مدينة الزهراء التي أمر ببنائها أول الخلفاء الأمويين في الأندلس ، عبد الرحمن الناصر ، لتكون الحاضرة الجديدة للخلافة ، بعد ان ضاقت قرطبة بسكانها ، كما ذكرنا ونحن نعرض لسيرة هذا الخليفة . ويستدل بما أورده المؤرخون ، ومن الآثار التي تم الكشف عنها حتى الآن ، ان هذه المدينة ، ولاسيما قصر الخليفة الخاص الذي اسماه بالمؤنس ، كانا على قدر مذهل من الجمال والابداع .

وما دامت العدسة لا تستطيع العودة بنا الى هذه المدينة قبل ان تندثر ، فلا بد لنا من تخيلها من خلال وصف المؤرخين لها ، ومن خلال صور آثارها التي بدأت تتكشف ، كما أوردنا ، منذ وقت سابق من هذا القرن .

يقول المؤرخون ، في وصف الجهود البشرية التي بذلت في انشاء هذه المدينة ، ان عدد الذين اسهموا في أعمال الانشاء بلغ عشرة آلاف ، بين مهندس (عريف) وبناء ونجار وعامل ، واستمر العمل في بناء الزهراء مدة أربعين سنة . وقيل ان عدد سوارى الرخام التي استخدمت في إنشاء المدينة بلغ 4313 سارية جيء بعدد منها من كل من افريقيا وروما والقسطنطينية ، وان عدد ابواب المدينة بلغ 1500 باب .

وقد بدأ العمل أولاً في بناء قصر الخلافة ، الذي انشئ فيه جناحان ، شرقي للنوم ، به حوض رخامي اخضر

وبحيرات للأسماك، وتحيط بها أسود مذهبة، تنفث الماء من أفواهها.

وكانت مدينة الزهراء تضم الى جانب القصر جامعاً كبيراً، ومباني للحاشية، ودوراً للحكومة، وأسواقاً وحمامات ومساكن عامة، شجع الخليفة الناس على ابتنائها، بأن عرض دفع مبلغ معين لكل من يبني بيتاً هناك، فأصبحت مدينة عامرة متصلة بقرطبة.

غير ان هذه المدينة العظيمة تعرضت للهدم والدمار والسلب، عقب سقوط الخلافة، على يد البربر، فنهبت أعمدتها ومعادنها وزخارفها. واستخدمت حجارتها في مبان أخرى، كما أن الاسبان اعادوا استخدام احجارها في بناء الكنائس، وفي ترميم اسوار قرطبة، وبالتالي، فمهما نشطت الجهود الخثينة التي تبذل الآن للكشف عن اطلالها ومحاولة اعادة بنائها، فإنها لن تفلح، مع الأسف، في اعطاء ادنى فكرة عما كانت عليه هذه المدينة العظيمة.

مدينة الزاهرة

بدأ الحاجب المنصور في بناء مدينة الزاهرة عام 979/368 اثباتاً لسلطانه ونفوذه، بعد ان اصبح الحاكم الفعلي، والملك غير المتوج للدولة العربية في الأندلس.

ويرى البعض، انه بالإضافة الى ذلك، فقد أصبح يخشى التردد على مقر الدولة في مدينة الزهراء، حيث كان يقيم الخليفة الرمز، كما ذكرنا في عرضنا لسيرتها فيما تقدم، بعد أن زاد عدد خصومه في قصر الخلافة واشتدت اواصر التحالف بينهم. وبعد عامين من بدء أعمال البناء، انتقل الحاجب المنصور اليها بعد ان اقام حولها الاسوار وابتنى فيها جامعاً وغير ذلك من المرافق اللازمة، ونقل اليها دواوين الحكومة. فاجتذبت الكثير من أهل الزهراء، الذين انتقلوا الى المدينة الجديدة، أما لعلاقتهم بالدولة، أو للتقرب من الحاكم الفعلي. وكانت حدود الزاهرة متصلة تقريباً بحدود قرطبة، فانتقلت اليها الحياة التي كانت تزخر بها مدينة الزهراء، من استقبالات واحتفالات

اللون جيء به من اليونان، وأقيم حوله اثنا عشر تمثالاً نحاسياً مرصعاً بالدرر النفيسة، تمثل أسداً وغزالاً وتمساحاً وثعباناً وعقاباً وفيلًا وحمامة وشاهيناً وطاووساً وديكاً وحدأة ونسراً، تنفث جميعها الماء من أفواهها.

أما الجناح الآخر، الغربي، أو مجلس الذهب، فهو المجلس الذي كان يستقبل الخليفة فيه الزائرين والعظماء، وكان يضج بالترف والفخامة. وكانت جدرانه الرخامية تزينها تربيعات ذهبية وفضية، وفي وسطه حوض مذهب جاءه هدية من صاحب القسطنطينية، كان يملؤه بالزئبق، وكان، حسب وصف المقرّي «في كل جانب من المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والابنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر، قامت على سواري من الرخام الملون والبلور الصافي. وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه، فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار. وكان الناصر إذا أراد أن يفرع أحداً من أهل مجلسه أو ما إلى أحد صقالبته، فيحرك ذلك الزئبق، فيظهر في ذلك المجلس، لمعان البرق من النور، ويأخذ بمجامع القلوب، حتى يخيل لكل من في المجلس أن المحل قد طار بهم ما دام الزئبق يتحرك».

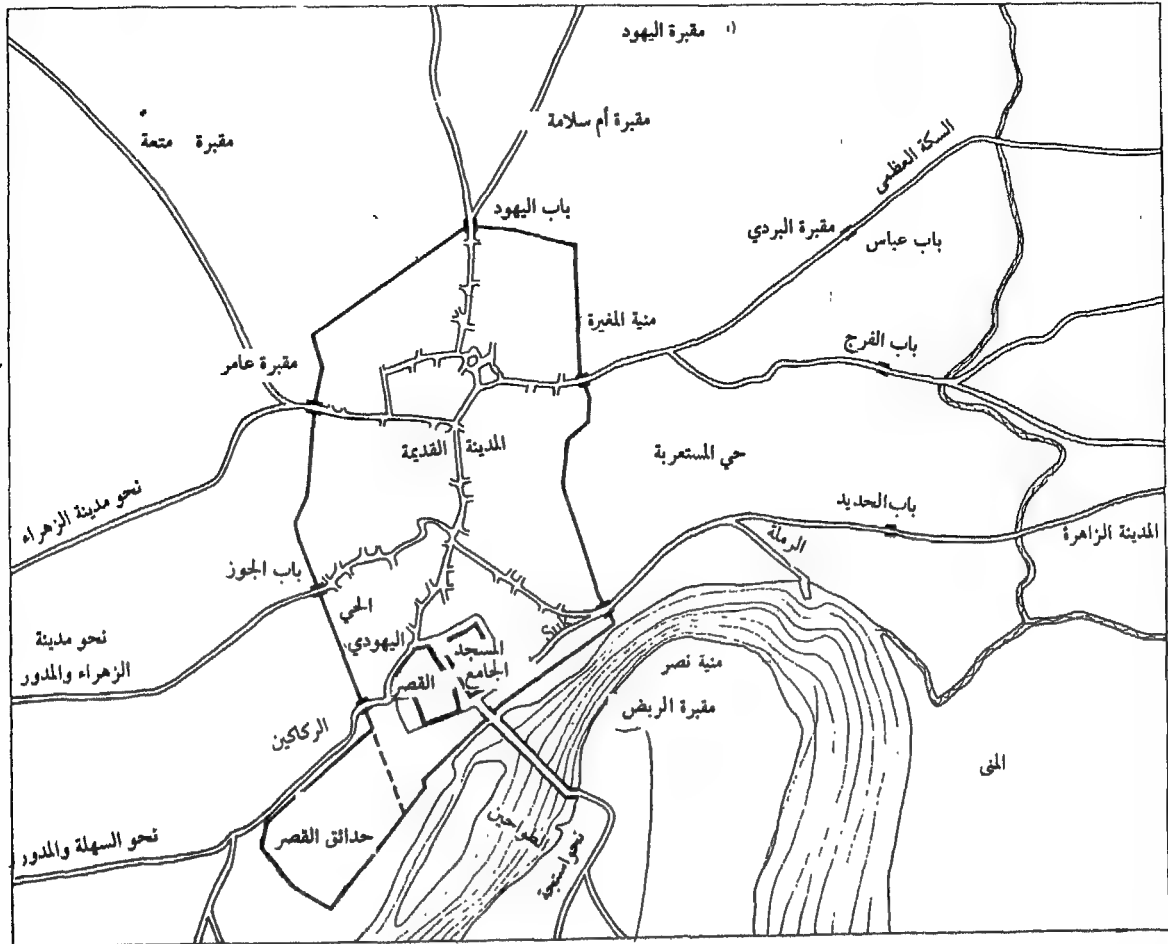
وكان بين هذين المجلسين بهو كبير، يستخدم في المناسبات المهمة، كمبايعة الخلفاء، واستقبال السفراء في مراسم على جانب من العظمة والأبهة. وقد قال المقرّي في وصف القصر «وما دخل إليه قط أحد من سائر البلاد النائية، والنحل المختلفة، من ملك وارد، ورسول وافد، وتاجر جهيد، وفي هذه الطبقات من الناس تكون المعرفة والفطنة، إلا وكلهم قطع أنه لم ير له شهماً، بل لم يسمع به بل لم يتوهم كون مثله...».

وقد استرسل المؤرخون في وصف حدائق القصر فقالوا إنها كانت آية في الجمال والذوق السليم احتوت حيوانات مختلفة كالجمال والفهود والسباع والفيلة والزراف والطيور الجارحة والداجنة، وتتوسطها برك للسباحة

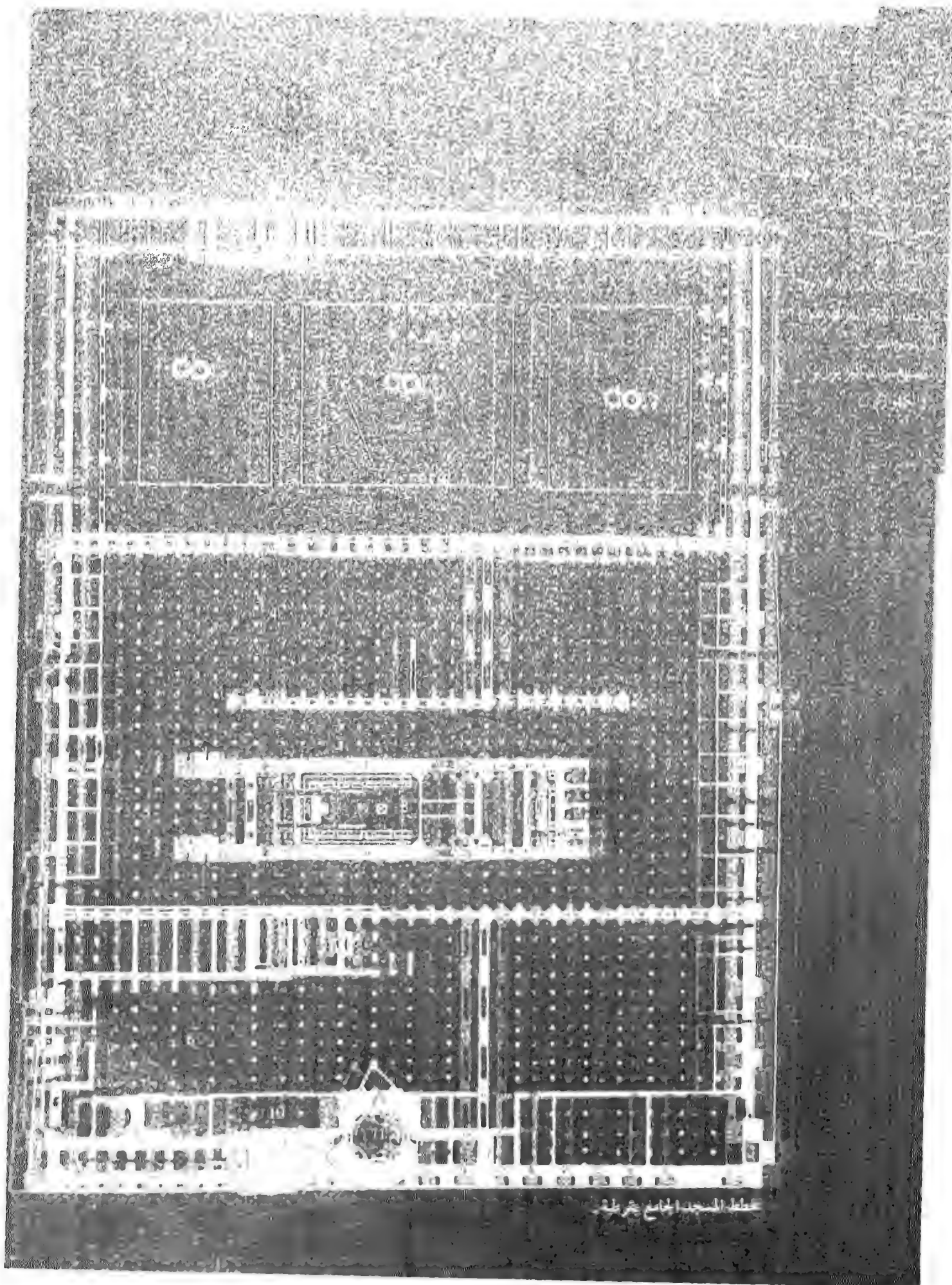
رسمية ، كان مسرحها قصور الحاجب المنصور الرحبة التي اتسمت هي الأخرى بالفخامة والعظمة .

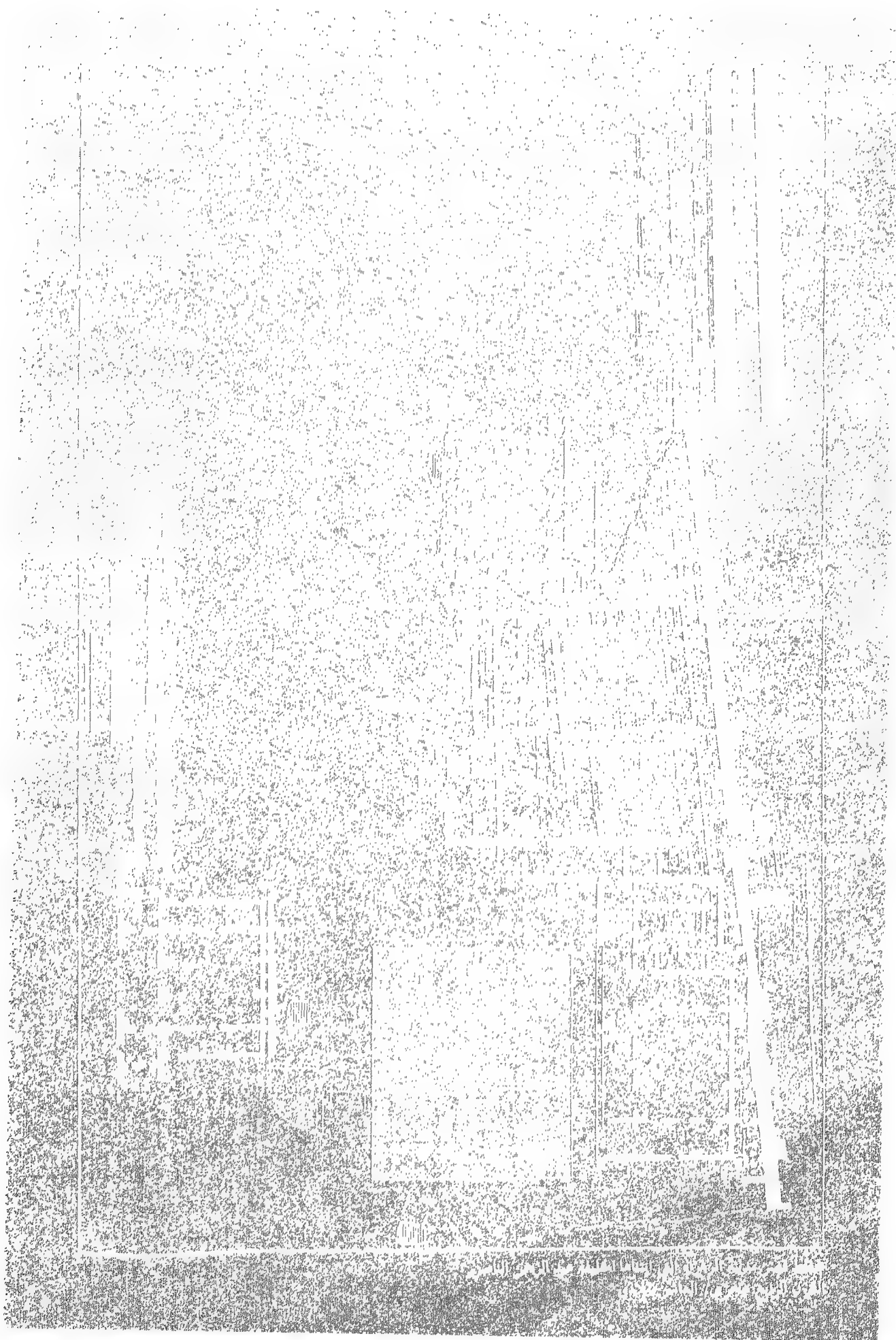
غير أن عمر هذه المدينة لم يزد عن ثلاثين عاماً . فبعد ان غاب عنها الحاجب المنصور ، جاء في منصب الحجابة ابنه عبد الملك ، الذي مات بعد ذلك بسبع سنوات ، فخلفه أخوه شنجول ، الذي استصدر من الخليفة الرمز براءة بتعيينه ولياً لعهد الخلافة ، مما أثار الامويين ، بقيادة محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، الذي أودى به كما ذكرنا ، بعد أن استولى على مدينة الزاهرة أثناء غياب شنجول عنها ، فأعمل فيها الهدم والنهب ، حتى طمس معالمها عن بكرة أبيها ، ولم يبق من آثارها ما يشير الى انها كانت تقوم على وجه الأرض في يوم من الأيام .

وفيا عدا القنطرة العربية ، التي بناها الرومان اصلاً ، وأصلحها العرب ، والتي تقطع النهر بالقرب من المسجد الجامع ، وبعض من أسوار المدينة ، لا يجد المرء الكثير من آثار العرب العظيمة التي خلفوها في هذه المدينة . حتى الحي القديم فيها تقلص وأحاطت به مبان حديثة ، أودت بطابع قرطبة الاندلسي ، وقصرته على بضع طرق وبيوت تحيط بالمسجد الجامع ، تعود الى العهد العربي وتحفظ بطابعها القديم الجميل ، بلونها الأبيض ومداخلها النظيفة ، التي يمكن للزائر ان يرى في وسط كل بيت من بيوتها فناء يشتعل بألوان الزهور التي تغطي جدرانها وتظلل نوافيره وتملؤه شذى يبعث في النفس أحاسيس عجيبة يختلط فيها الاعتزاز بالحسرة .



خطط قرطبة في القرن الرابع هجري / العاشر ميلادي .

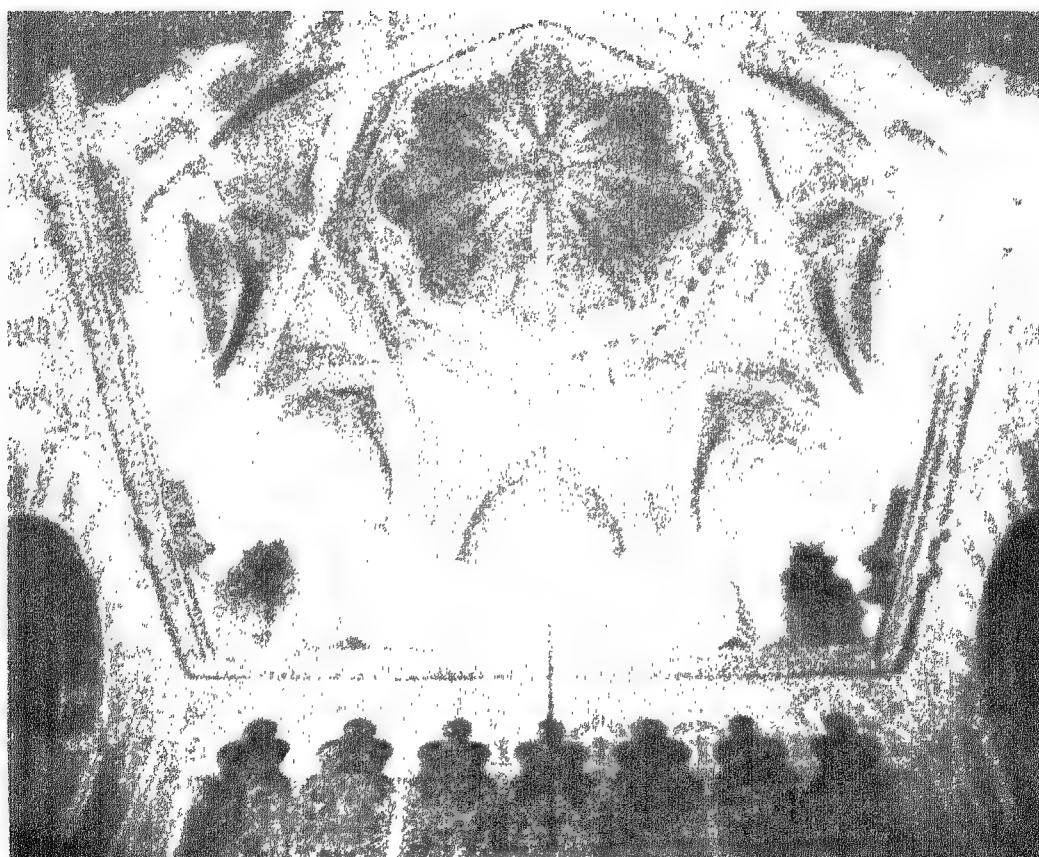


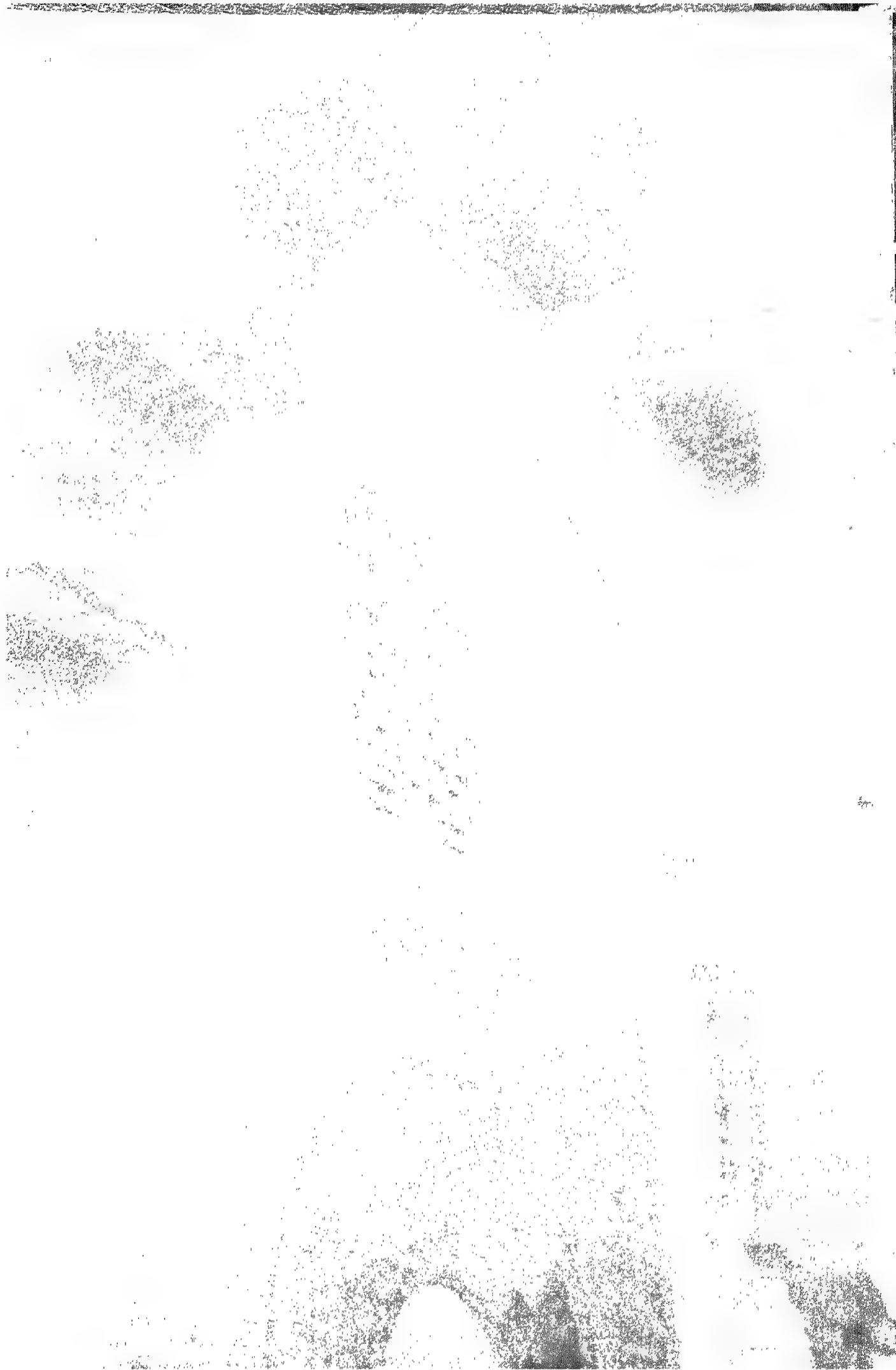


وأين قرطبة دار العلوم فكم
من عالم قد سما فيها لها شأن

أقرطبة الغراء هل لي أوبة
إليك، وهل يدنو لنا ذلك العهد
سقى الجانب الغربي منك غمامة
وقعع في ساحات دوحتك الرعد
لياليك أسمار، وأرضك روضة
وتربك في استنساقتها عنبرٌ ورد







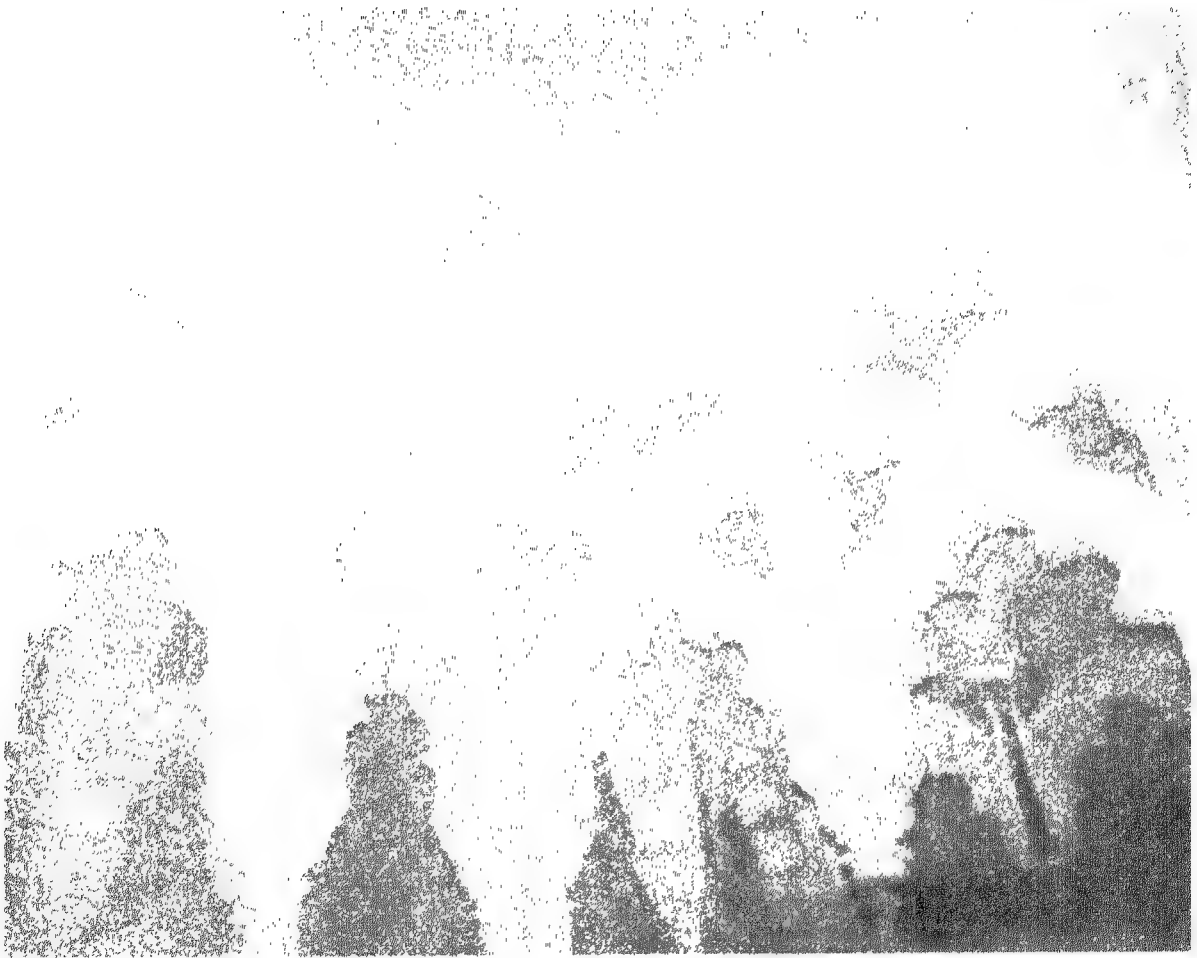
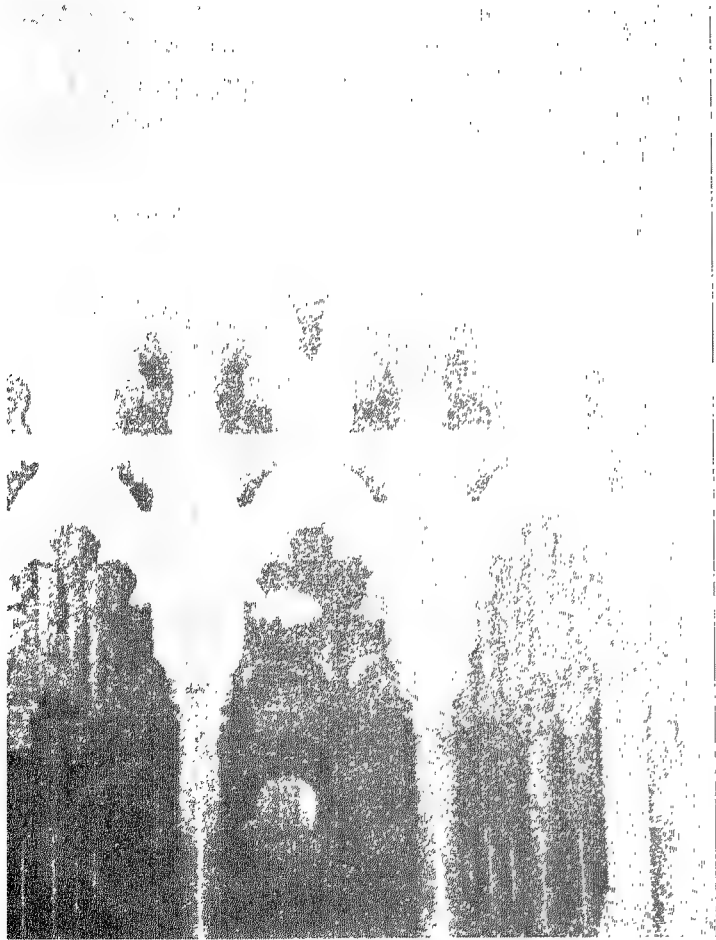


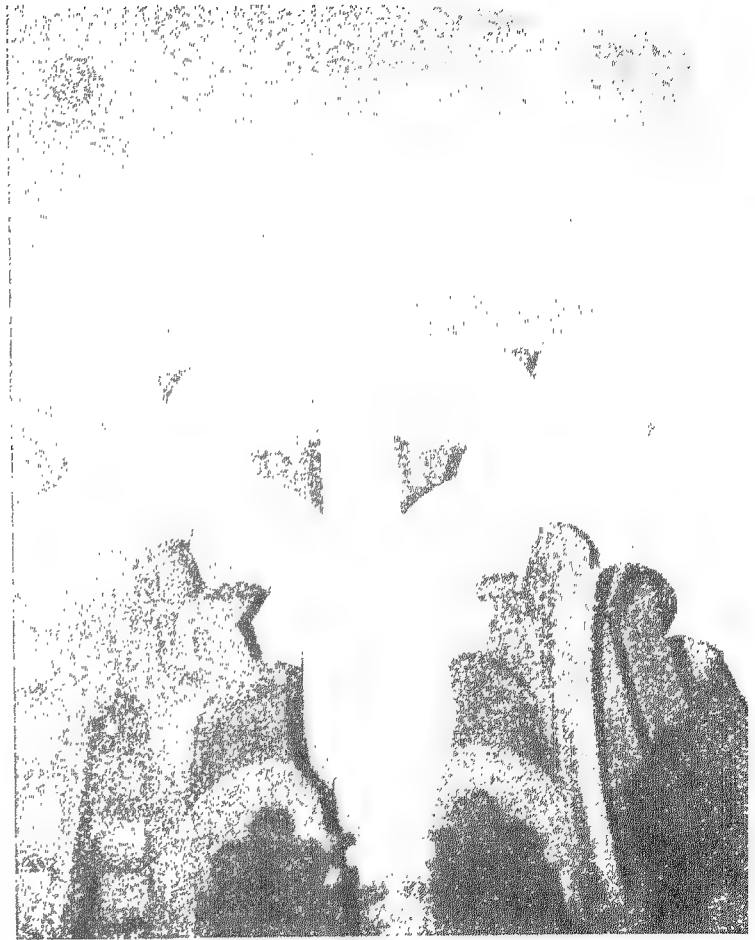
Fig. 1. A. 1970. 1970.



Fig. 2. A. 1970. 1970.



الرواق المؤدى إلى المصراة .

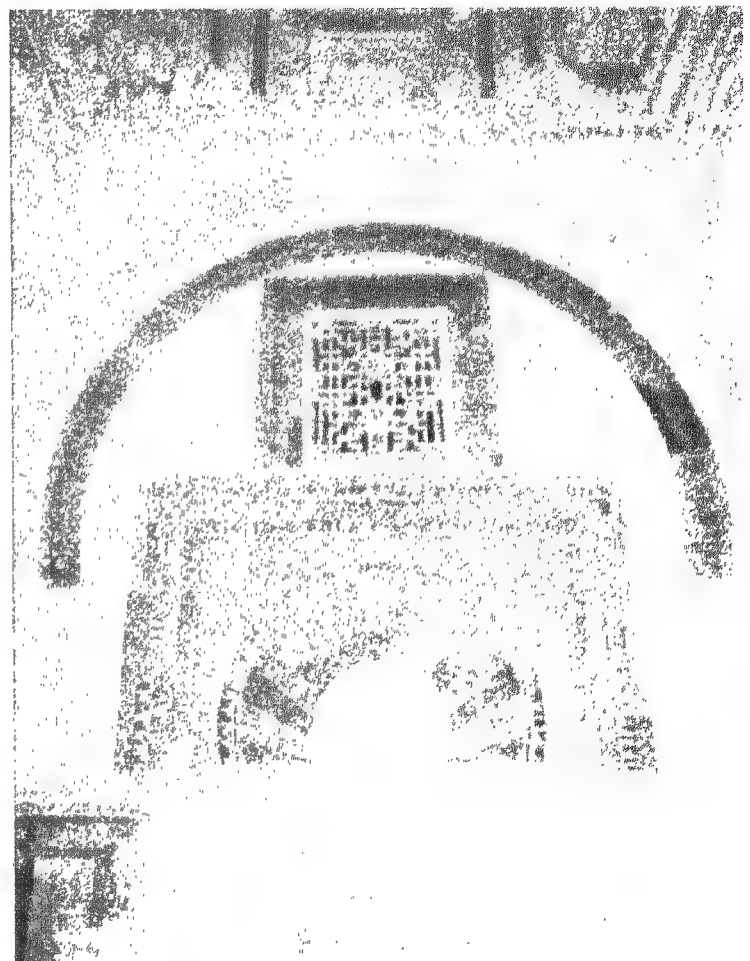


الرواق المؤدى إلى المصراة .

عنقود .



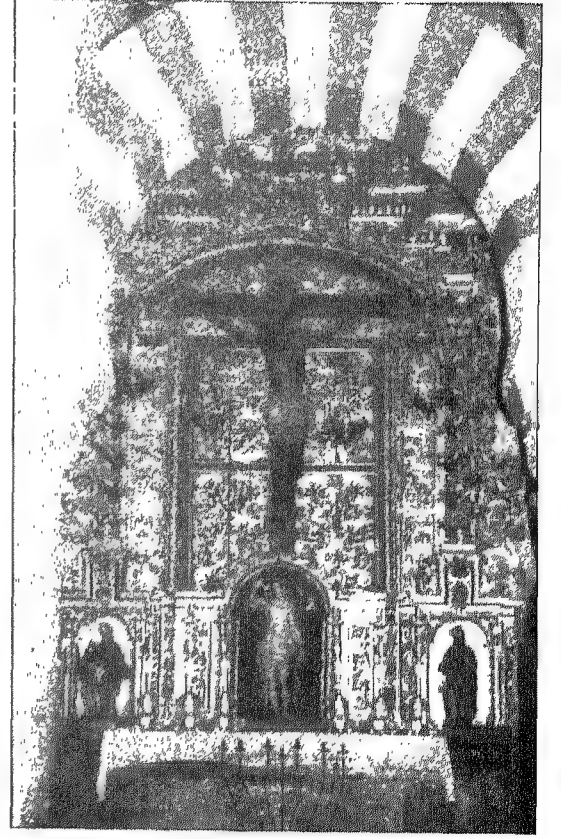
الرواق المؤدى إلى المصراة .





نسلها خرب الصليب وفادها
 وكانت شروداً لا يتاد نفورها
 فباد بها الإسلام حتى نطعت
 مناسيها واستاصل الحق زورها
 وأصبحت الصليبان قد عسدت ما
 تماثلها دود الاله وصورها

مدائن حلتها الإشرار مبيتها
 جذلان، وارتمل الإيمان مبيتها
 وسيرتها العوادي العائشات بها
 يسوحنش الطرقت منها ضعفت ما أنسا
 يا للمساجد عادت للعدا بيعا
 وللنداء غدا أثناءها جرسا
 لمني عليها إلى استرجاع فائتها
 مدارس للمتاني أصبحت دُرساً



مذبح الكنيسة في قلب الجامع.

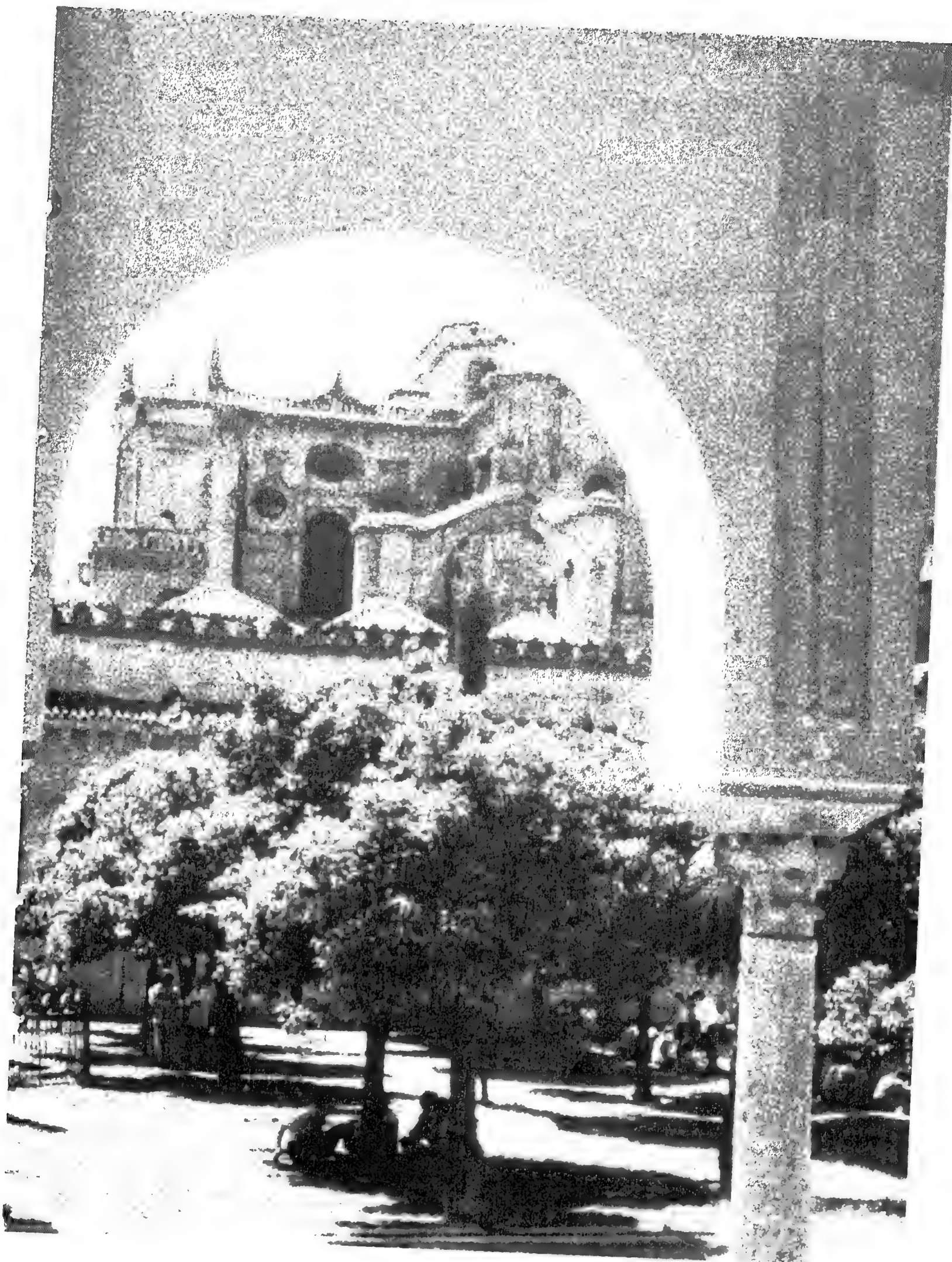
صور القديسين تحيط بالعقد المؤدي إلى المحراب.

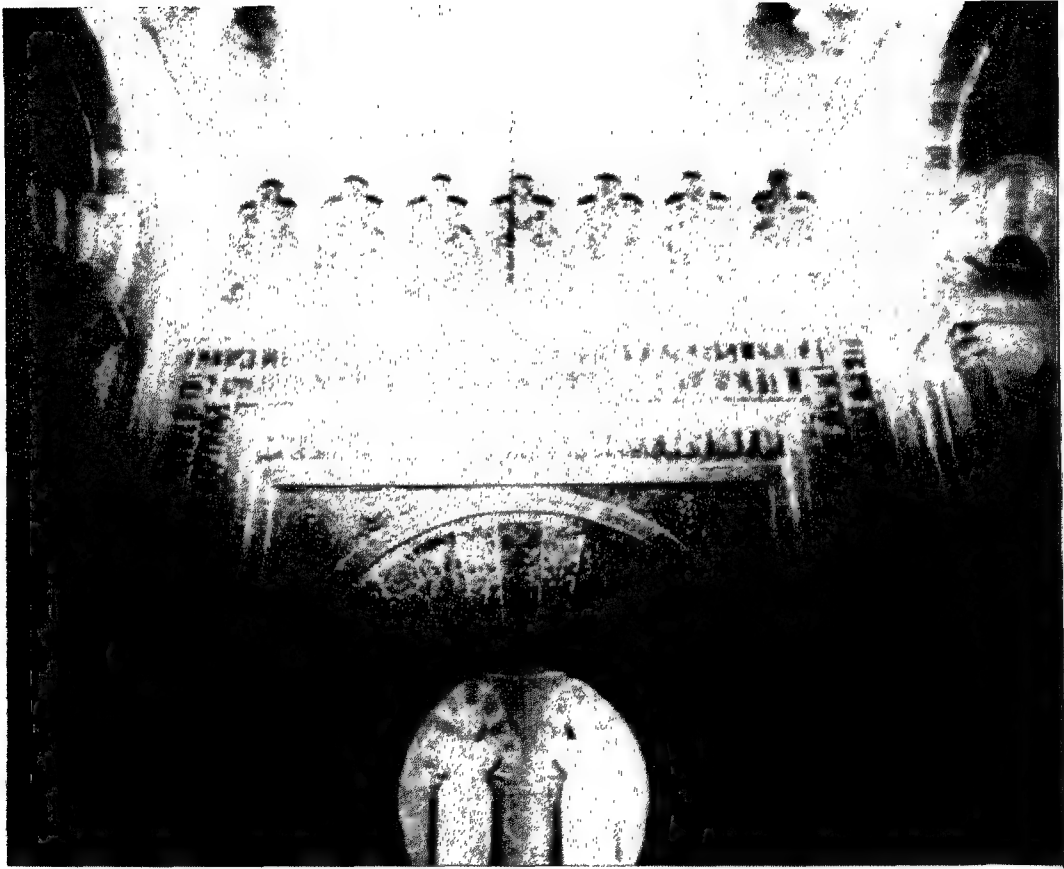


منزله جامع قرطبة
 بعد ترميمها
 وتحويلها إلى جراسية

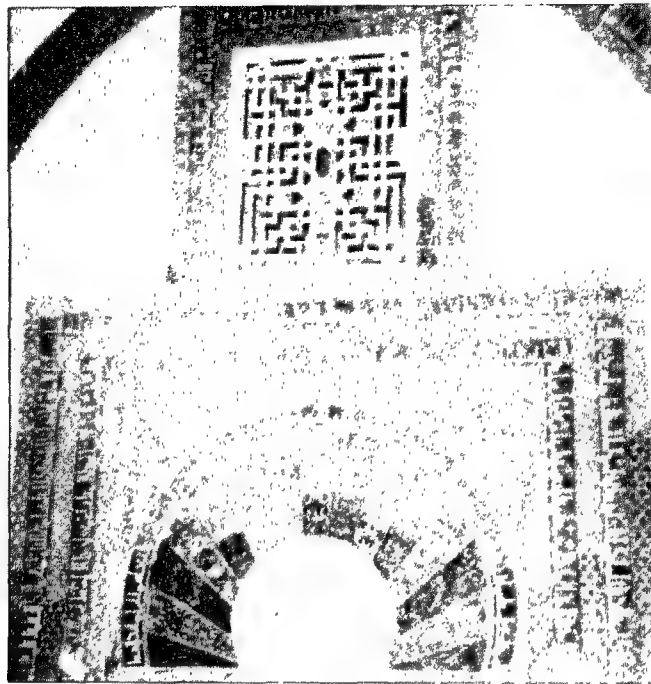


٧
المنارة في جامع الممثلة وثناء النارج





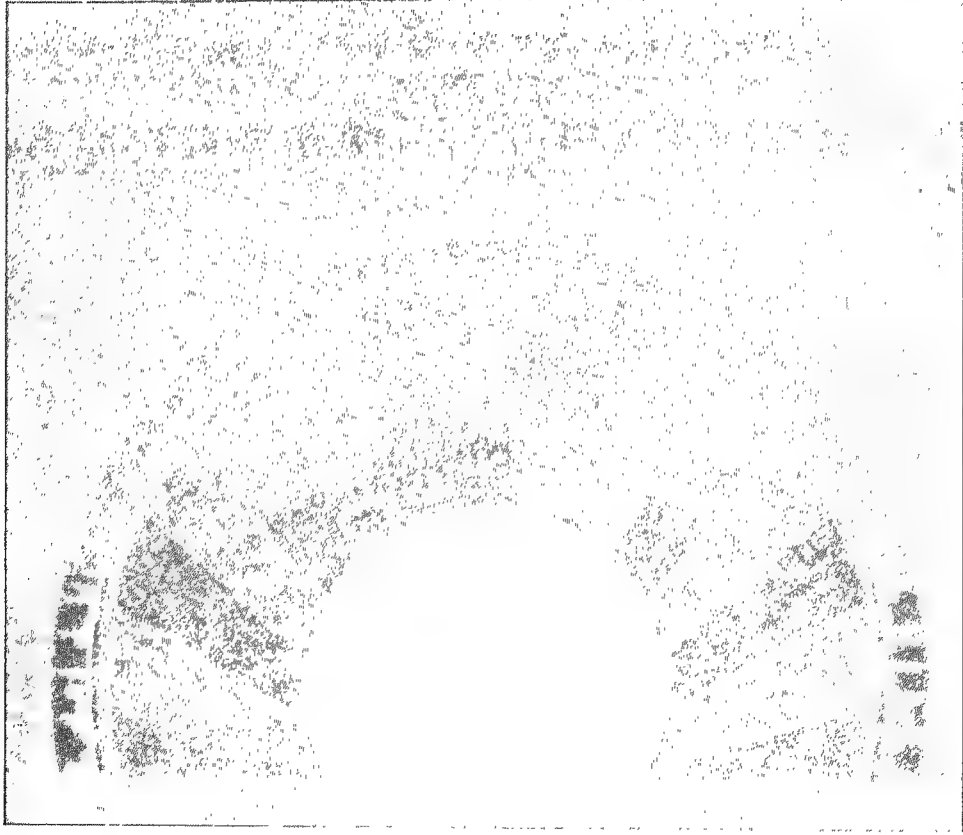
المحراب .



المحراب .

فواحسرتنا كم من مسجد حولت وكان إلى البيت الحرام شطورها
محراها يشكو لمنبرها الجوى وآياتها تشكو الفراق وسورها



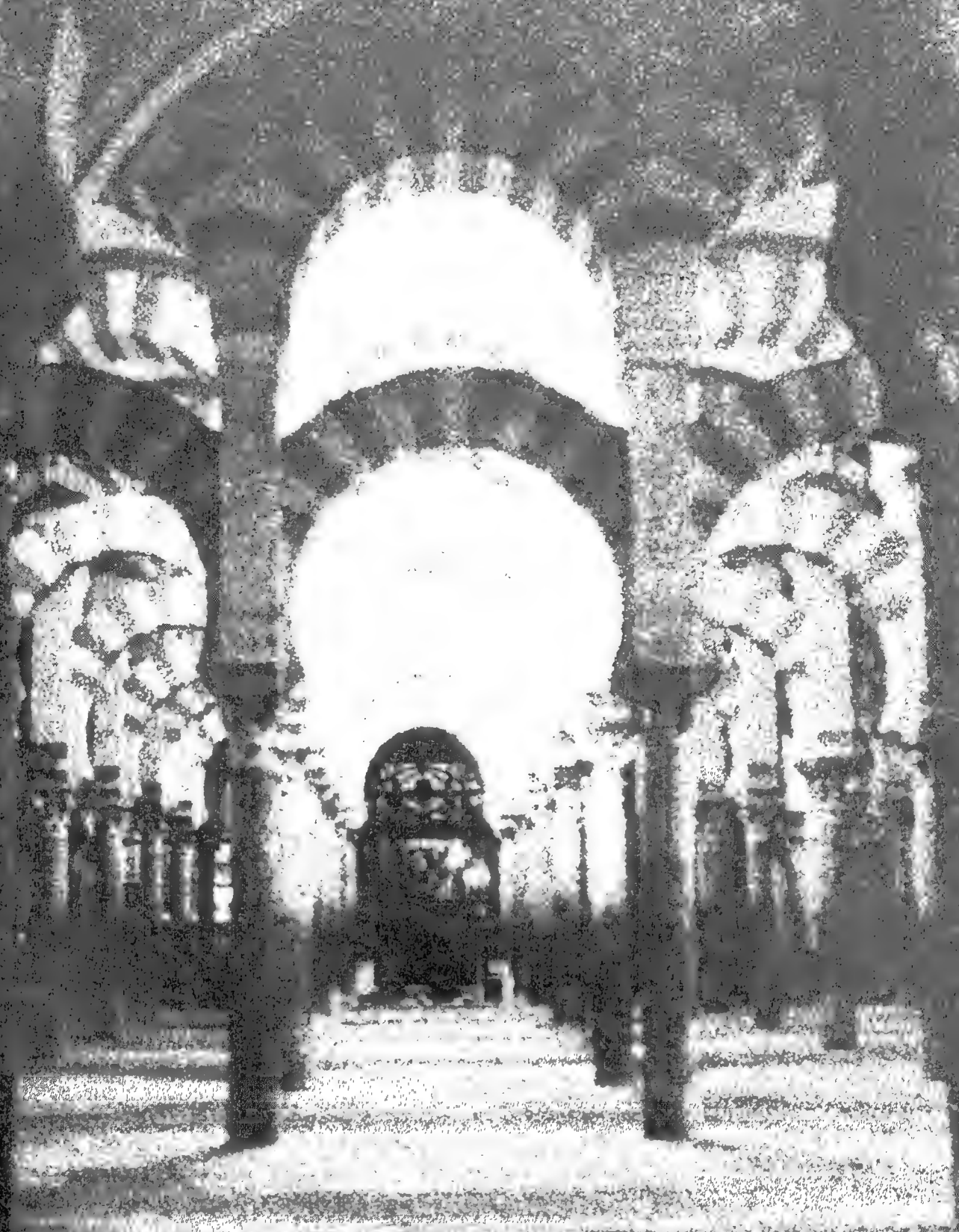


فسيفساء المحراب، هدية من الامبراطور البيزنطي.

غابة أعمدة في قلب الجامع

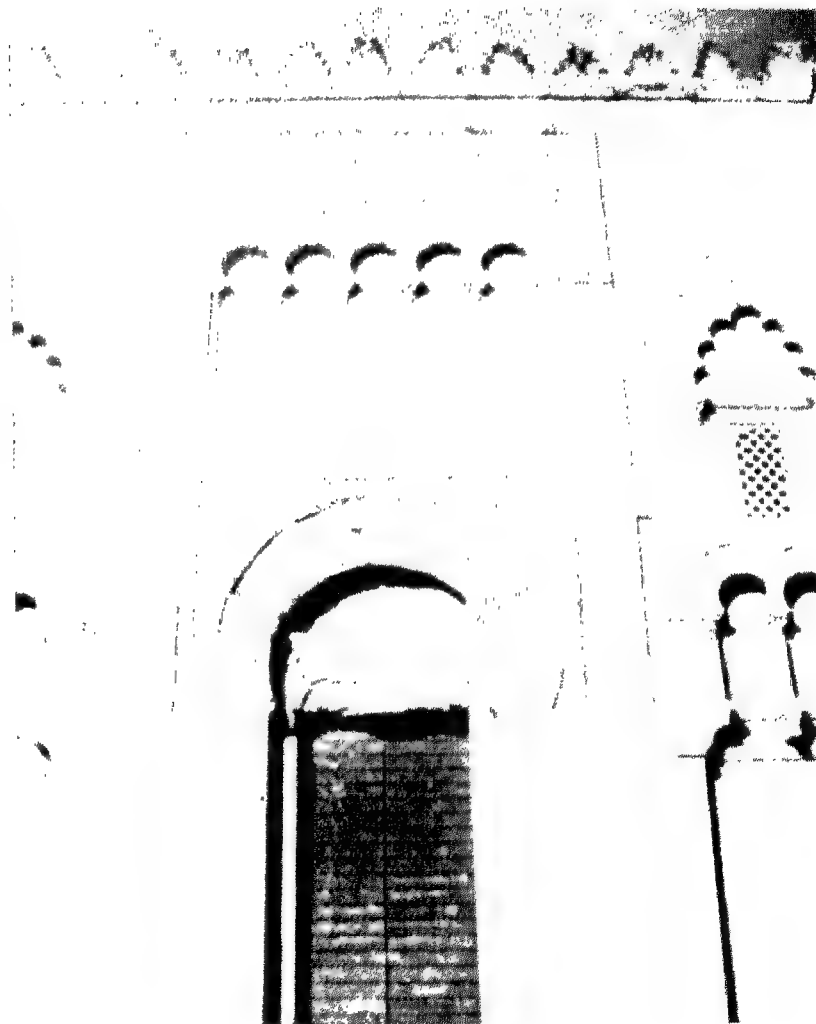






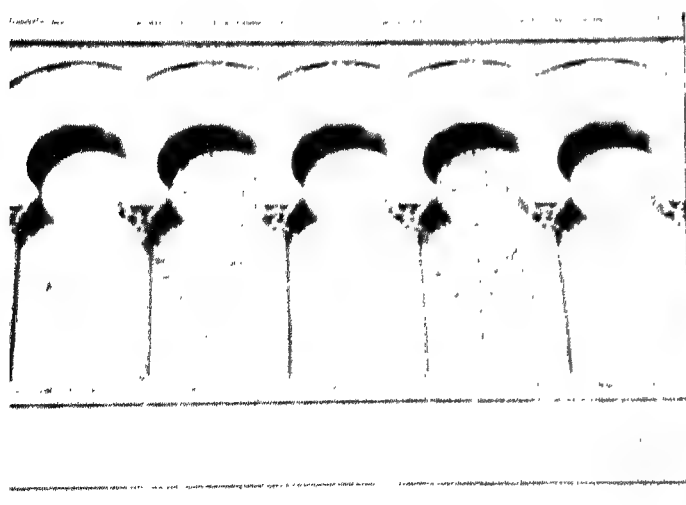


نقوش تعلو أحد مداخل الجامع

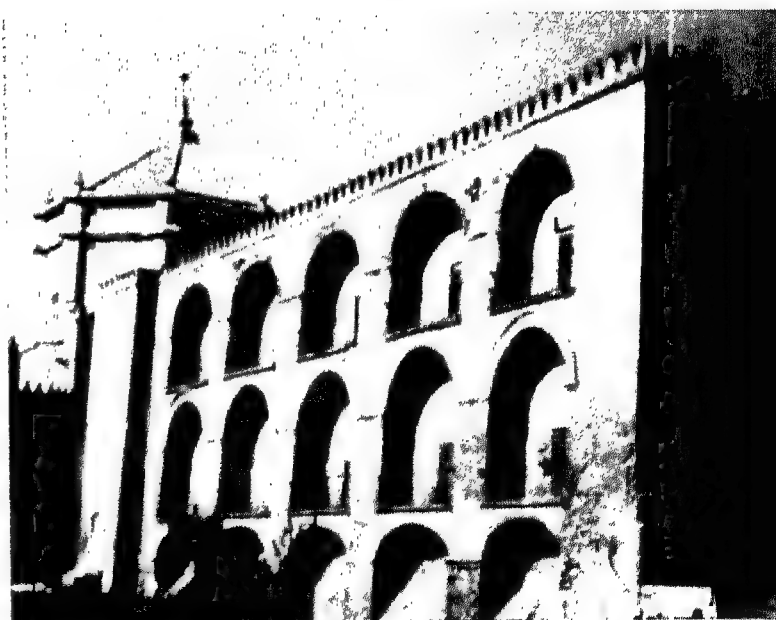


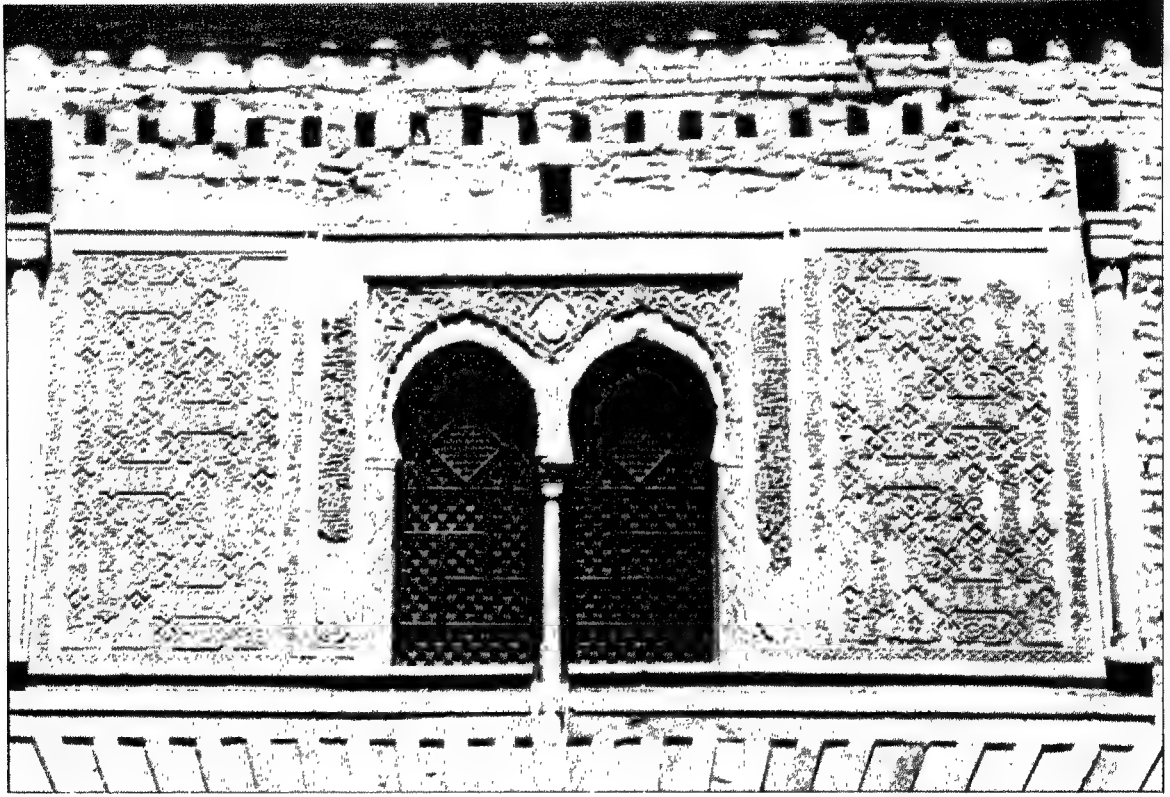
أحد مداخل الجامع .

جدران الجامع
الخارجية .



نقوش تعلو أحد مداخل الجامع .





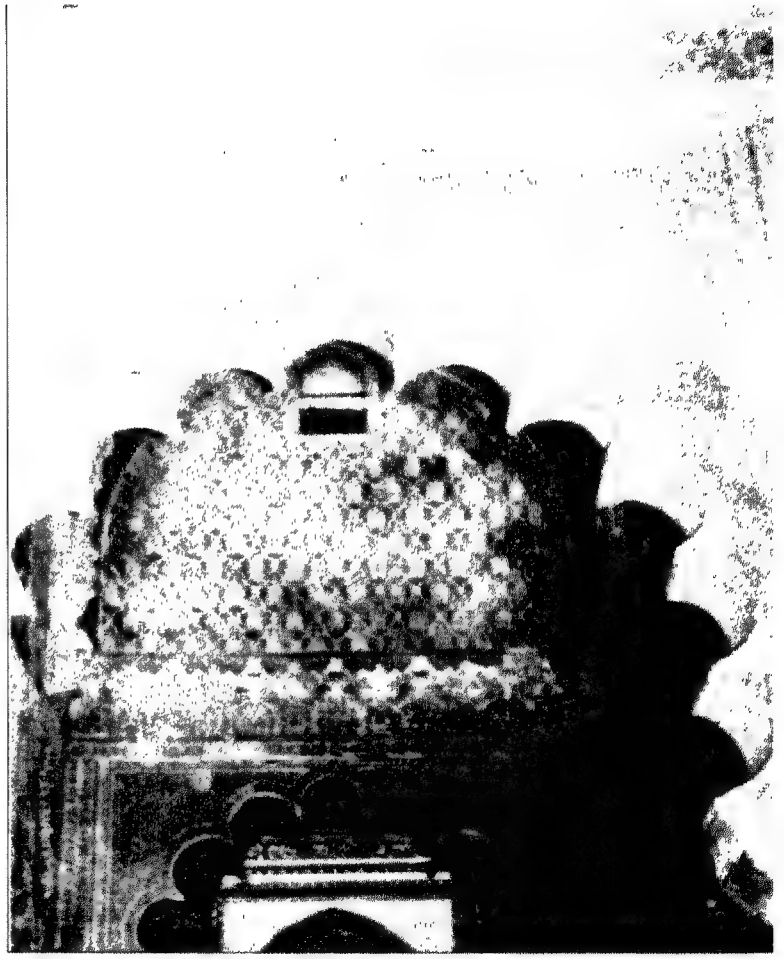
نقوش تعلو أحد مداخل الجامع القديم .

عقود متشابكة في الجامع

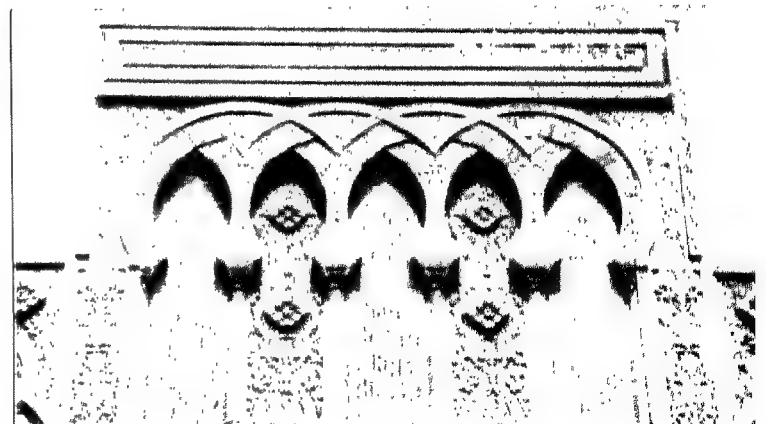
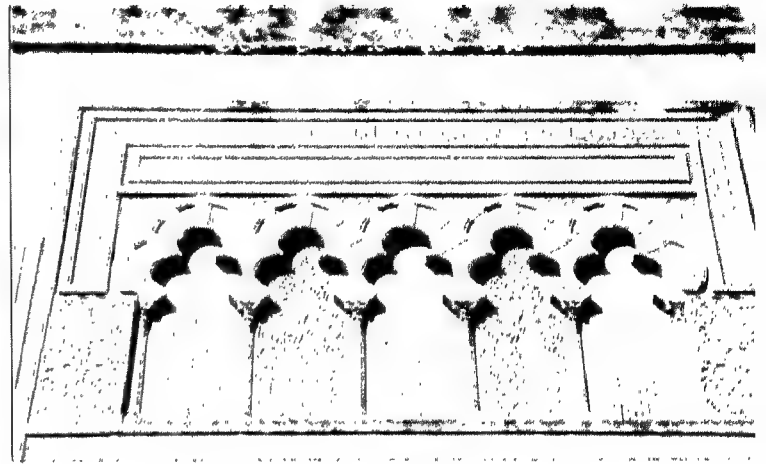




بوابات الجامع .

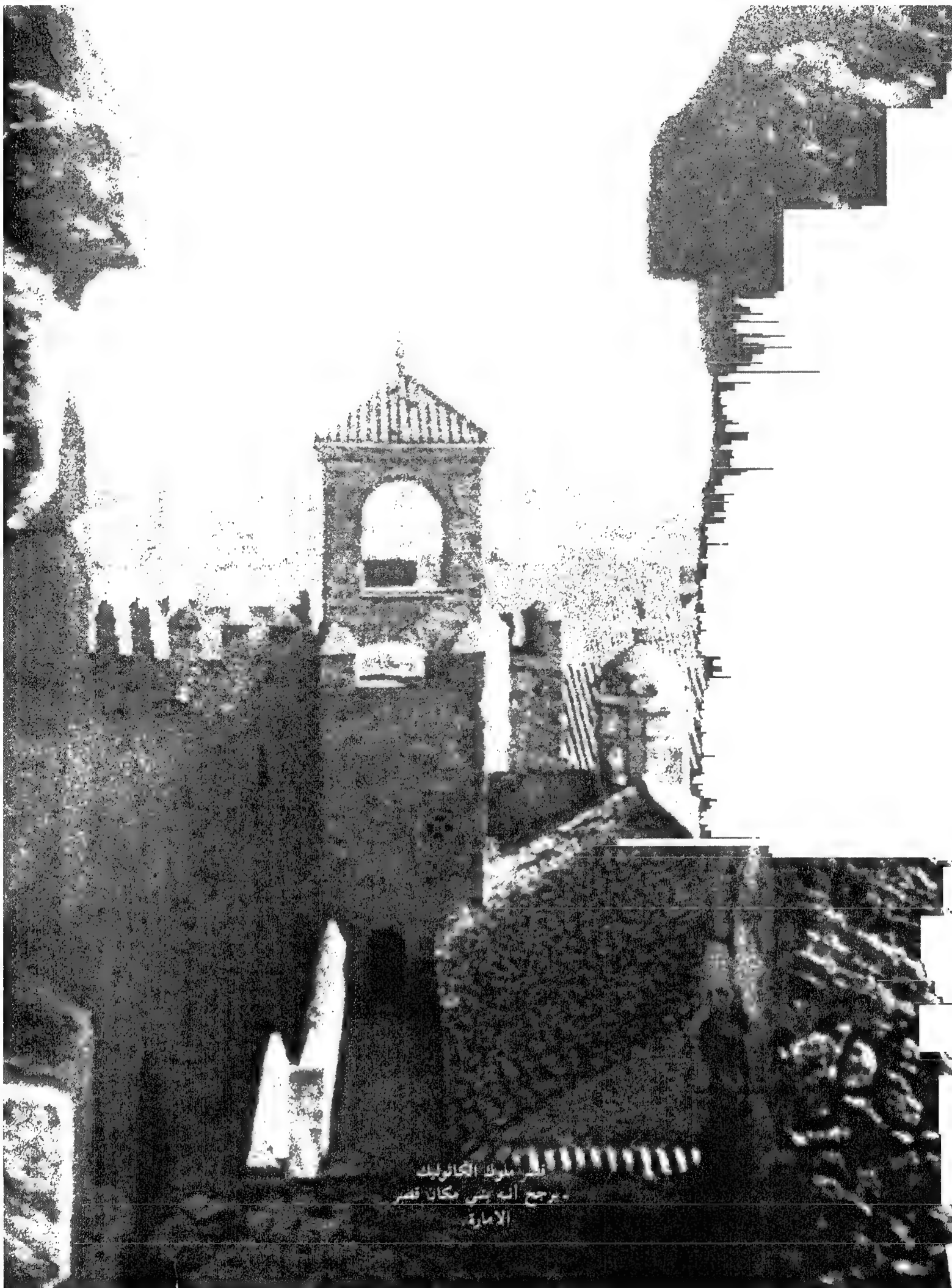


منصة في أحد أجنحة الجامع .



7





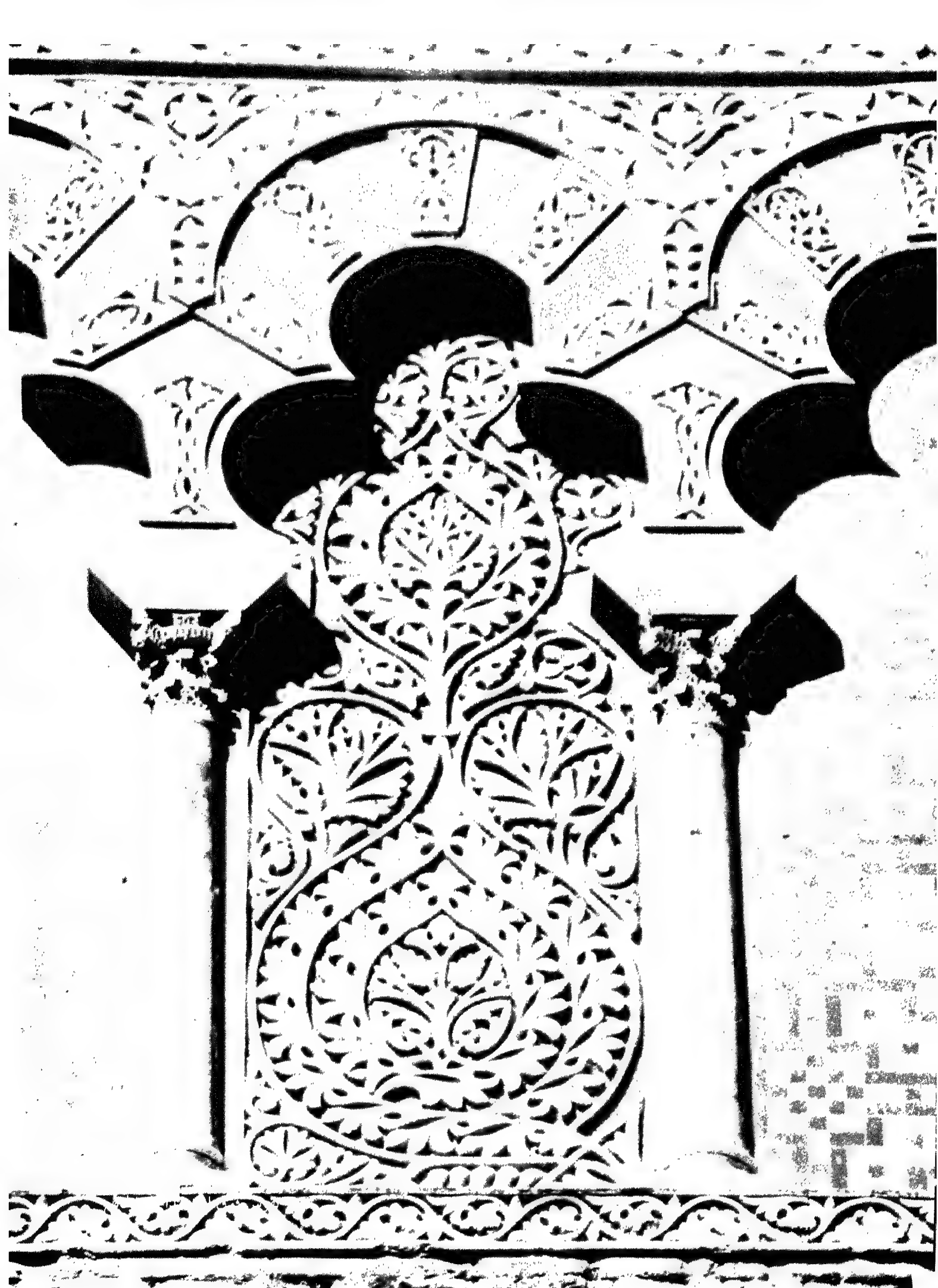
قصر ملوك الكاثوليك
يخرج منه بني مكان قصر
الامارة





باحة أندلسية





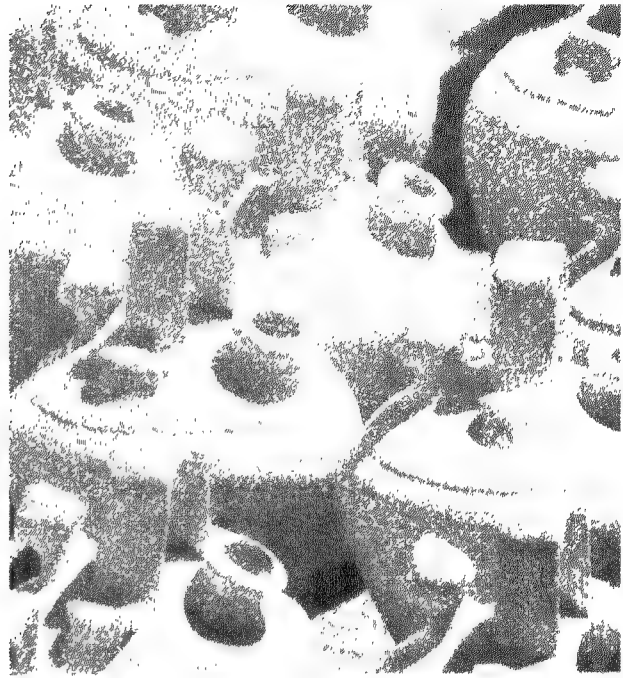


باخان اندلسیتان





أحد أزقة فوطية .

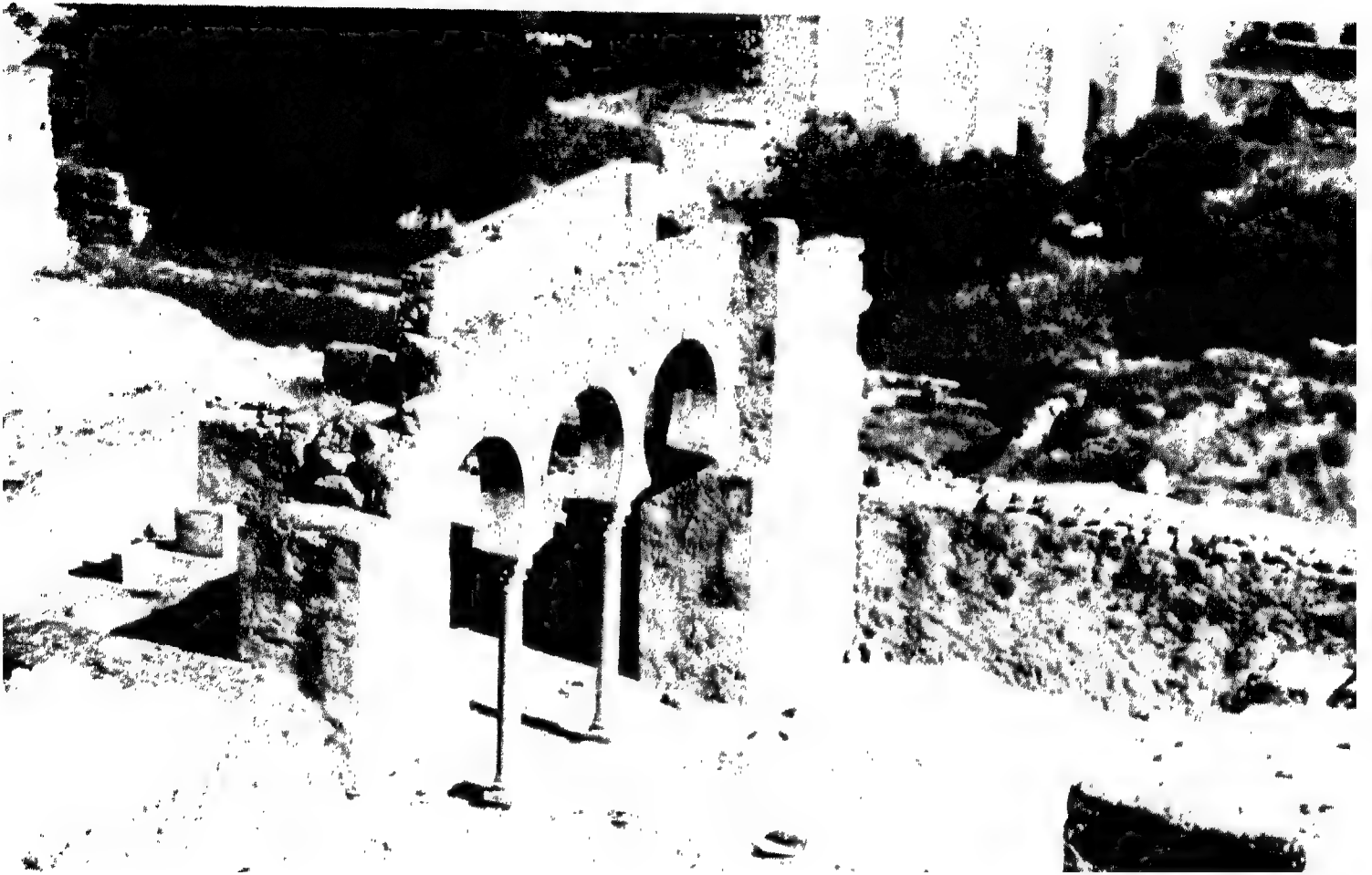


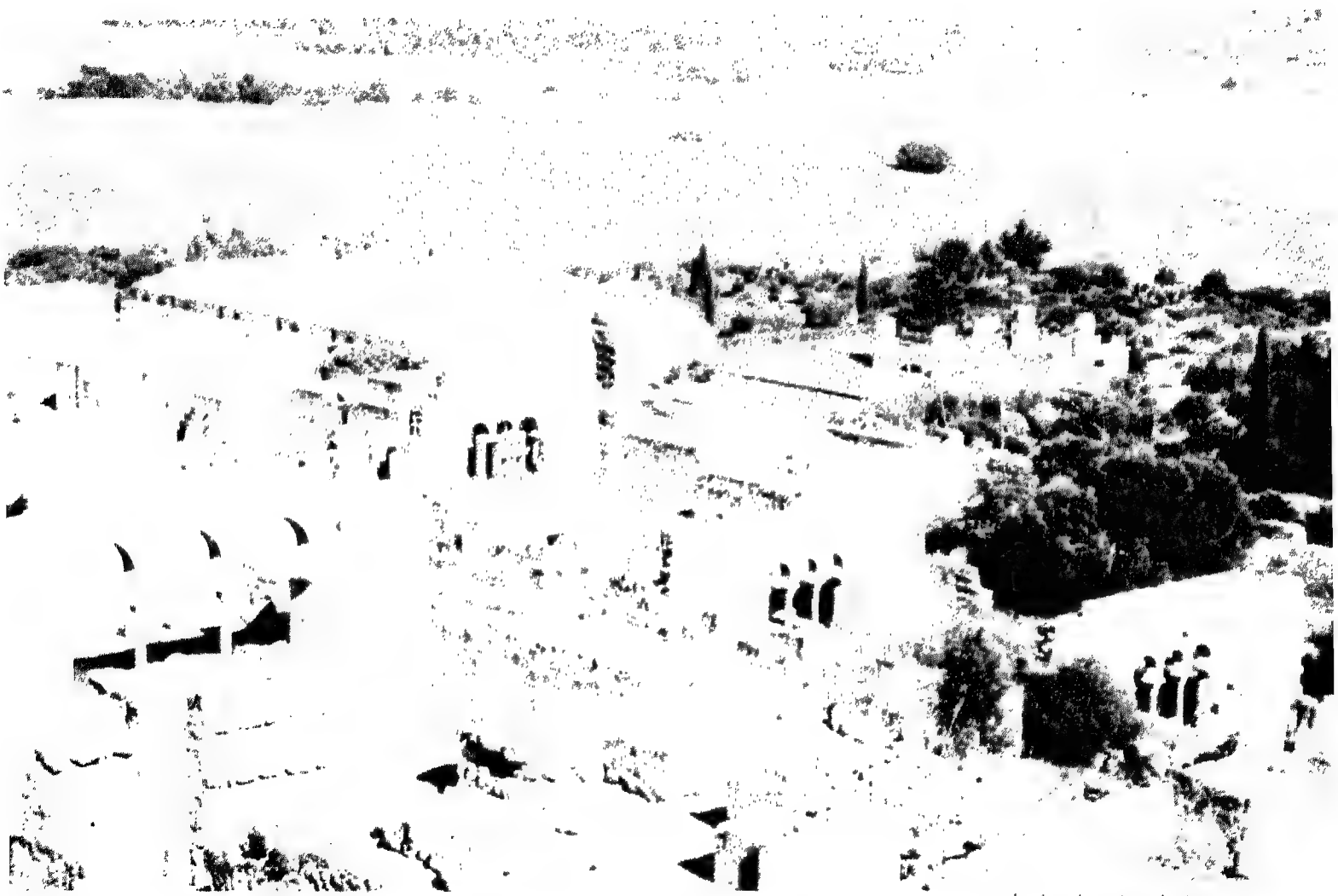
بعض الفيناسات العربية الياضية .



وفنتُ بالزهراء مُسْتَعْبِراً
مُتَعَبِراً أَتَدْبُ أَسْتَانَا
فقلتُ: يا زهراء، ألا فارجعي
قالت: وهل يرجع من ماتا؟
فلم ازلُ أبكي وأبكي بها
هيهات يُغني الدمعُ هيهاتنا!
كانما اثارُ من قد مضى
نوادبُ يَدْبُنْ أَمَوَاتَا

مدينة الزهراء . أحد مداخل القصر .





مدينة الزهراء يعاد بناؤها.



مدينة الزهراء : عقود القصر



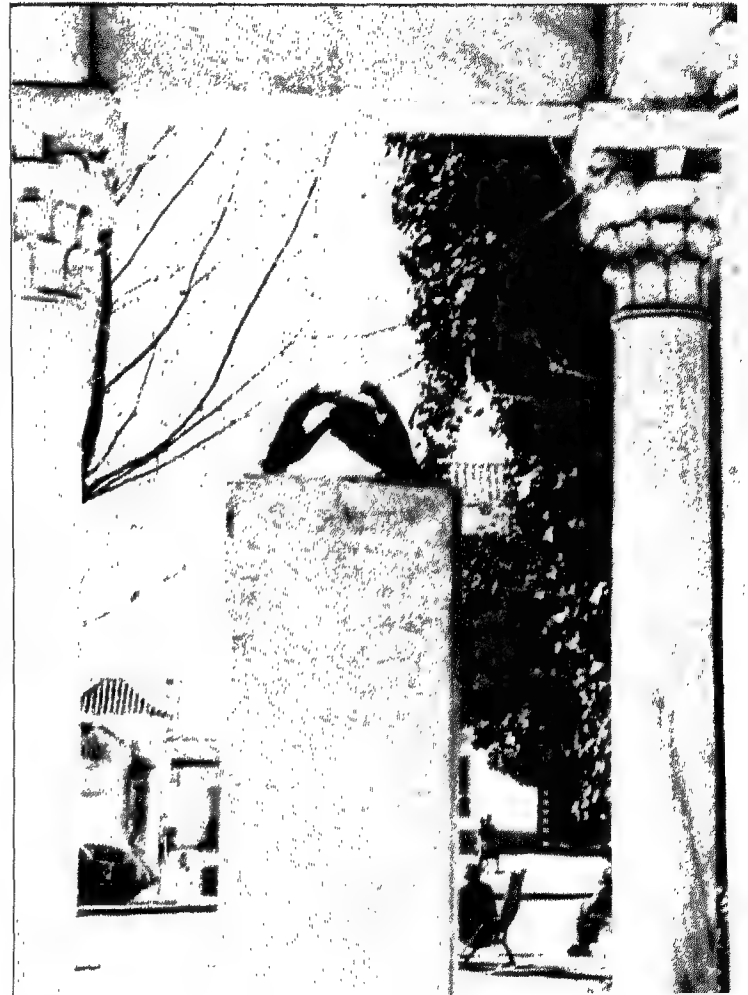
تمثال ميمونيدس في قرطبة



- تمثال ابن رشد في قرطبة



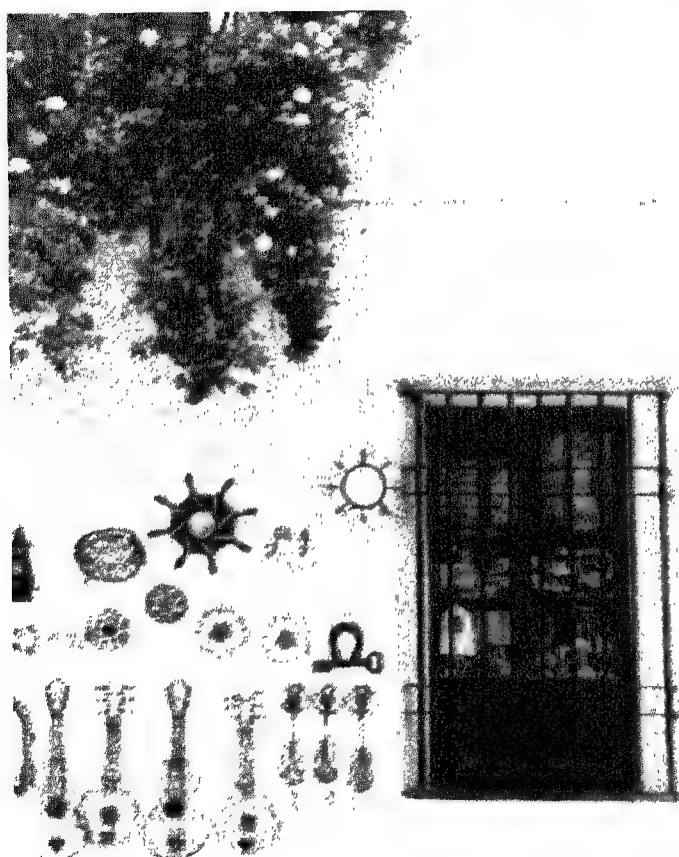
قرطبة - مدخل من سور المدينة



نصب يرمز إلى الصداقة العربية الاسبانية .



النهر من خلف اسوار قرطبة



مواد زينة مصنوعة من الحديد المطروق

الأول نظم الشعر ، حتى انهم كانوا يخاطبون بعضهم البعض الآخر شعراً ، ويتراسلون مع أعدائهم شعراً ، ويستنجدون بأهل المغرب قصيداً . وكان أشهر هؤلاء الملوك الشعراء ، المعتمد الذي حلق شعره ليصبح واحداً من أرق شعراء الأندلس على الإطلاق .

وقد تألفت اشبيلية في مجال الشعر والغناء في عهده ، كما لم يتألق بلد آخر ، حتى قيل عن هذا البلد أيام حكمه ، ان بلداً ما لم يطرب كما طربت اشبيلية أيام المعتمد . . . ولم يبك بلد كما بكت اشبيلية يوم بارحها المعتمد الى منفاه . وقد بلغت اشبيلية قمة مجدها آنذاك فأصبحت هي قرطبة أكثر بلدان أوروبا ازدهاراً .

غير أن اشبيلية لم تكن غارقة في المجون فقط . فقد أسهمت ، هي كذلك ، في العلوم والآداب والعمارة ، وان كانت قرطبة هي التي استقطبت معظم رجال الفكر والعلوم ، بوصفها حاضرة الدولة .

أما من ناحية العمارة ، فقد جاء عطاء اشبيلية متأخراً نوعاً ما ، باستثناء جامع عمر بن عبدس الذي أمر ببنائه عبد الرحمن الأوسط عام 830/214 ، وكان حينئذ من أعظم مساجد الأندلس وأفخمها . وقد اندثرت معالم هذا الجامع ، الذي أقام الاسبان في مكانه كنيسة السلفادور ، بعد استيلائهم على اشبيلية .

وكان الخليفة ابو يعقوب يوسف الموحي قد أقام في عام 1172/567 مسجداً آخر ناله ، على يد الاسبان ، ما نال سابقه ، فأقاموا مكانه الكتدرائية العظمى ، التي تعد ثاني كتدرائية في العالم ، من حيث السعة والفخامة ، بعد كنيسة القديس بطرس بروما ، مما يشير الى ما كانت عليه مساحة الجامع قبل هدمه . فقد أقام الاسبان كتدرايتهم على نفس مساحة الجامع ، بقصد طمس معالمه كلية . وقد استغرق بناؤها اربعة قرون ولحسن الحظ انهم ابقوا على برج الجامع العظيم الذي يعتبر اعظم برج أو مثذنة ابتناها العرب في تاريخهم .

وقد استغرق بناء الجامع الذي صممه المهندس احمد بن باسة نحو اربع سنوات ، ولم يتوقف العمل في بنائه لا صيفاً ولا شتاء ، وبلغت مساحته نفس مساحة

اشبيلية ارملة طروب ، كما اسمها أحد الكتاب ، بكت بعض الوقت ، ثم حنت الى قرع الدفوف ورنين الاوتار ، وسرعان ما تزينت لتستأنف لياليها الراقصة المرحية .

اشبيلية كانت أول عاصمة للدولة العربية في عهد الوالي عبد العزيز بن موسى بن نصير ، وآخر عاصمة للدولة العربية ، بعد ان عادت وحدة الأندلس ادارياً على يد المرابطين ثم الموحيين ، وخرجت من قبضة العرب نهائياً عام 1248/647 فسقطت بسقوطها الدولة العربية ، وانحسر الوجود العربي ، واقتصر على غرناطة .

واشبيلية كانت ، وما تزال ، اجمل بلدان اسبانيا واكثرها مرحاً وأظرفها سكاناً . ولعل سحر طبيعتها وخصال أهلها كانا من اهم العوامل التي جذبت اليها أهل الفن أيام العرب ، من شعراء ومغنين وموسيقيين وراقصين ، حتى قال عرب الأندلس في ذلك ، « اذا مات عالم في اشبيلية ، واريد بيع كتبه ، حملت الى قرطبة . واذا مات مغن في قرطبة وأريد بيع آلاته ، حملت الى اشبيلية » .

وفي الوقت الذي كانت تزخر فيه اروقة المسجد الجامع بقرطبة ، وأروقة المعاهد الدراسية الأخرى فيها بالعلماء والأدباء ، بين مدرّس ودارس ، وتخرج الى العالم عباقرة العلوم والفلسفة والفقه والأدب ، كانت اشبيلية ترقص على أنغام الوتر ونقر الدفوف ، وتتأوه على اصدااء القصيد والموشح ، وخاصة أيام بني عباد ، الذين كان همّ ملوكهم

جامع قرطبة تقريباً، وجاء غاية في الابداع والجلال. وقد اسهب المؤرخون في وصف روائعه وعظمته، فقالوا ان ما وضع في أساساته تحت الأرض يفوق ما برز من بنائه فوقها، ولعل هذا ما يفسر وقوف البرج، الذي اسماه الاسبان لاختير الدا (La Giralda) (أي الدوارة)، ورغم الزلزال القوي الذي اتى على معظم اشبيلية عام 1504.

ويقول المؤرخون انه استخدم في بناء الجامع الحجر والجبس والأخشاب المطعمة بالعاج والصندل والابنوس وصفائح الفضة والذهب، وان منبره اتسم بغرابة الشكل وعظمة الصنعة، وانه كانت تصل بينه وبين القصر قنطرة يعبر السلطان فوقها للوصول الى الجامع. أما مثذنة هذا الجامع العظيم فقد ابقاها الاسبان، كما ذكرنا، و اضافوا اليها برجاً للأجراس، تعلوه دوارة تشير الى اتجاه الريح وهذا هو السبب الذي جعل الاسبان يطلقون عليه هذا الاسم. ويبلغ ارتفاع المثذنة، أي ذلك الجزء الاسلامي منها 96 متراً، وتتكون من سبعة طوابق، يصعد الفارس على حصانه الى اعلاها، ذلك انه اقيم، بدلاً من الادراج، ممر لولبي منحدر برفق يستعمل في الصعود والهبوط، وتفتح في كل طابق منه شرفات عربية جميلة، تطل على جميع انحاء البلد. وكانت في مكان برج الأجراس، ايام العرب ثلاث تفافيح كبيرة مكسوة بالذهب يخترقها عمود من الحديد مثبت في قمة المثذنة، وتعلوها تفاعحة رابعة اقل حجماً. وقد استخدم في صنع هذه التفافيح سبعة آلاف مثقال من الذهب، وركبت في احتفال مهيب في عام 1198، وهي مغطاة بكسوة من القماش للحفاظ عليها عند رفعها الى قمة المثذنة. فلما كشفت عنها هذه الكسوة، والتقت أشعة الشمس بالذهب الصقيل انطلق وهج يأخذ بالالباب، كان يشاهد من مسيرة يومين.

وعلى مقربة من الجامع يقع القصر، تحفة اشبيلية الخالدة، بناه ملوك الاسبان، في موقع القصر القديم، واستخدموا في بنائه المهندسين والبنائين والعمال المسلمين العرب المدجنين، الذين بقوا في اشبيلية، في ظل الحكم الاسباني، بتشجيع من الاسبان للاستفادة من مهاراتهم.

وقد بنوا هذا القصر للملك أعدائهم على الطراز العربي الأصل المطعم بلمسات قوطية، فجاء آية من الفن، نم عما في نفس الصانع العربي من شفافية واناقة ذوق وبديع خيال. ولا يسع المرء، وهو يشاهد بدائع الصنعة العربية الخلاقة في هذا القصر (Alcazar) إلا أن يشعر بالآلم العميق، وهو يتصور كيف اضطر ذلك الصانع ان يصنع لعدوه ما كان يصنعه للملكه وابناء جلدته، وان ينقش على جدران قصوره آيات قرآنية وعبارات تمجد ملوك أعدائه، وتدعو لهم بدوام عزهم وملكهم، بعد أن هدم هؤلاء مقدساته وقوضوا صروح اجداده وشتتوا اهله وبنيه.

وتتمثل اللمسة القوطية في تصميم هذا القصر الفريد، في تدبب الأقواس التي تستند على أعمدة عربية دقيقة جداً جاءت تجسماً للرشاقة المعمارية التي اتصف بها الفن المعماري العربي. وتندلى من هذه الأقواس زخارف رائعة من الجص تضيء على هذه الأقواس حركة وحياة، وتوحي بأنها طرحة من الدانتيل قد علقت عليها وأنها بانتظار هبوب نسمة لتحرك أطرافها المتدلية. واذا ما انعكست أشعة الشمس من الأفنية المفتوحة ظهرت كأنها تشتعل ناراً تضيء ما حولها من جدران.

والقصر مكون من طابقين. وفي الطابق الأرضي عدة قاعات لكل منها اسم، كبهو السفراء وقاعة العدل وفناء العذارى وفناء العرائس وجناح الملوك الاندلسيين، وجناح الملوك الكاثوليك، وبهو كارلو الخامس، وجناح فليب الثاني، وما الى ذلك. وتصل بين هذه القاعات ممرات تزيينها أقواس متكررة تضيء عليها الحركة وتزيل عنها الجمود. ولعل أجمل ما في القصر، بهو السفراء الرحب، ذو القبة الشاهقة، التي تزهو بأبدع النقوش وأروع الرسوم، وفناء العذارى الفسيح المكشوف الذي تحيط به الأعمدة الرخامية الرشيقة.

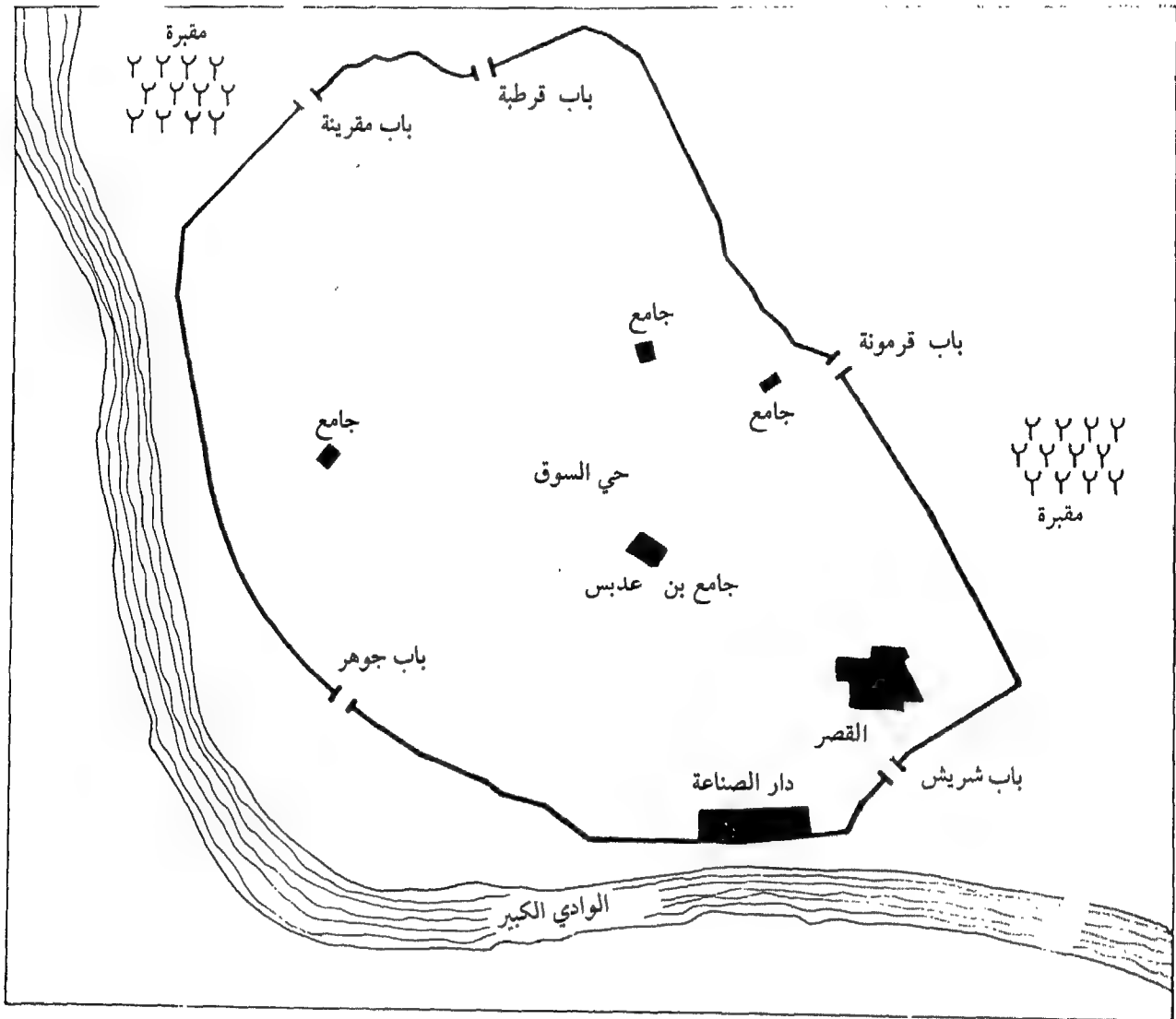
ومن المعالم العربية الرائعة في اشبيلية «برج الذهب» الذي كان يستخدمه العرب للحراسة ولرأبقة تحركات العدو. وقد بني على نحو يتيح للفارس الوصول الى قمته

ولوسار المرء في ازقة هذا الحي وحاراته لجزم أنه يسير في
بلد عربي .

وفي المساء ، كل مساء ، ترقص اشبيلية حتى الصباح
تماماً كما كانت ترقص أيام الحكم العربي .

داكبا .

ولعل من أجمل ما يشاهده المرء في اشبيلية حيها العربي
القديم ، ويقال انه الحي اليهودي أيضاً الذي يطلق عليه
اسم سانتا كروث (Santa Cruz) ، أي الصليب المقدس .



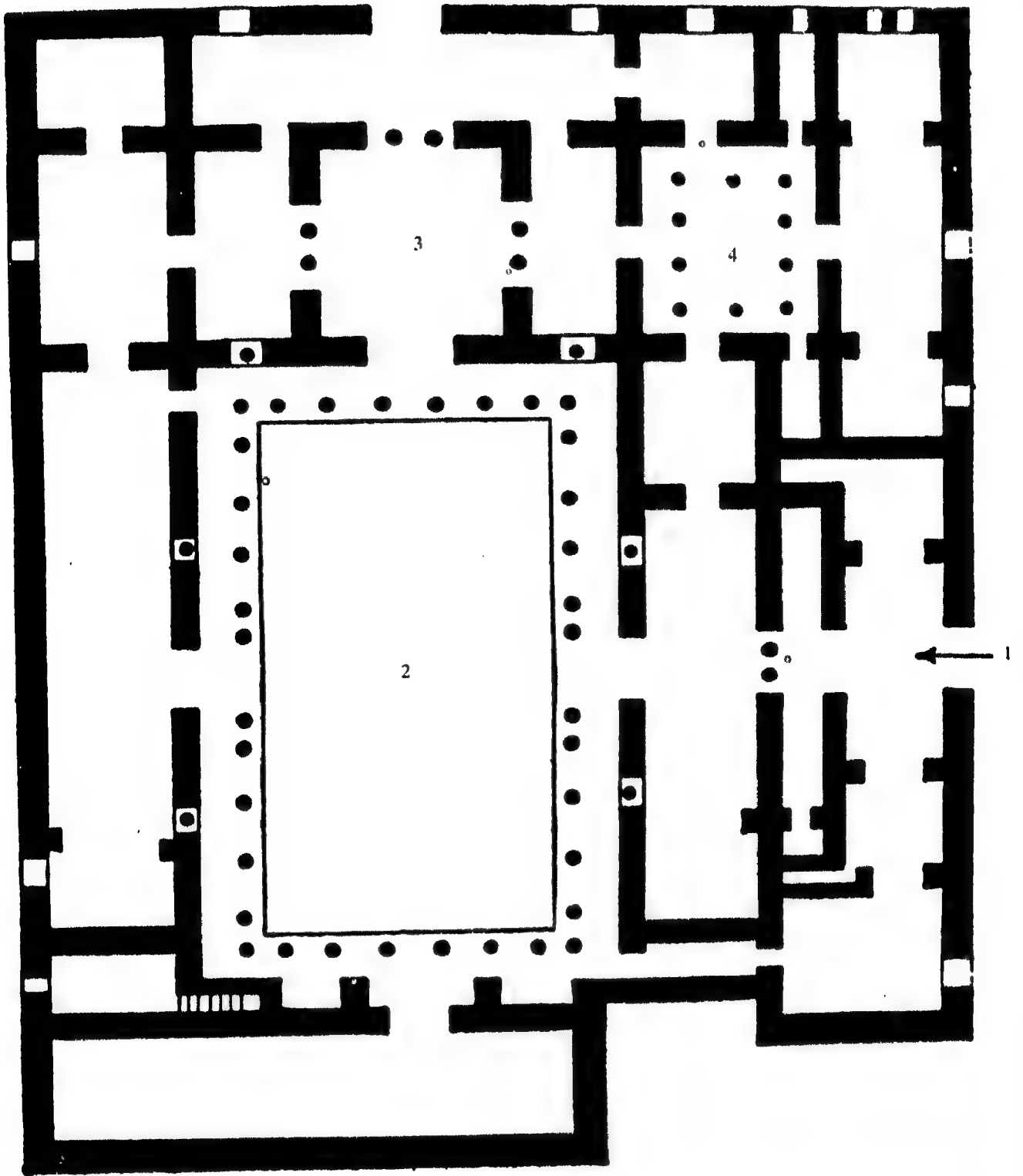
مخطط أشبيلية في القرن الرابع هجري/ العاشر ميلادي

1 - المدخل الرئيسي .

2 - فناء العذارى .

3 - بهو السفراء

4 - فناء مكشوف



خطط قصر أشبيلية

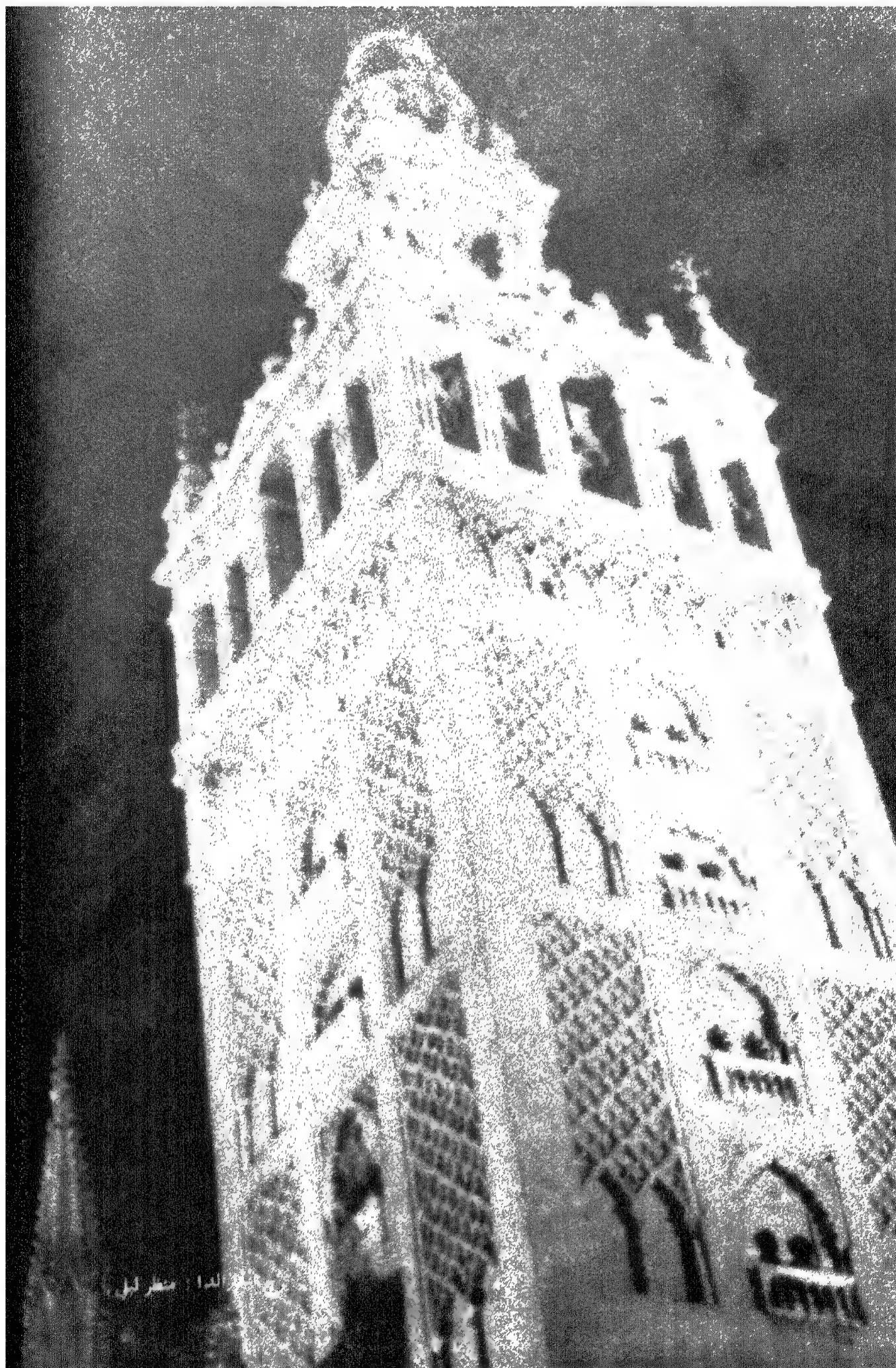
قيل في اشبيلية:

واين حمص وما تحويه من نزه
ونهرها العذب فياض وملآن

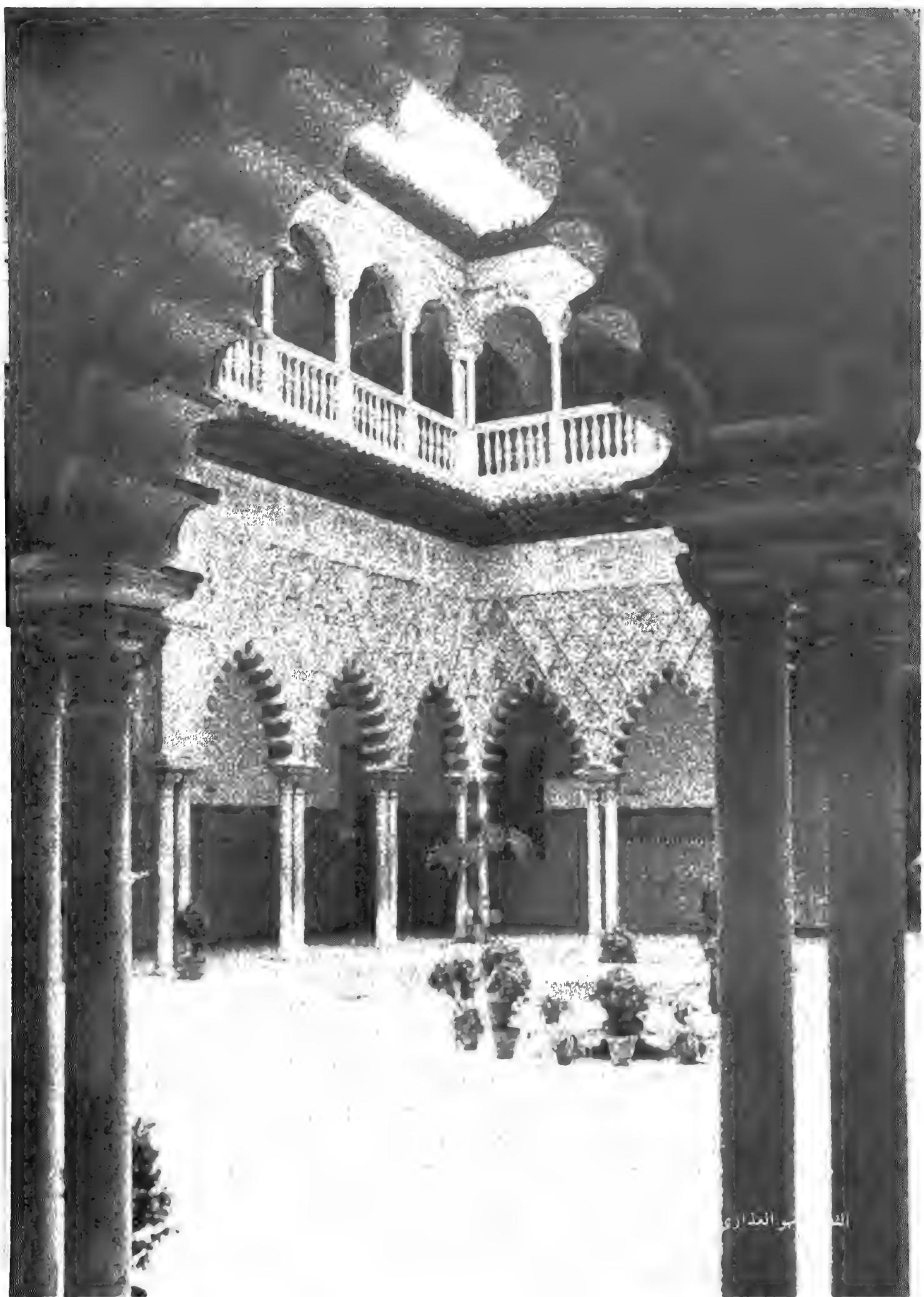
قيل في نهر اشبيلية:

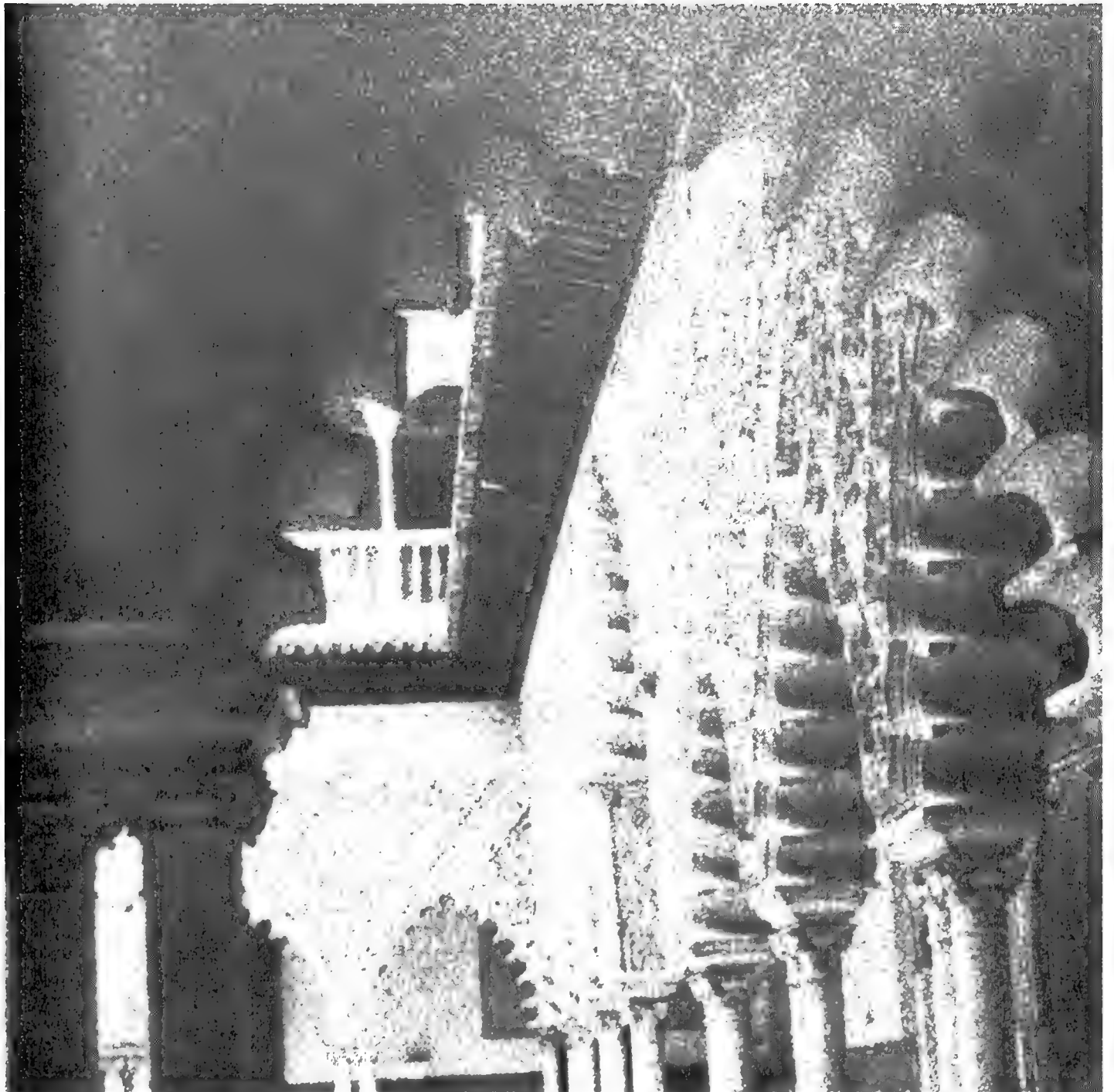
شق النسيم عليه جيب قميصه
فانساب من شطيه يطلب ثاره
فتضاحكت ورق الحمام بروحها
هزأ فضم من الحياء ازاره

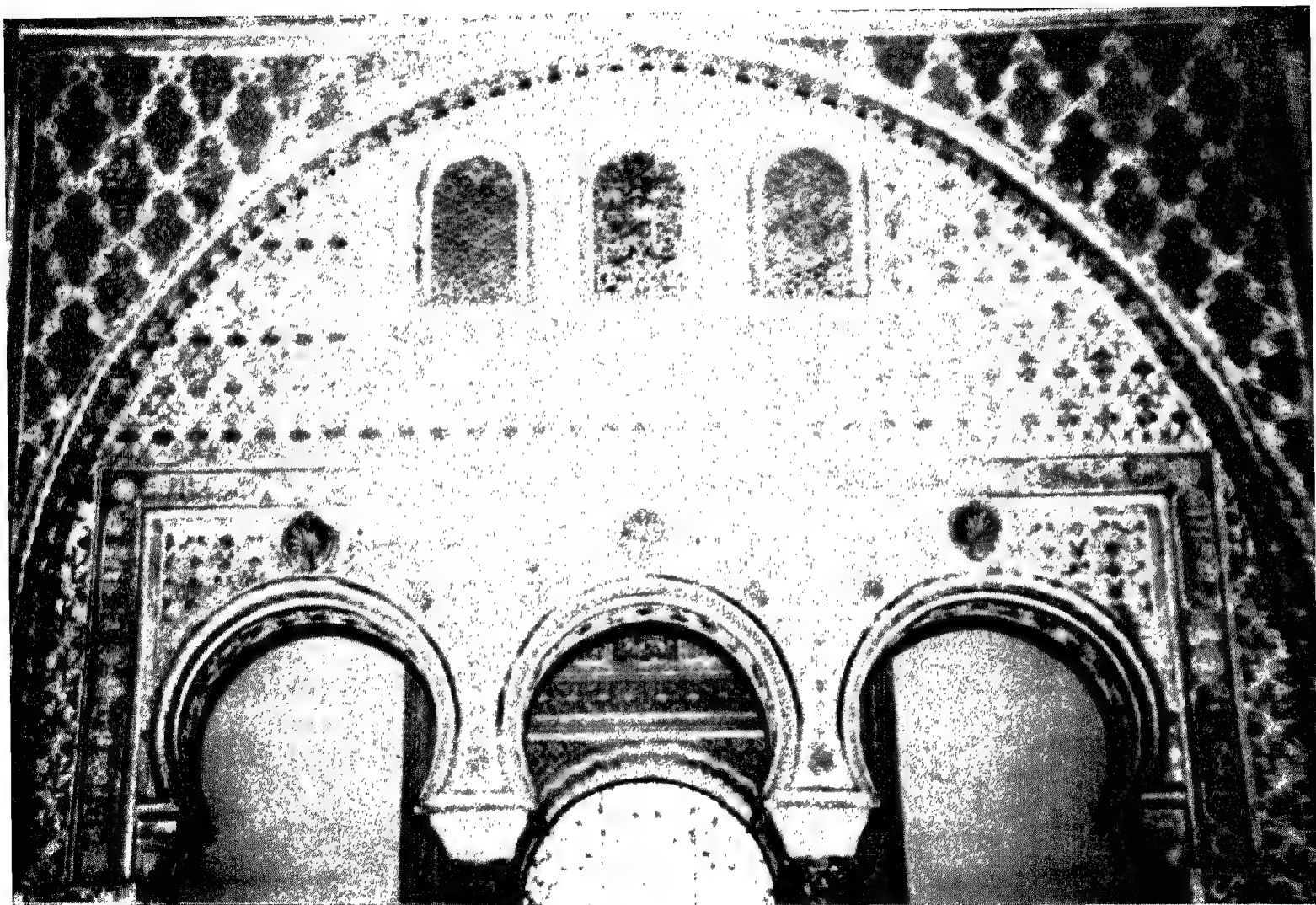




سید الفاضل الداعی : سطر لیل

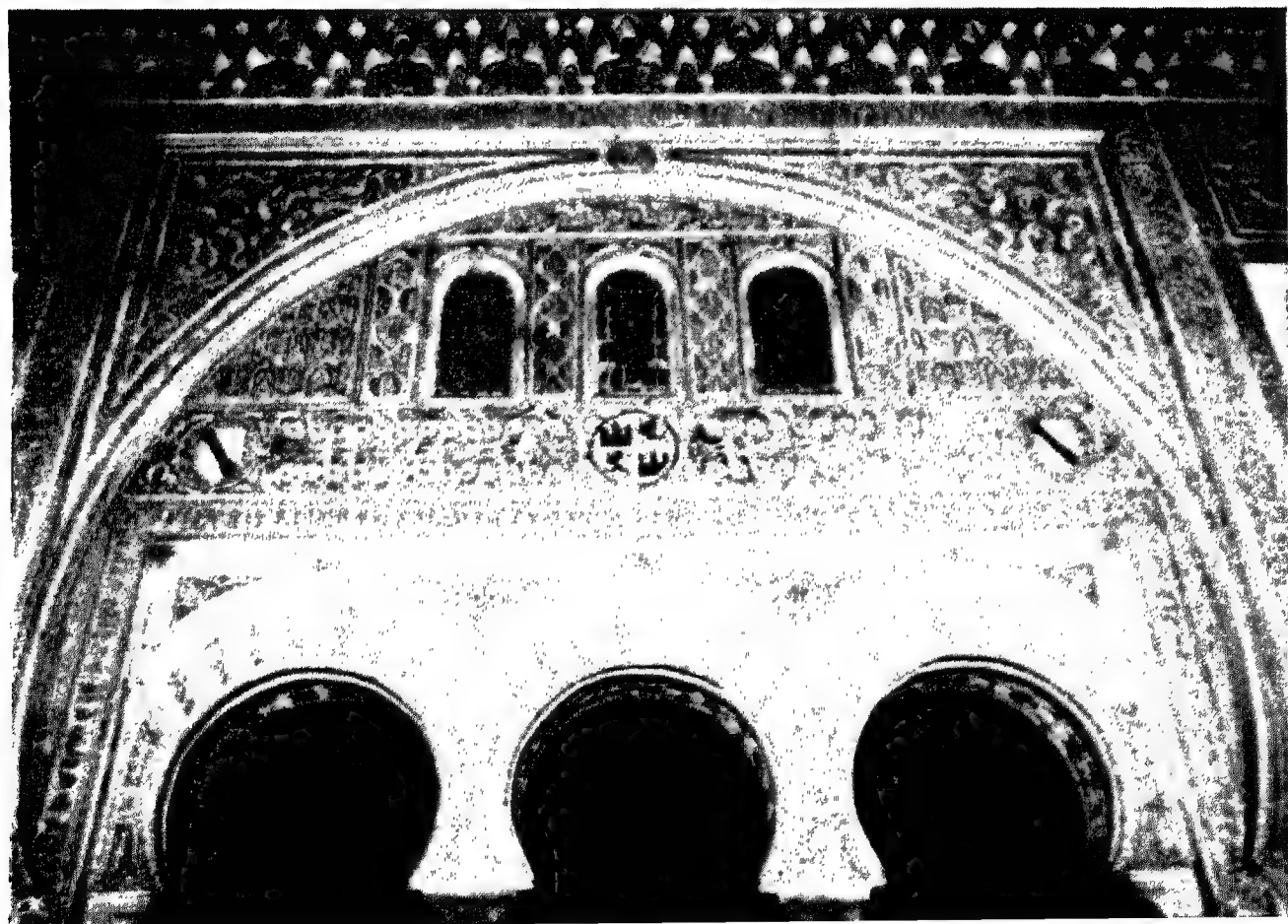


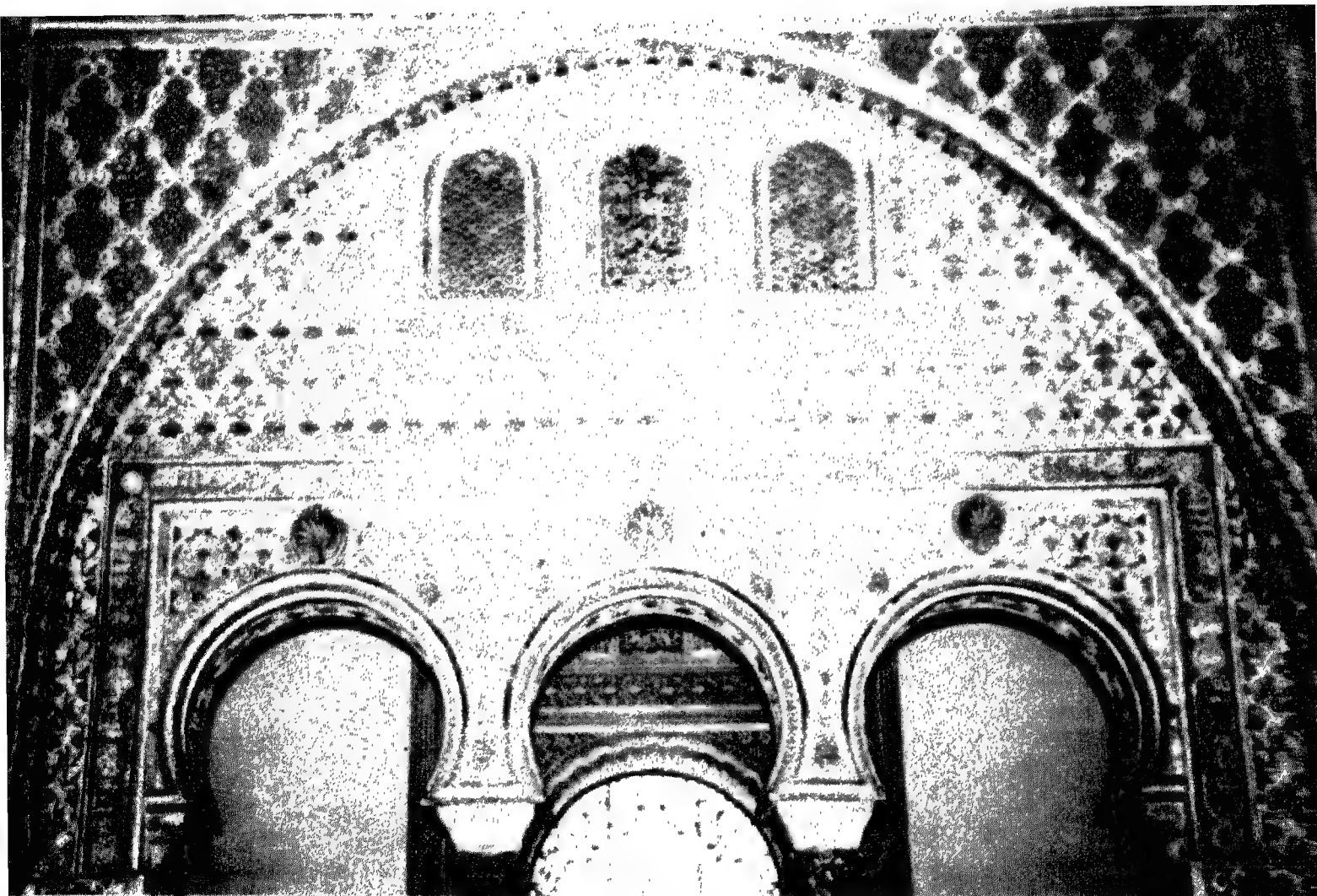




هو السفراء .

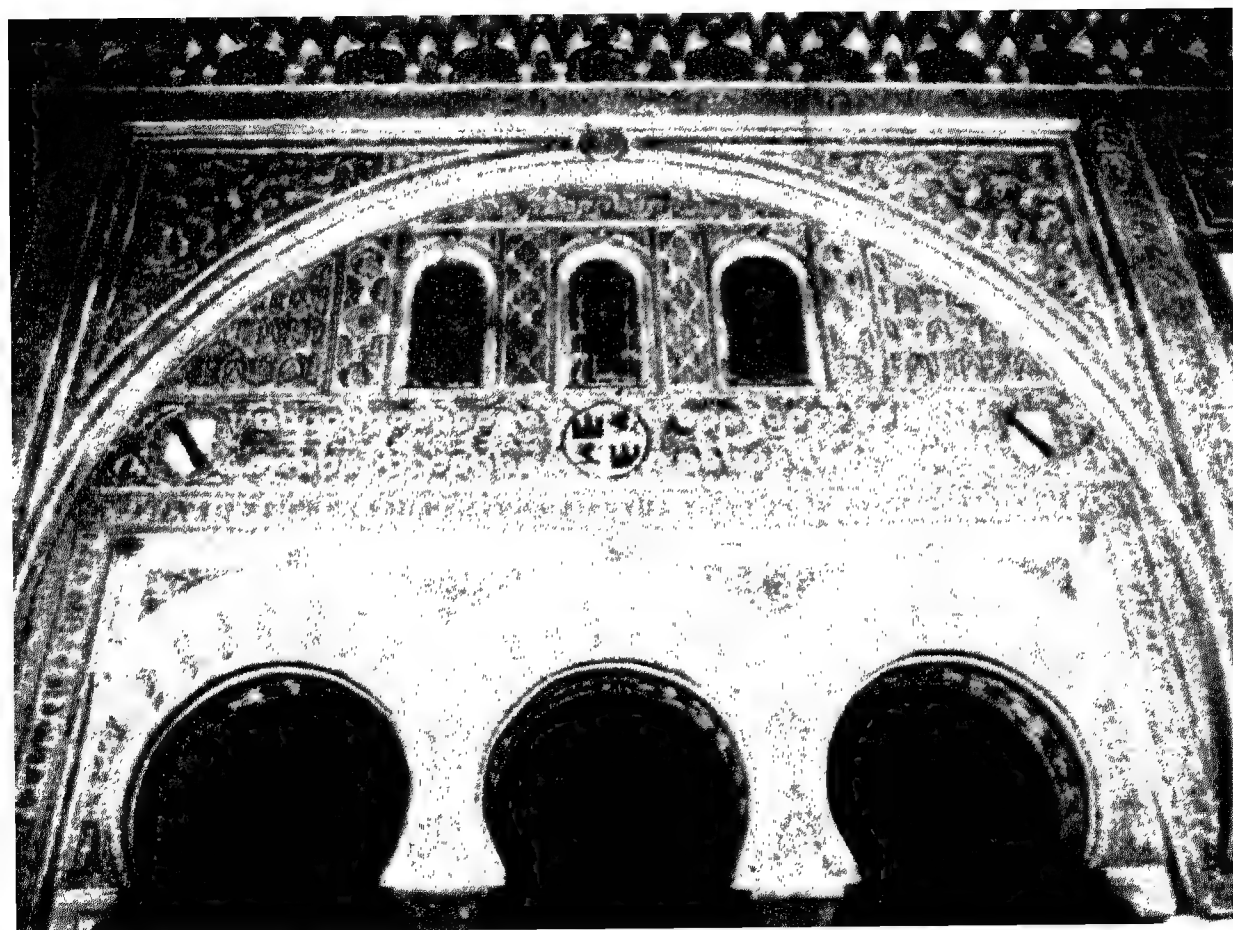
هو السفراء .



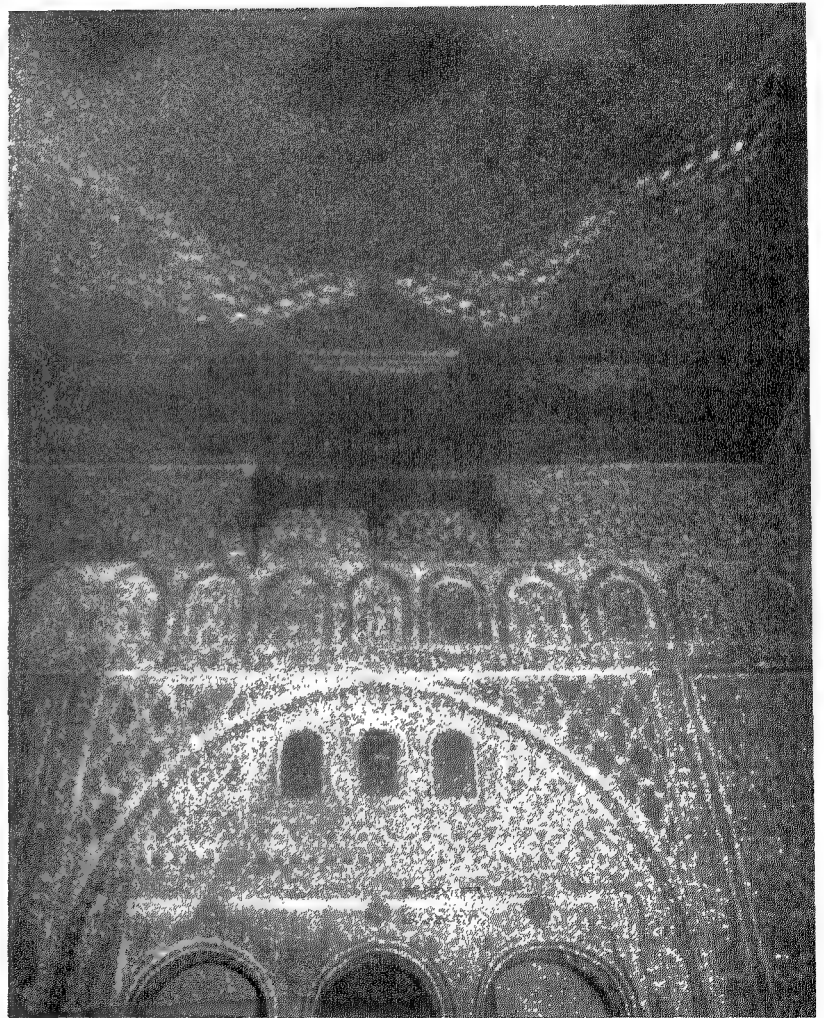


بهو السفراء .

بهو السفراء .

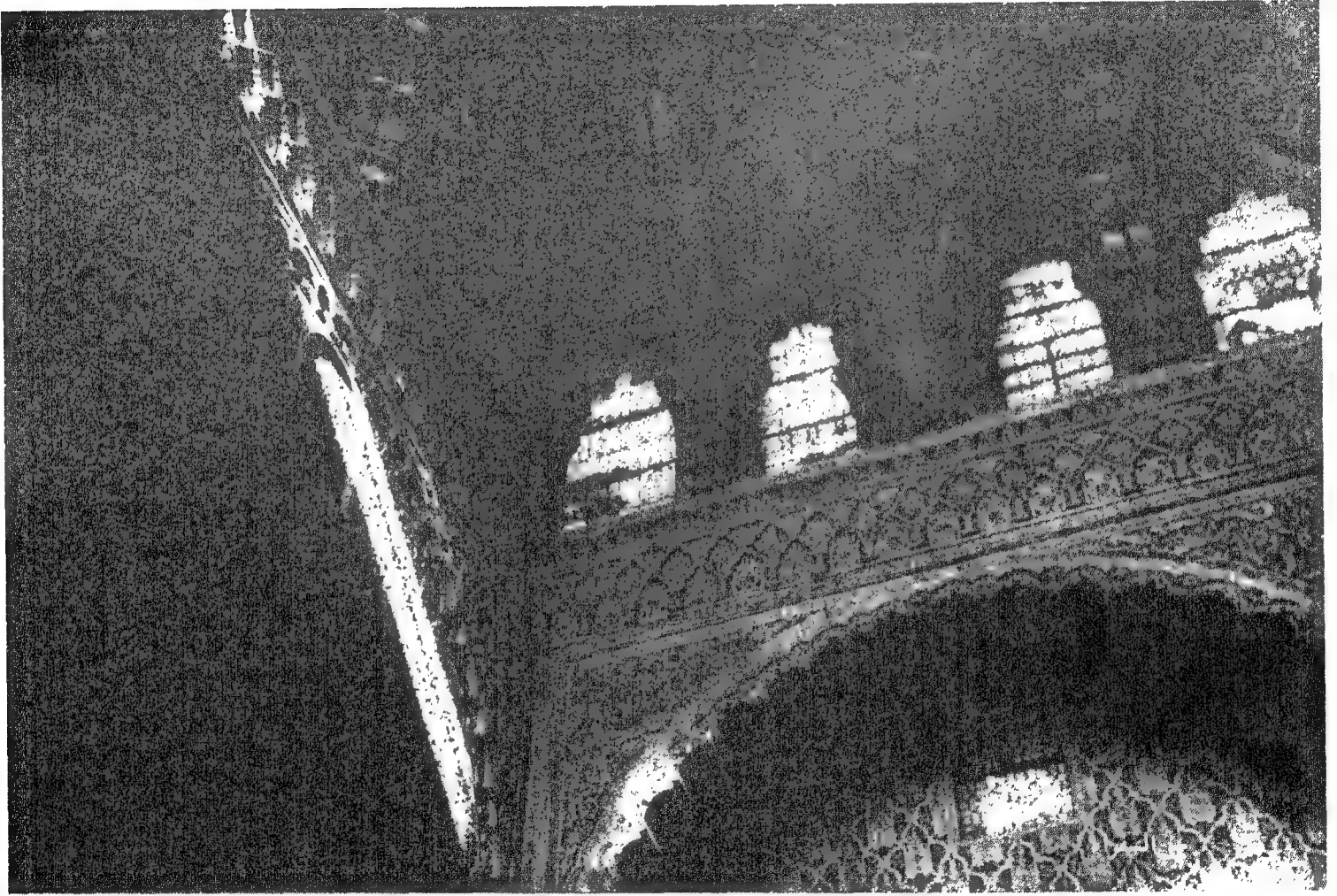


ديارَ عليها من بشاشته أهلها
 بشاشا تشرق الشمس أشبا ومنظرا
 وبيع كساهما المرن من شايح الدنيا
 بخروداء ملاحها من النور جوهرا
 سرك الموراء ثم نضجها نارة
 وخرساج نابها وتنجس تذكر



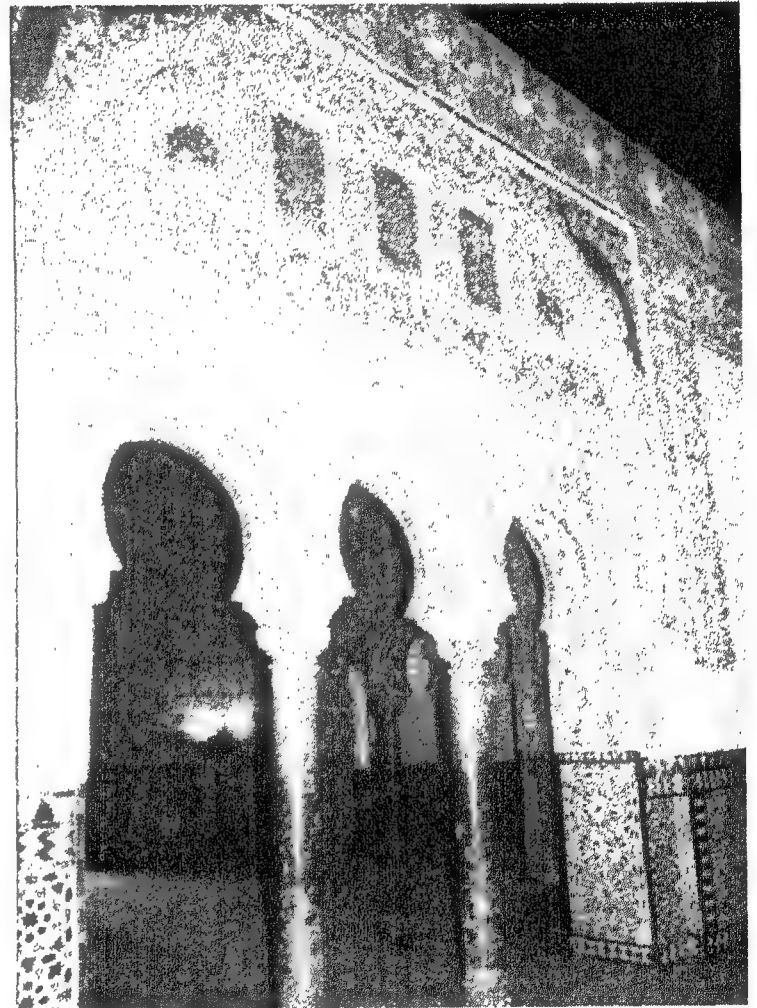
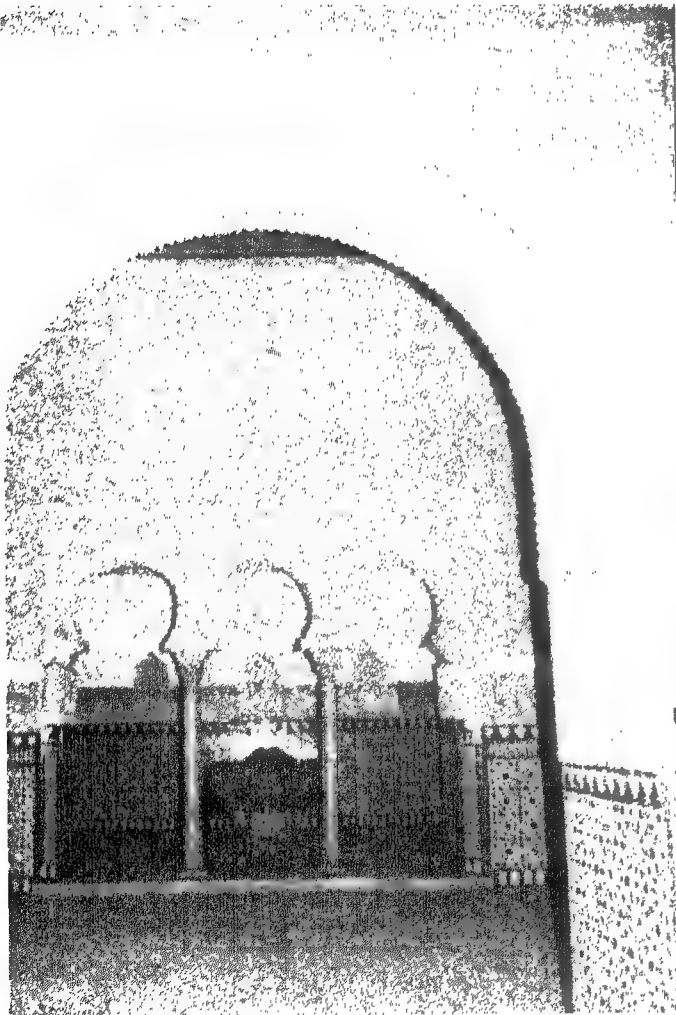
بهر السفراء .

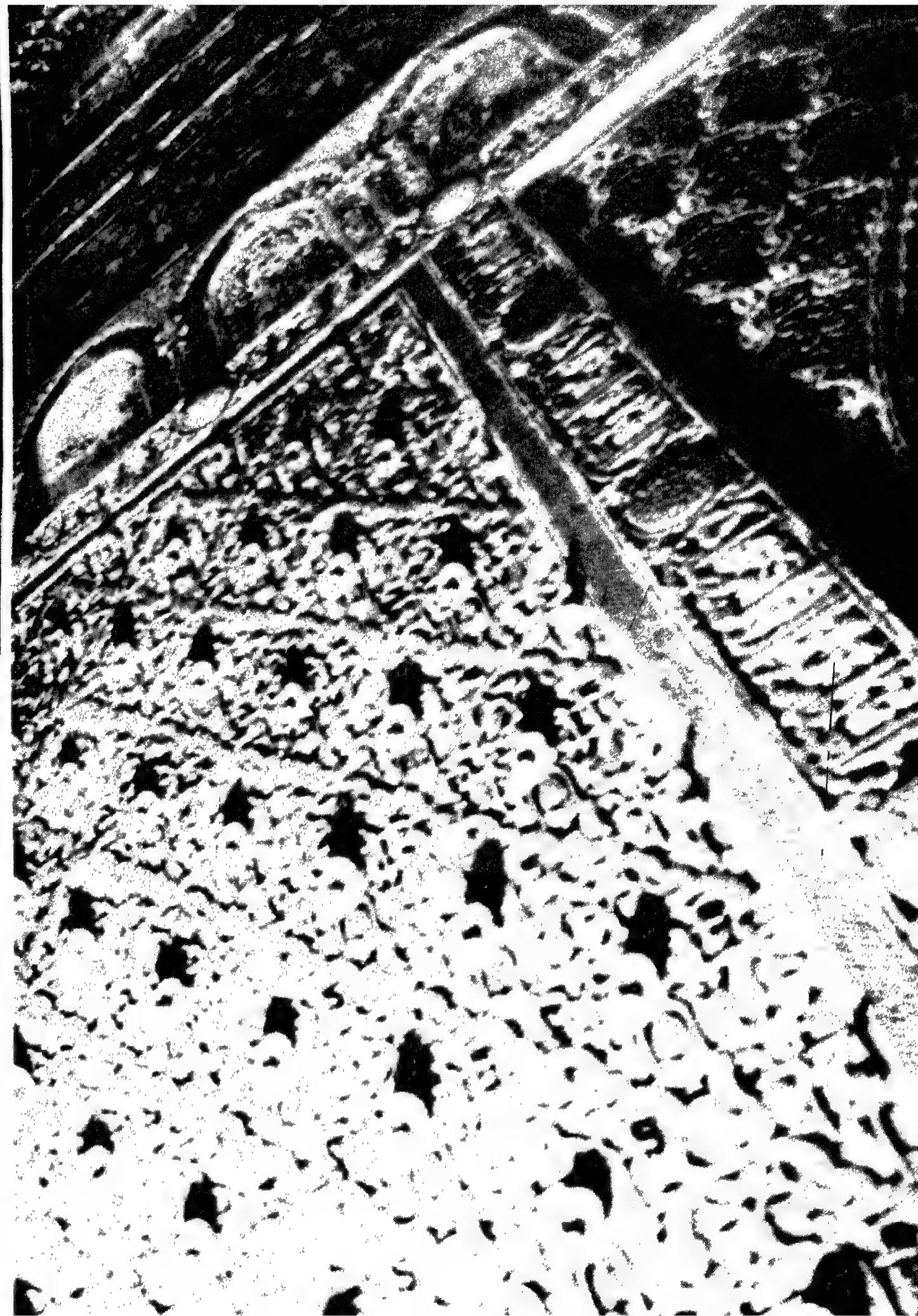
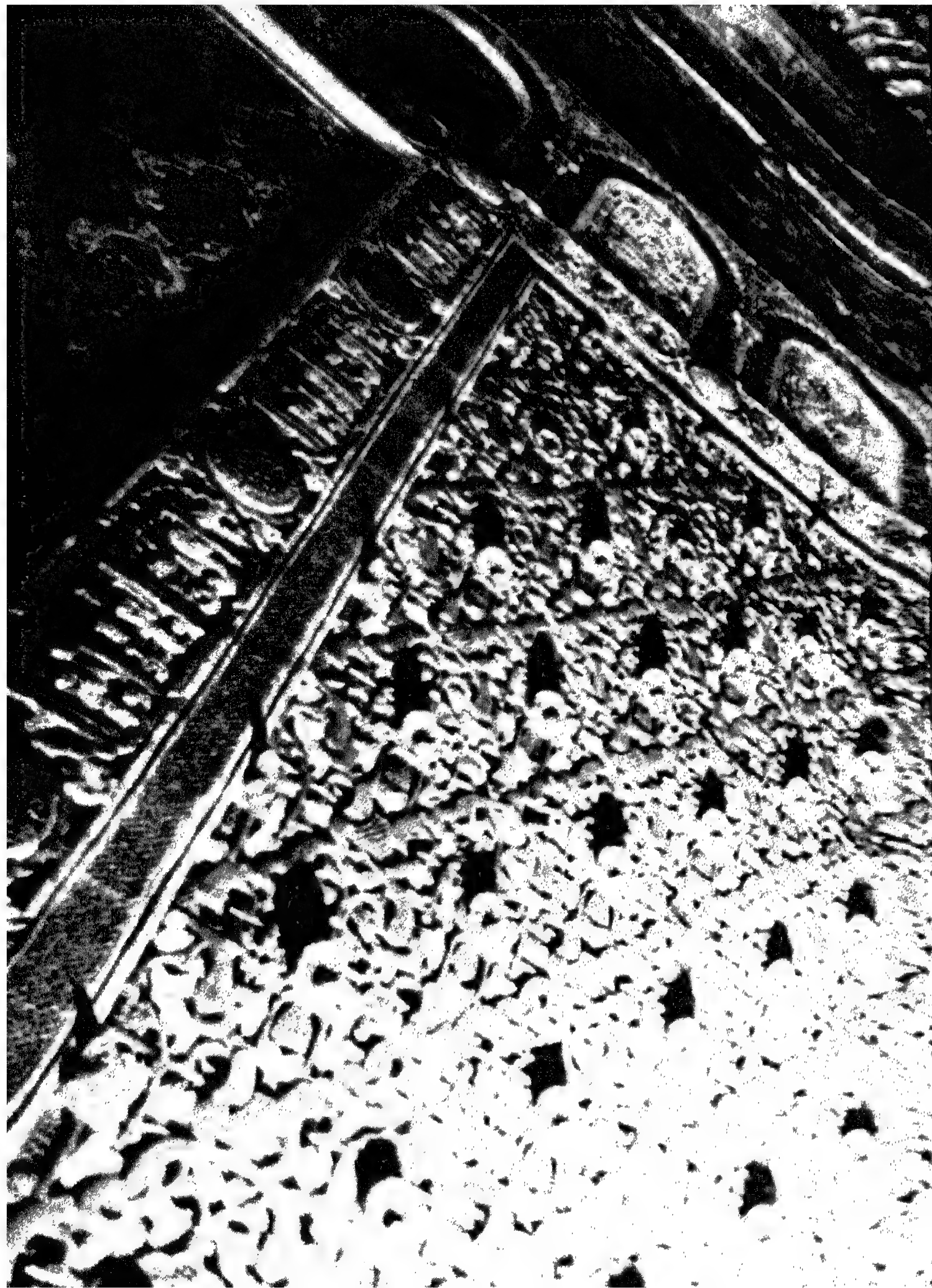


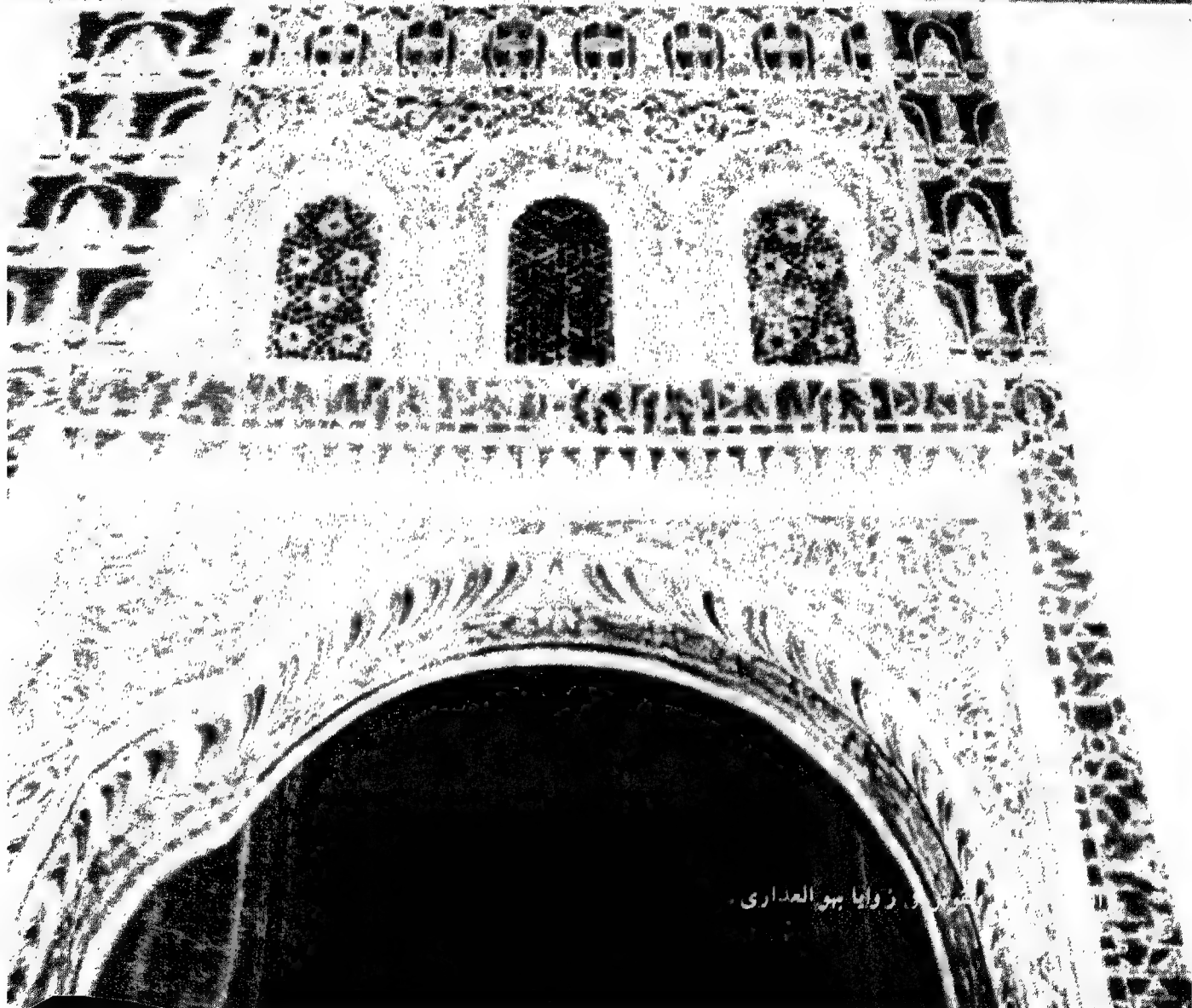
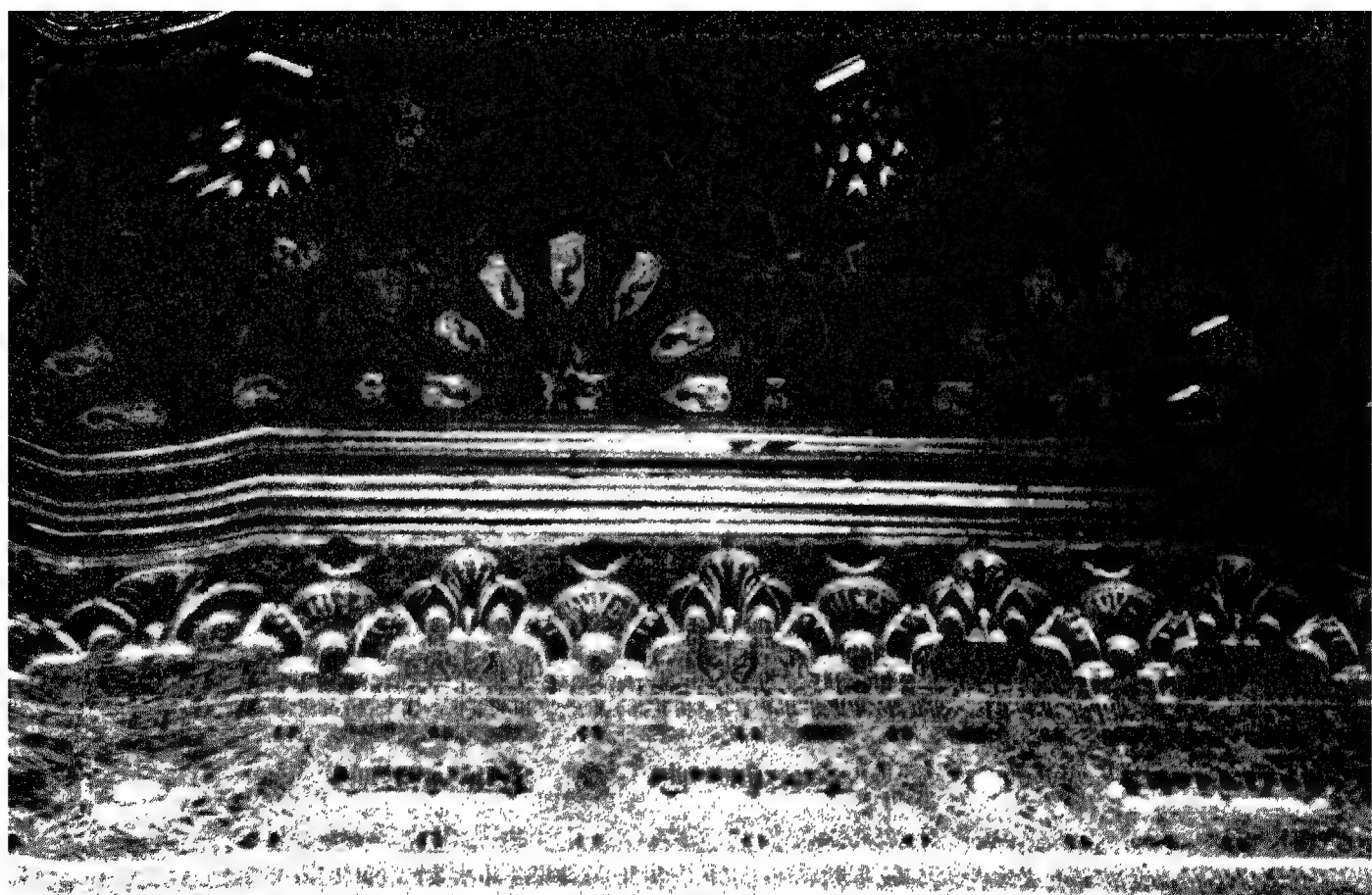


الفسيفساء داخل بهو السفراء .

القصر : مدخل إحدى القاعات المحيطة ببهو السفراء .

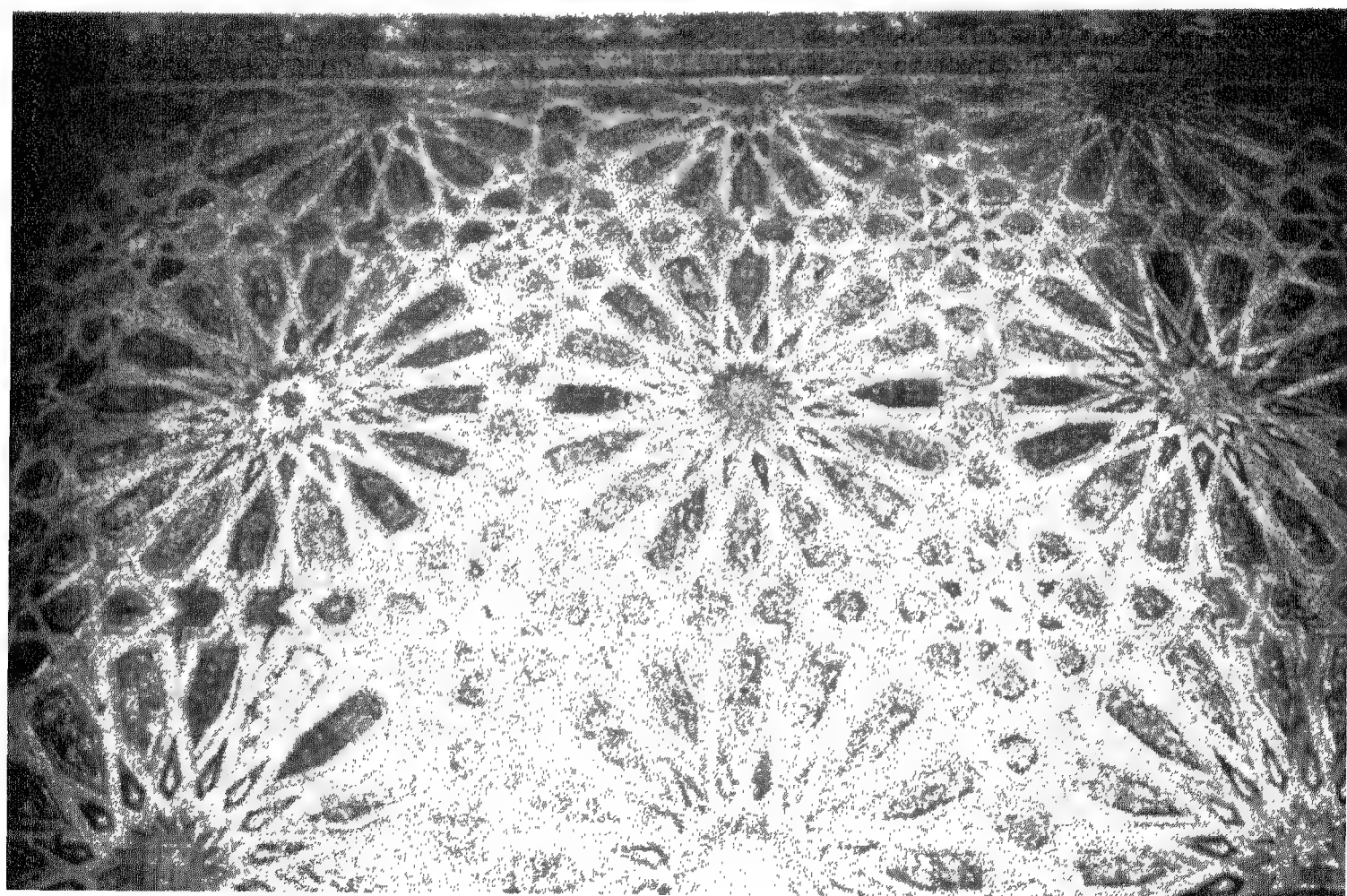
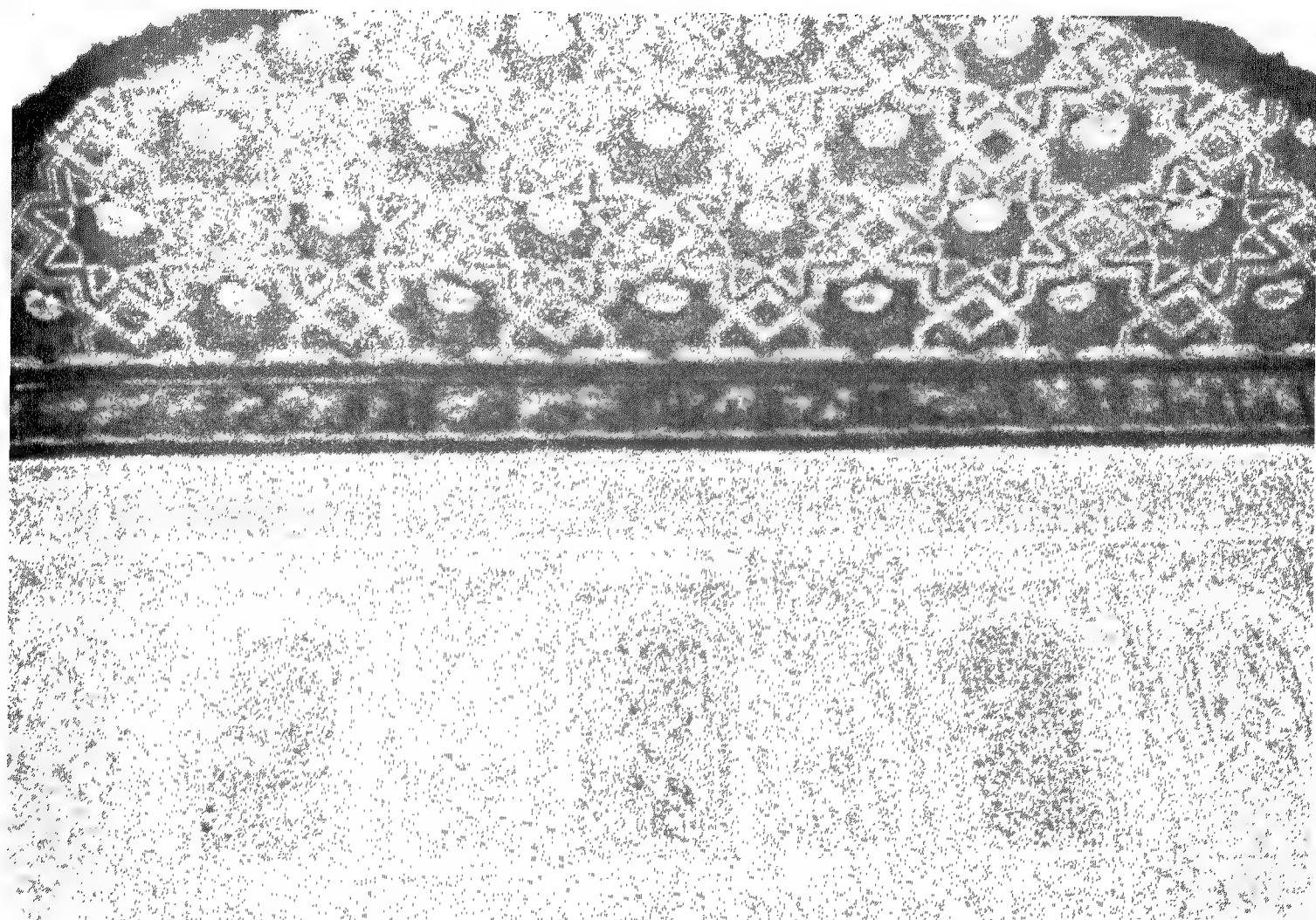


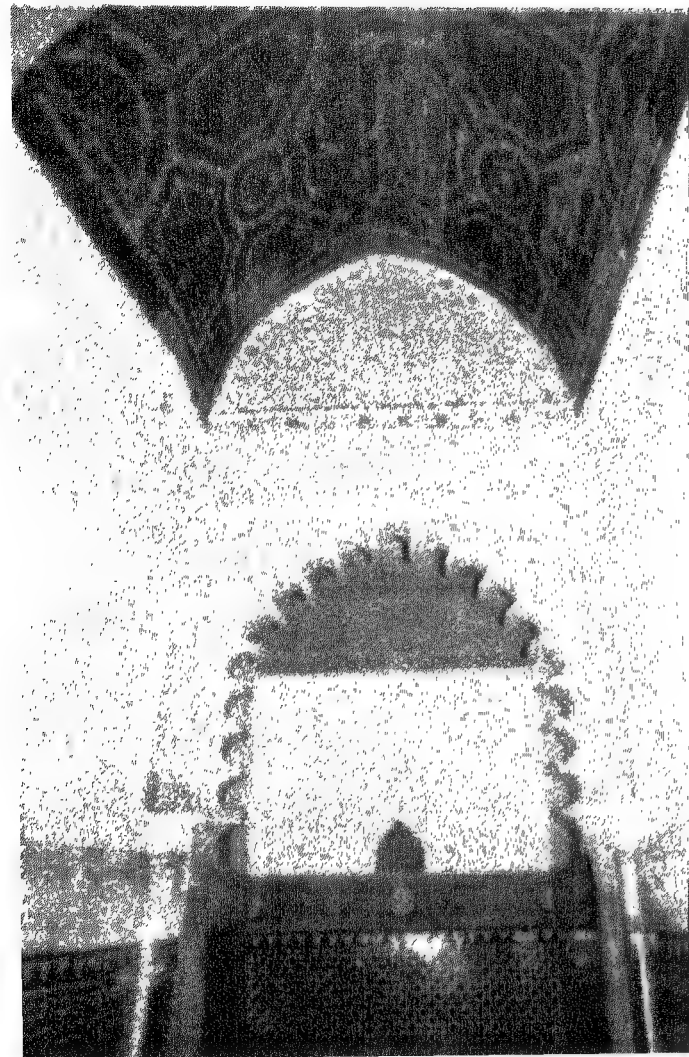
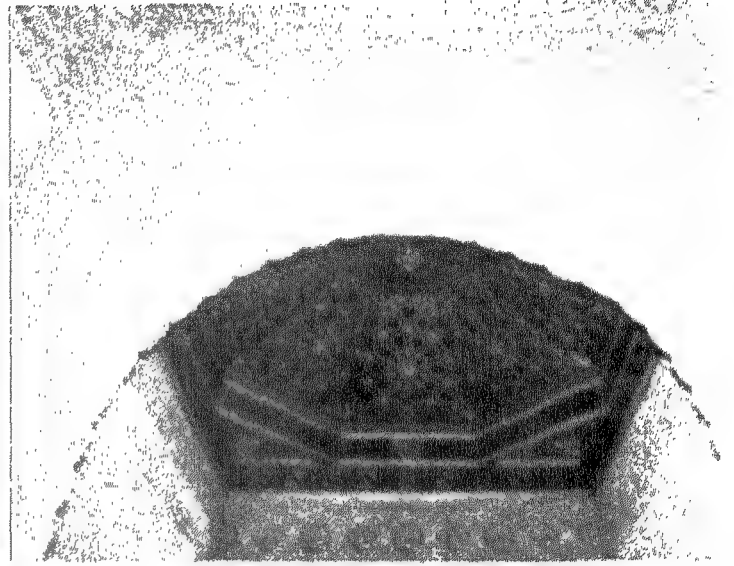
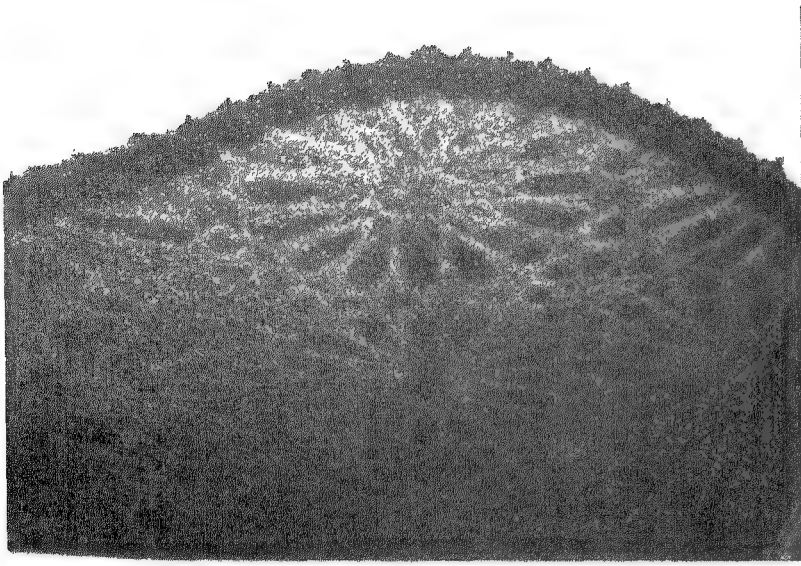




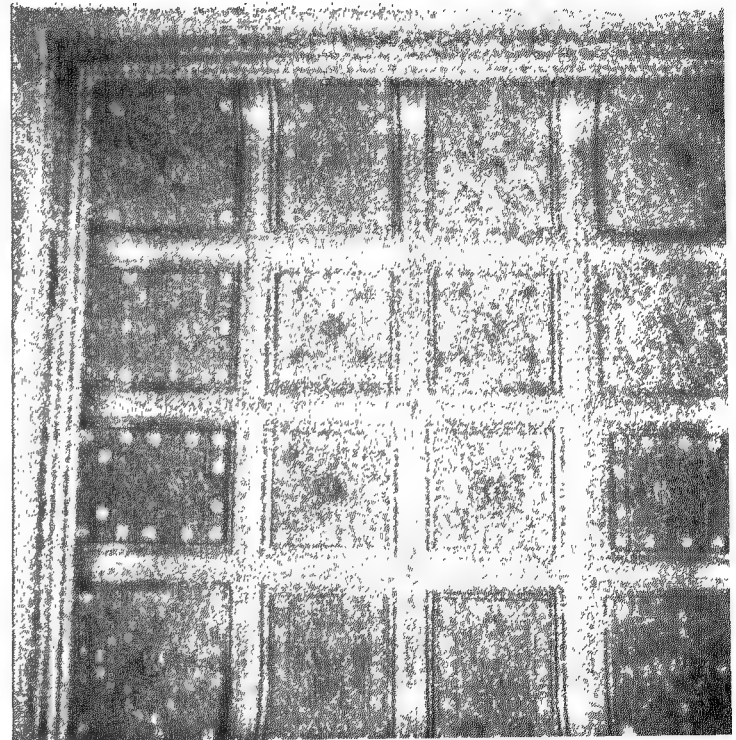
معماری و زوایا بهر العداری

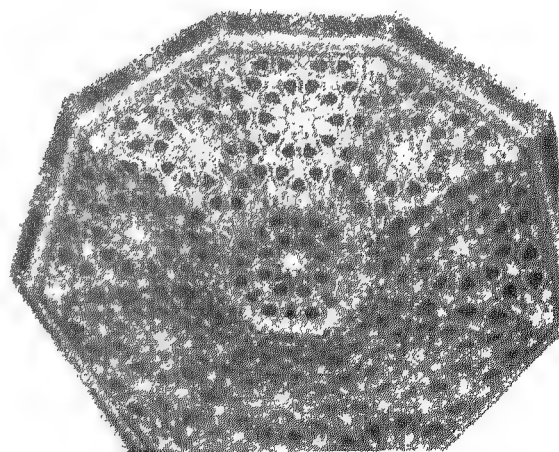
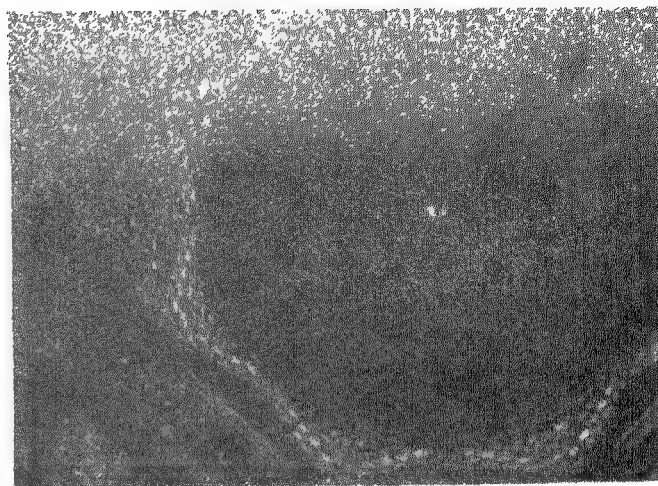




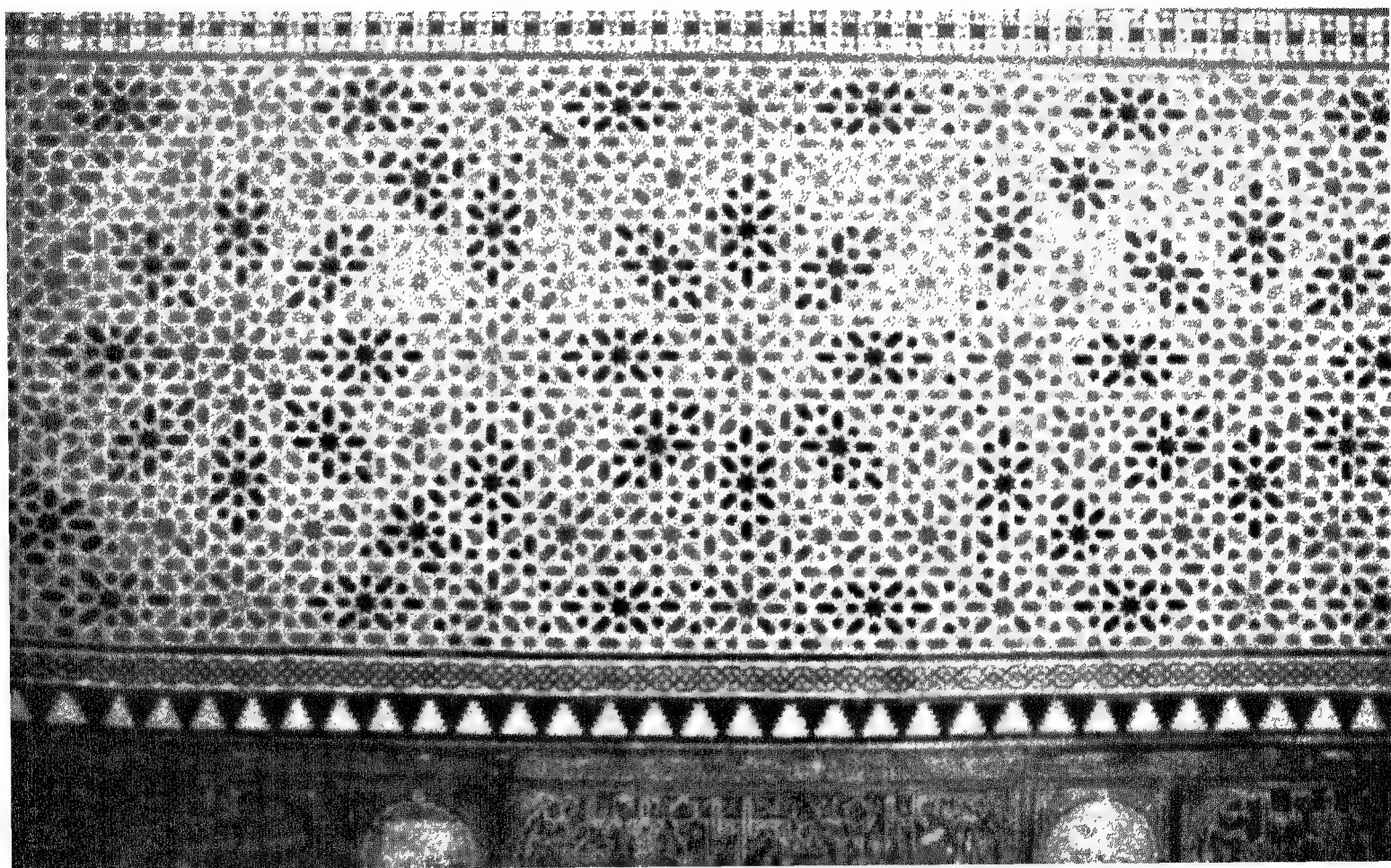


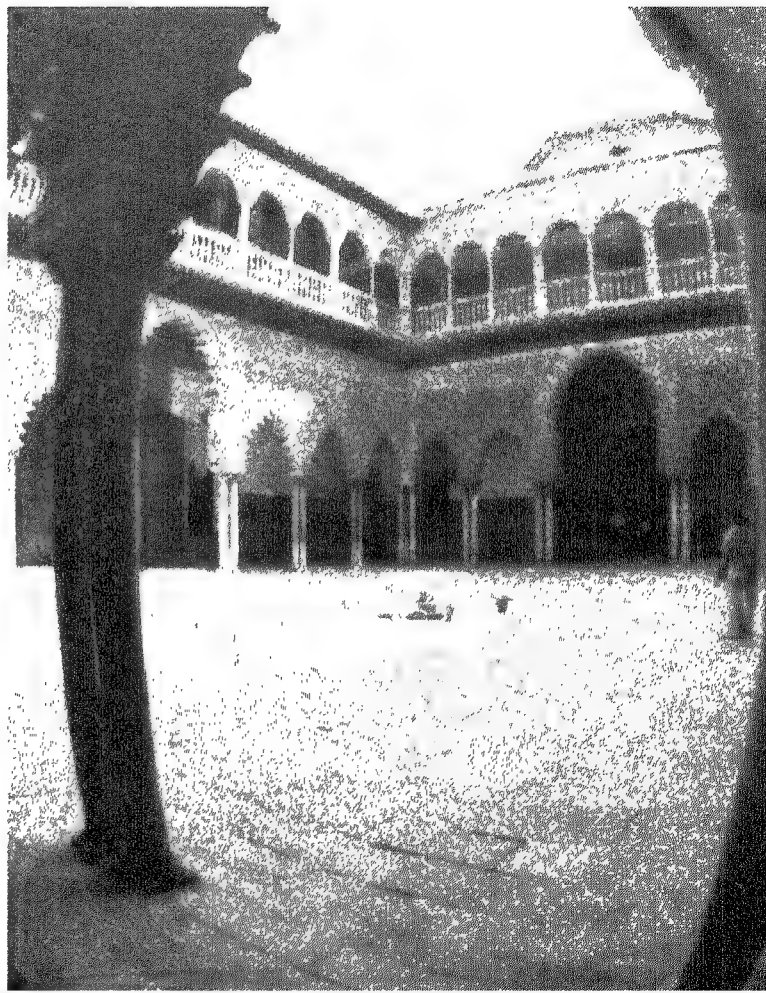
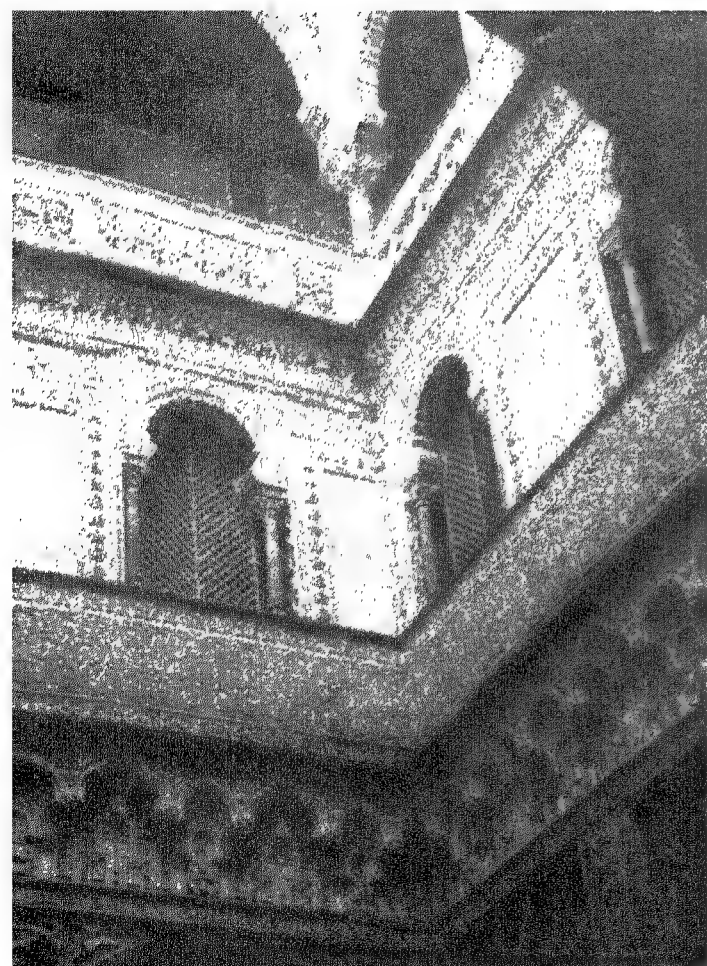
القصر : سقوف ممرات القصر .





المنارة في القاهرة

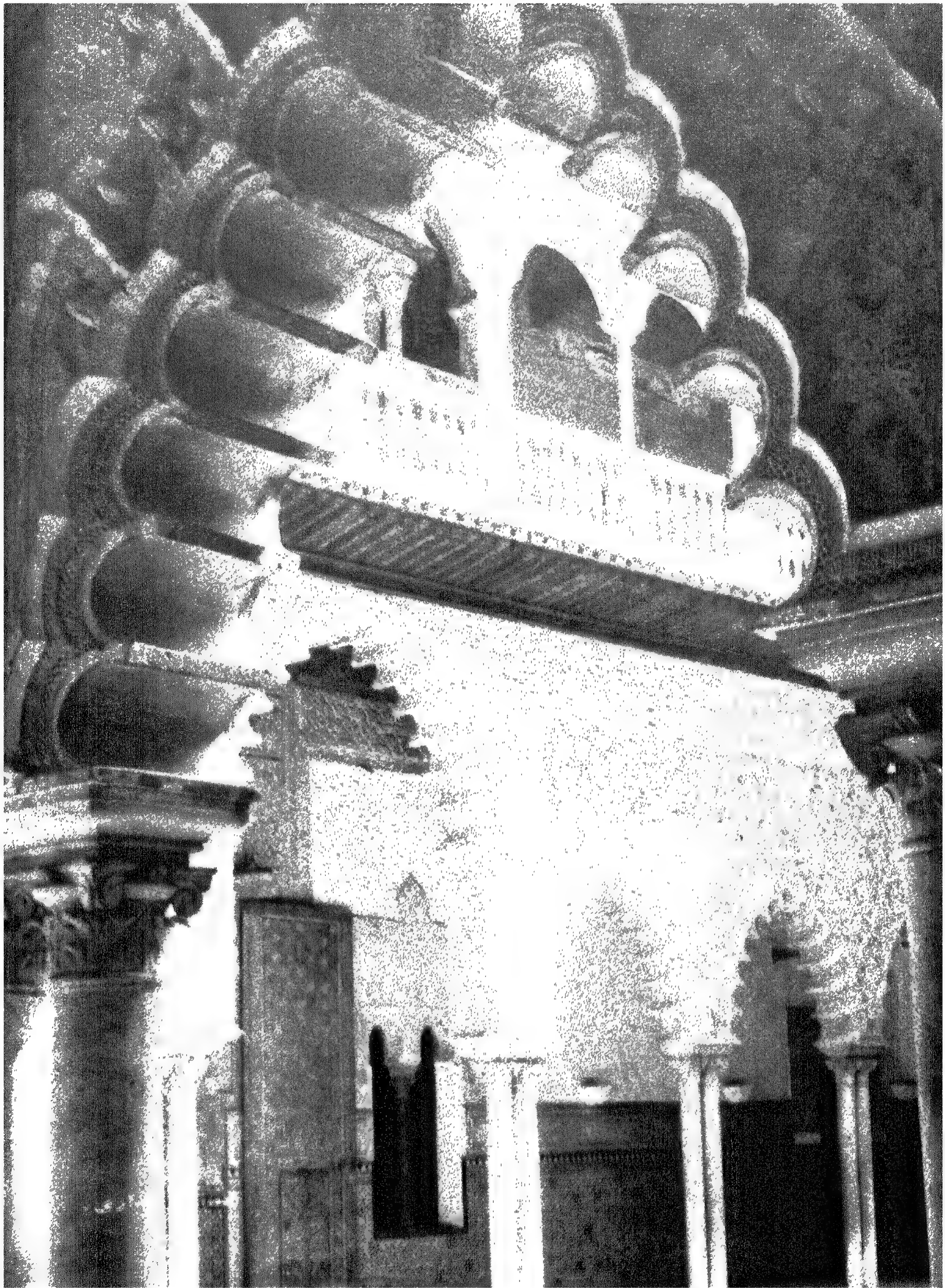


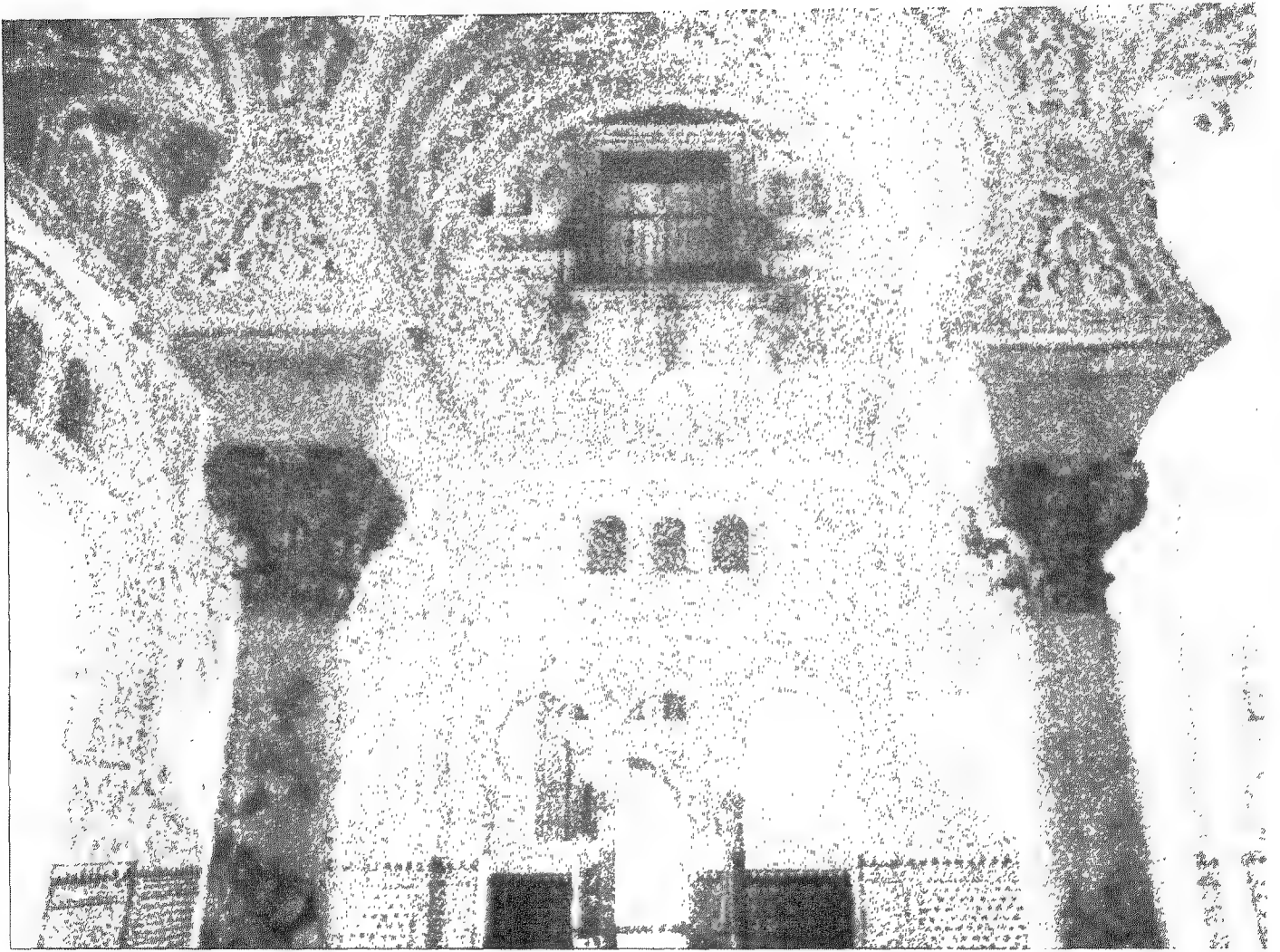


القصر : بهو العذارى

أعـمى لـعاد إـلى المـقام بـصيرا
لـلـوكـهـم شـهـاً لـه ونـظـيراً
ثـم انـثـنـت بـناظـري مـحسـوراً
لـما رآيتُ المـلـك فـيـه كـبـيراً

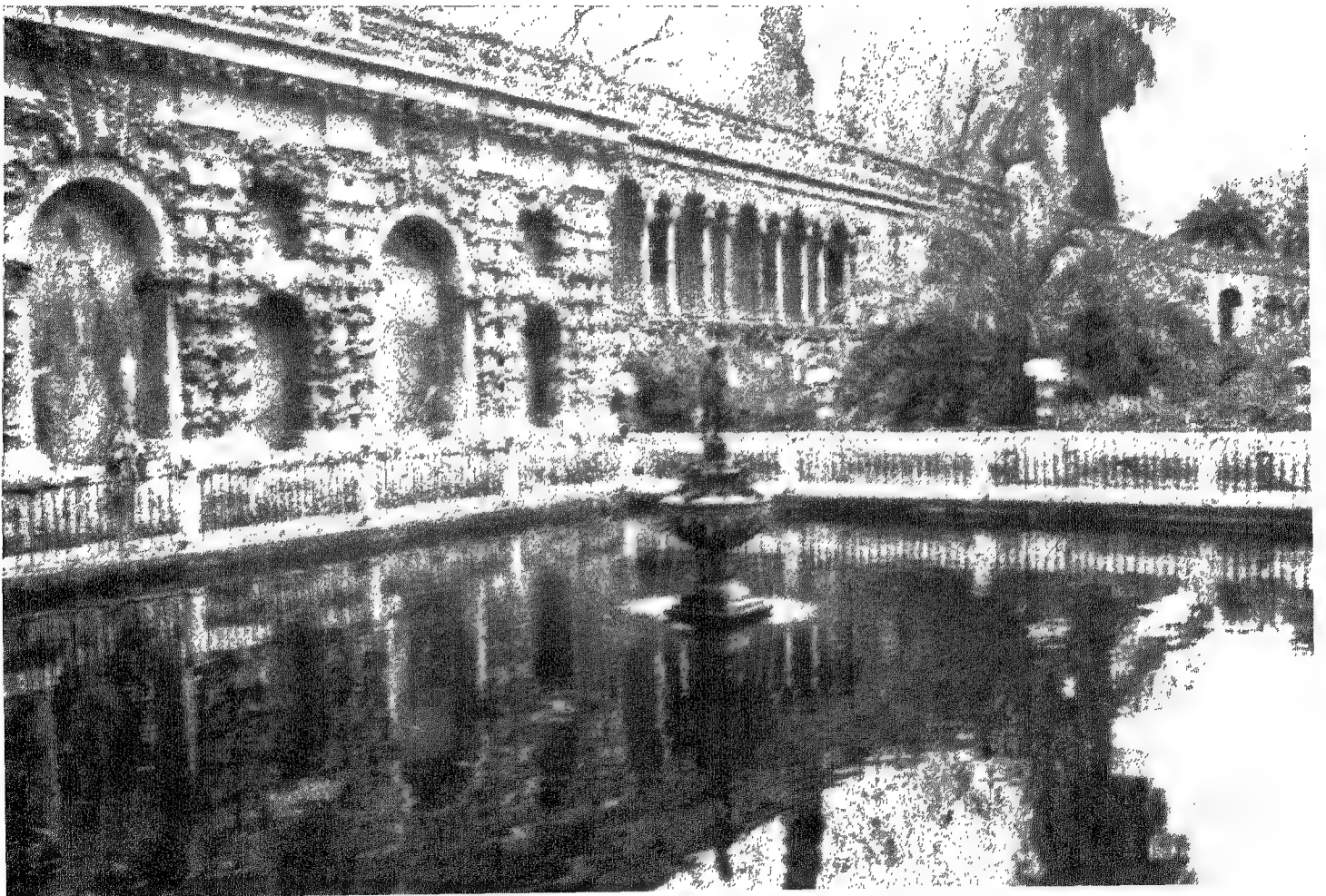
قـصرٌ لـو أنـك قـد كـحلت بـنـوره
ومـضت عـلى الرـوم الدـهـورُ وما بـنـوا
ابـصرـته فـرأيتُ أبـدع مـنـظر
وظننتُ أنـي حـالـمٌ فـي جـو



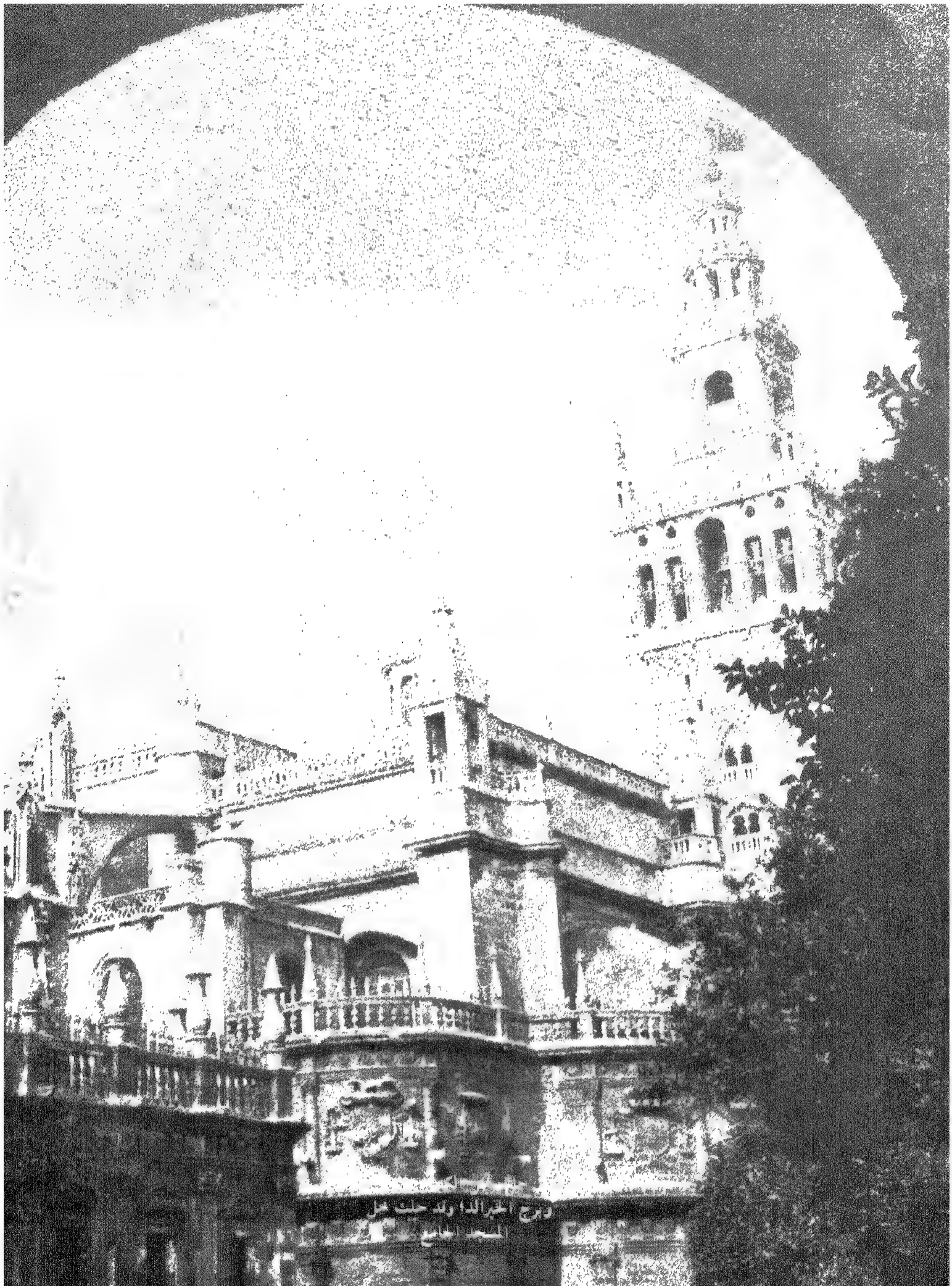


قاعة السفراء - القصر - أشبيلية

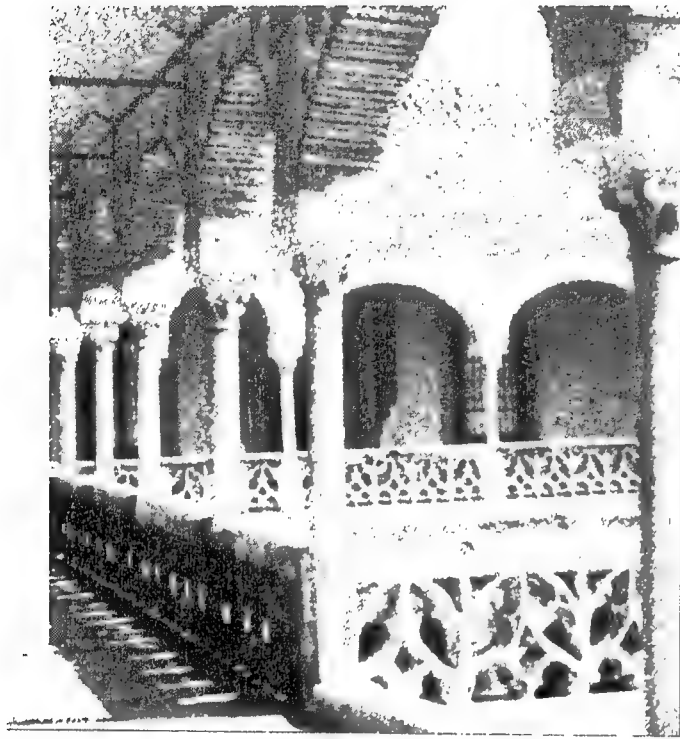
حديقة القصر





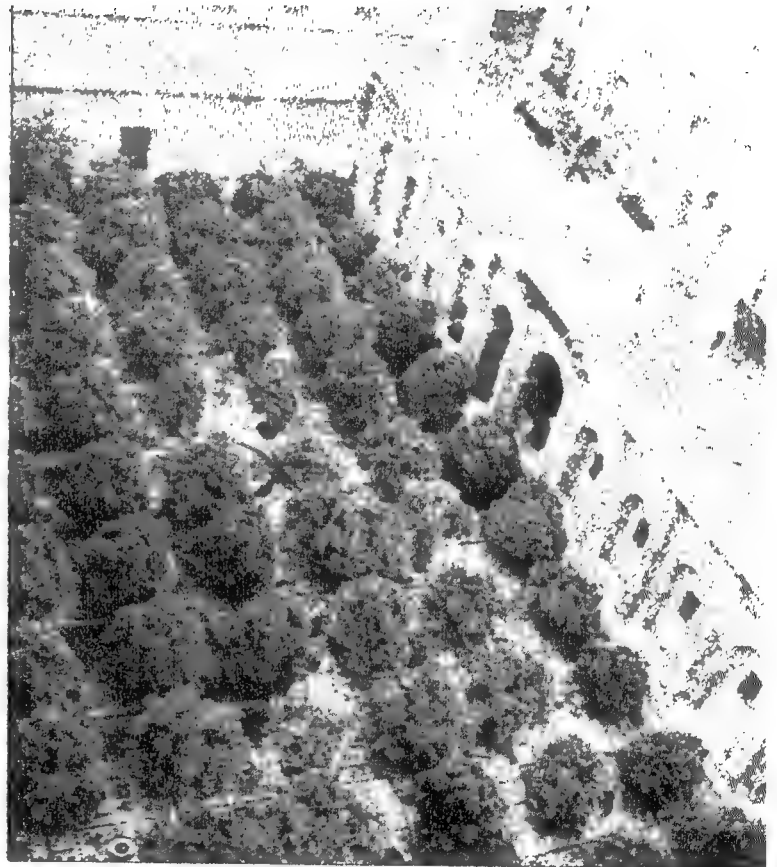






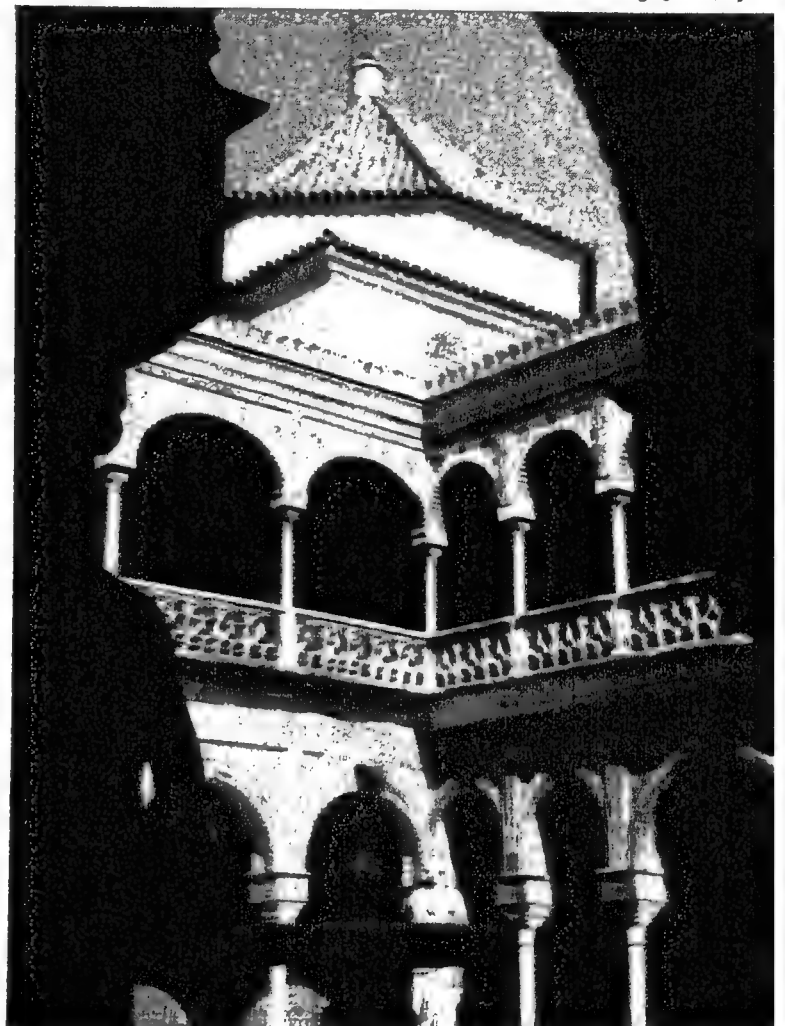
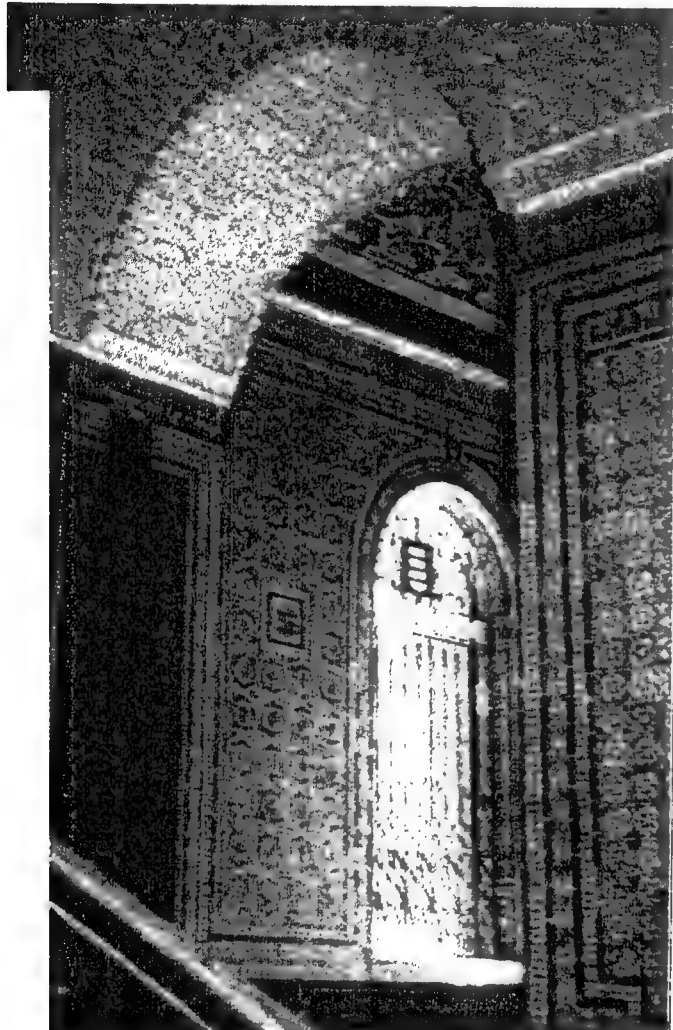
قصر بيلاتوس أنشأته أسرة مدينامالي على الطراز
العربي عام ١٥٣٣م.

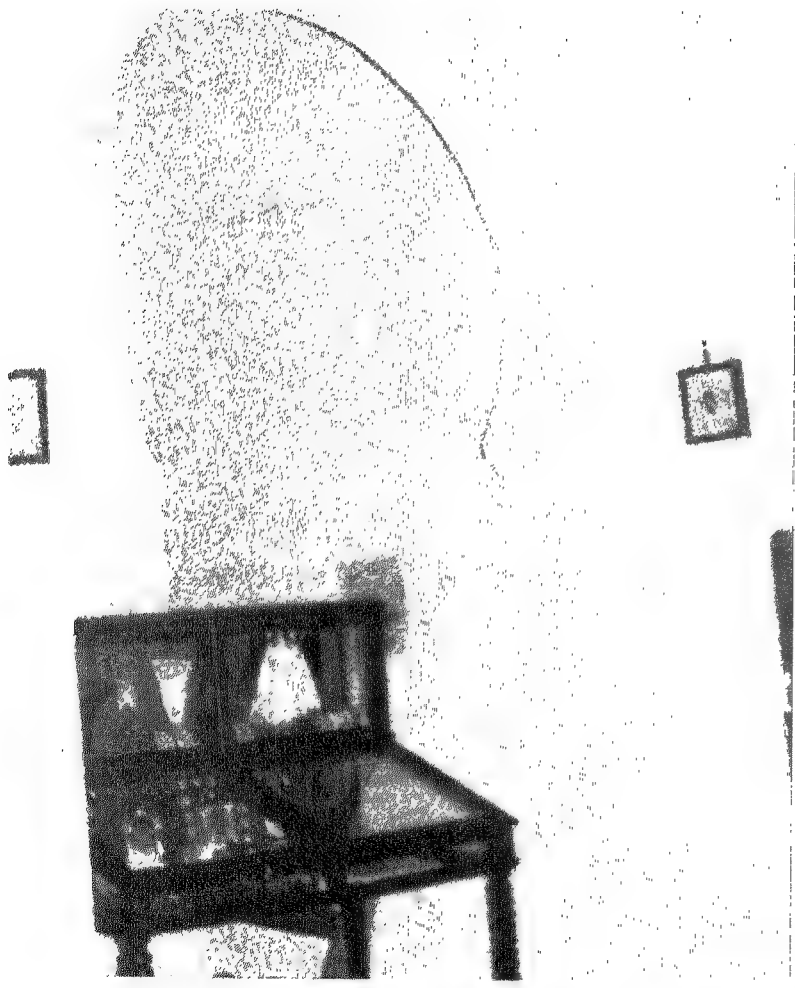
قصر بيلاتوس من الداخل.



سحن الجامع: فناء التارنج وهذا ما تبقى من الخانق.

قصر بيلاتوس.

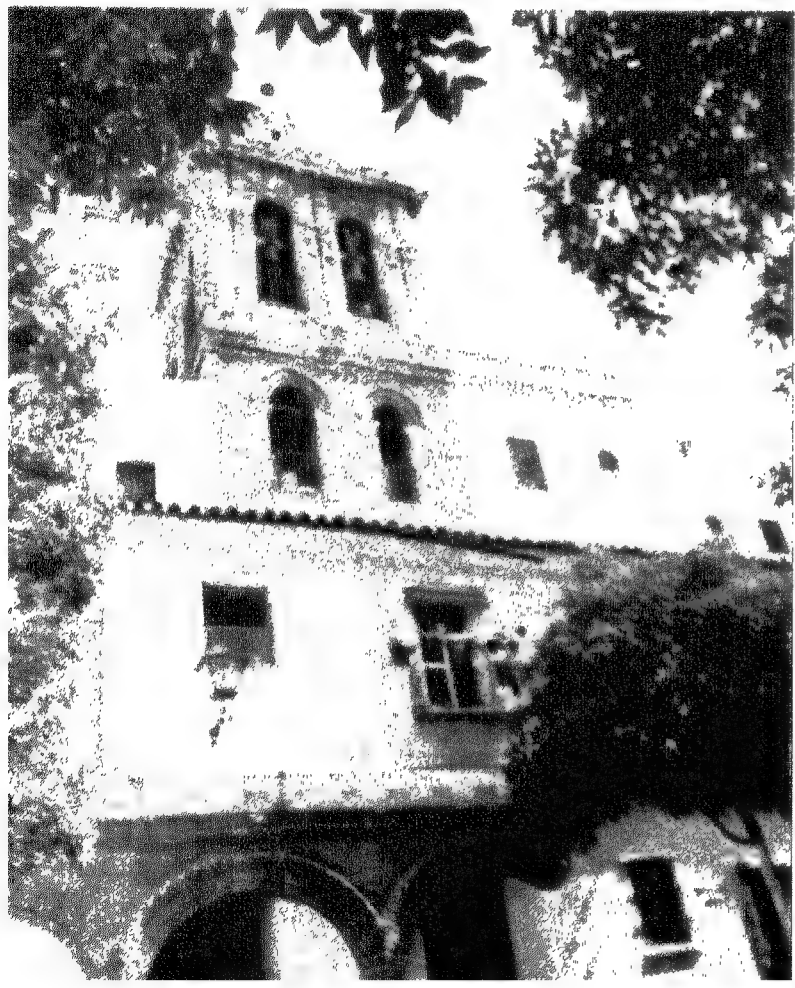


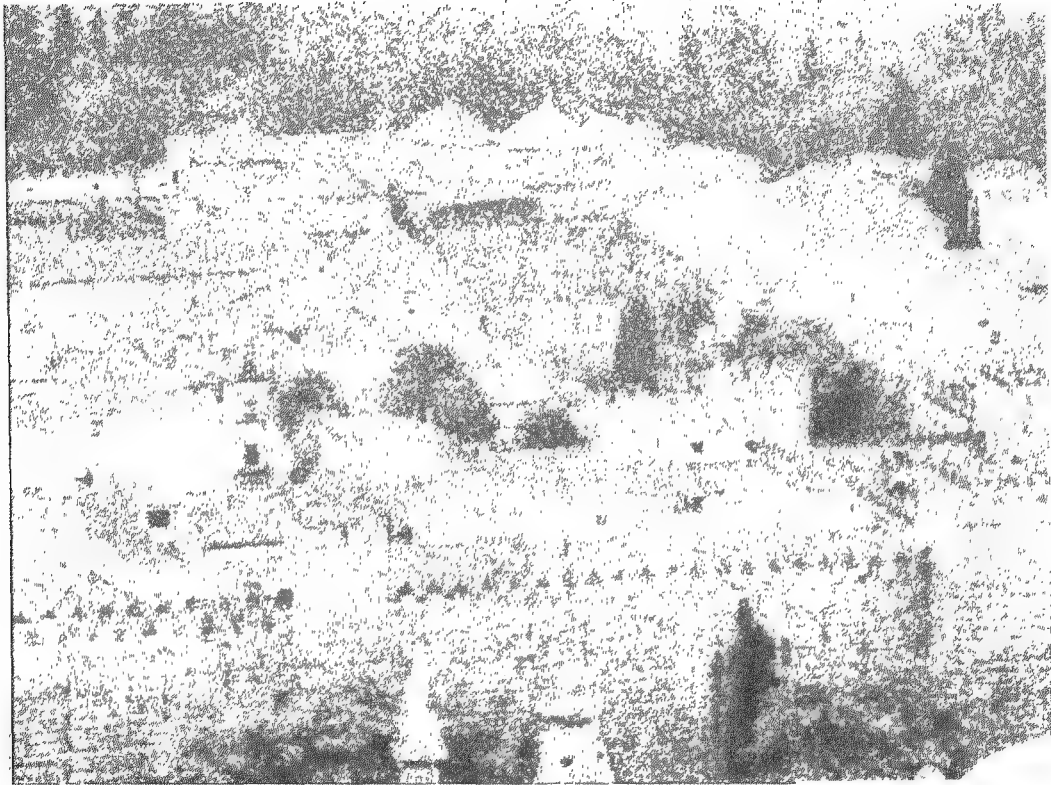


مسجد المساجد في دار الفنون ما
 فيها من إلا تراعى وحيايات
 من المساجد التي في دار الفنون ما
 منها من المساجد التي في دار الفنون

عمارات الجامع القمبي الذي حول كنيسة
 منارة جامع حول إلى كنيسة

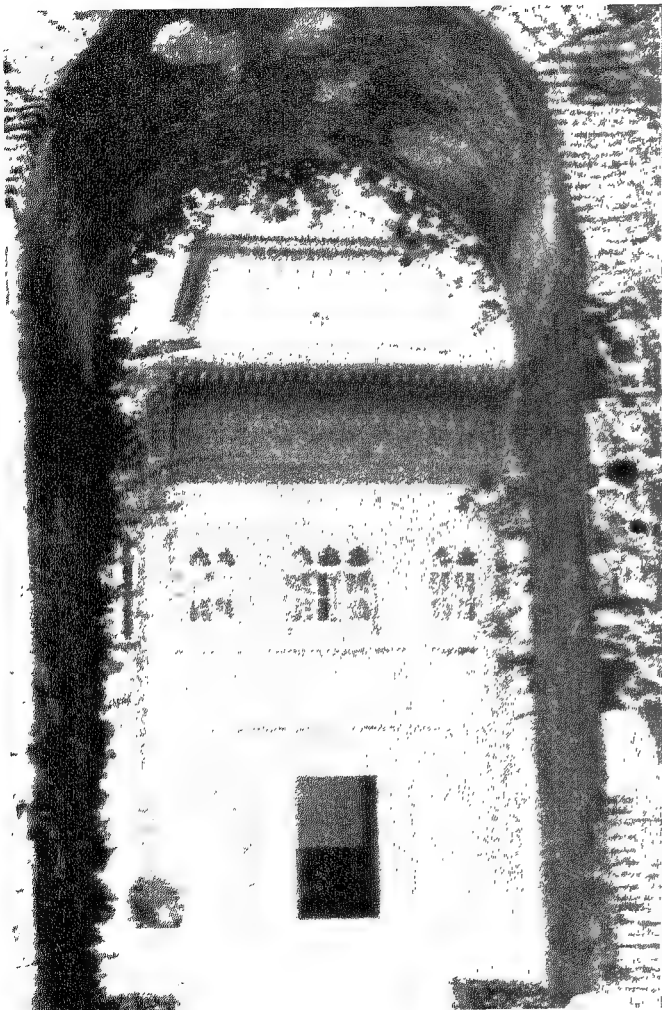
وانتهى جامع القديس ادم جوامع الشيلند ودار حول إلى كنيسة



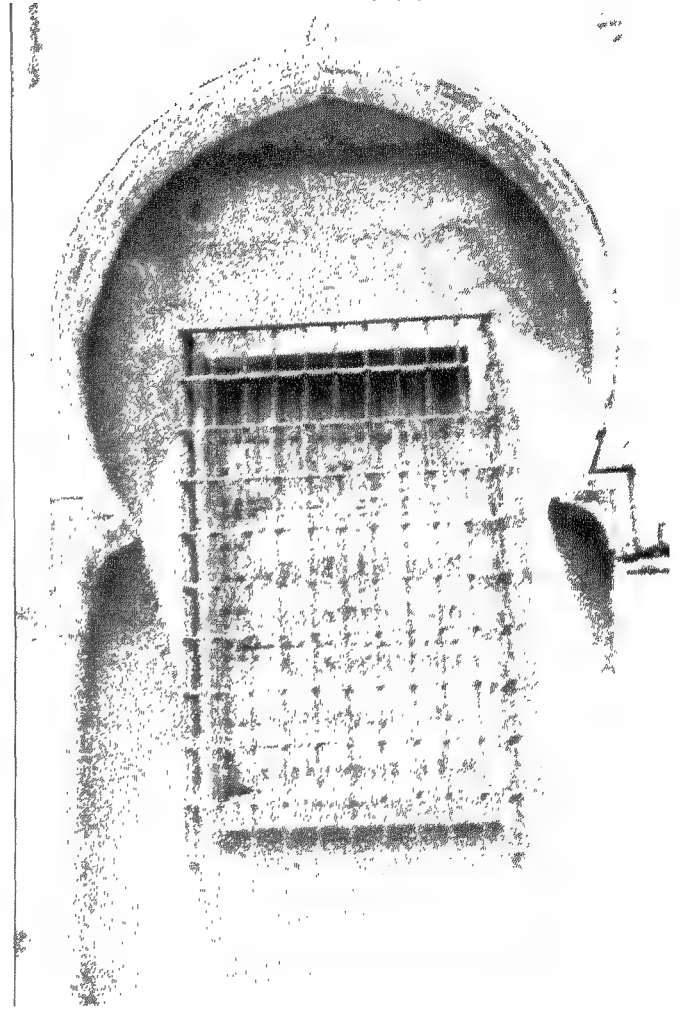


القصر : صورة من منارة الخيرالدا .

مدخل القصر أشبيلية

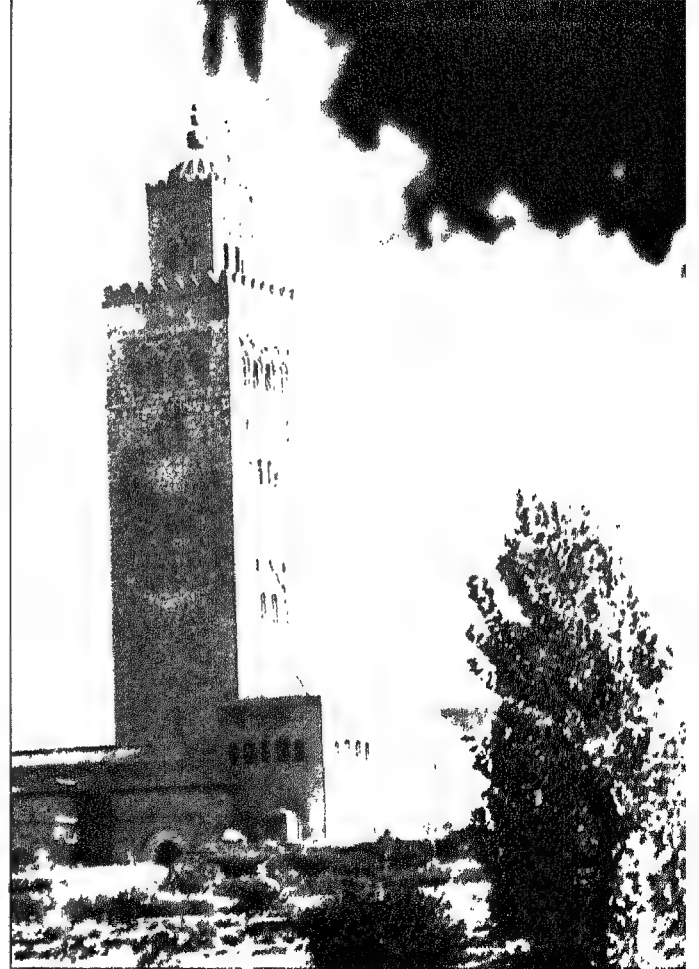


«أحد ابواب جامع اشبيلية جعل نافذة ثم سدت»





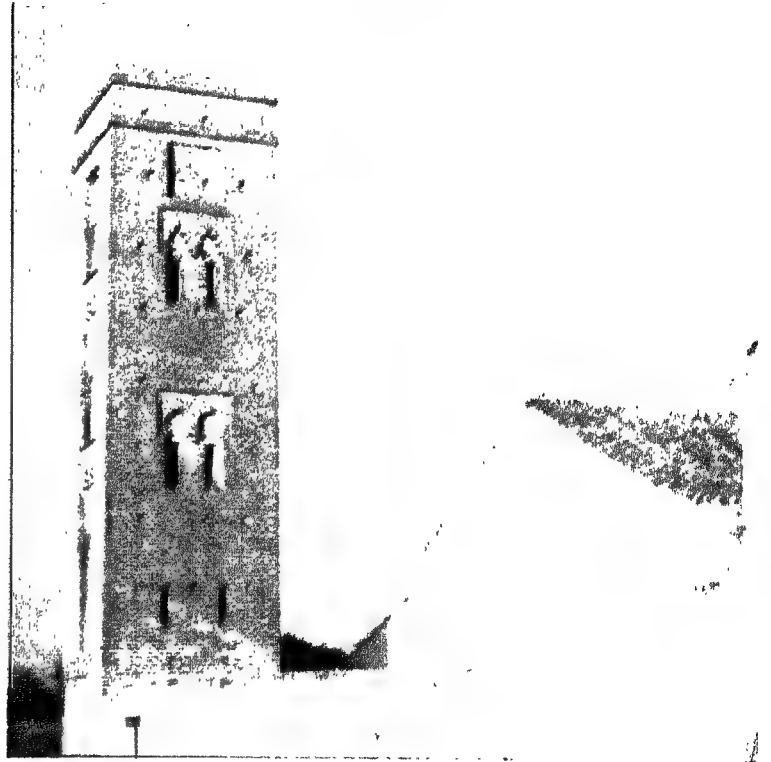
منارة حسان في الرباط

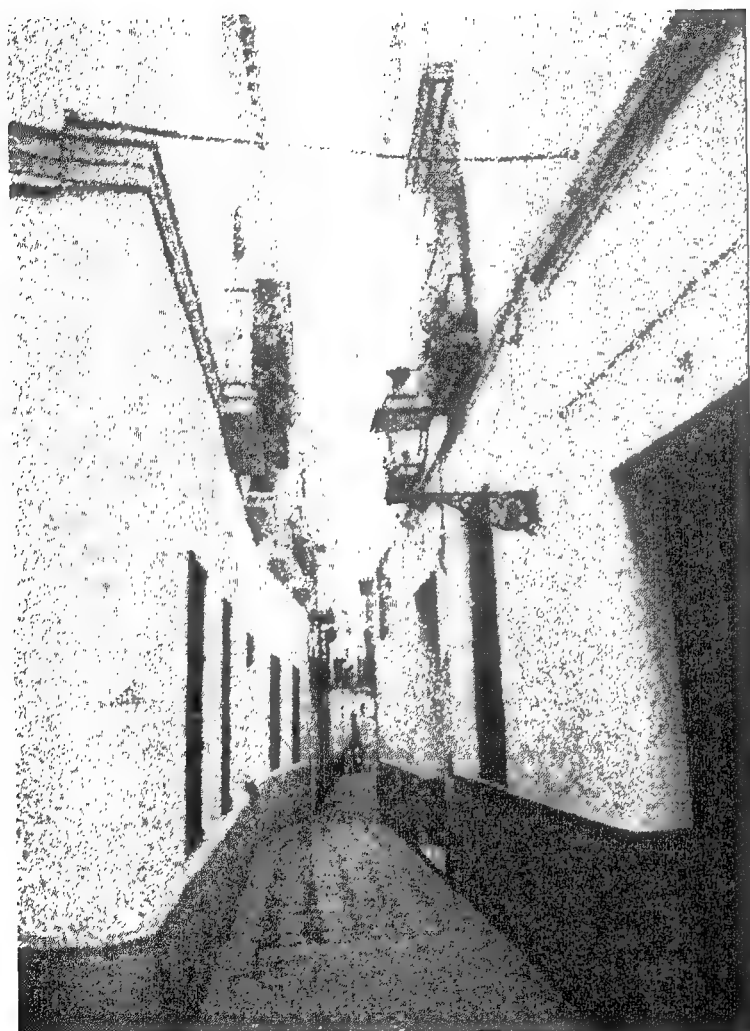


نارة جامع الكتبيين في مراكش

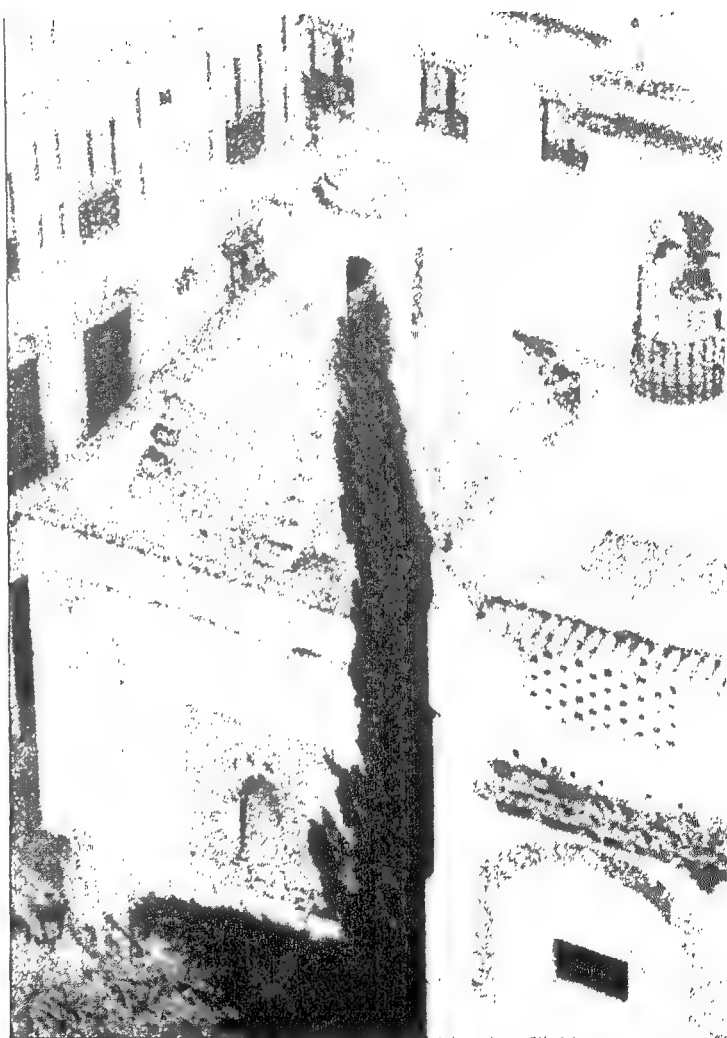


الخيرالدا منارة جامع اشيلية

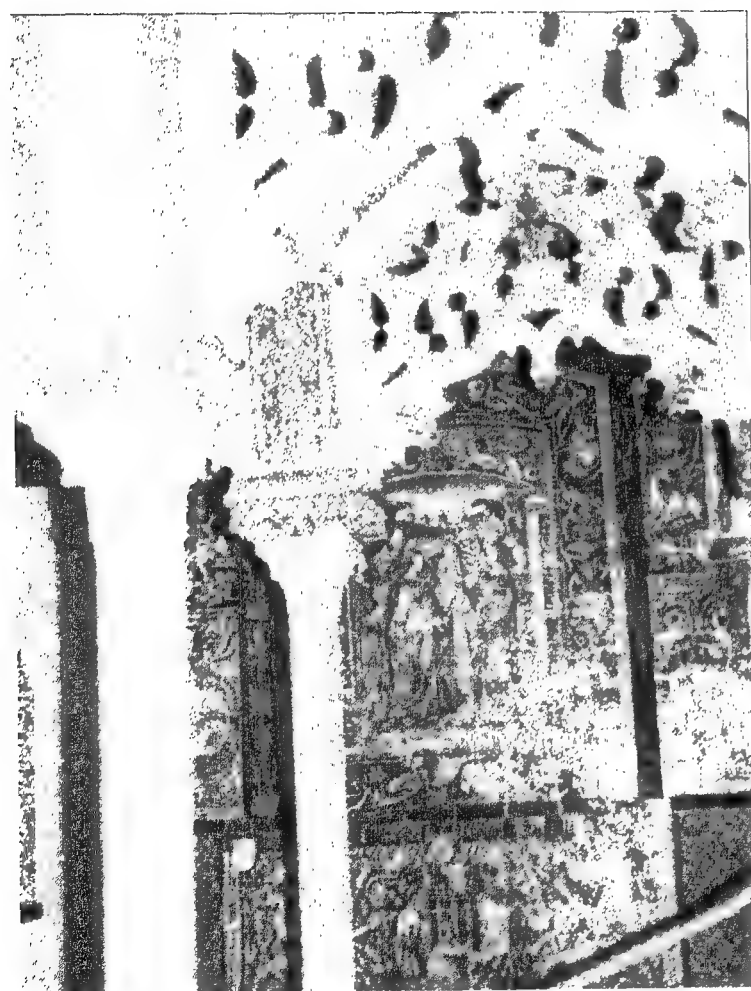




أحد أزقة أشبيلية.



جامع حول إلى كنيسة.



حديقة في اشبيلية.





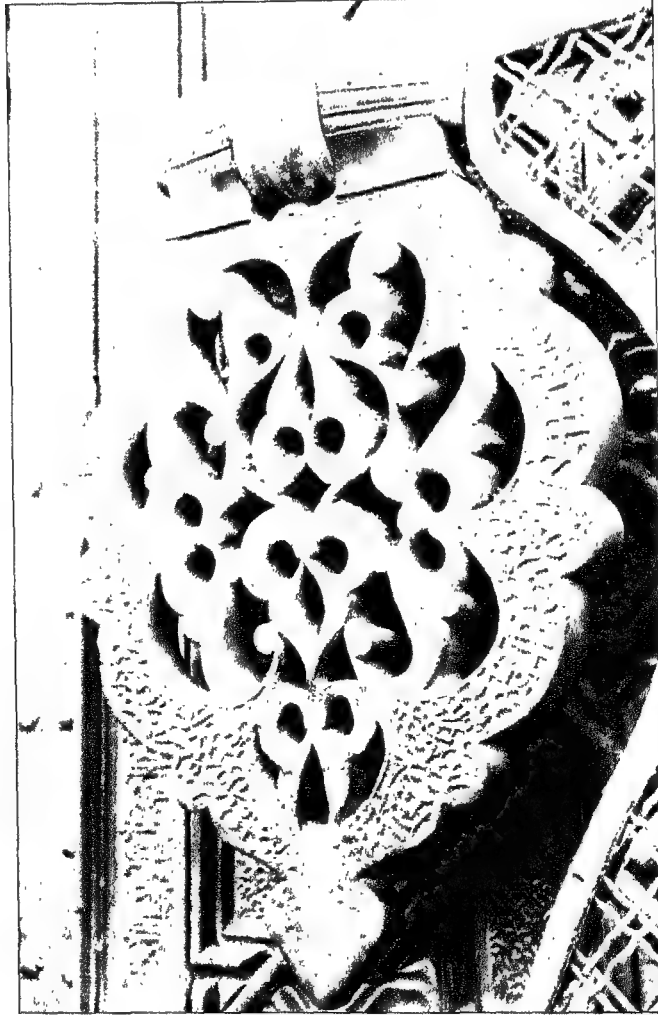
نموذج من الجمال العربي الاسباني



أشيبليه الراقصة



أندلسية ترقص بالكاستانوت



قارعة باب الجامع المؤدي الى فناء النارنج . . كل ما تبقى منه . . .

وشفافية . كل شيء في هذا القصر حالم ، نقوشه ،
أعمدته ، جدرانه ، نوافيره ، ممراته ، ابوابه ، نوافذه .
بل ان زائره يحس ، بعد ان يغادره ، انه كان في حلم ،
حلم لذيذ ، لا يريد له ان ينتهي .

فموقع القصر ، بحد ذاته ، يبيء له ميزة فريدة ، إذ
يشرف على المدينة من عل ، وتراه قابلاً في احضان جبل
الشمس الذي ينحدر من جبال السييرا نيفادا (جبل الثلج)
حيث تجلجل قممها الثلوج طيلة السنة تقريباً . والى جانب
القصر قلعة حصينة ، هي قصبة الحمراء التي كان يقيم
فيها الجنود . ويحيط بالحمراء سور عظيم له أبواب كبيرة
أهمها باب الشريعة (Peurta de La Justicia) ، وبلغ
ارتفاعه نحو خمسة عشر متراً ، وقد امر ببنائه ابو الحجاج
يوسف عام 1348/749 ، وباب النيذ (Peurta del
Vino) ، وكان يعرف أيام العرب بباب الحمراء وباب
الغدور (Peurta de las Pozas) وباب الطباقي السبع
(Peurta de Siete Suelos) وباب السلاح (Peurta de
las Armas) .

ويشير البعض الى ان اسم الحمراء اطلق على هذا
القصر بسبب لون جدرانه الخارجية ، في حين يقول
آخرون ان السبب في ذلك كان يرجع الى ان بناء القصر
كان يستمر ليل نهار وان ضوء المشاعل ليلاً كان يضيء
عليه ذلك اللون الأحمر ، في حين قال آخرون انه اتخذ اسم
بناته ، بني الأحمر . ويصر البعض ان الحصن كان يسمى
بحصن الحمراء اصلاً قبل ان يتخذ منه بنو الأحمر مقراً
لملكهم .

كما أن السائد لدى الكثير من الناس ان الحمراء هو
القصر . فالقصر هو في الواقع جزء من الحمراء ، ويسميه
الاسبان القصر العربي (Palacio Arabe) . فالحمراء ،
ان شئت ، مجمع ، فيه القصور والقصبة وعدد من الابراج
المتناثرة أهمها برج الحراسة في القصبة (Alcazaba) وبرج
قمارش (Torre de Comarex) وبرج المتزين (Torre
del Peinador) وبرج العقائل (Torre de las Damas)
وبرج الأكام (Torre de los Picos) وبرج الاسيرة (Torre

عندما انطفأت شموع العرب في الأندلس جميعها ،
ظلت شمعة واحدة تضيء في ذلك الركن الجنوبي الشرقي
من البلاد مدة قرنين ونصف قرن من الزمن ، تكونت
خلالها تلك اللؤلؤة المعمارية الخالدة التي عرفت بقصر
الحمراء .

لم تكن لغرناطة كبير أهمية بالنسبة الى اوائل الحكام
العرب في الأندلس . ولذلك لا توجد فيها آثار عربية
ترجع الى العهود الأولى من الوجود العربي . كان فيها
حصن قديم استخدم أيام ملوك الطوائف ، ثم استولى
عليه محمد بن نصر بن الأحمر اثر سقوط قرطبة وباقي
المواقع العربية ، وزاد من تحصينه ، وابتنى فيه قصراً ،
هدمه فيما بعد شرلكان ، وأنشأ في مكانه قصراً لا يزال قائماً
حتى اليوم ، اراد أن ينافس فيه قصر الحمراء العظيم ،
فجاء منافياً للذوق الفني ، ومتنافراً مع ما حوله من طابع
عربي ، فكان كجسم غريب وسط أسرة معمارية واحدة
متناسقة .

أما الفصر ، اللؤلؤة الفريدة ، الذي ما زال قائماً حتى
اليوم ، باعجوبة يذهل لها المهندسون قبل المشاهدين
العاديين نظراً لهشاشته ، فقد ابتناه سابع ملوك بني
الأحمر ، وهو السلطان ابو الحجاج يوسف ، الذي دام
ملكه مدة اثنين وعشرين عاماً ، 1354-1333/755-733 ،
وزاد من عدد أجنحته خمسة سلاطين آخرين .

وكان لا بد ، لمن يقوم بابتناء مثل هذا القصر الحالم ،
أن يتحلى بما تحلى به هذا السلطان من شاعرية وحساسية

(Torre de las amiratas و برج الاميرات de la Cautiva)
Infantas) وتتخللها جميعاً الحداثق وتقع فيها جنة
العريف الساحرة.

ويلج الزائر قصر الحمراء من باب الشريعة الذي
يفضي الى ميدان الحب (أي الصهرج) ، (Plaza de
los Aljibes)

ويتكون قصر الحمراء من جناحين اساسيين هما جناح
قمارش ، ويشتمل على قاعة السفراء ويعلوه برج
قمارش ، وجناح الأسود حيث بهو الأسود الشهير . ويمتد
أمام برج قمارش ، الذي يعلو قاعة السفراء ، فناء واسع
مستطيل مكشوف ، تتوسطه بركة ماء تحيط بها أشجار
الريحان ، واسمه فناء الريحان (Patio de los
Arrayanes) ويسمى أيضاً بفناء البركة (Patio de
Alberca)

اما قاعة السفراء (Sala de Embajadores) فمستطيلة
الشكل فسيحة تعلوها قبة عالية من الخشب المحفور يزيد
ارتفاعها عن ثلاثة وعشرين متراً . وتزخر جدران القاعة
بالنقوش العربية ، التي جردها الاسبان بعد ان طمسها
يد التعصب اثر سقوط غرناطة ، وكستها بطبقة من
الكلس لطمس معالم الأثر العربي فيها . وثمة نقوش
لابيات من الشعر وآيات قرآنية في جميع أنحاء القاعة .

وينفتح من فناء الريحان باب يؤدي الى قاعة الإختين ،
وقد سميت كذلك لوجود قطعتين متساويتين فريدتين من
الرخام في أرضها . وينفتح منها باب يؤدي الى بهو السباع
العجيب .

ويرجع الفضل في انشاء هذا البهو ، الذي يعتبر درة
تاج قصر الحمراء ، الى السلطان محمد الغني بالله الخامس
(1391-1354/793-755) ، بل ربما كان أجمل الآثار الباقية
من التراث المعماري الذي تركه العرب في اسبانيا او في أي
مكان آخر . ومن العبث الاسترسال في وصف جمال هذا
الفناء . فجميع نعوت اللغة ، أية لغة ، لا يمكن ان تفيه
حقه ، حتى ان أشهر الفنانين والمصورين يشعرون بالعجز

عند محاولة التعبير عن جماله بريشاتهم وعدساتهم ، ولا بد
للمرء من مشاهدته بنفسه ليشعر بالسحر والرهبة ازاء ذلك
الابداع العبقري .

ولعل الرشاقة هي أبرز صفاته ، بل الشفافية ، بل ربما
كانت الجاذبية التي تشد اليه الزائر ، فلا يقوى على
مبارحته ، يظل واقفاً مشدوهاً يسرح بخياله ، ينتظر عبور
السلطان بجبته الفضفاضة وعمامته المرصعة ، بل جواريه
الحسان بثيابهن الزاهية وهي ترقص طرباً فوق اجسادهن
الغضة ، على أنغام خرير المياه المتدفقة من النافورة التي
يحملها اثنا عشر اسداً ينفثون هم كذلك الماء من
أفواههم ، فيختلط هذا كله بتغريد البلابل في سمفونية
خالدة رائعة النغم .

وبهو الأسود او السباع هذا مكشوف مستطيل الشكل ،
طوله نحو خمسة وثلاثين متراً ، وعرضه نحو عشرين ، تحيط
به أروقة ذات عقود جصية اشبه ما تكون ، في زخرفتها
وخفتها بأغشية رقيقة شفافة من « دانتيلة » صنعتها أنامل
ملائكية ، وربطت اطرافها المتدلّية بأعمدة رخامية رقيقة
جاءت تجسماً للرشاقة والخفة والهيف .

وفي نهايتي الفناء خميلتان تعلوهما قبتان مزخرفتان
تستندان الى أعمدة كالأعمدة التي تستند اليها الاروقة ،
وتكوّن معها ، غابة من الأعمدة الرقيقة التي يحار البصر في
جمال صنعتها ورشاقتها . وقد نقشت على حافة النافورة
ايبات من شعر ابن زمرك في وصف الحمراء ، وشعار بني
الأحمر « ولا غالب الا الله » وهو الشعار الذي يتكرر نقشه
في جميع أنحاء الحمراء .

وفي أحد جوانب البهو ، أي في مقابل بهو الاختين باب
يؤدي الى قاعة بني سراج (Sala de los Abencerrajes)
التي تعلوها قبة تتدلى منها مقرنصات
رائعة اشبه بالعناقيد ، وتحيط بها اقواس مزخرفة وتتوسطها
بركة صغيرة مضلعة . وهي من اجمل قاعات قصر
الحمراء . وبنو سراج هؤلاء كانوا خصوم بني الأحمر ،
وتقول اسطورة يرددونها الكثير ، بأن احد سلاطين بني
الأحمر دعاهم الى القصر ، وقتلهم واحداً بعد الآخر تخلصاً

من منافستهم له ، ويدلل مردود الاسطورة على ذلك بوجود بقع داكنة من الدماء ما زالت عالقة في أرض القاعة . ولعل هذه واحدة من مئات الاساطير التي ردها الاسبان ، بعد الاسترداد ، حين أخذت الكنيسة تسلط على عقول الناس ، وتحشوها بالكثير من الخزعبلات والخرافات .

والى الجنوب من بهو السباع مدخل يفضي الى قاعة الملوك ، وهي عبارة عن قاعة مستطيلة تنتصب فيها اقواس مدببة متعاقبة تتدلى منها زخارف جصية كما في القاعات الأخرى . وفي سقف القاعة رسم على الجلد يقال انه يمثل سلاطين بني الأحمر ، أغلب الظن انها من رسم فنانين نصارى . وجدرانها ، كبقية جدران القصر مزخرفة أجمل زخرفة وعليها نقوش في صورة ابيات من الشعر .

وفي القصر قاعات عديدة أخرى منها منظرة السلطنة (Mirador de Lindaraja) وهي قاعة جميلة تشرف على فناء مكشوف كثير الخضرة تتوسطه نافورة صغيرة .

ومن المعالم المهمة في القصر ، الحمام العربي الجميل الذي يضم عدداً من الاحواض التي كانت تصل اليها المياه الساخنة والباردة في أنابيب ما زالت موجودة . وتتوسط الحمام العربي قاعة استراحة ، لها مصطبة مرتفعة عن سطح الأرض ، يكسوها بلاط قيشاني ذو رسوم عربية ، وامامها نافورة . وهذه القاعة سلم جميل يصلها بالقصر .

ويشير الاعتناء بتجميل هذه القاعة الى مدى اعتناء العرب بالاستحمام والنظافة ، في الوقت الذي لم يكن أهل أوروبا ، وحتى الرومان الذين اخترعوا هذه الحمامات ، يعرفون الاستحمام ، بعد ان حرّمته الكنيسة باعتباره مخالفاً للطبيعة ، وبالتالي كان الاستحمام يعد ضرباً من ضروب الهرطقة والكفر . حتى ان قصر فرساي العظيم ، بجوار باريس ، الذي جاء تجسيداُ للالهة

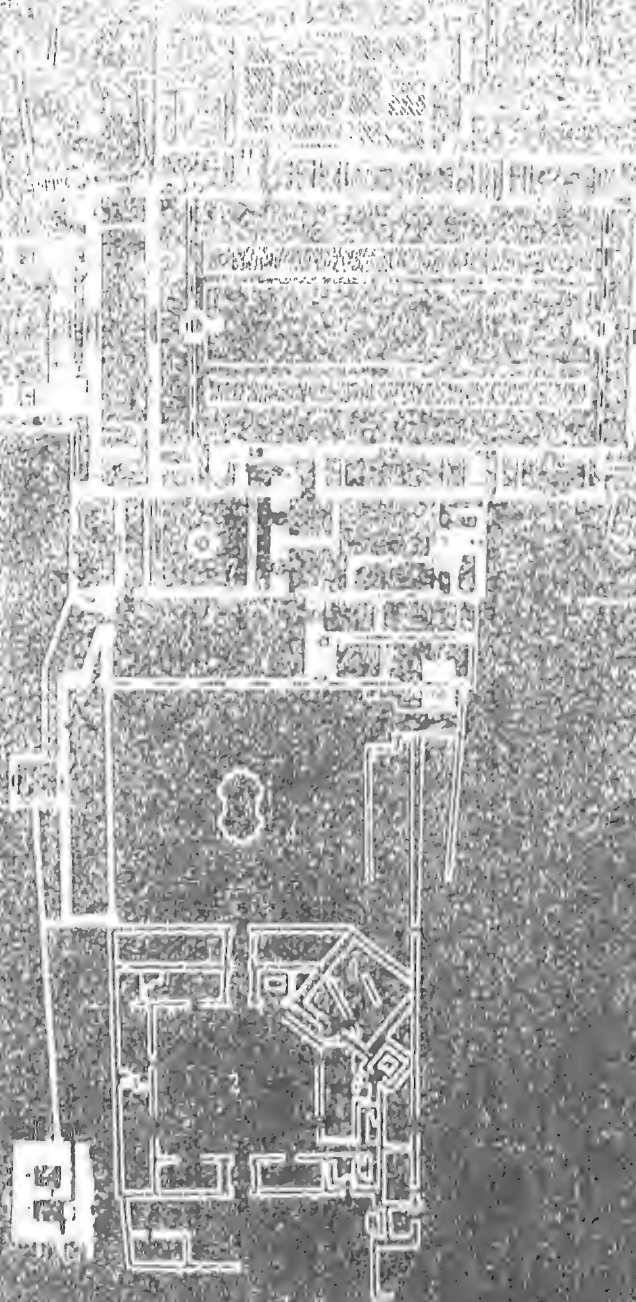
والفخامة لم يكن فيه مكان واحد للاستحمام .

ولم تقتصر الناحية الجمالية على القصر وحده . ففي حدائقه ابراج لا تقل زخرفتها وجمالها عما في القصر ذاته ، ومن هذه الابراج برج الأسيرة (Torre de la Cautiva) وبرج الاميرات (Torre de las Infantas) ، وهي اسماء اطلقها عليها الاسبان فيما بعد وأوحت لهم بالعديد من الاساطير والقصص الخيالية التي كانت تدور حول حياة القصور ، وممارسات العرب للسحر والشعوذة ، والتي وضع الكاتب الامريكي واشنطن ايرفنج عنها كتابه الشهير « قصص من الحمراء » .

أما الحدائق المحيطة بالقصر فهي اشبه بالجنة ، ولا عجب أن اطلق عليها اسم جنة العريف (أي المهندس) . وثمة بناء آخر بمحاذاة القصر اسمه البرطل (Partal) وامامه بركة ماء فسيحة تحيط بها الأشجار والزهور .

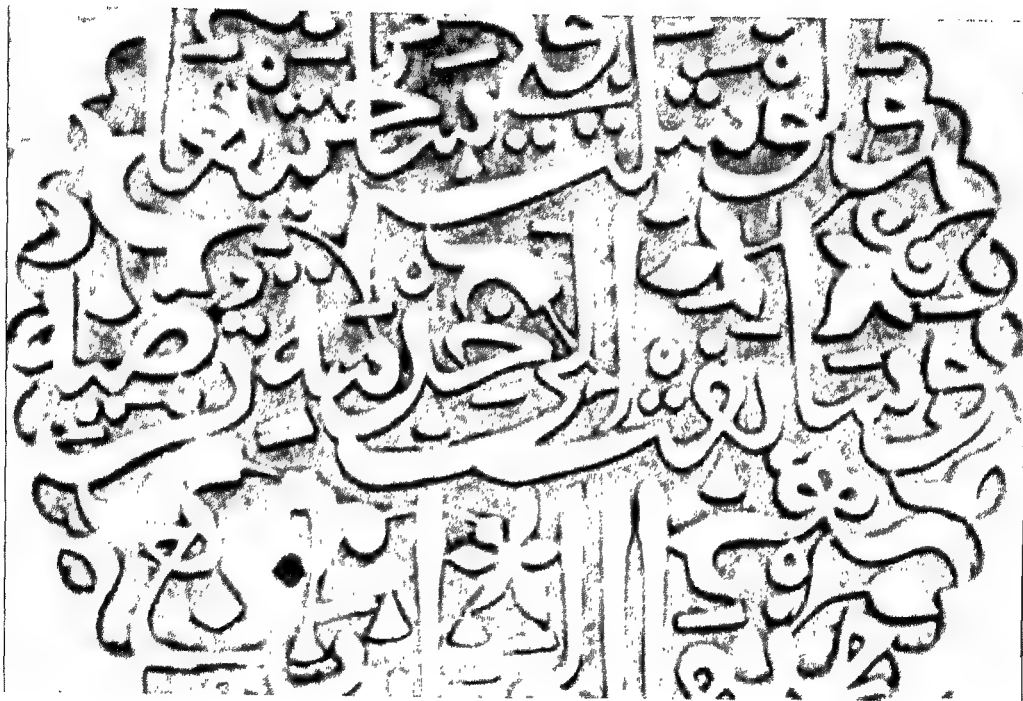
أما جنة العريف فتقع على هضبة تشرف على قصر الحمراء وهي عبارة عن حدائق رائعة يتوسطها قصر مكون من طابقين ابتنى الاسبان الطابق العلوي منها فيما بعد . وتصور هذه الحدائق الرائعة مدى عشق العرب للمياه الجارية ، الذي ربما يرجع الى حرمانهم منها تاريخياً . ولعل في صور هذه الحدائق أجمل تعبير عن روعتها وجمالها .

ويطول الحديث عن الحمراء وعن غرناطة وعن التراث الذي خلفه اجدادنا في تلك البلاد الجميلة . واذا تحول المرء في غرناطة ، في حي البيازين وسوق القيصرية يصعب عليه أن يصدق أنه في بلد غير عربي . حتى ان اشكال الناس تغريه بمخاطبتهم بالعربية .



- 1 - باب المدخل
- 2 - باب المدخل
- 3 - باب المدخل
- 4 - باب المدخل
- 5 - باب المدخل
- 6 - باب المدخل
- 7 - باب المدخل
- 8 - باب المدخل
- 9 - باب المدخل
- 10 - باب المدخل
- 11 - باب المدخل
- 12 - باب المدخل
- 13 - باب المدخل
- 14 - باب المدخل
- 15 - باب المدخل

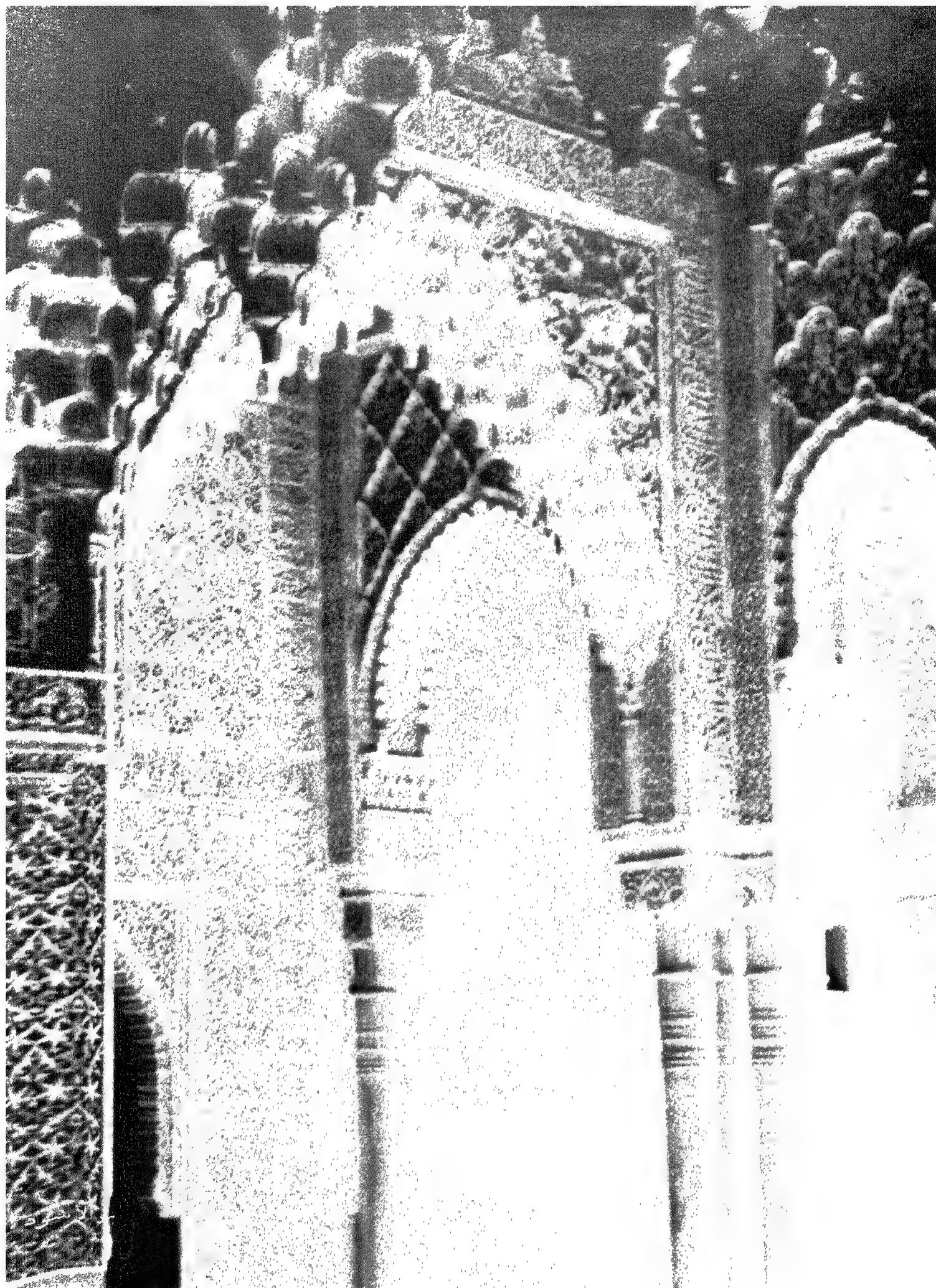
- 16 - قاعة الأعيان
- 17 - جو الساع
- 18 - قاعة المعرصات
- 19 - قاعة الملوك
- 20 - قاعة بني سراج
- 21 - قصر كارلوس الخامس



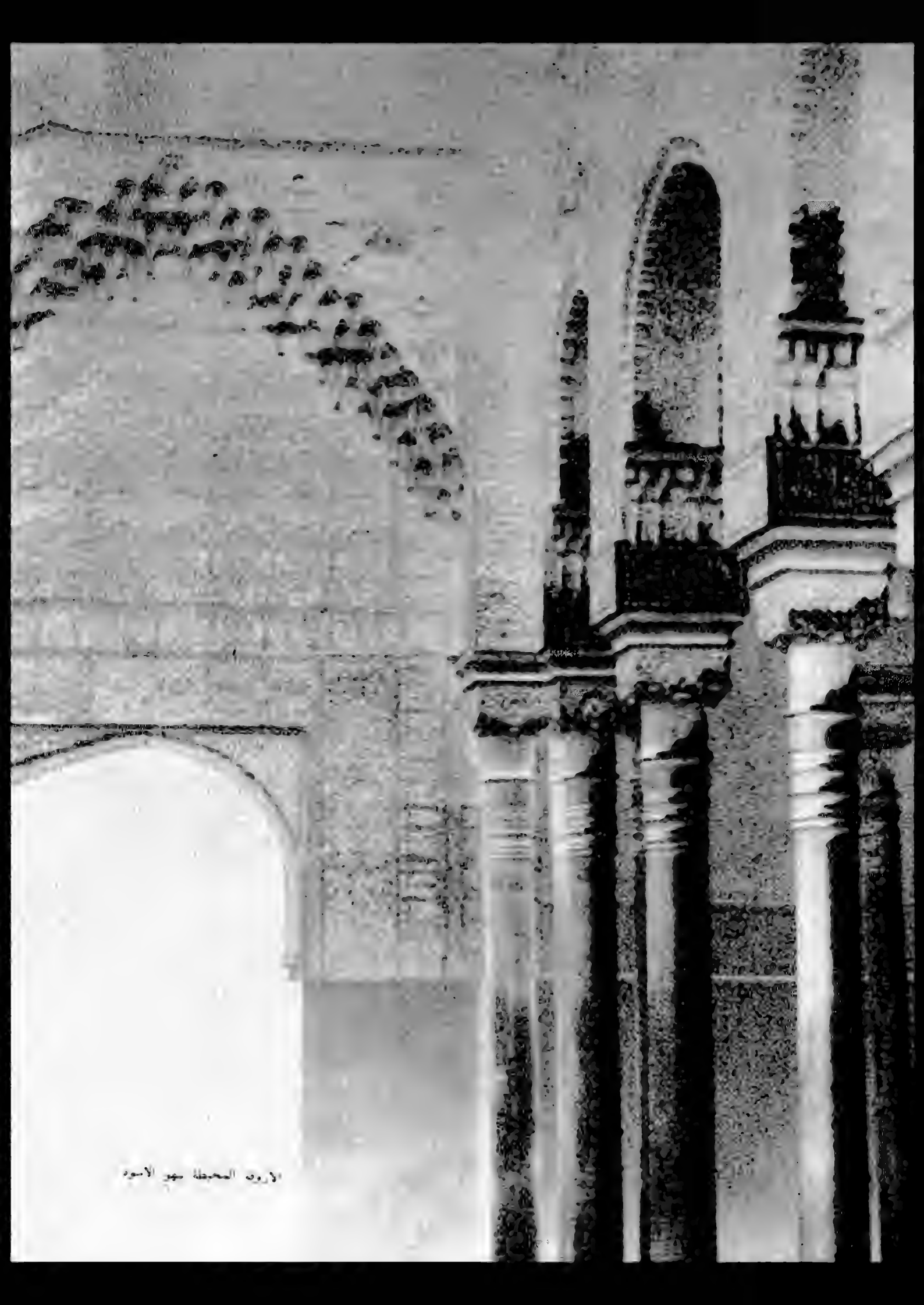
نفوش خارج قاعة حمامش تثل جزءا من احدى فساند ابن زمرك

دعى الله من غرياطه متبوا
يسر حزينا او بجبر طريدا
تبرم منها صاحبي عندما رأى
مسارحها بالثلج عدن جليدا
هي القصر صان الله من اهلت به
وما خبر ثغر لا يكون برودا

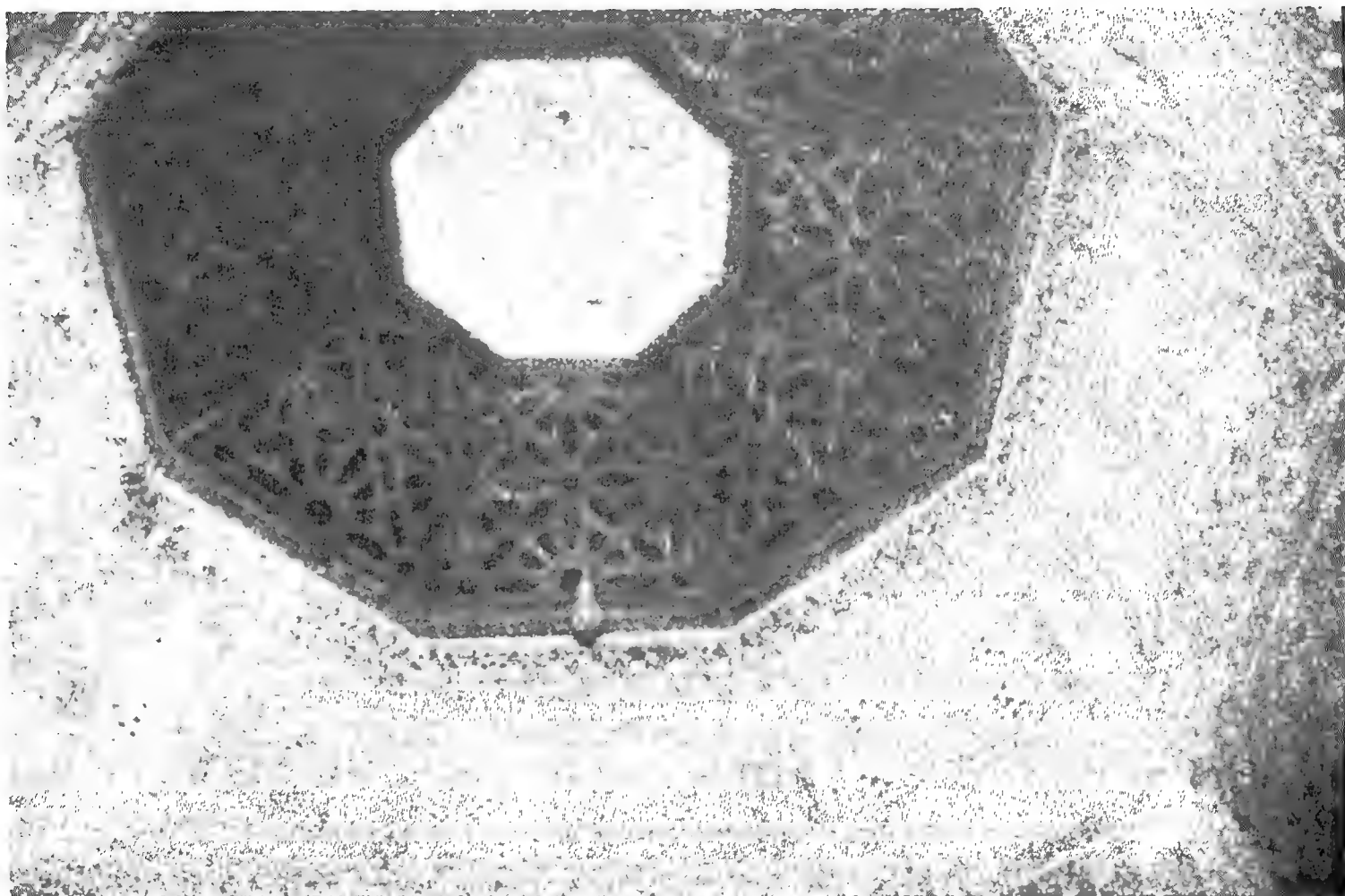






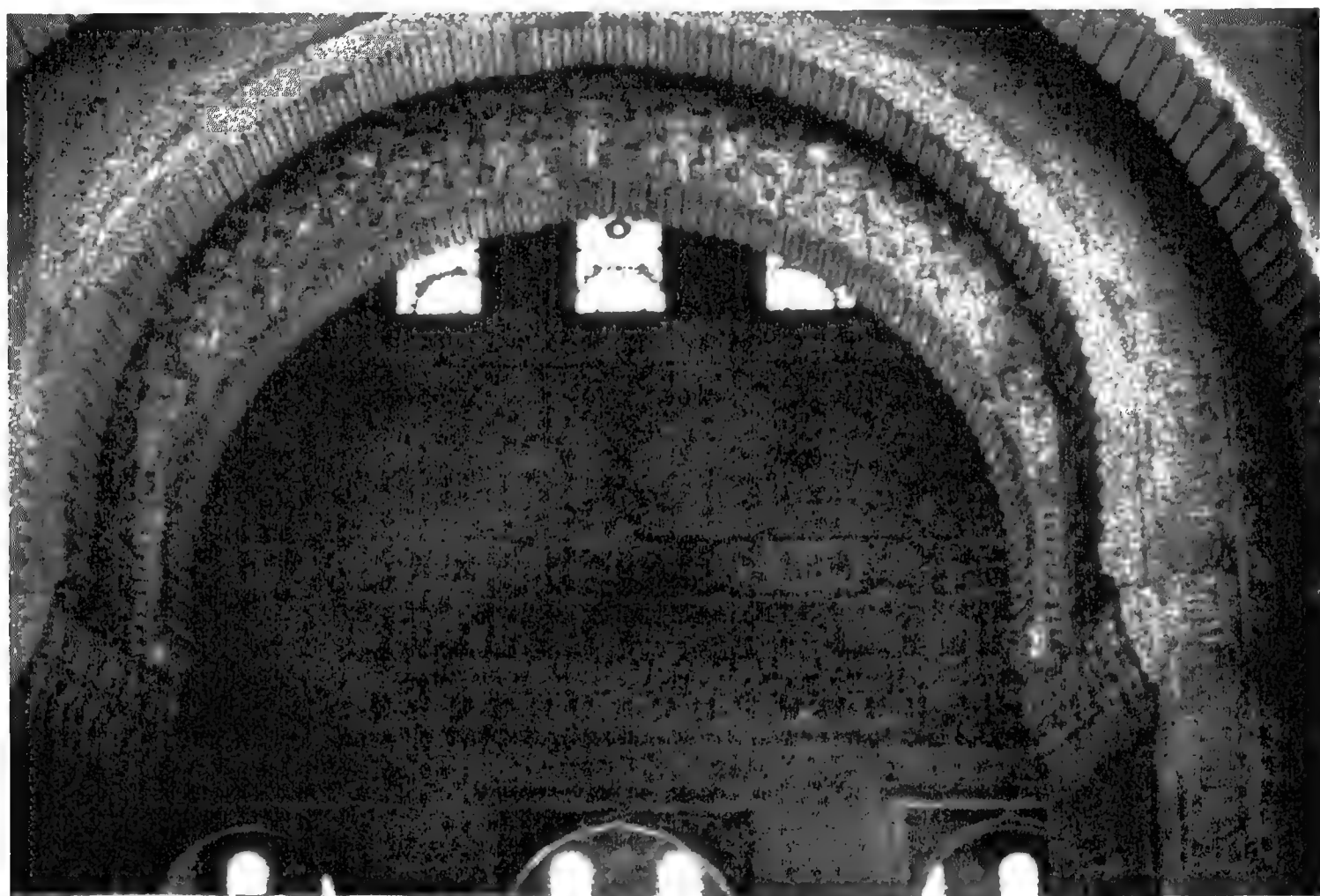


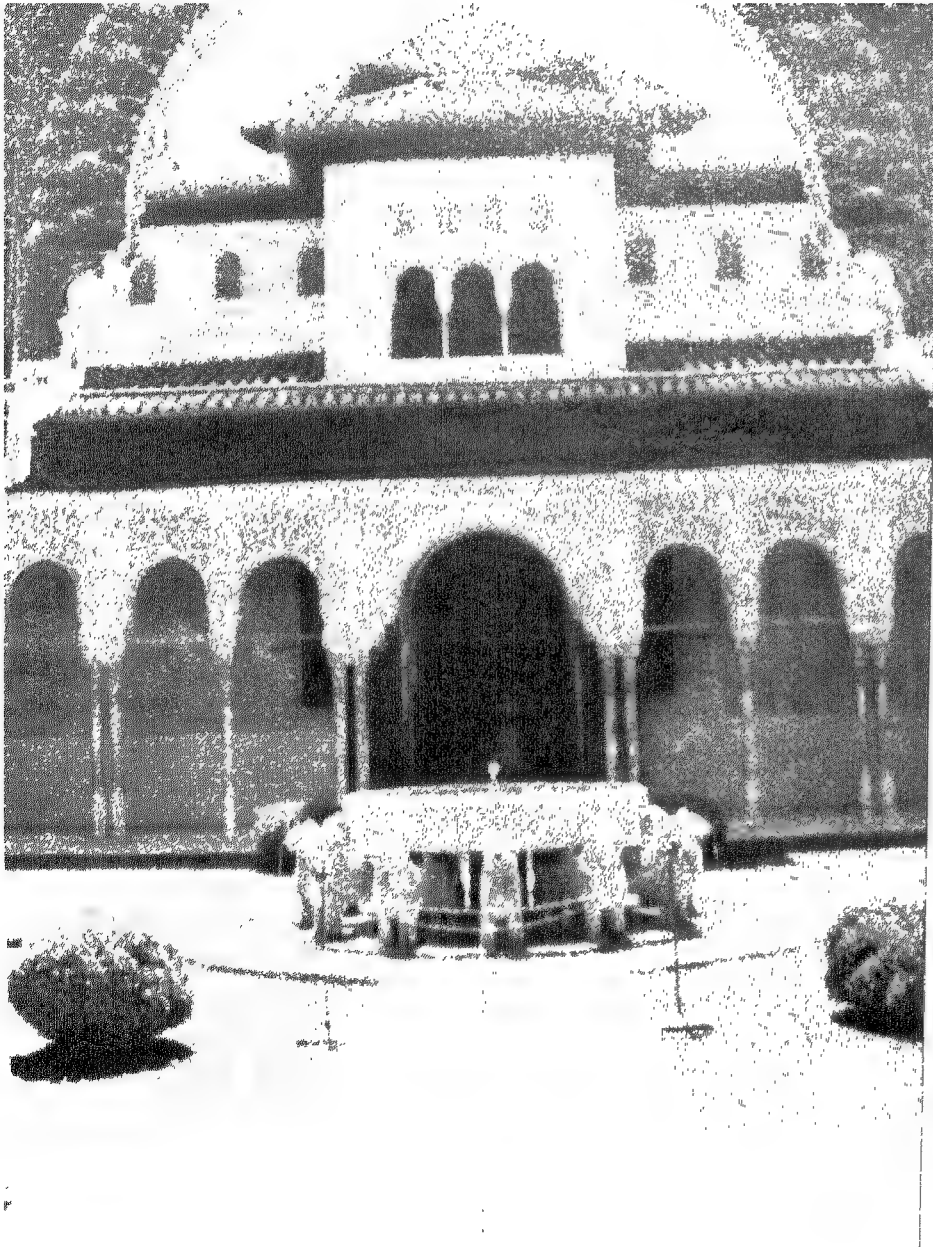
الارون المحطة بهو الأسود



مدخل قاعة السفراء.

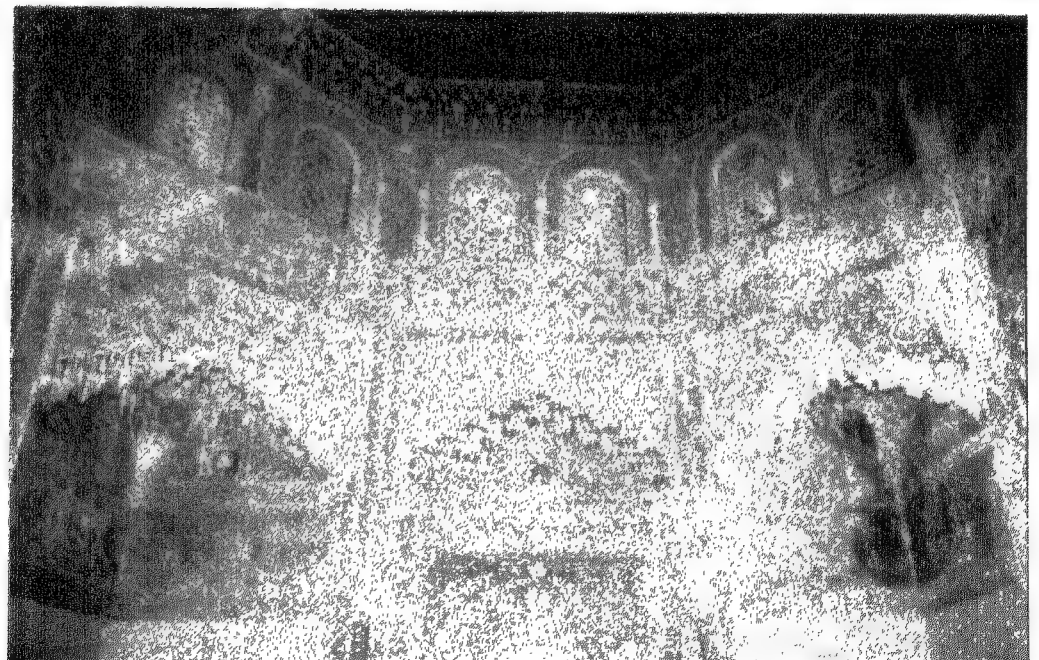
قبة قاعة السراء.





مركز المدينة
 مبنى البلدية
 مبنى البلدية
 مبنى البلدية

مبنى البلدية



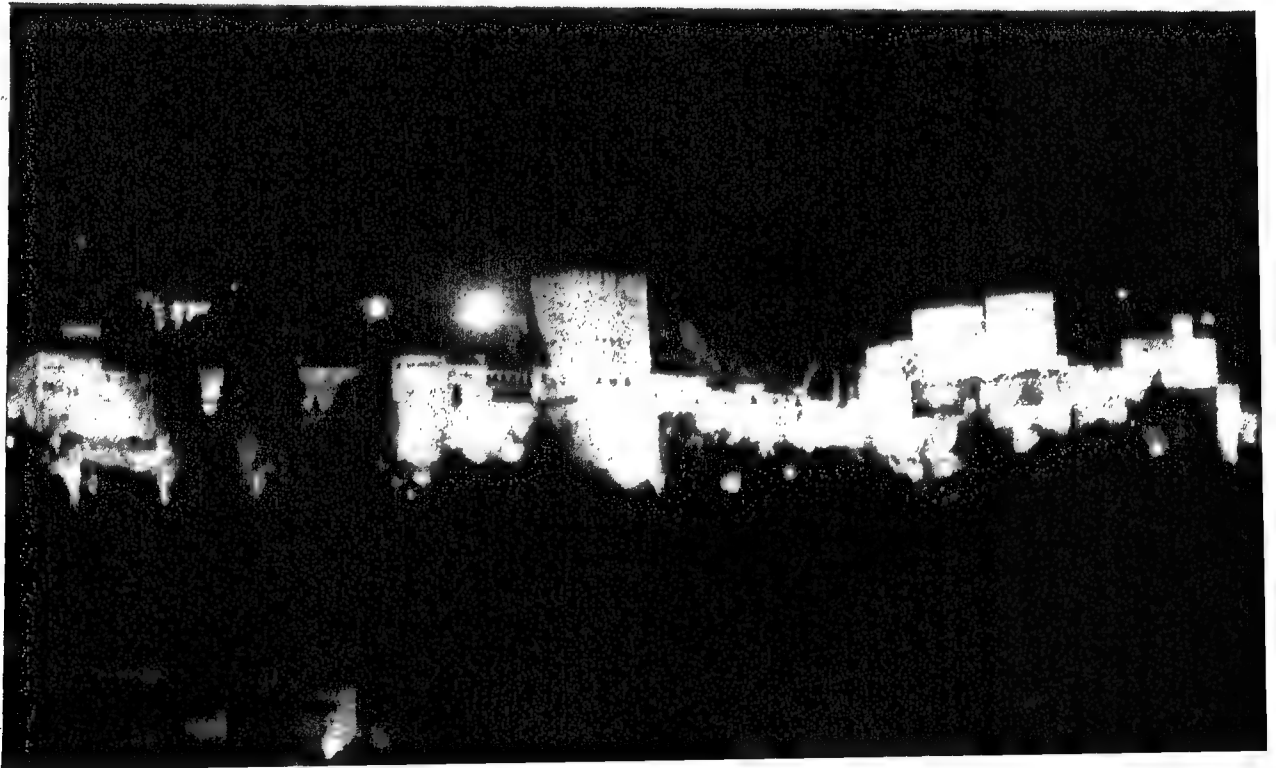
قاعة السفراء

قصور الحمراء .



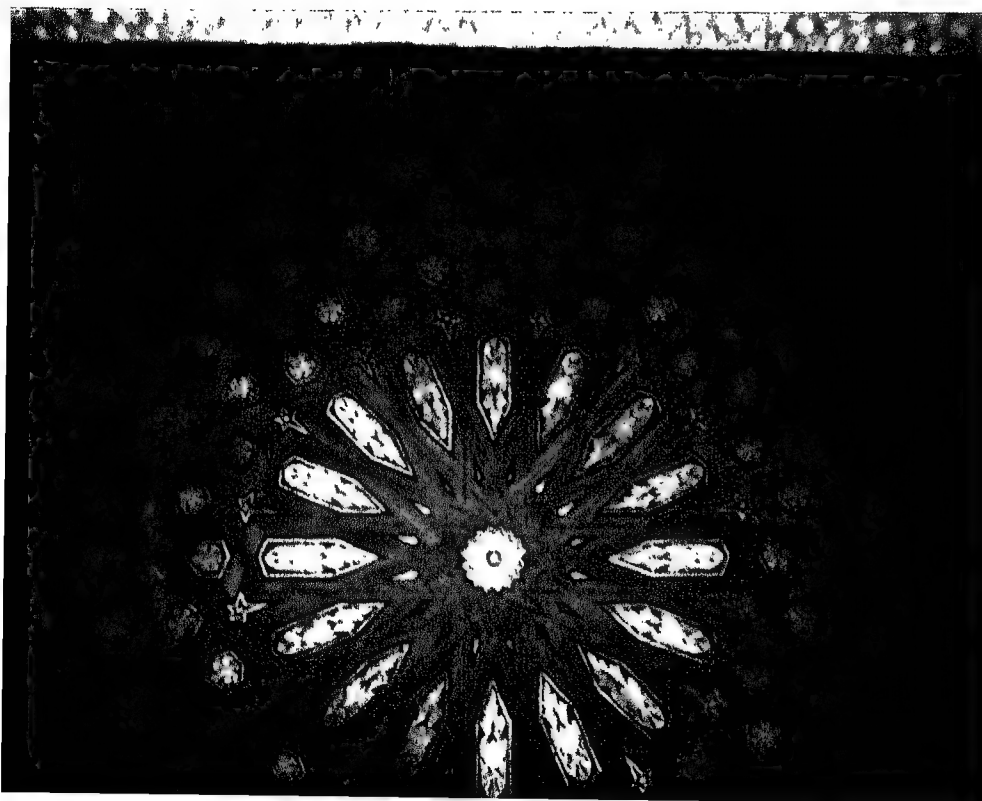
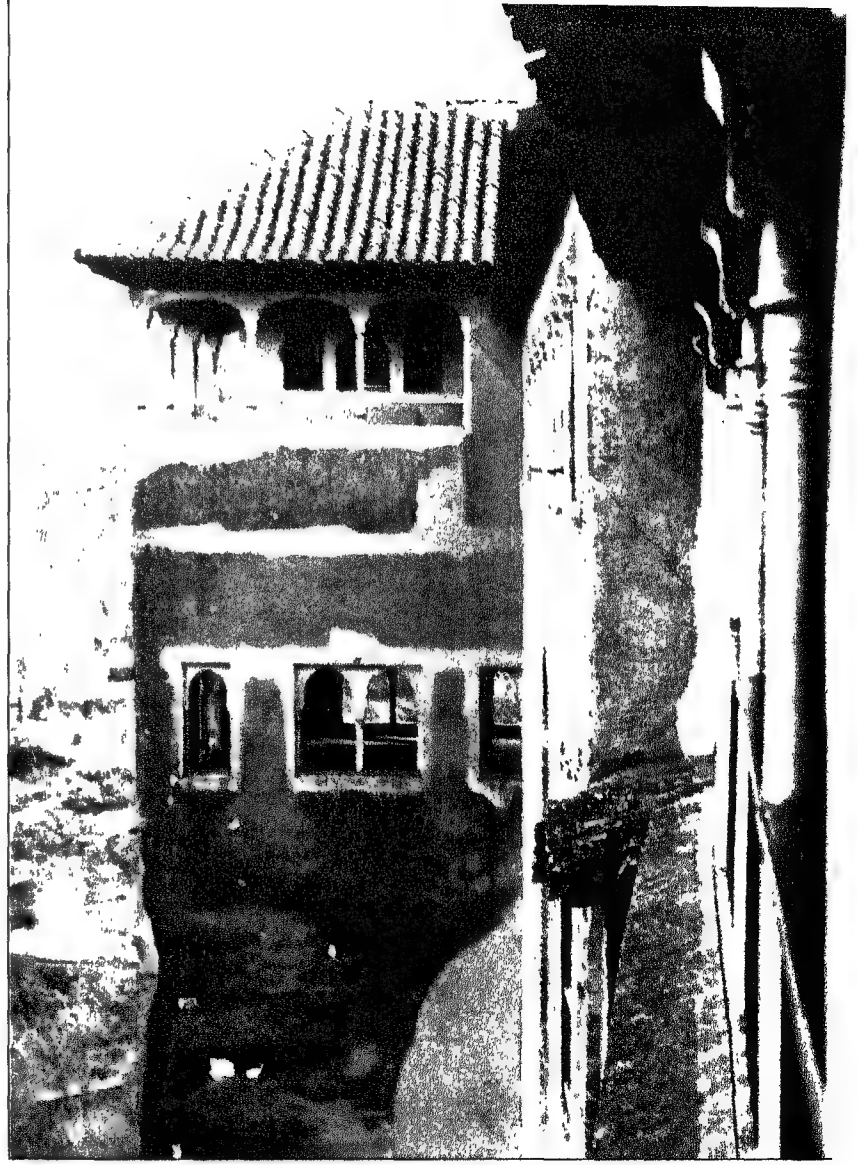
رعى الله بالحمراء عيشاً قطعته
ذهبت به للانس، والليل قد ذهب
ترى الأرض منها فضة فإذا اكتست
بشمس الضحى عادت سيكتها ذهب

قصور الحمراء :
منظر ليلي .

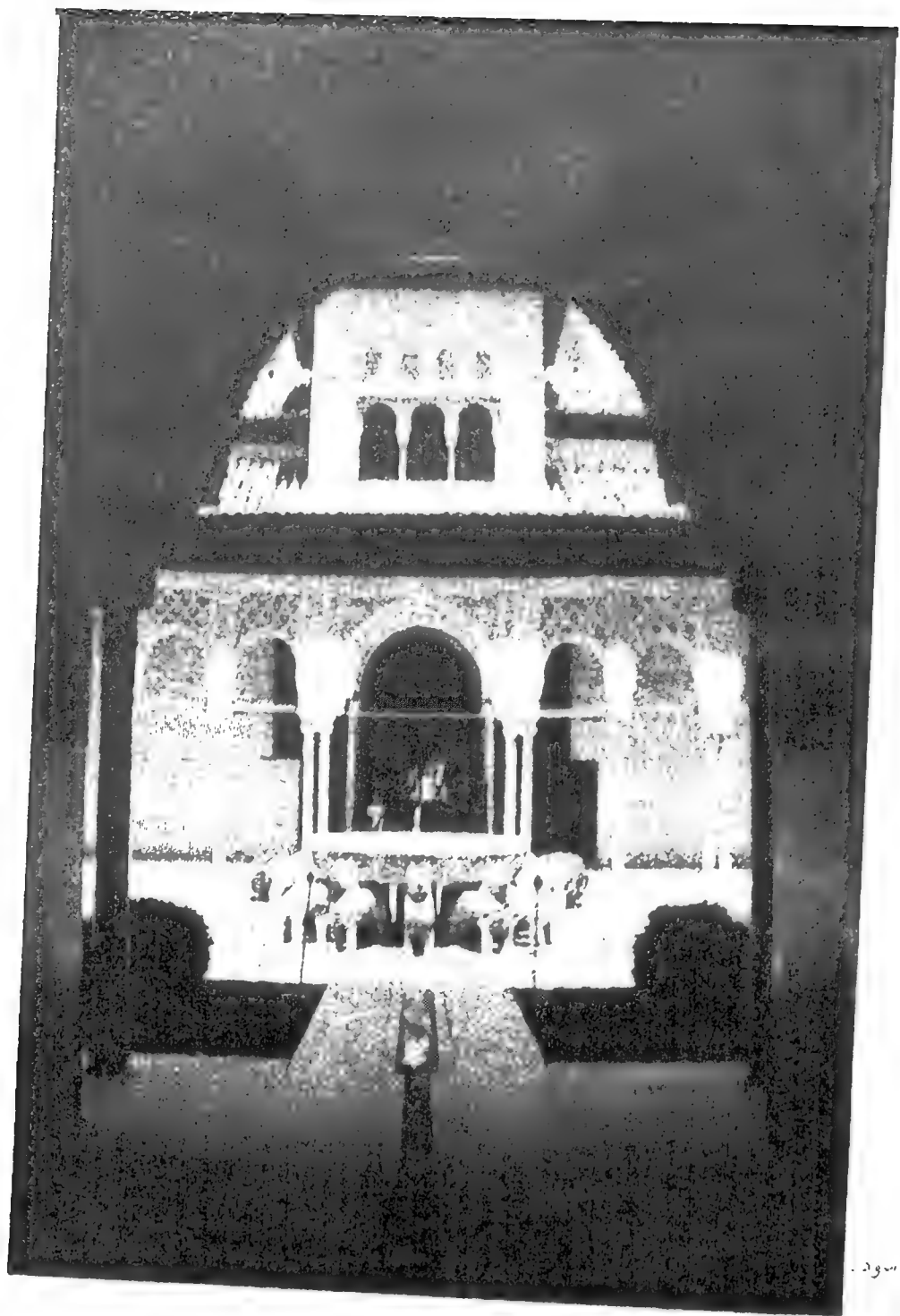


وتريك في الصهيرج موقع قطرها
فوق الزبرجد لؤلؤاً مشورا
ضحكت بحاسنه إليك كأنما
جعلت لها زهر النجوم ثغورا

أحد أجنحة
قصر الحمراء.

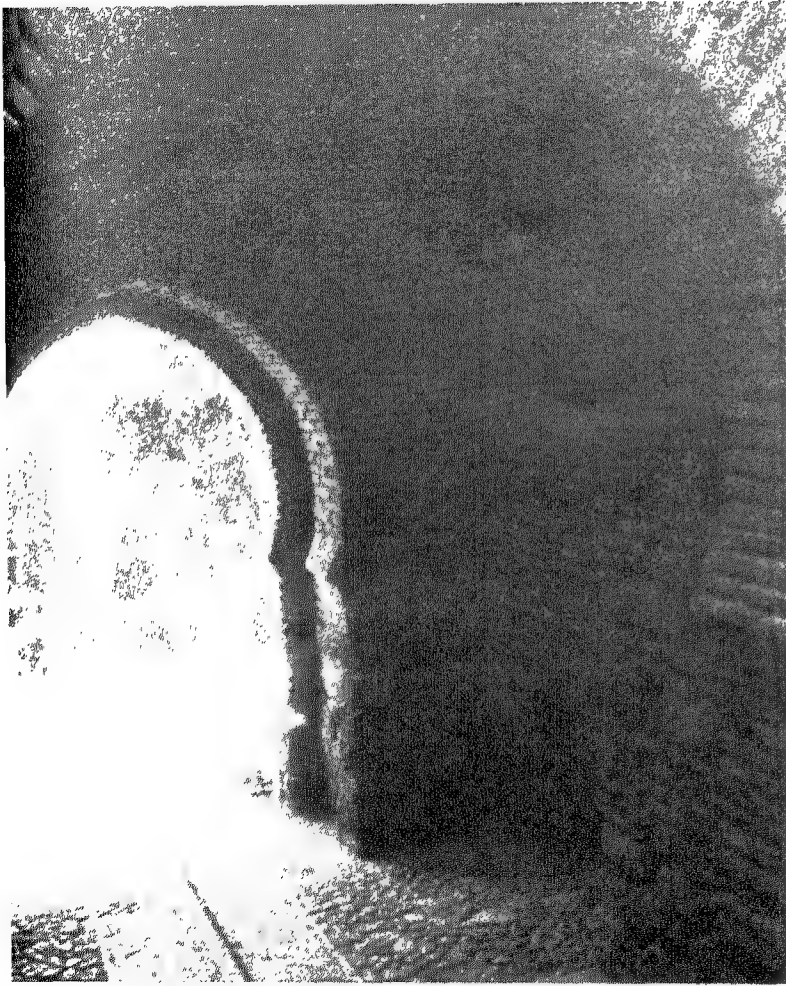


سقف قاعة العدل
مصنوع من خشب الأرز
المذهب.

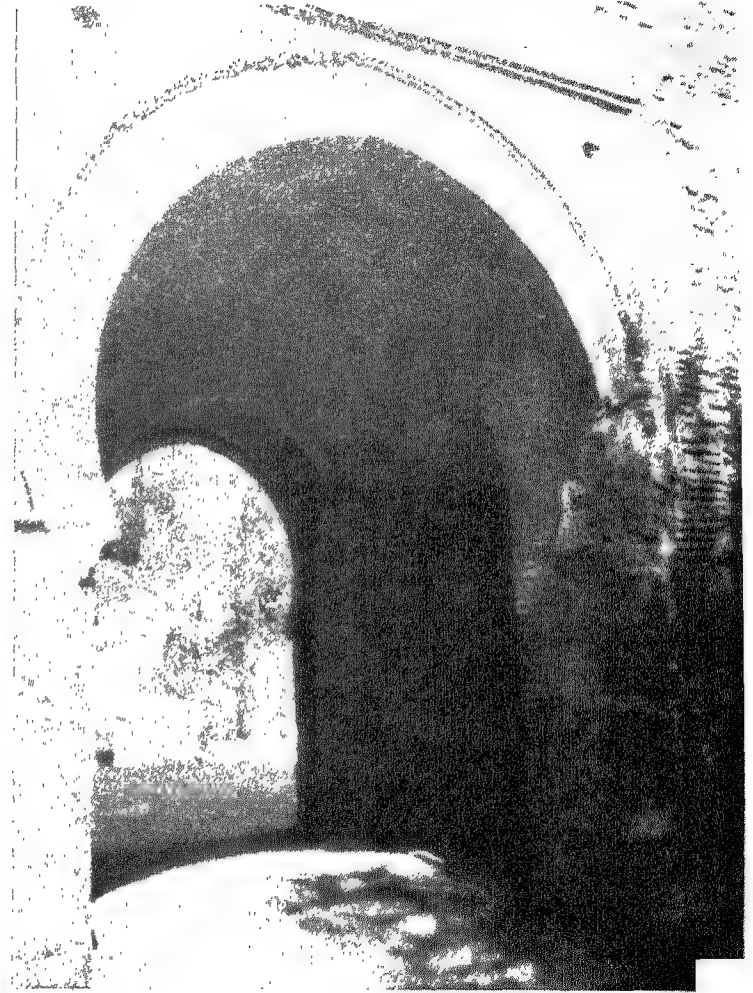


بهر الأسود .

مفتخر الساع من ظباء وحسن	مفتخر الساع من ظباء وحسن	مفتخر الساع من ظباء وحسن	مفتخر الساع من ظباء وحسن	مفتخر الساع من ظباء وحسن	مفتخر الساع من ظباء وحسن	مفتخر الساع من ظباء وحسن	مفتخر الساع من ظباء وحسن
ينزلن فيه أقيار إنس	ينزلن فيه أقيار إنس	ينزلن فيه أقيار إنس	ينزلن فيه أقيار إنس	ينزلن فيه أقيار إنس	ينزلن فيه أقيار إنس	ينزلن فيه أقيار إنس	ينزلن فيه أقيار إنس
كله الظفر لينات المعجس	كله الظفر لينات المعجس	كله الظفر لينات المعجس	كله الظفر لينات المعجس	كله الظفر لينات المعجس	كله الظفر لينات المعجس	كله الظفر لينات المعجس	كله الظفر لينات المعجس
ينزى على ترائب ملس	ينزى على ترائب ملس	ينزى على ترائب ملس	ينزى على ترائب ملس	ينزى على ترائب ملس	ينزى على ترائب ملس	ينزى على ترائب ملس	ينزى على ترائب ملس

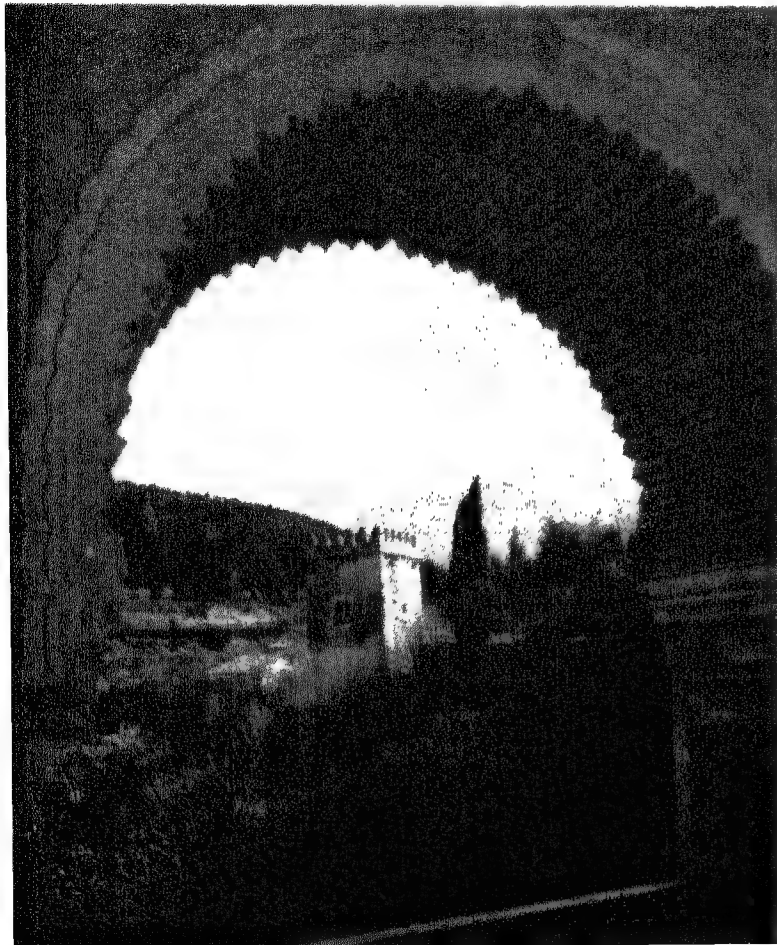


باب الزود (إلى النسيمة).

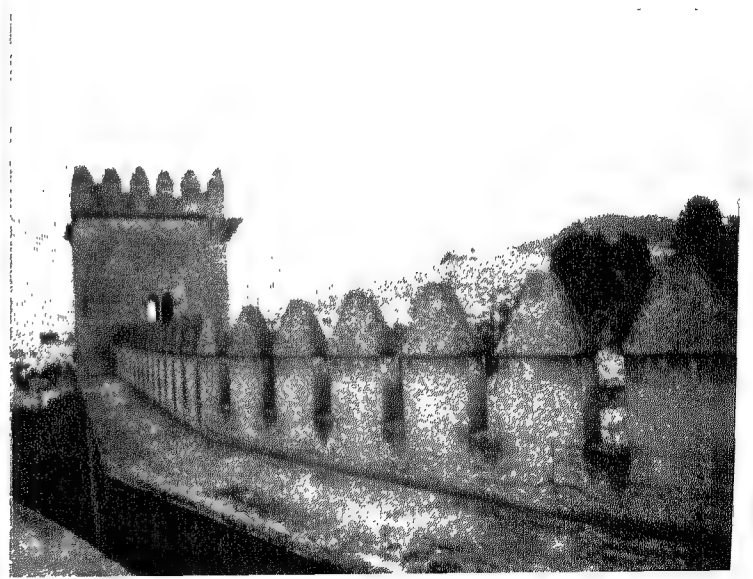


باب الشريعة (ويسمى بالاسبانية باب البيلد)
وهو المدخل الرئيسي للقصور.

برج المذارى.

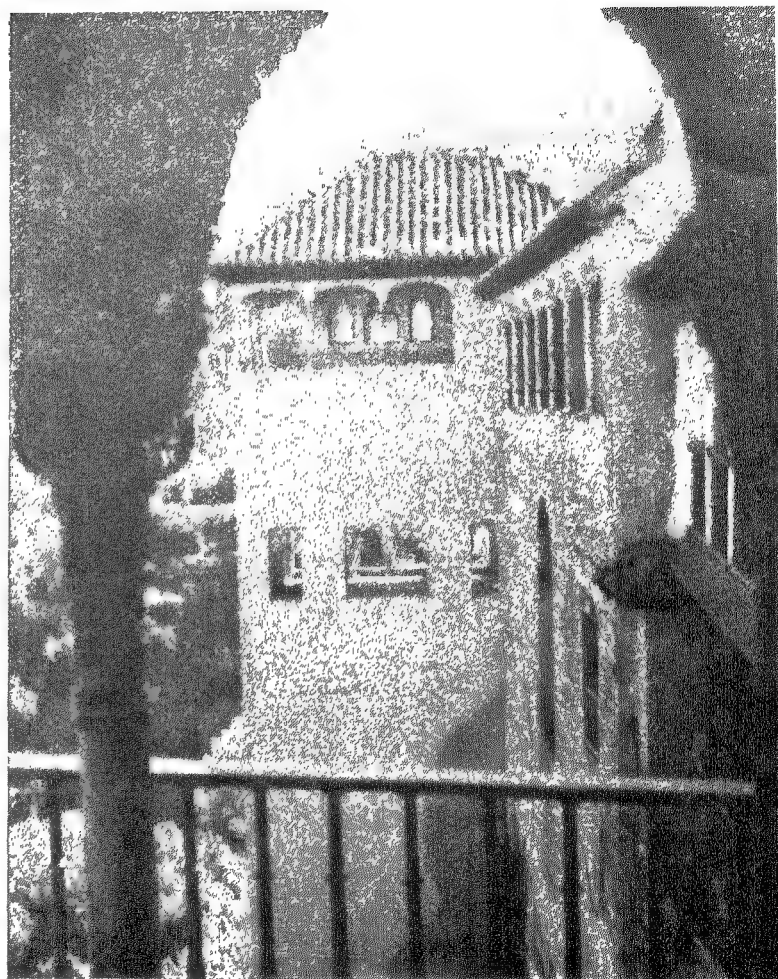


أسوار الحمراء وأحد الأبراج.



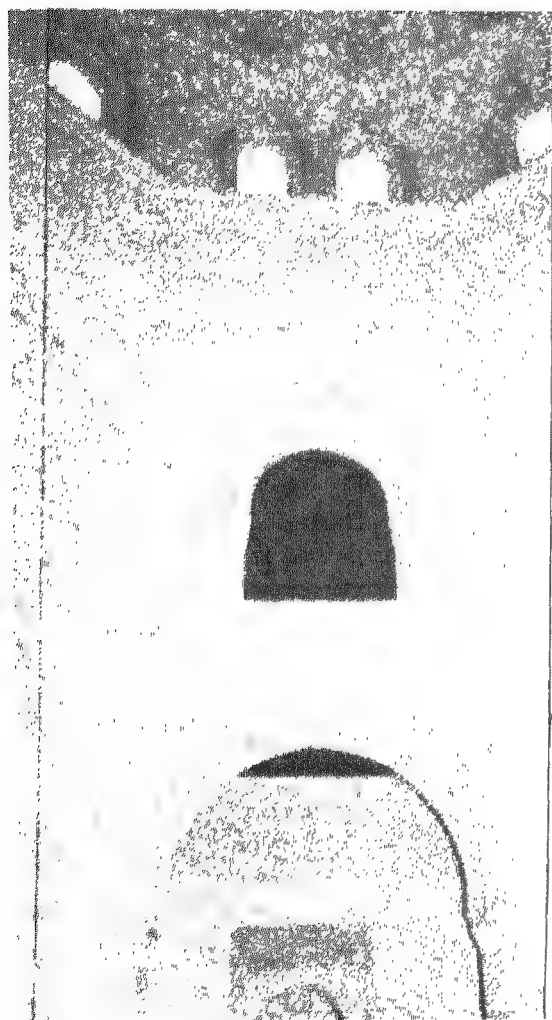


أسوار الحمراء المزدوجة .

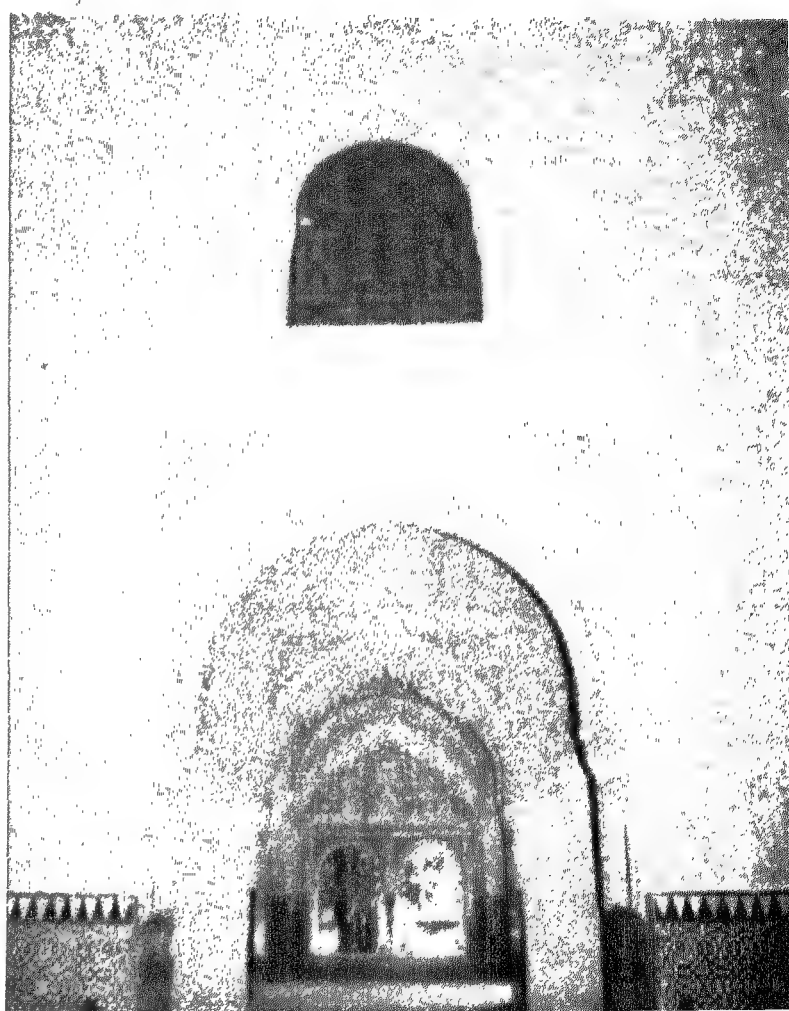


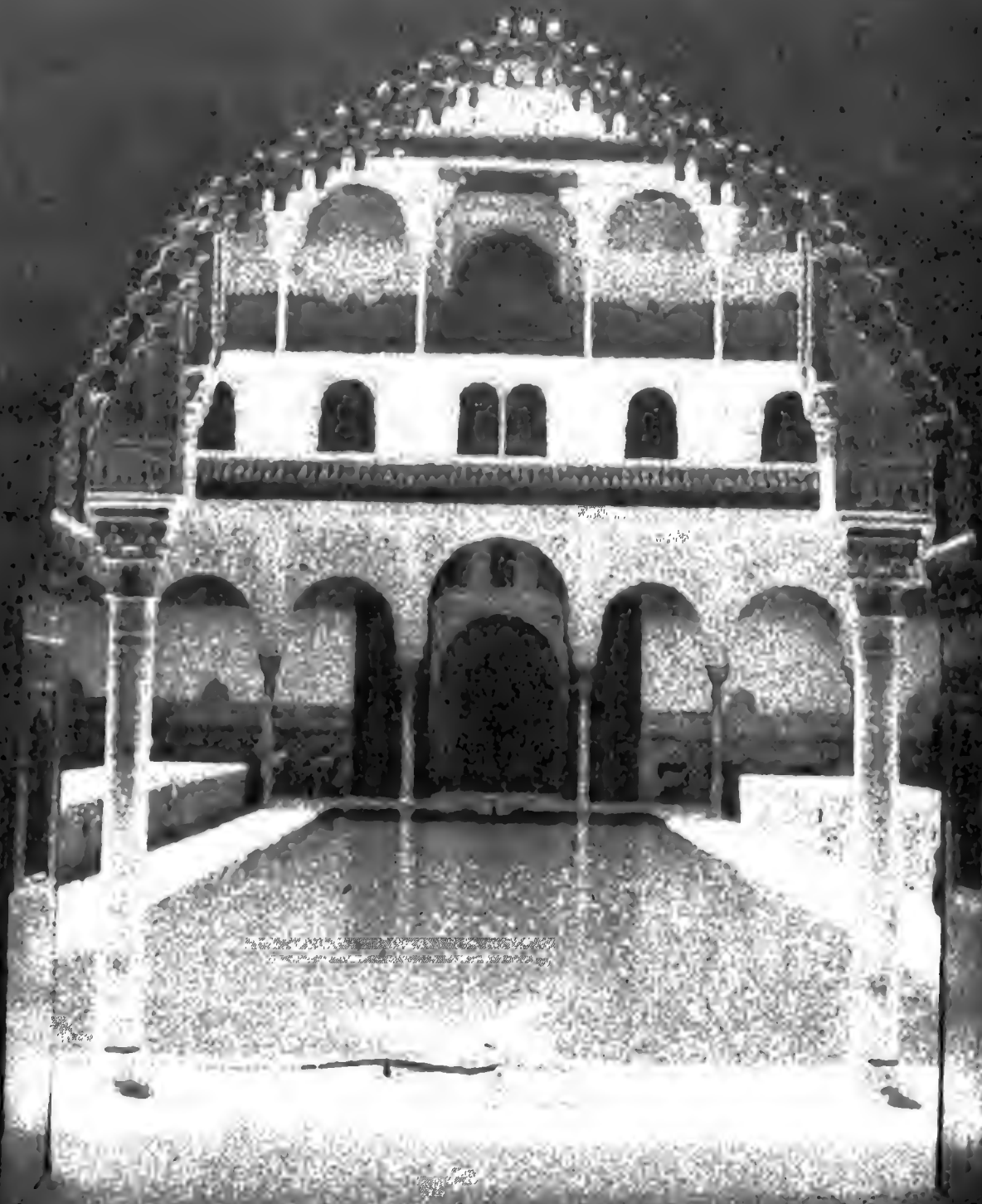
أحد أجنحة قصر الحمراء .

متنيرة الساعات

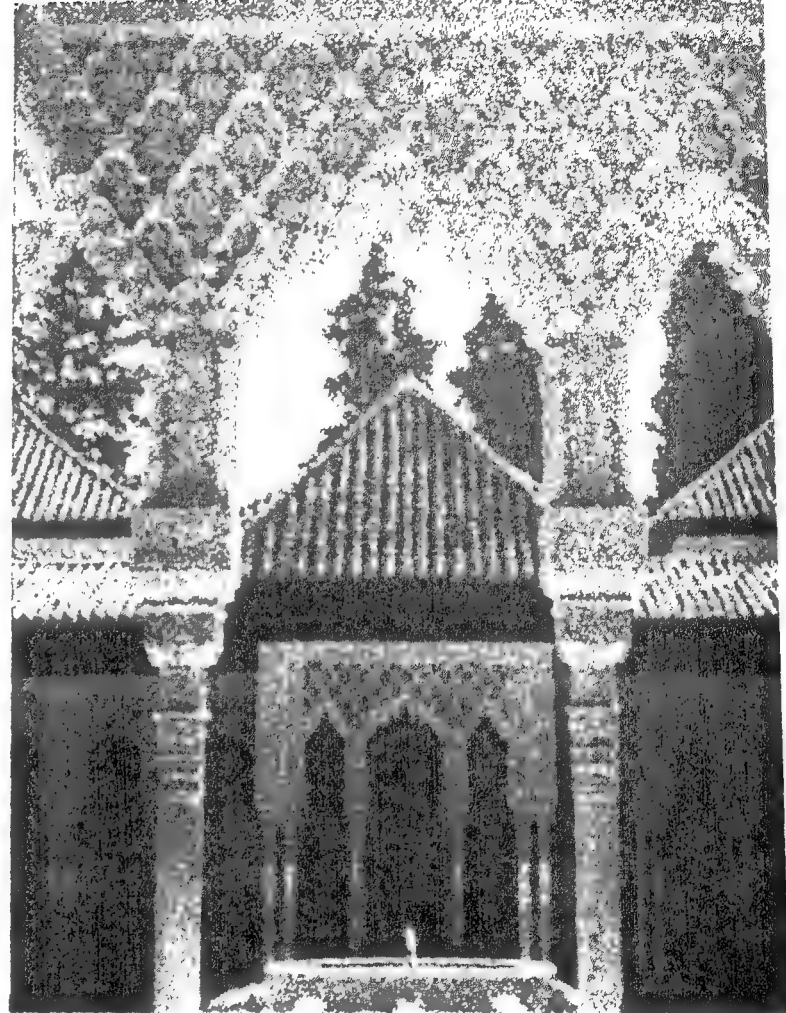
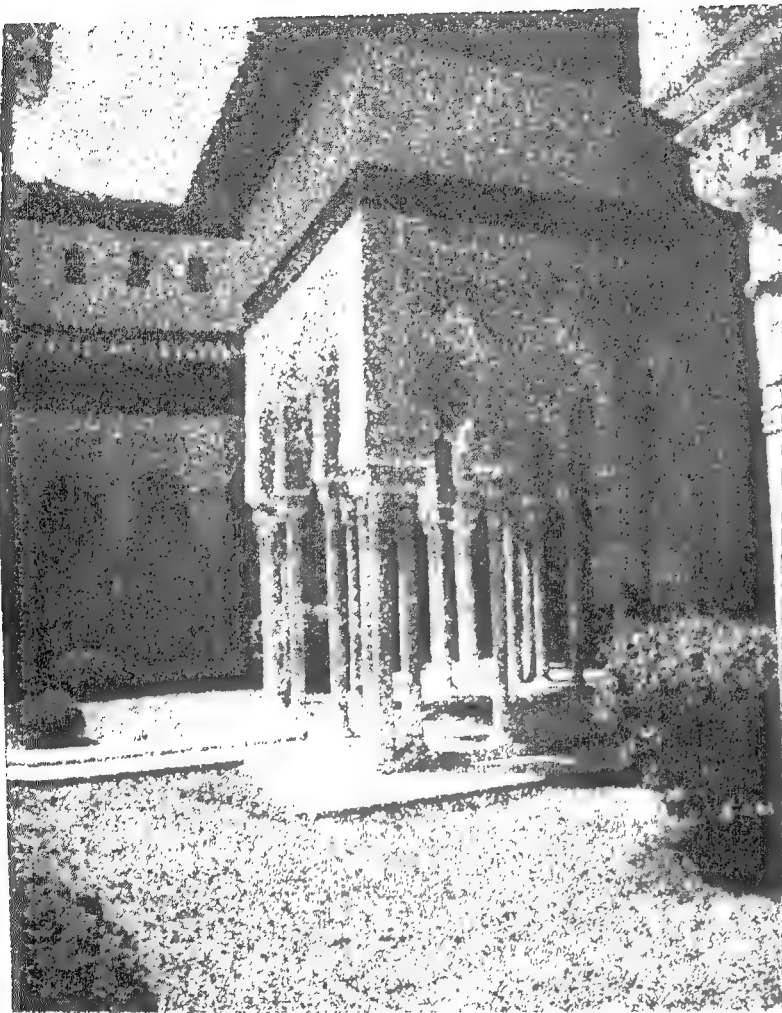


قاعة السفراء

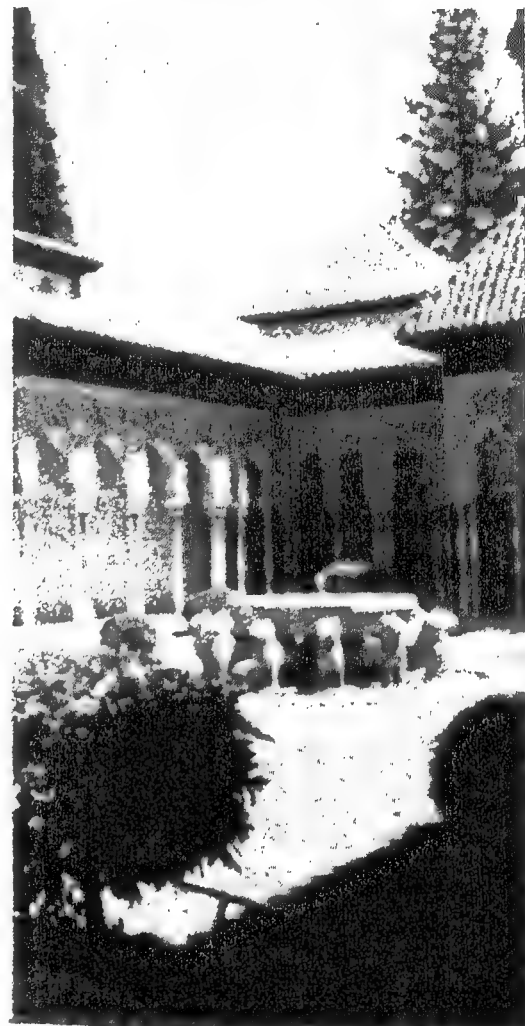
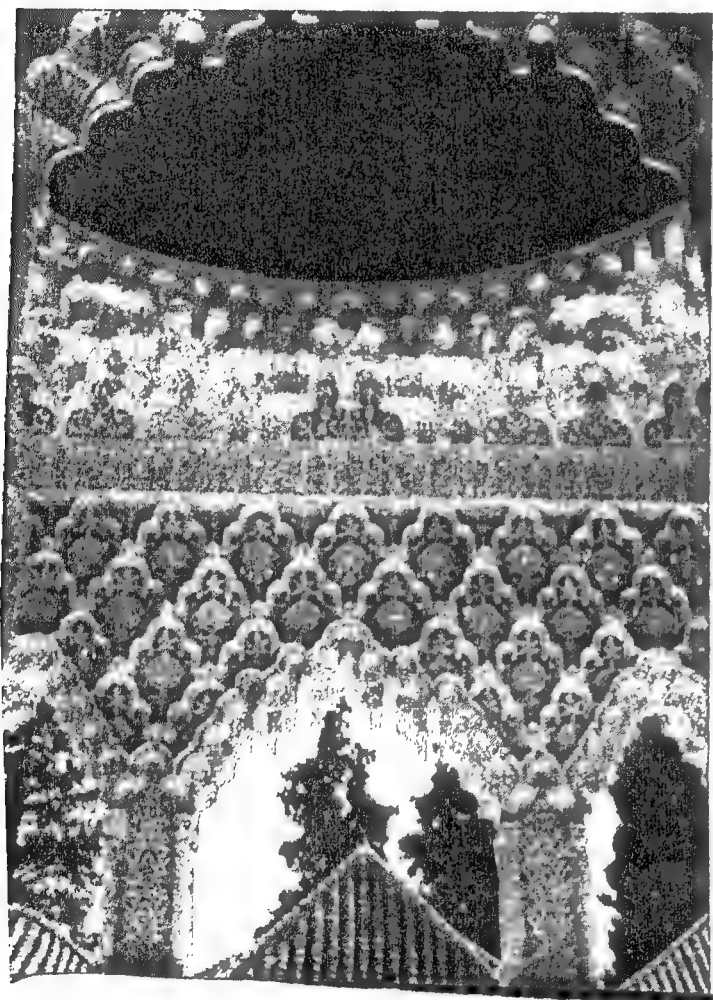




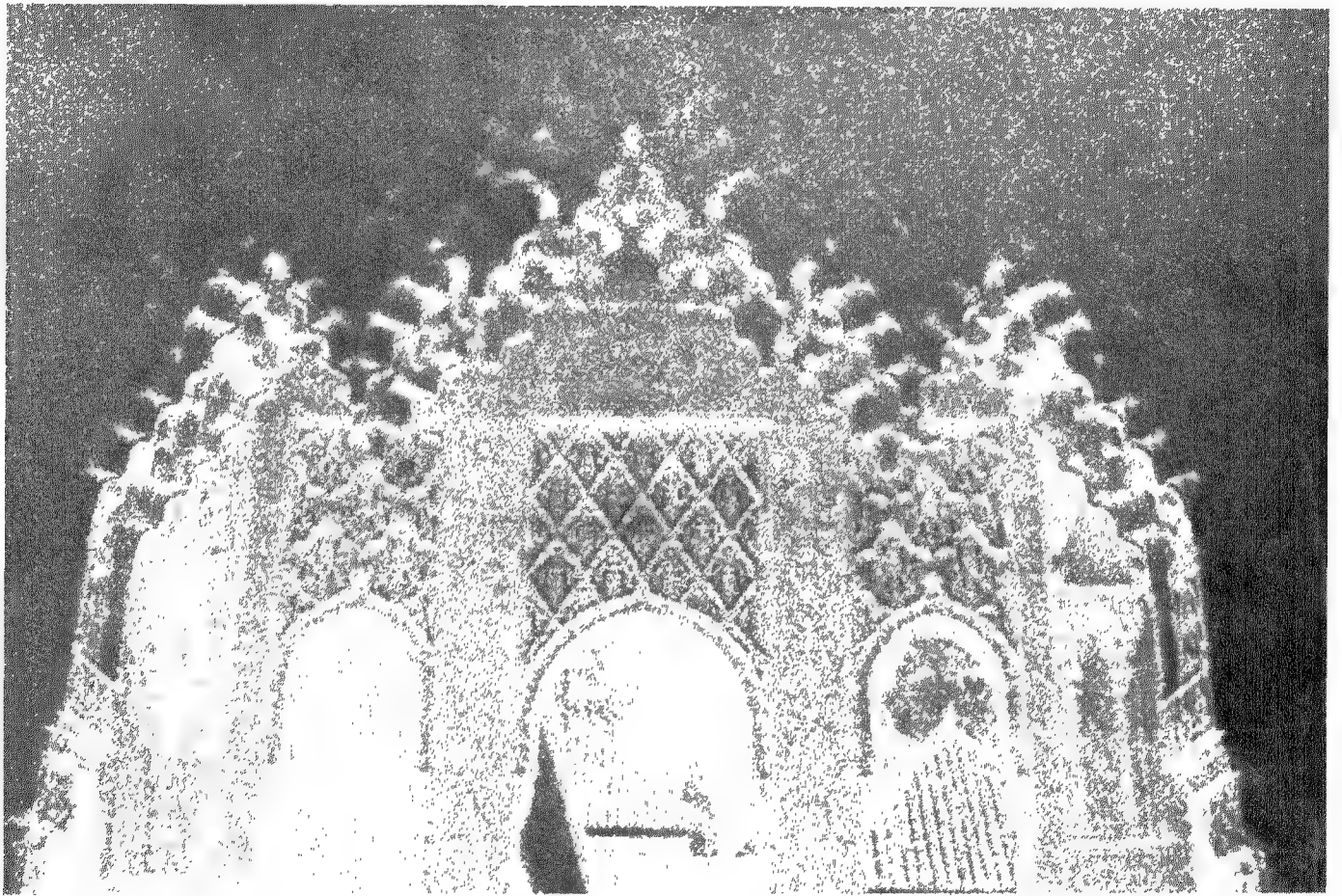
بيوت القبة في حي الروماني خارج كراتشي



1950. 1. 1. 1. 1.







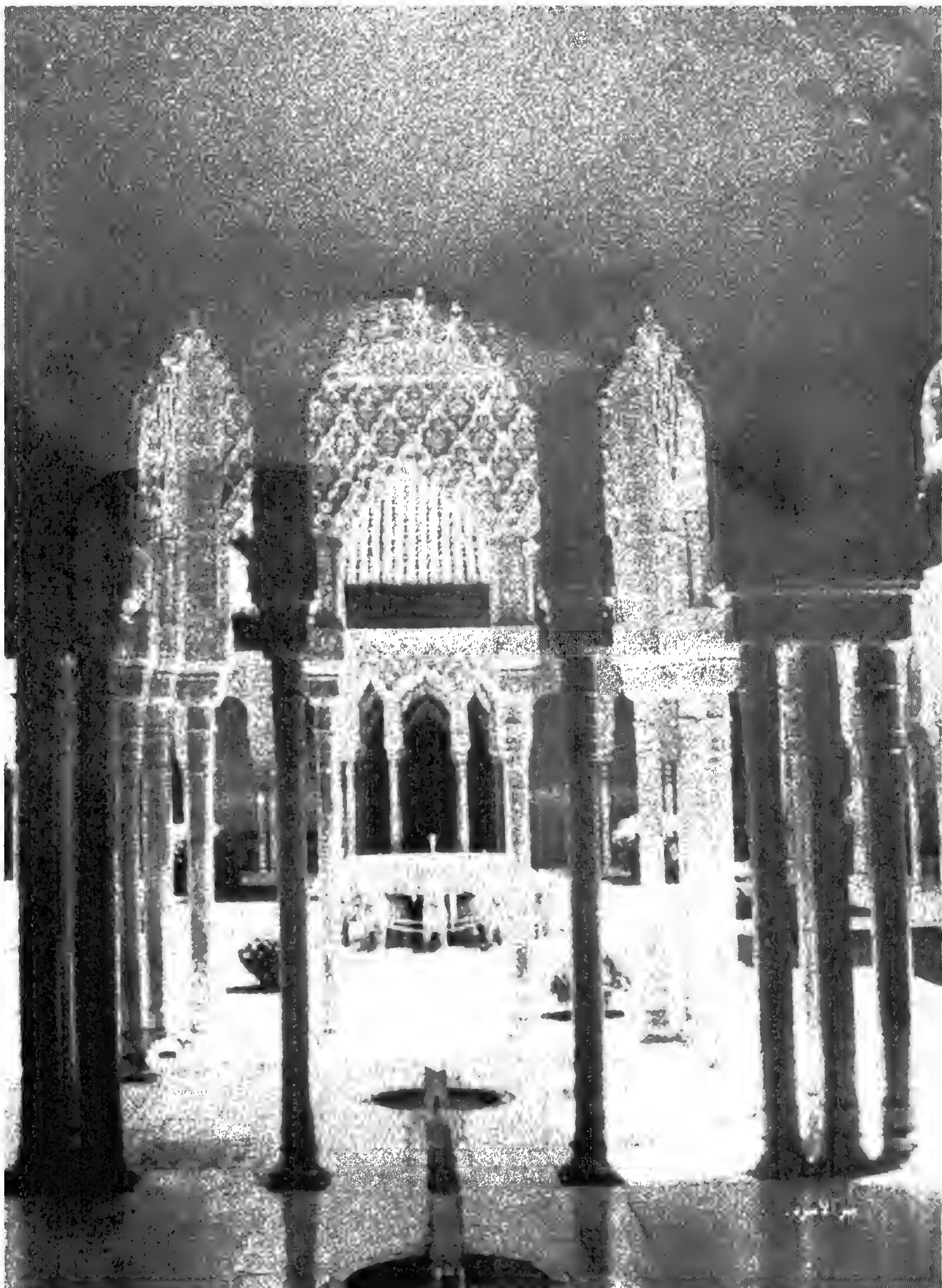
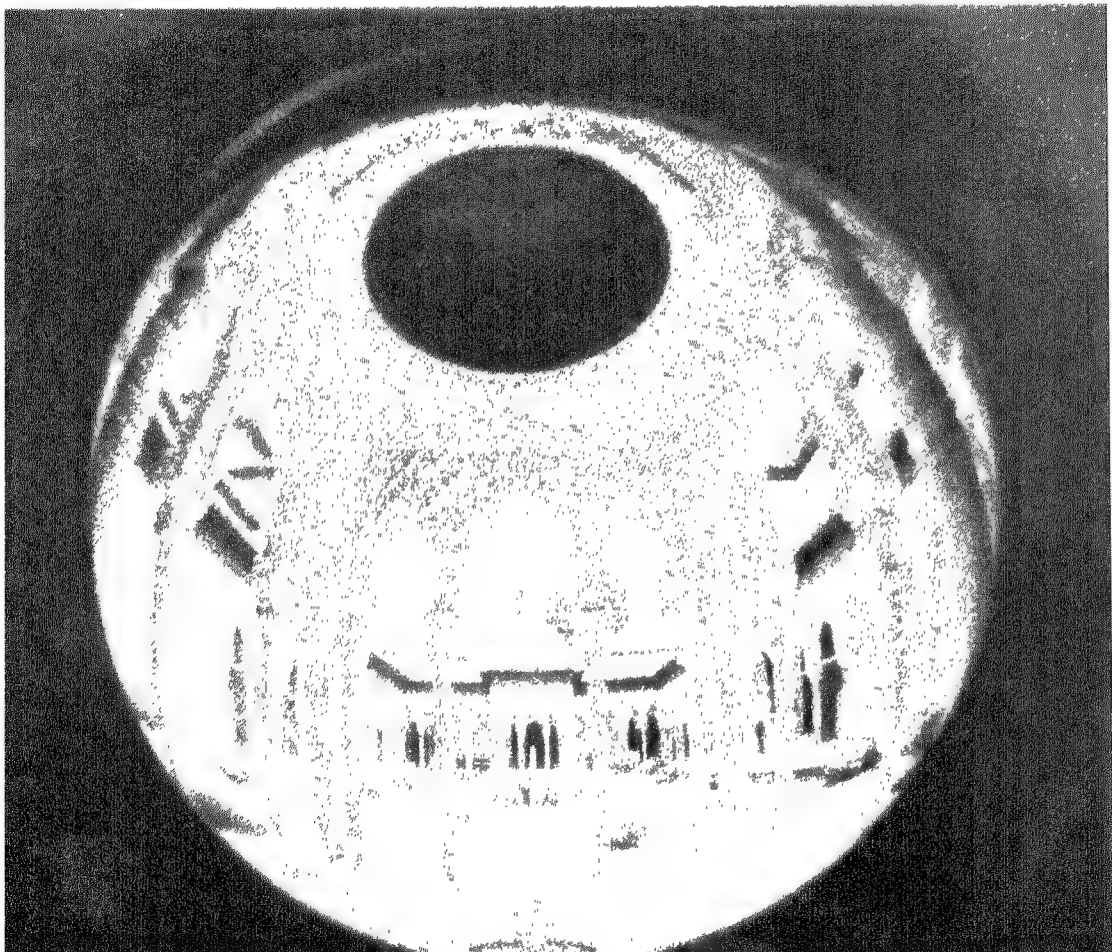
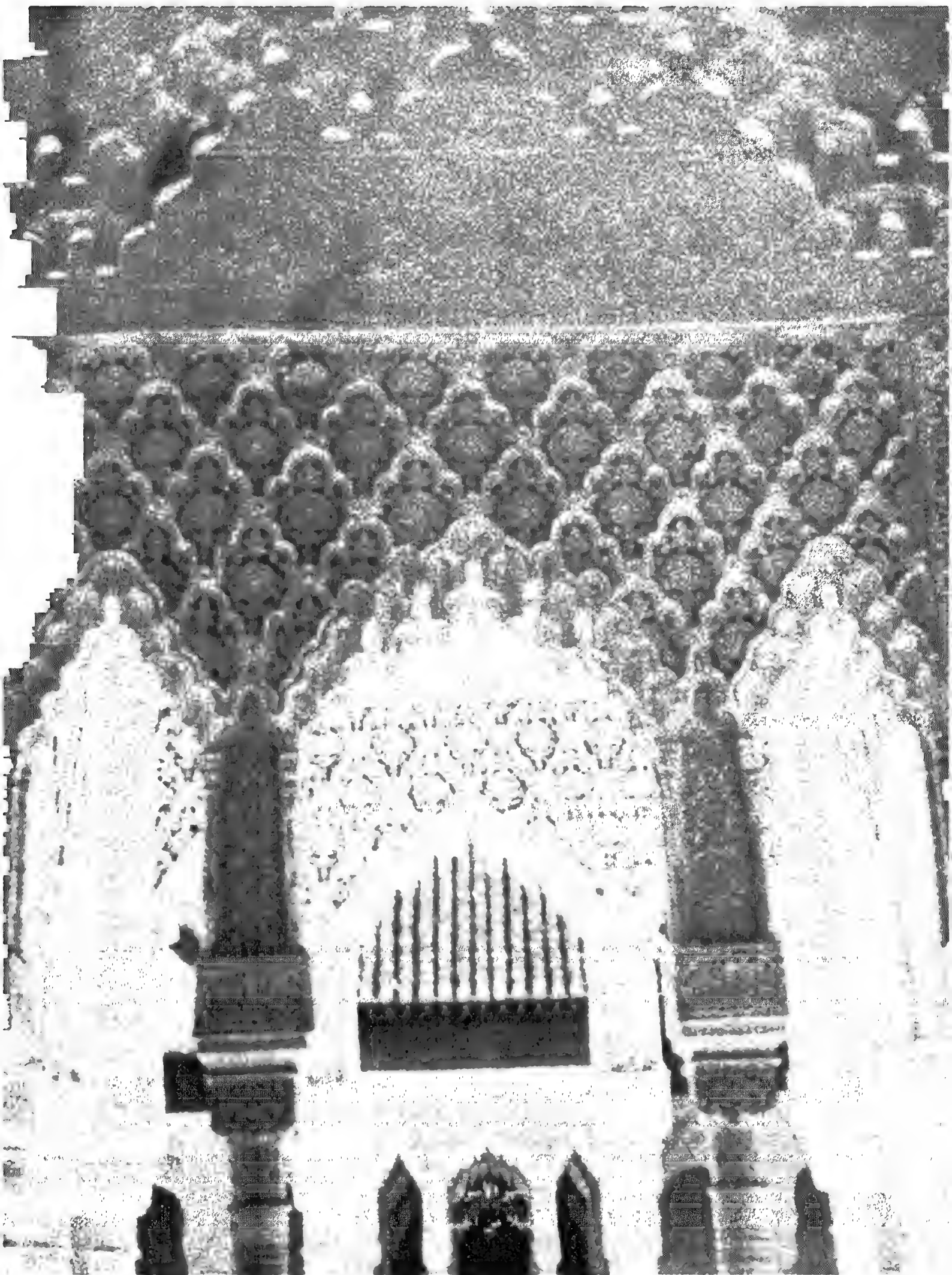


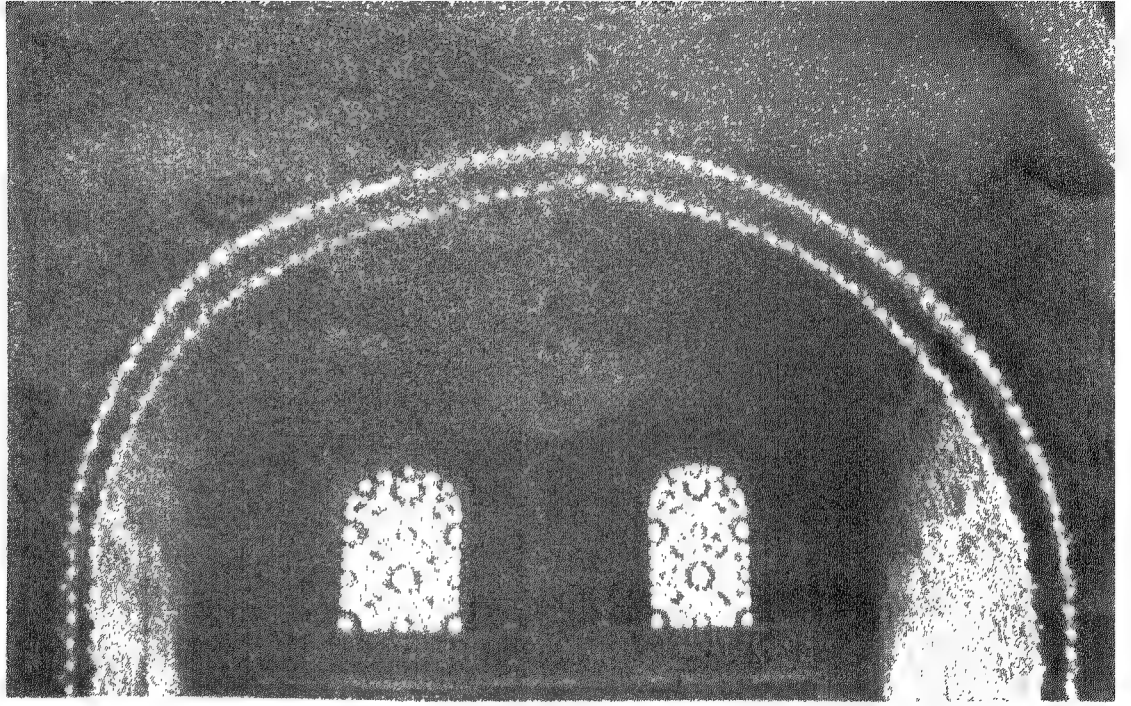


Figure 1

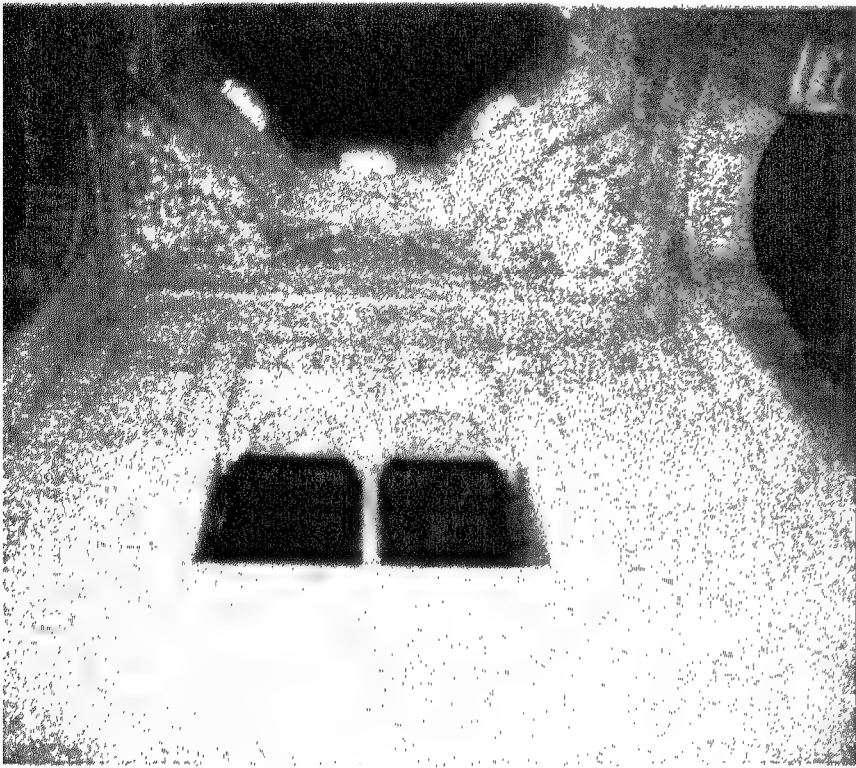
Figure 2





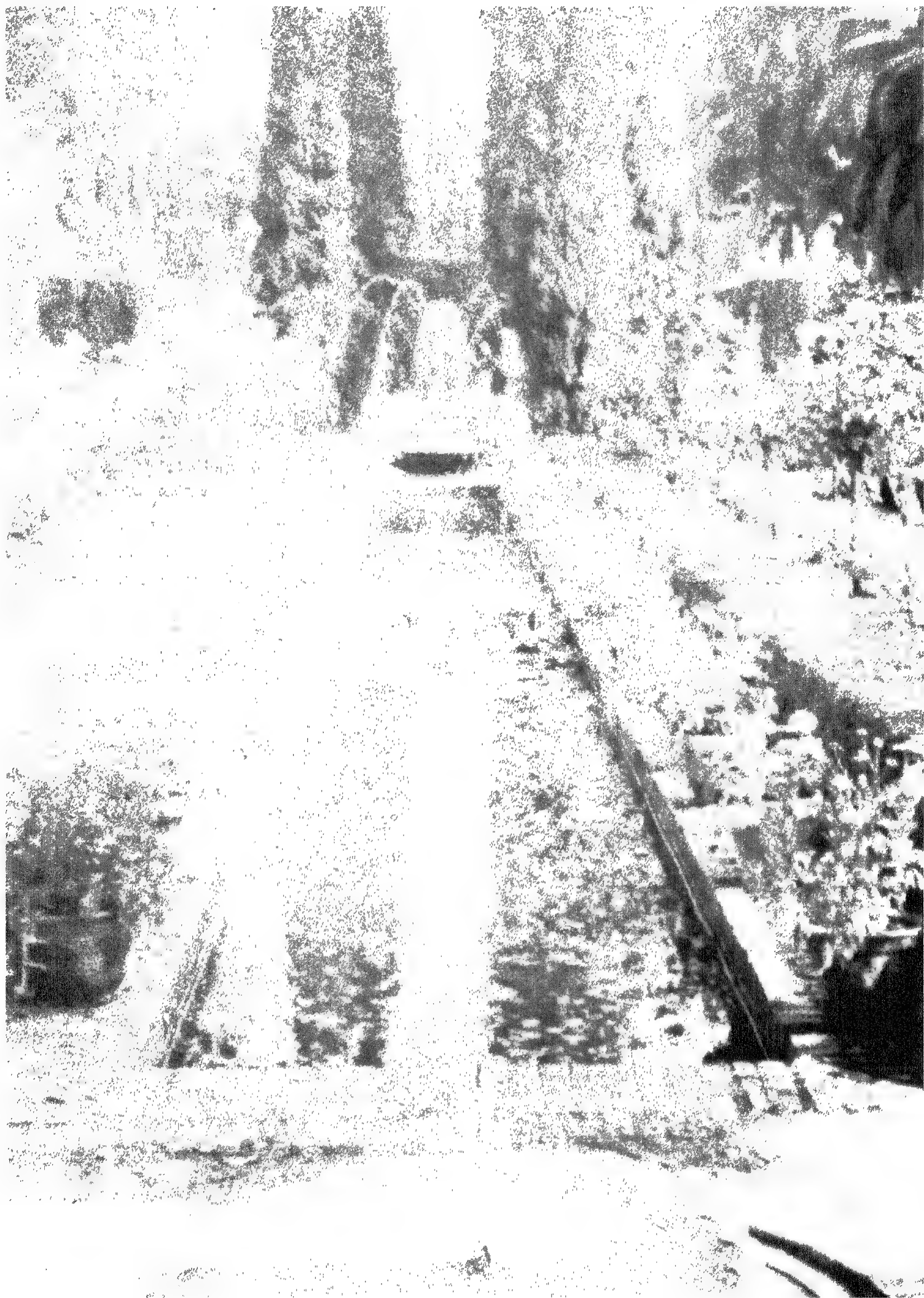


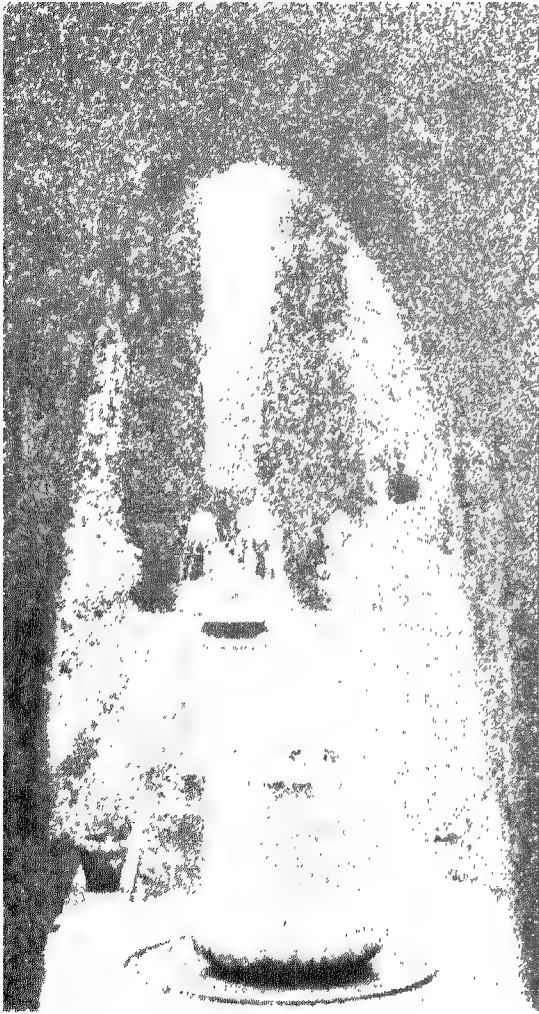
قاعة السفراء



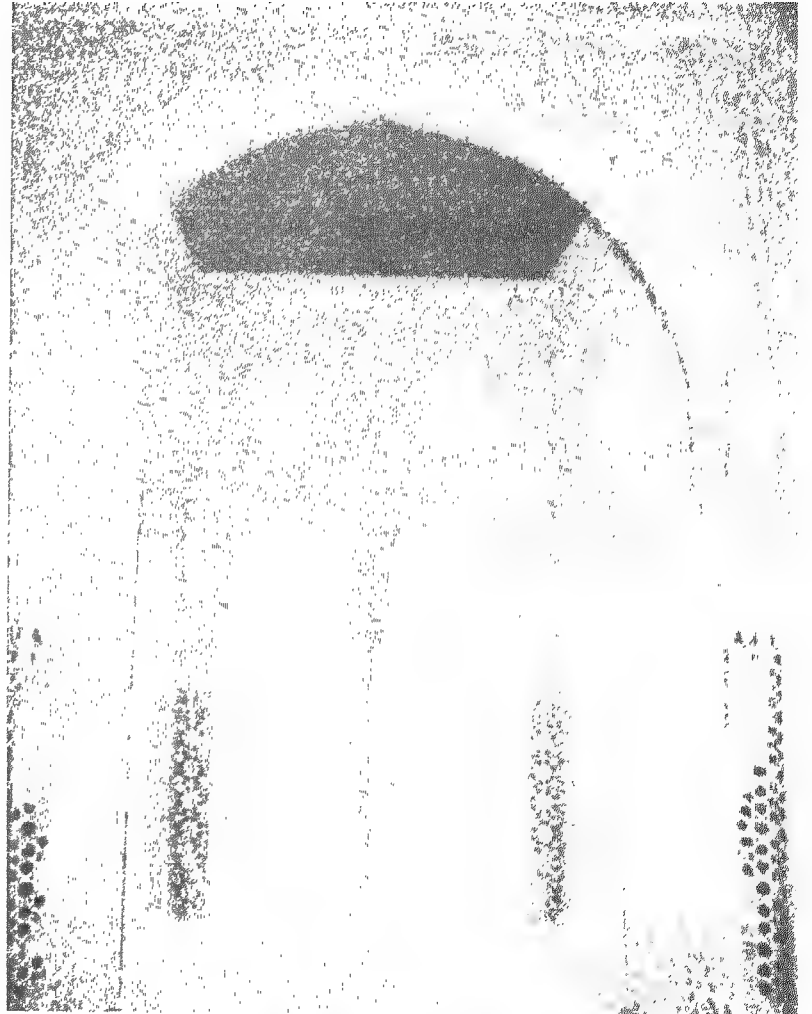
برج العذارى

أنهارها فضة والمسك نربتها
وللهواء لها لطف يرق به
والخارج به خديها والدار حفيها
من لا يرى دم في به الهواء





حناء العريف.



برج المادري.

وتسربك في الصهريج موقع قطرها
 شروق الزهرجند لؤلؤا منثورا
 نسجكت عاصته اليك كأنما
 مدهات لها زهر النجوم ثغورا



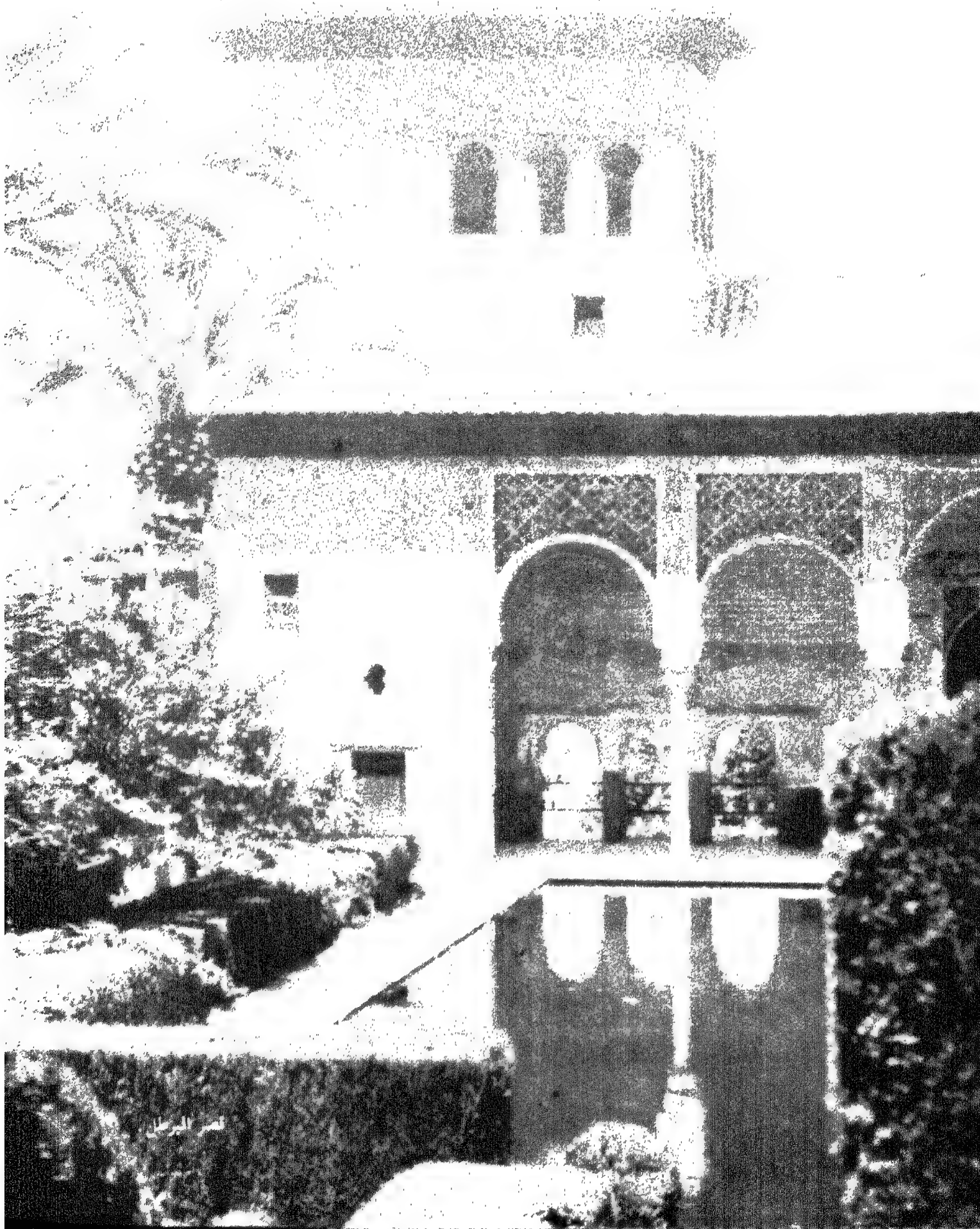
فسر جنة العرب.

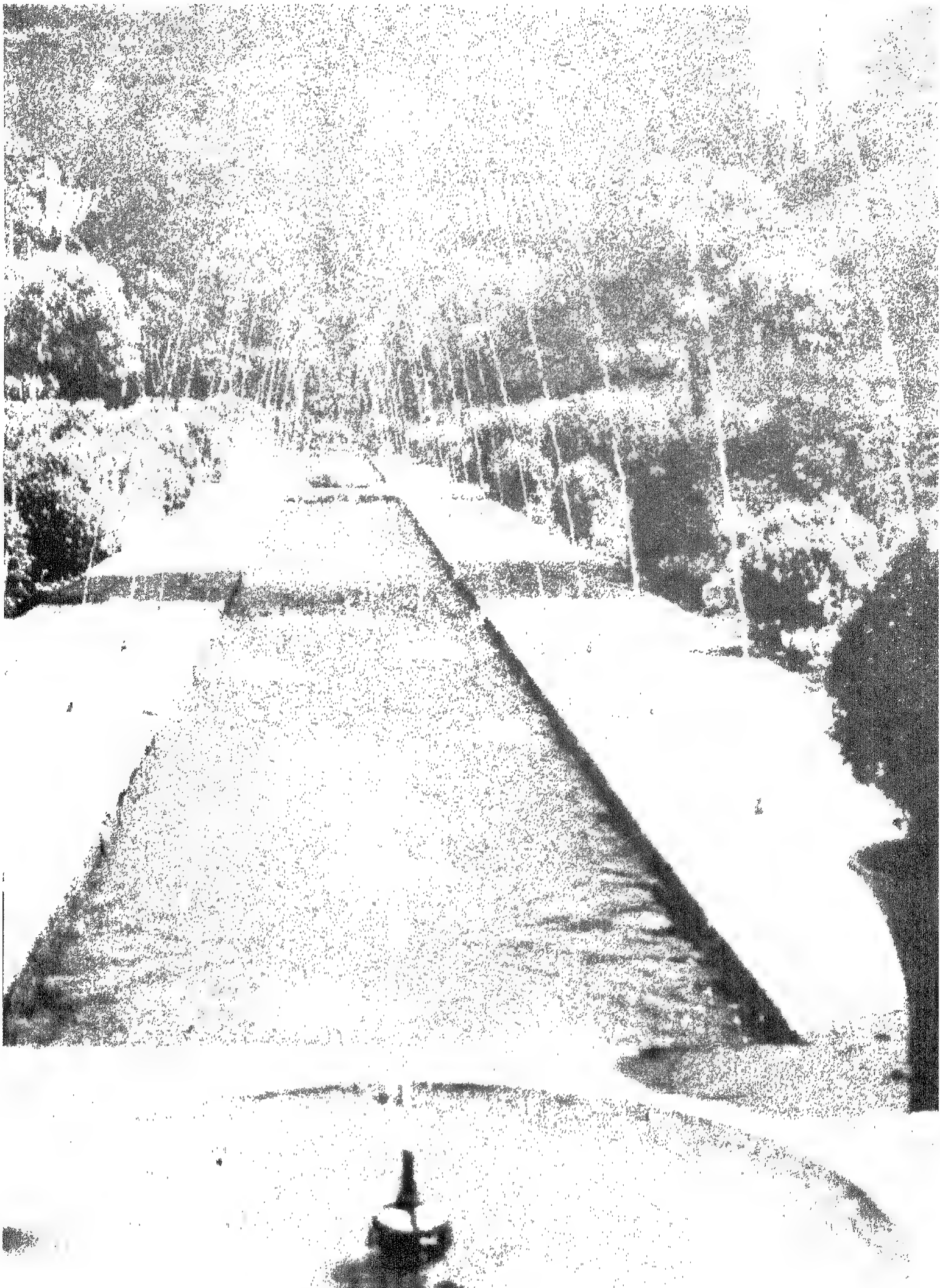


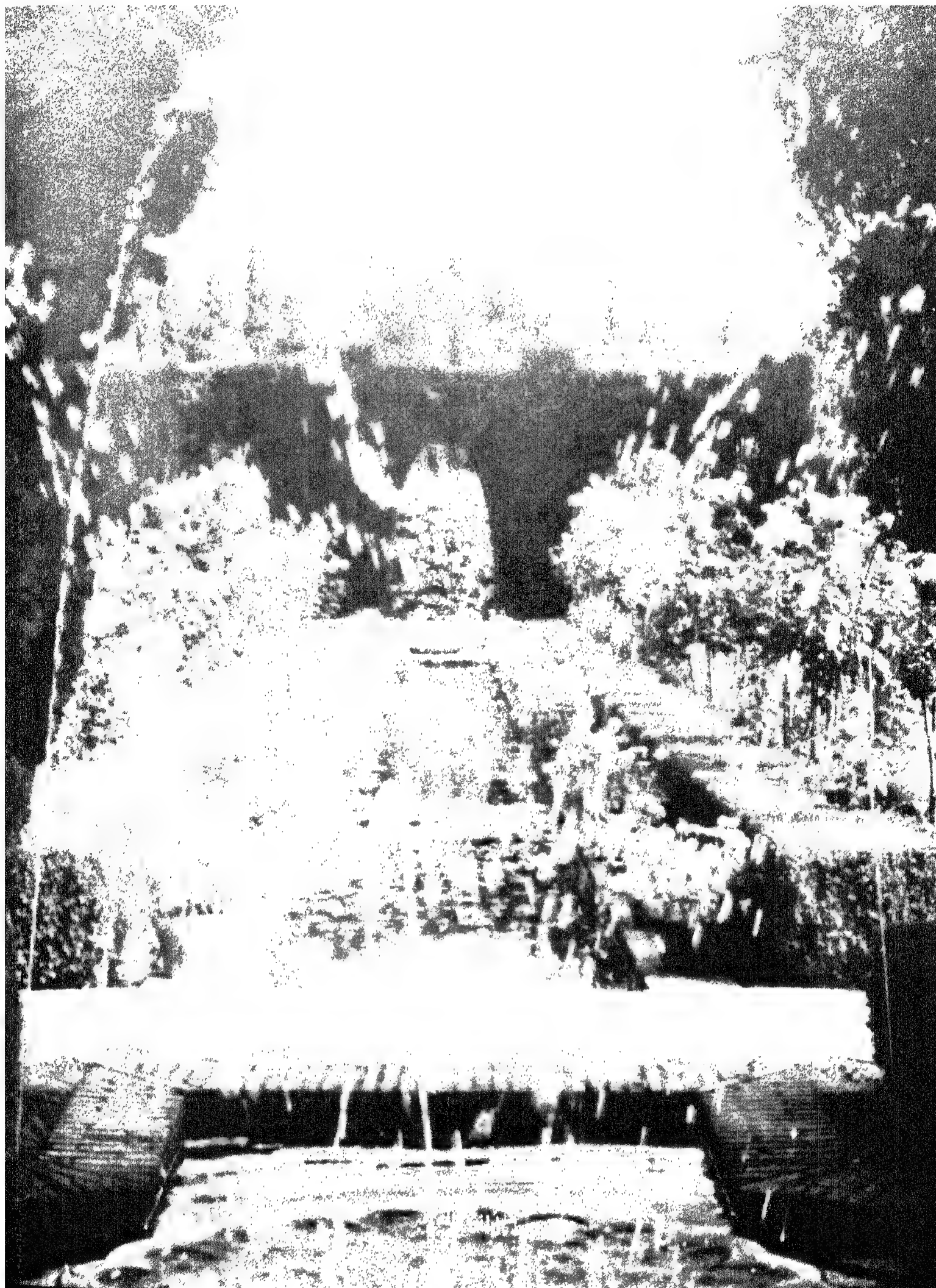
وإذا تجعد بالنسيم
وتمازرت نبط على
وترجحت للناظرين
كأها
حسبته
خافاته
دُرُّ شجر في بساط
شبهها
بين شمع وسبد
للمبرد



جذ الحريف
المدايق والنوافير
بوحده
نادر
والأشجار
تجعد
شبهها
الشمع
للمبرد
وإذا
وتمازرت
وترجحت
كأها
حسبته
خافاته
دُرُّ شجر في بساط
شبهها
بين شمع وسبد
للمبرد









جنت الميرفت مدخل القصر.

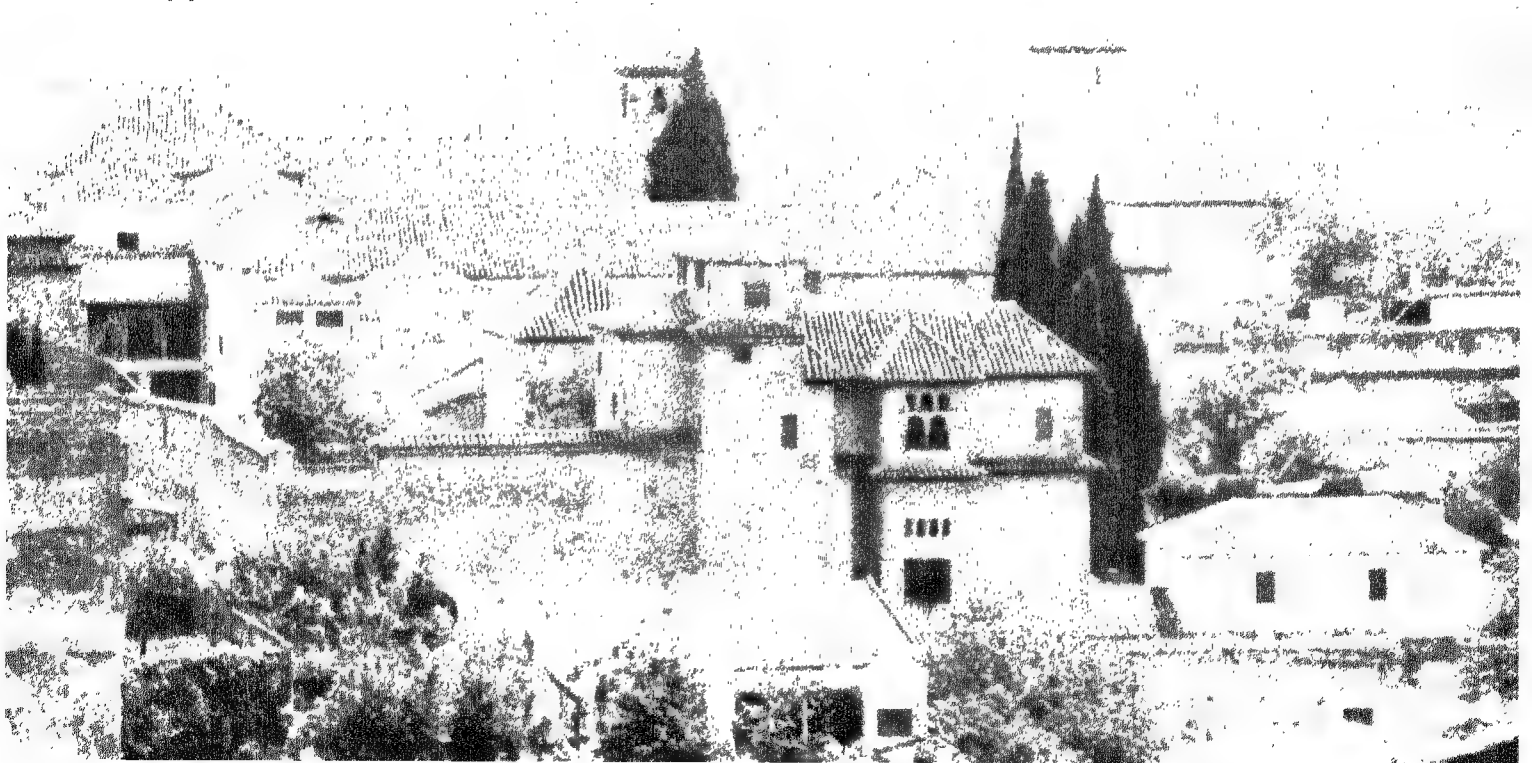


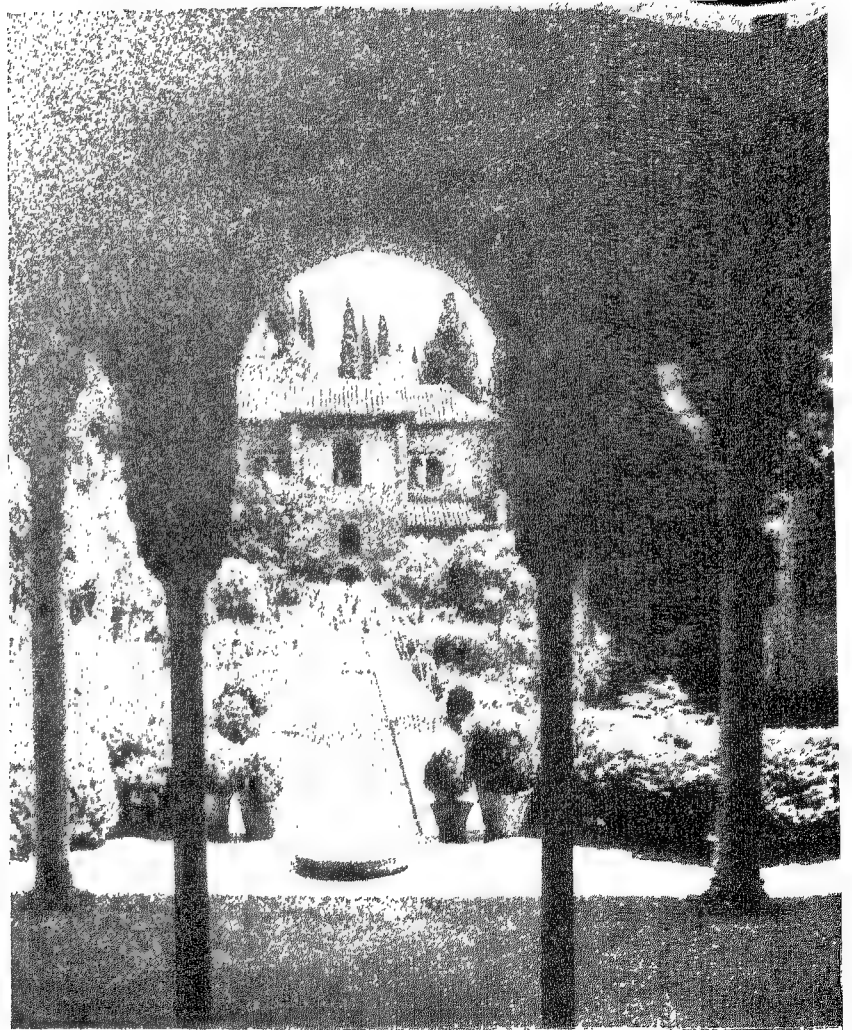
مدخل قصر الحرة

وعدا ناسكك البلي والنار
طال اعتبارك فيك واستعداد
وتخضعت سراها الامدار
«لا انت اصب ولا السديار ديار»

يا ناسكك البلي والنار
طال اعتبارك فيك واستعداد
وتخضعت سراها الامدار
«لا انت اصب ولا السديار ديار»

«سراها»

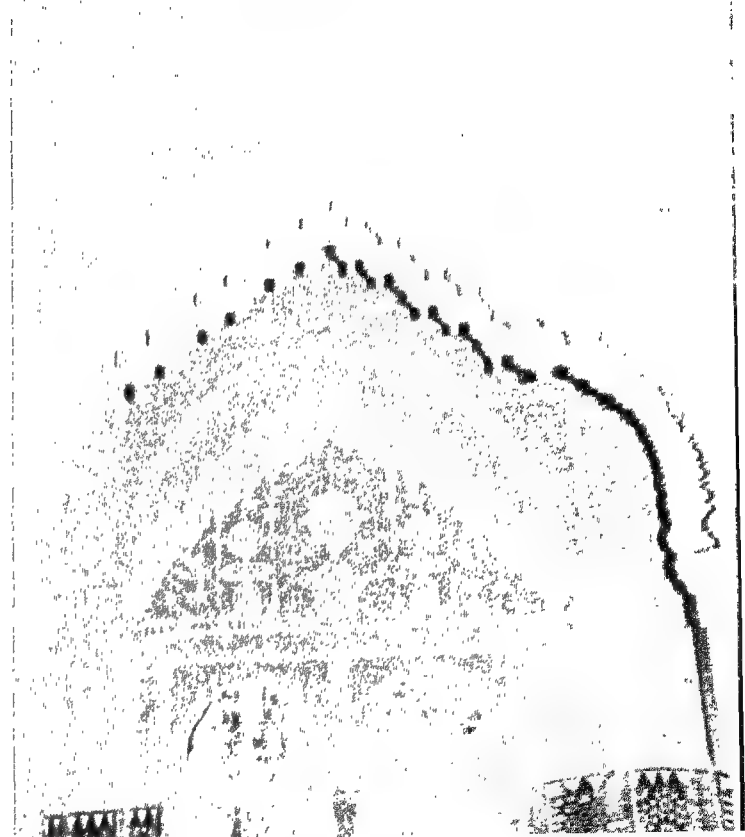


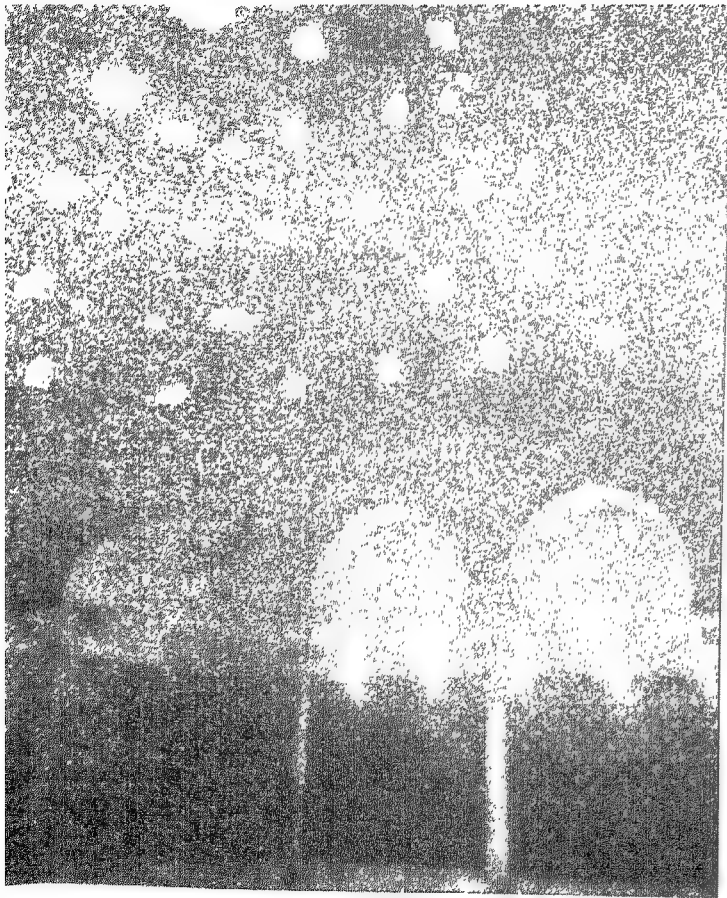


جنت الحريف في قصر الحمراء

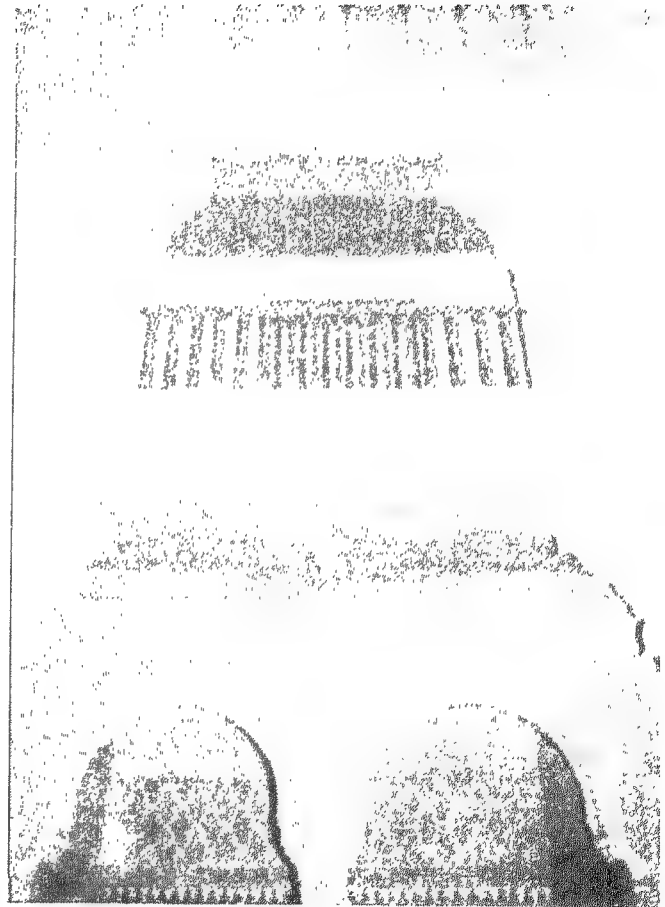
الحدائق في قصر الحمراء

مدرسة السلالة في قصر الحمراء



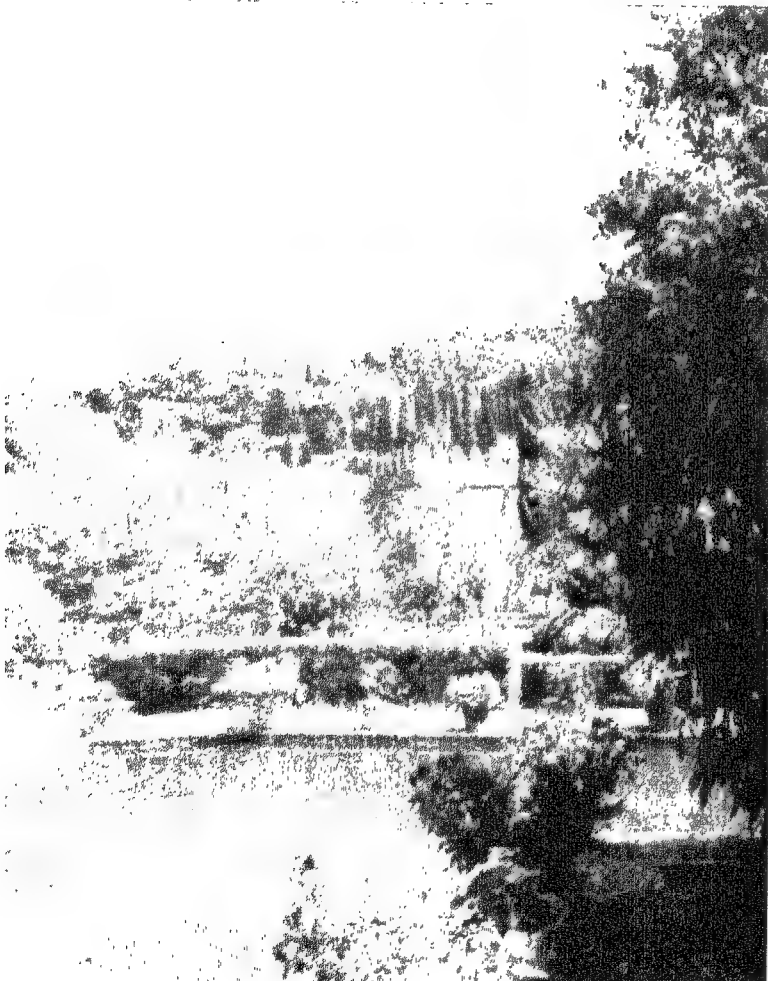


مام القصر .

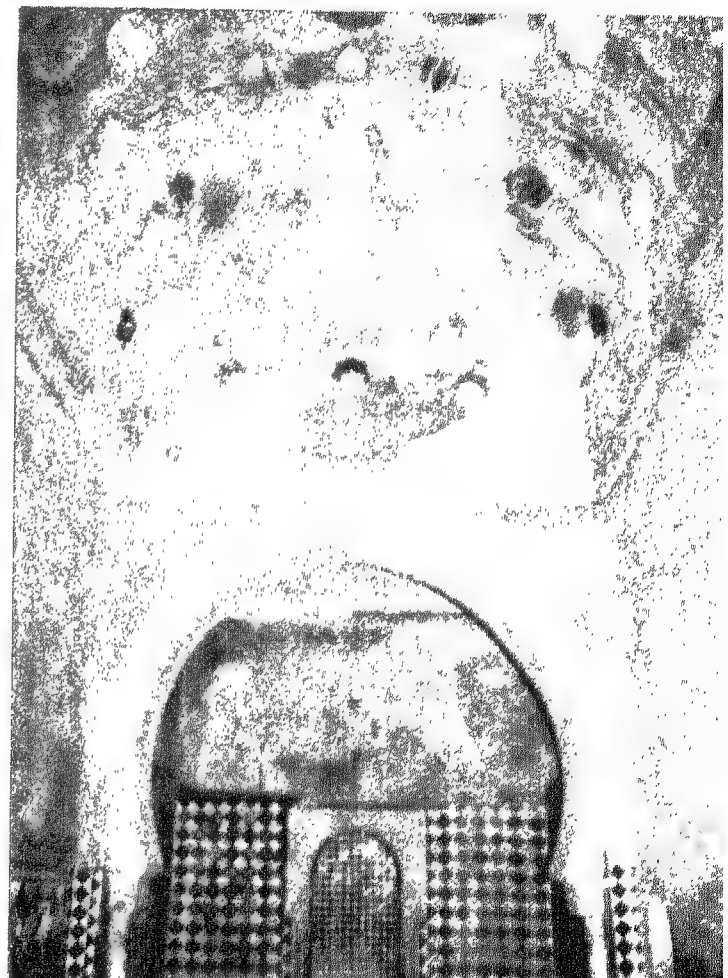


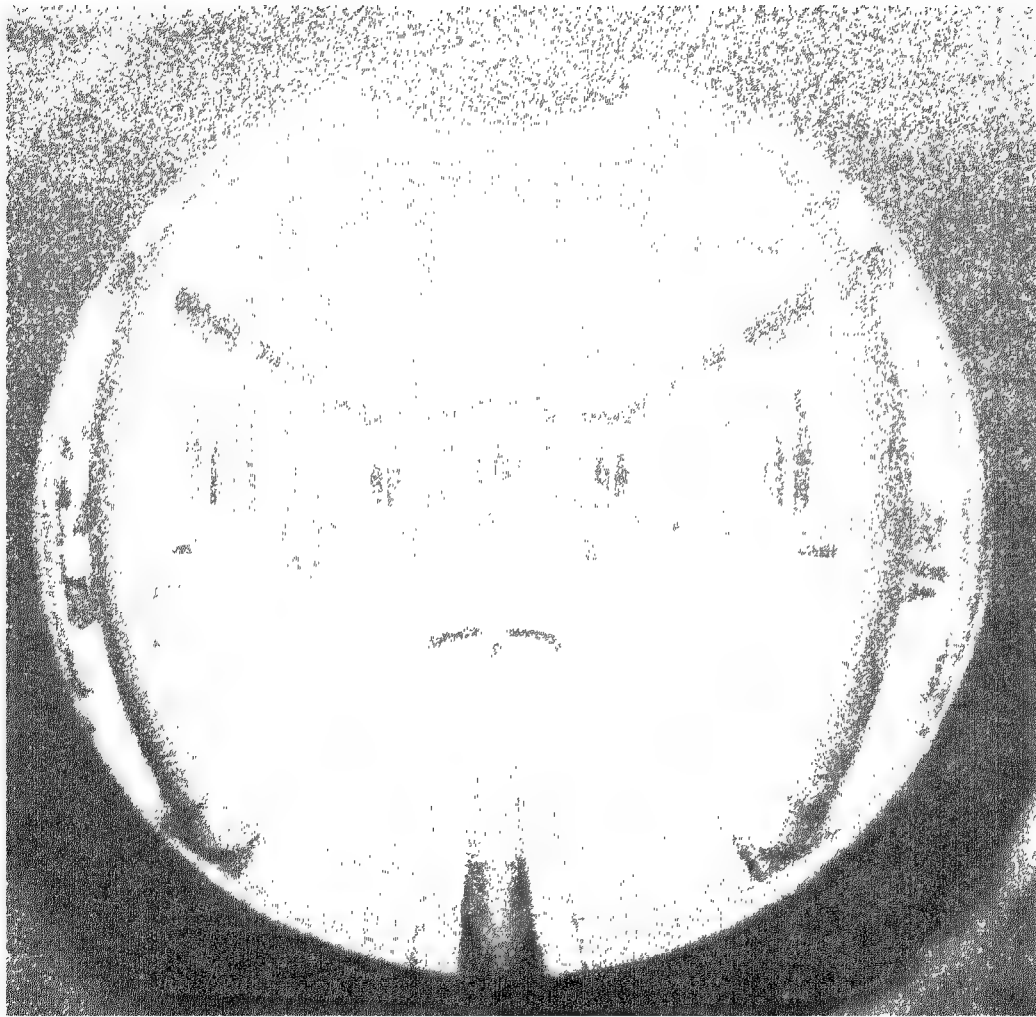
مام القصر - الممرات - مامنا شرقا

جنة العريف الأبراج .



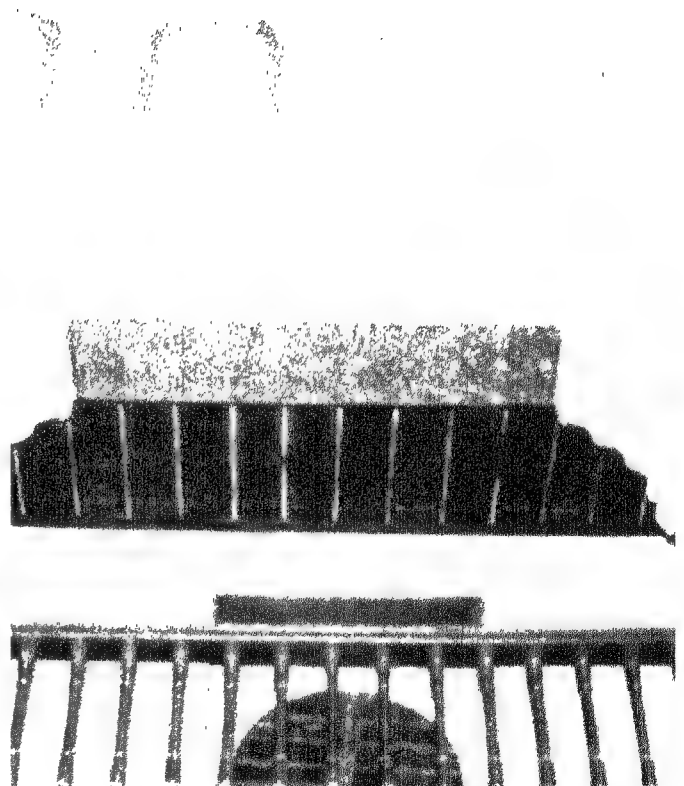
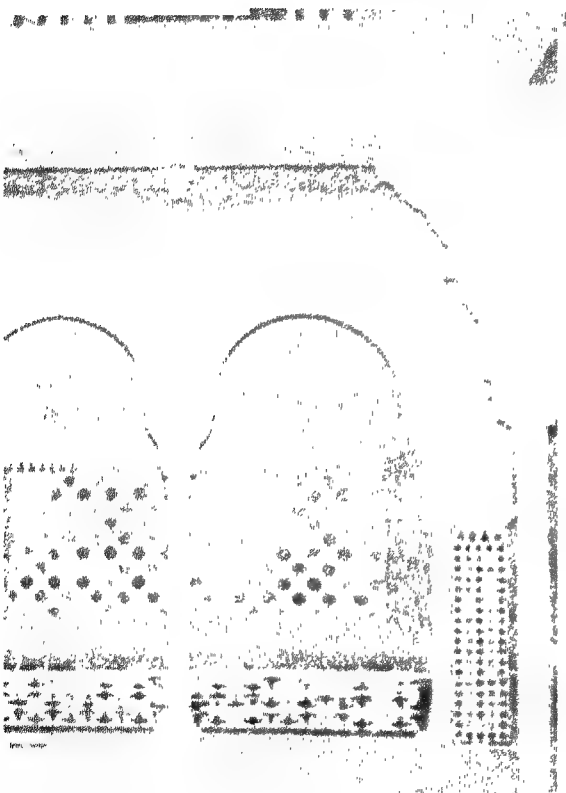
مام القصر - الممرات - الممرات





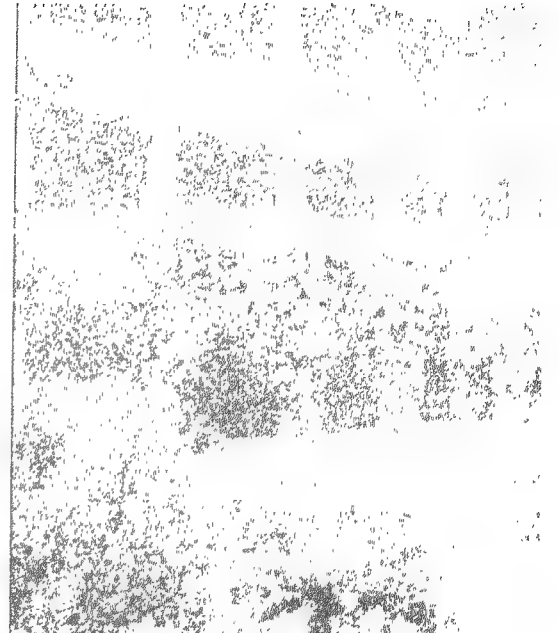
الأسود

رام القصر : الاستراحة





قاعة المشورة



بابه الثاني



صورتان مختلفان ملصقان بين الأسر
مرسومة على سفوف، قاعة
المأوك في قصر الحمراء



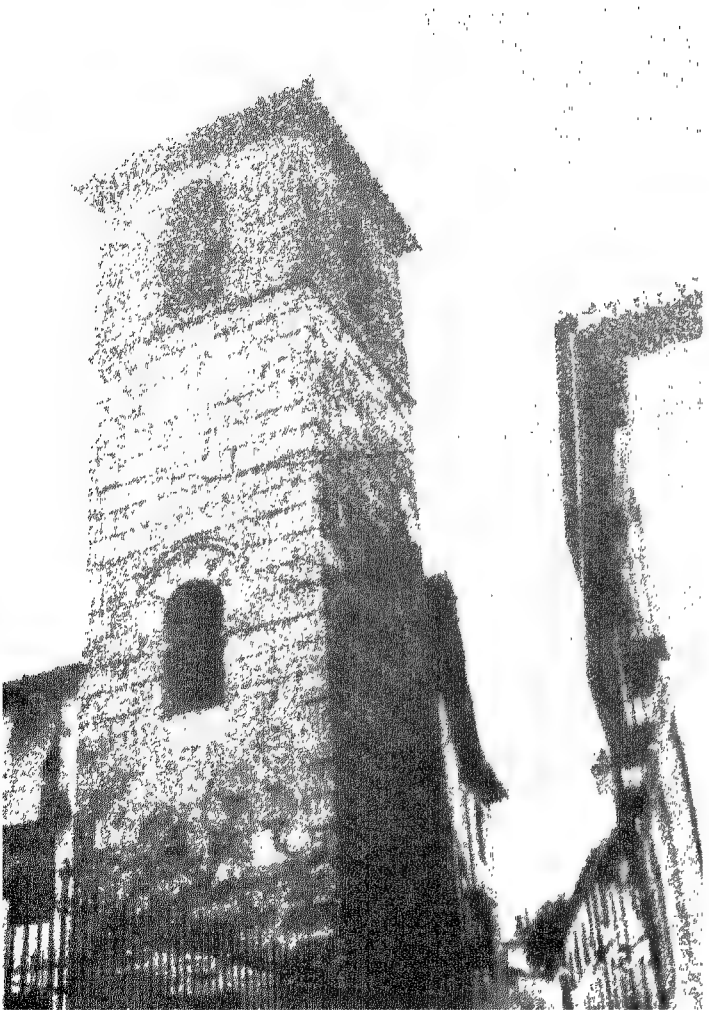


Fig. 1. Bell tower of the church of St. John the Evangelist.



Fig. 2. Street in the old town of Tbilisi.

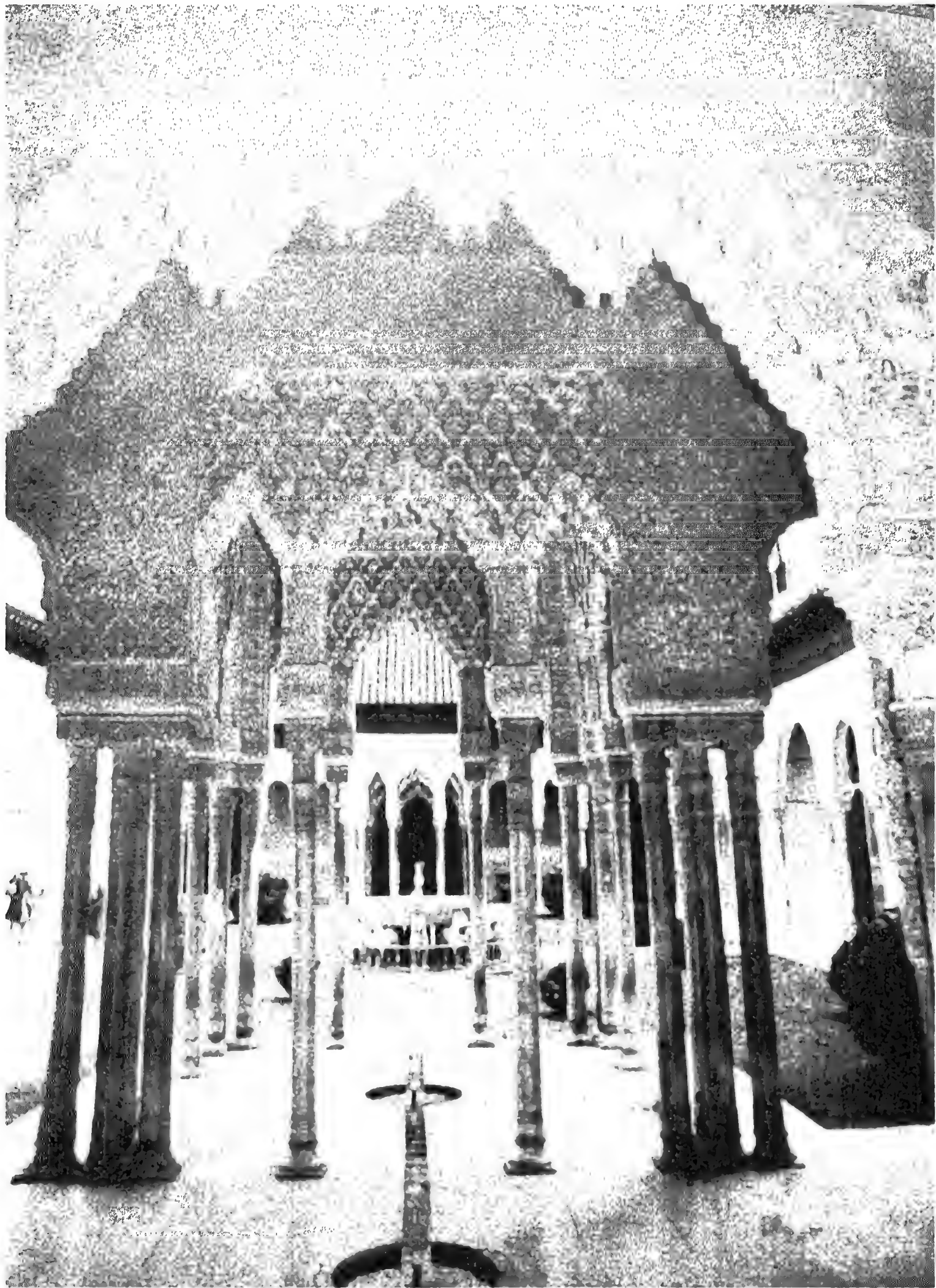


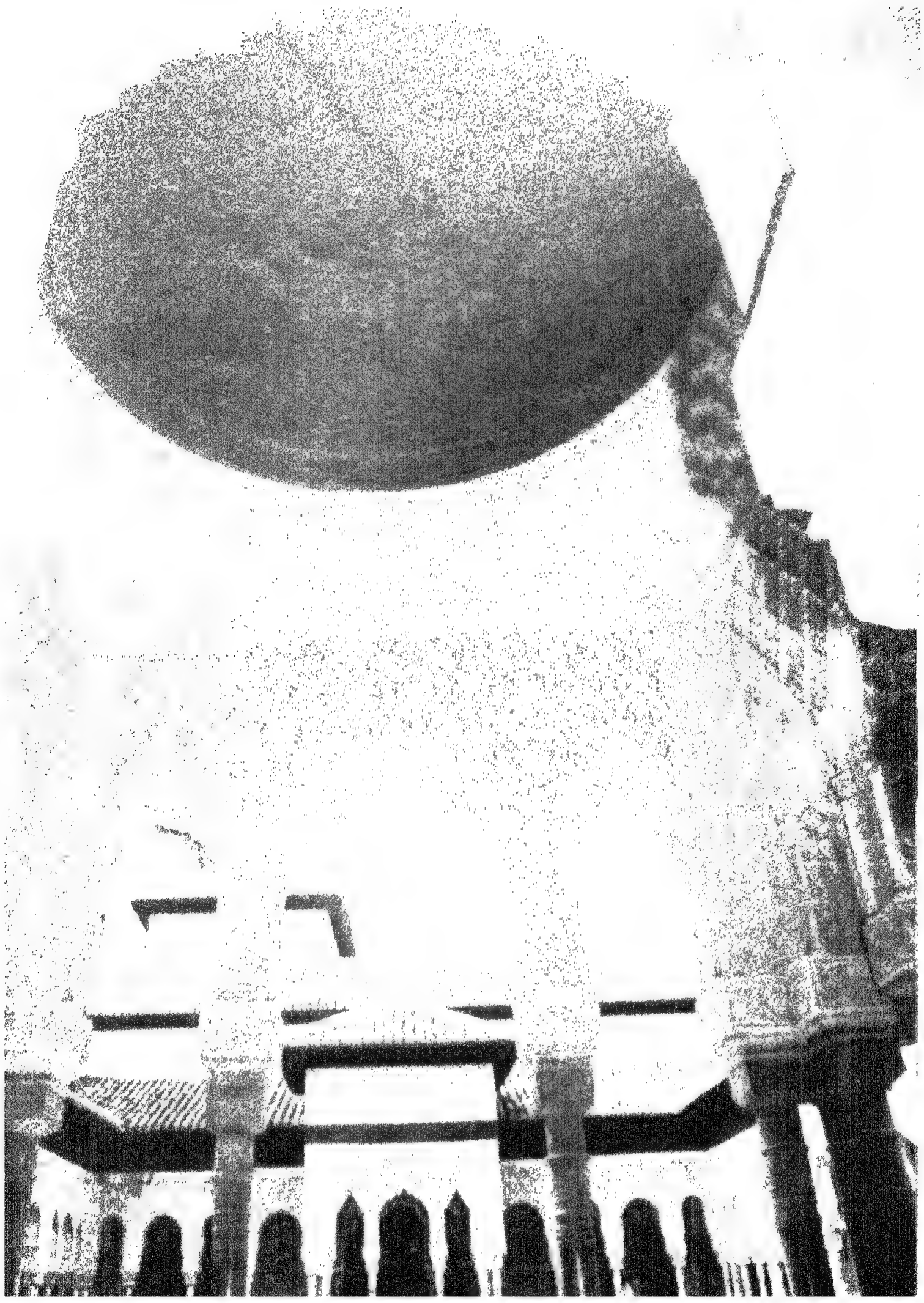
Fig. 3. Courtyard of the church of St. John the Evangelist.

Fig. 4. The church of St. John the Evangelist, Tbilisi.



Fig. 5.









View of town

The town of ... is situated ...
 The church ... is the ...
 The ... is the ...
 The ... is the ...



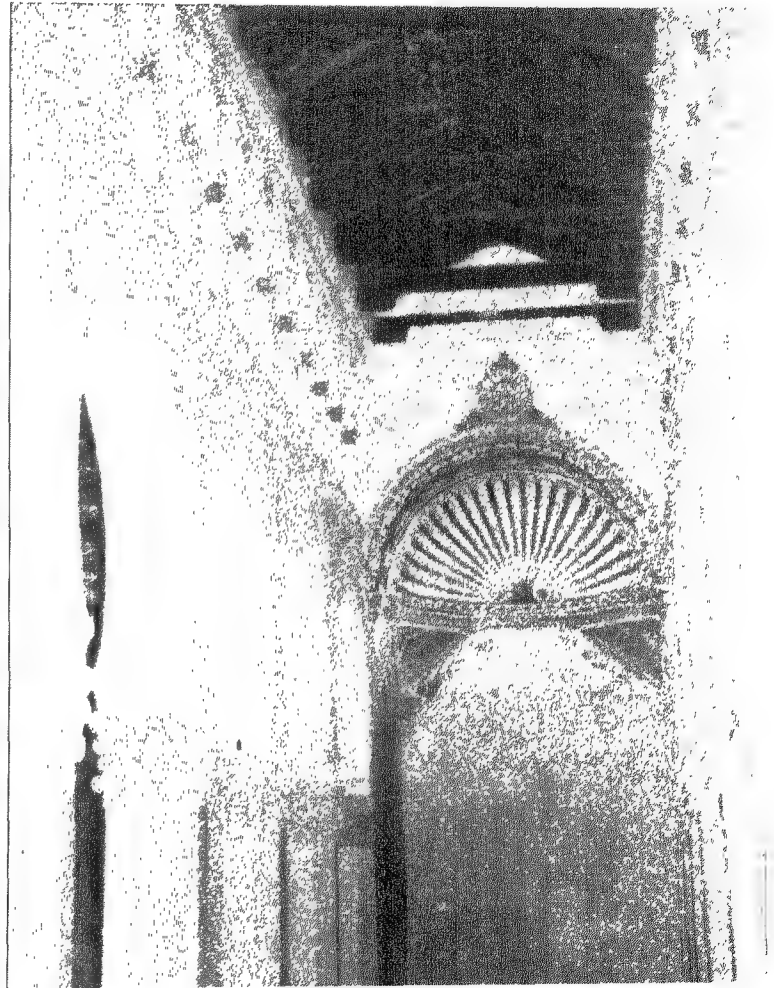
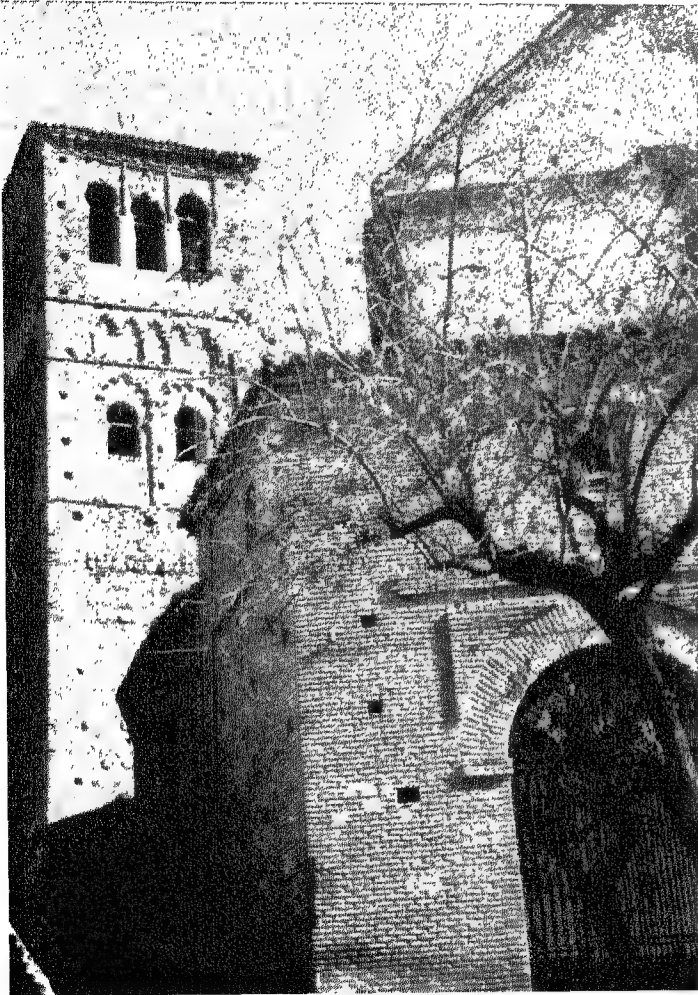


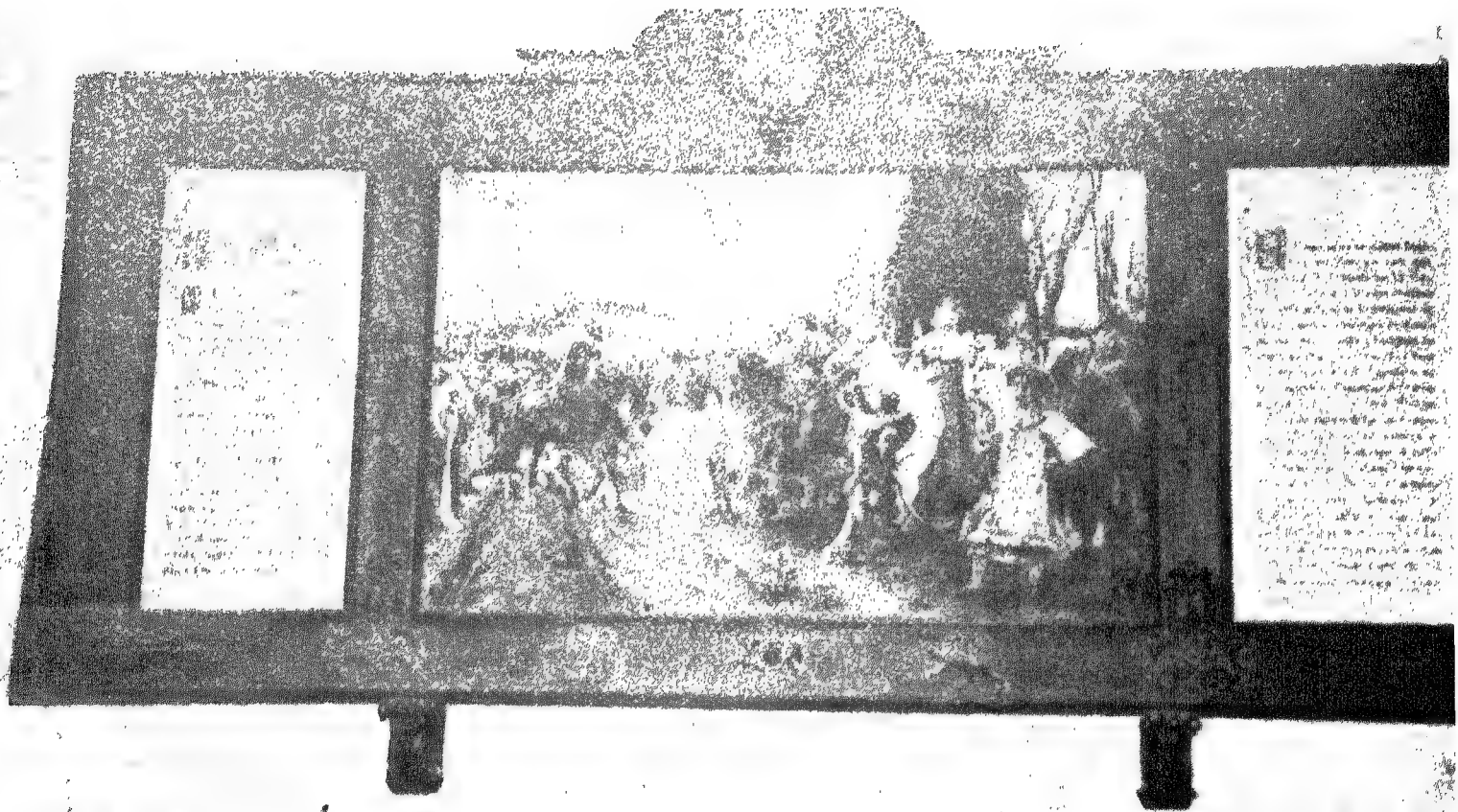
طليلة : منظر عام .

أصحت طليلة معطلة من أهلها في قبضة الصفر
تركت بلا أهل تؤهلها مهجورة الأكاف كالقبر

طليلة : منڈة جامع حول إلى كنيسة .

طليلة : الكنيس اليهودي



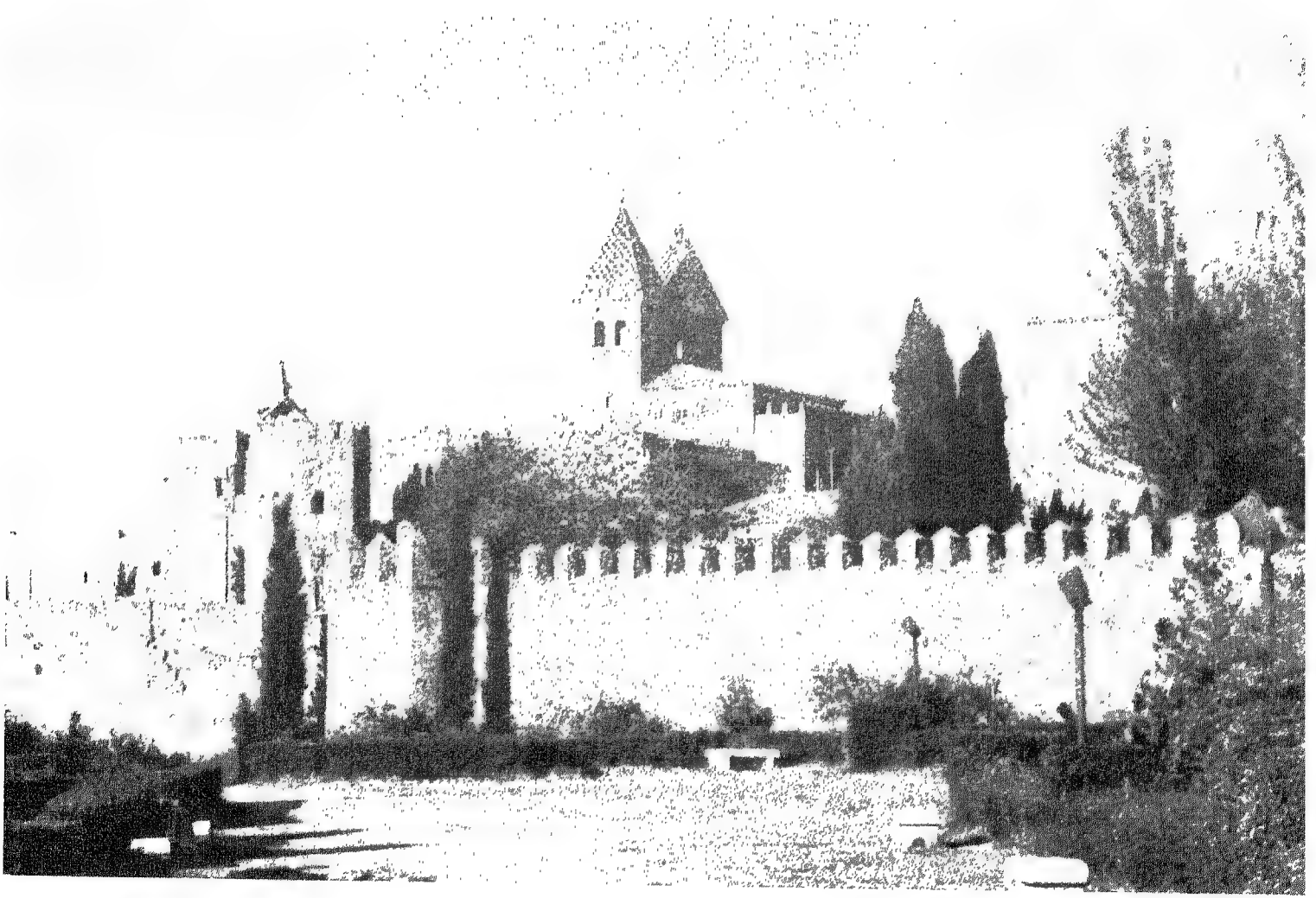


طلليظة : ثورة زيتية في الكتدرائية تمثل ابا عبد الله الشقي وهو يسلم مفتاح
غرناطة الى الملكين فرناندو وايزابيلا

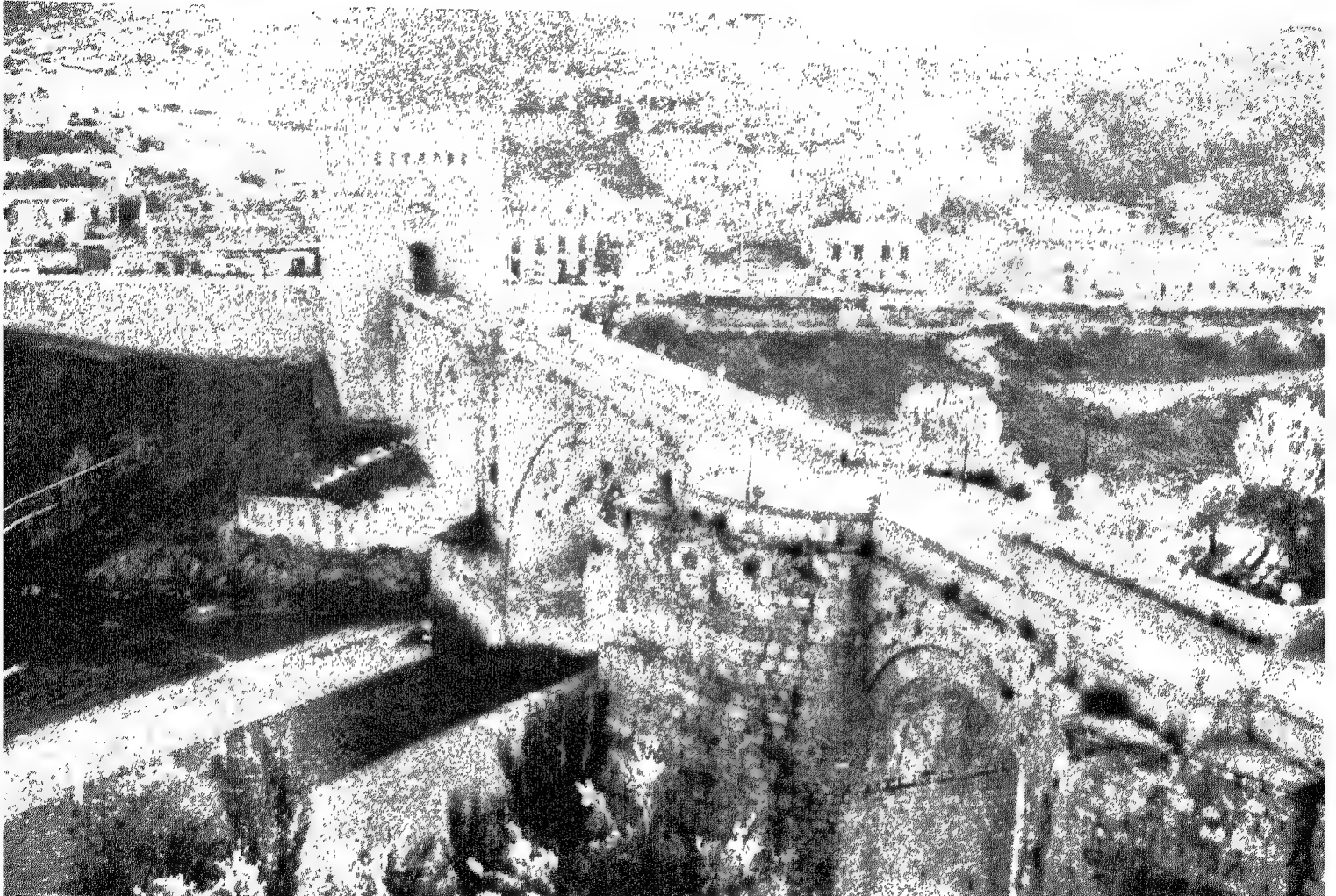


طلليظة . البوابة الرئيسية .

طلليظة علم السلطان أبي الحسن المريني غنمه
الاسبان عندما هزموه عام 741 / 1340 في جزيرة طريف
عند نزولها لنجدة سلمي الأندلس . وهو معروض في
الكتدرائية .



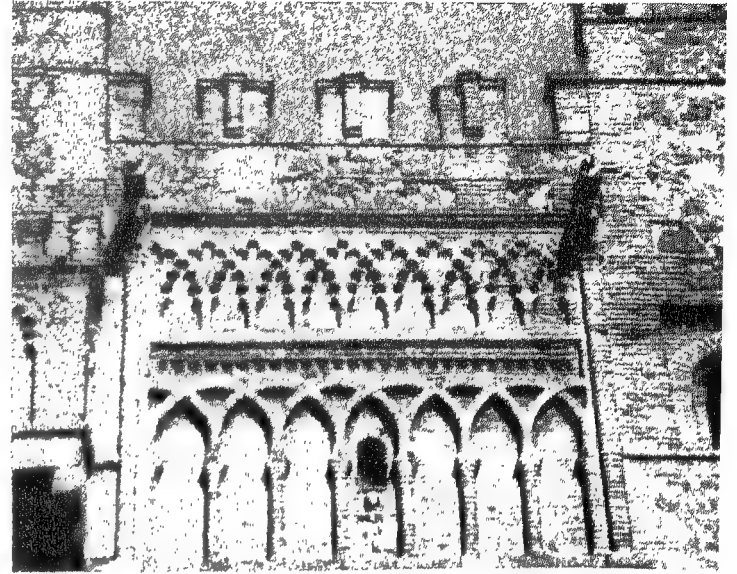
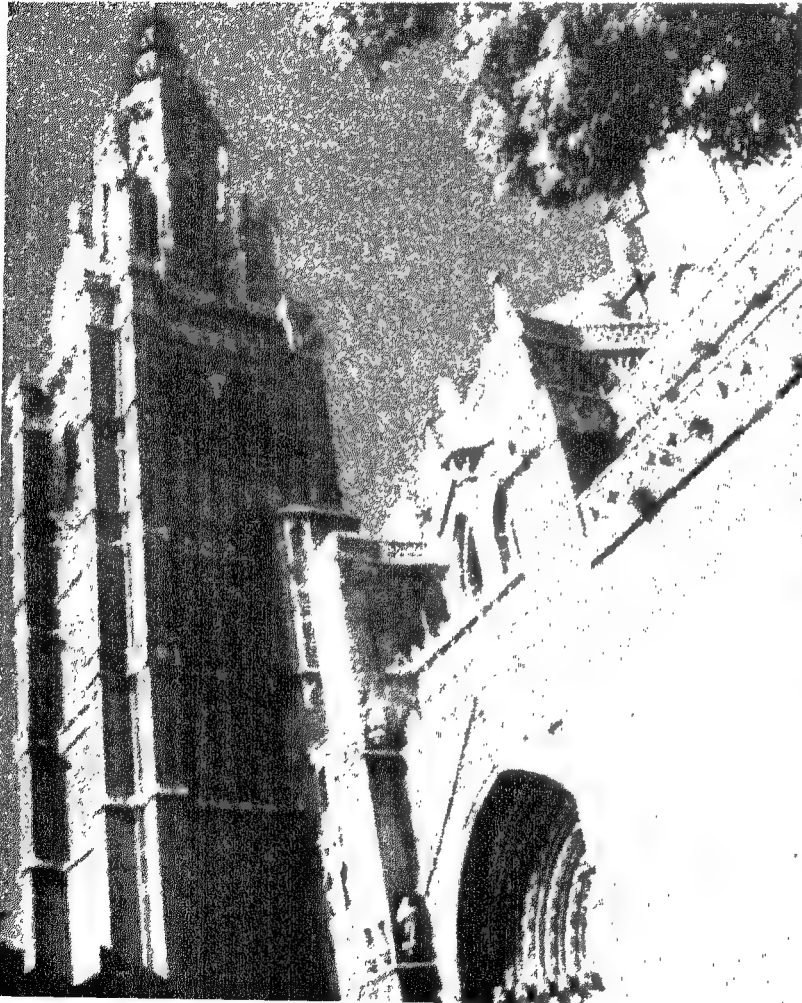
طليطلة : أسوار المدينة العربية بعد تجديدها.



طليطلة : التنترة العربية.

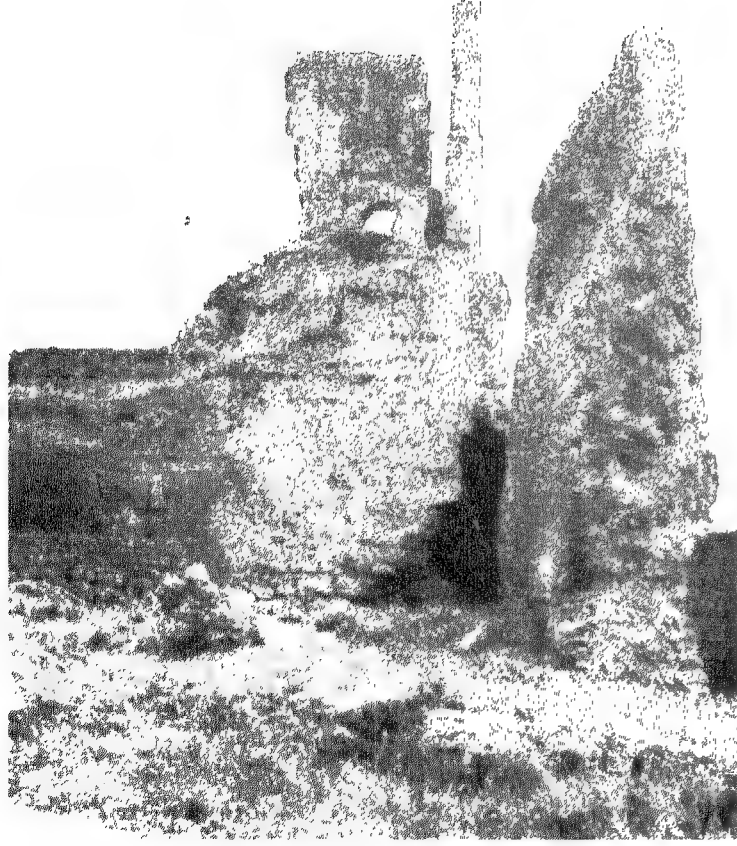


طليلة : منظر من فوق أسوار المدينة .

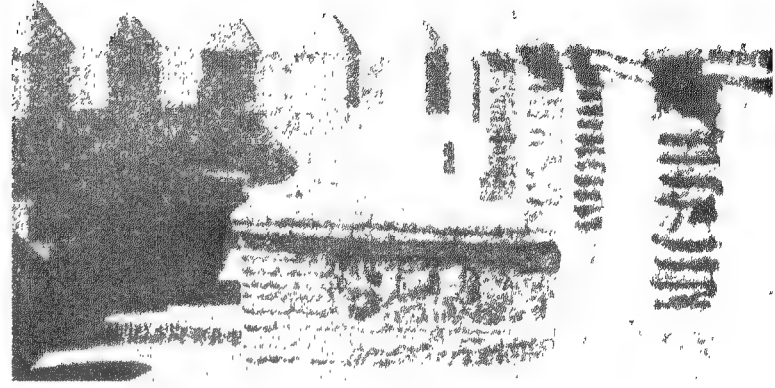


طليلة : واجهة جامع حول إلى كنيسة .

طليلة الدارانيا
وقد بنت عمل المسجد الجامع .

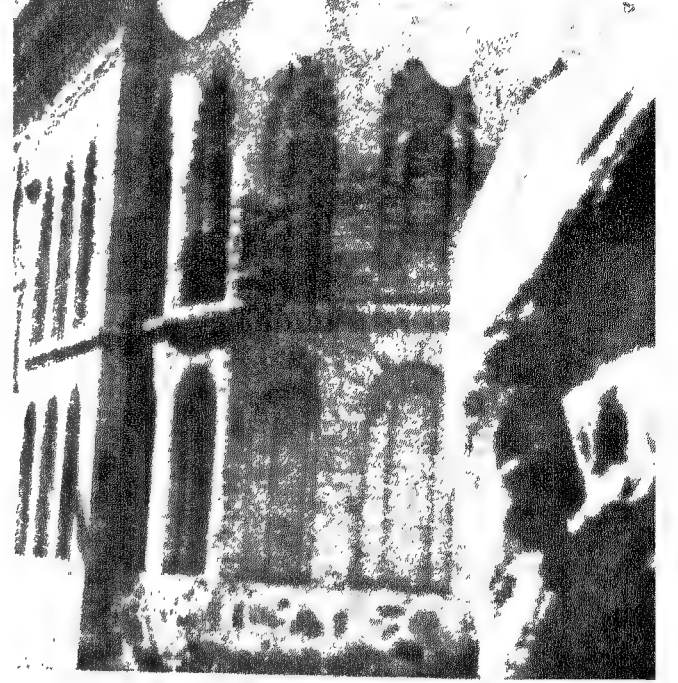


قرمونة: أطلال القصبه .



طليطلة: أسن أبراج الحراسه

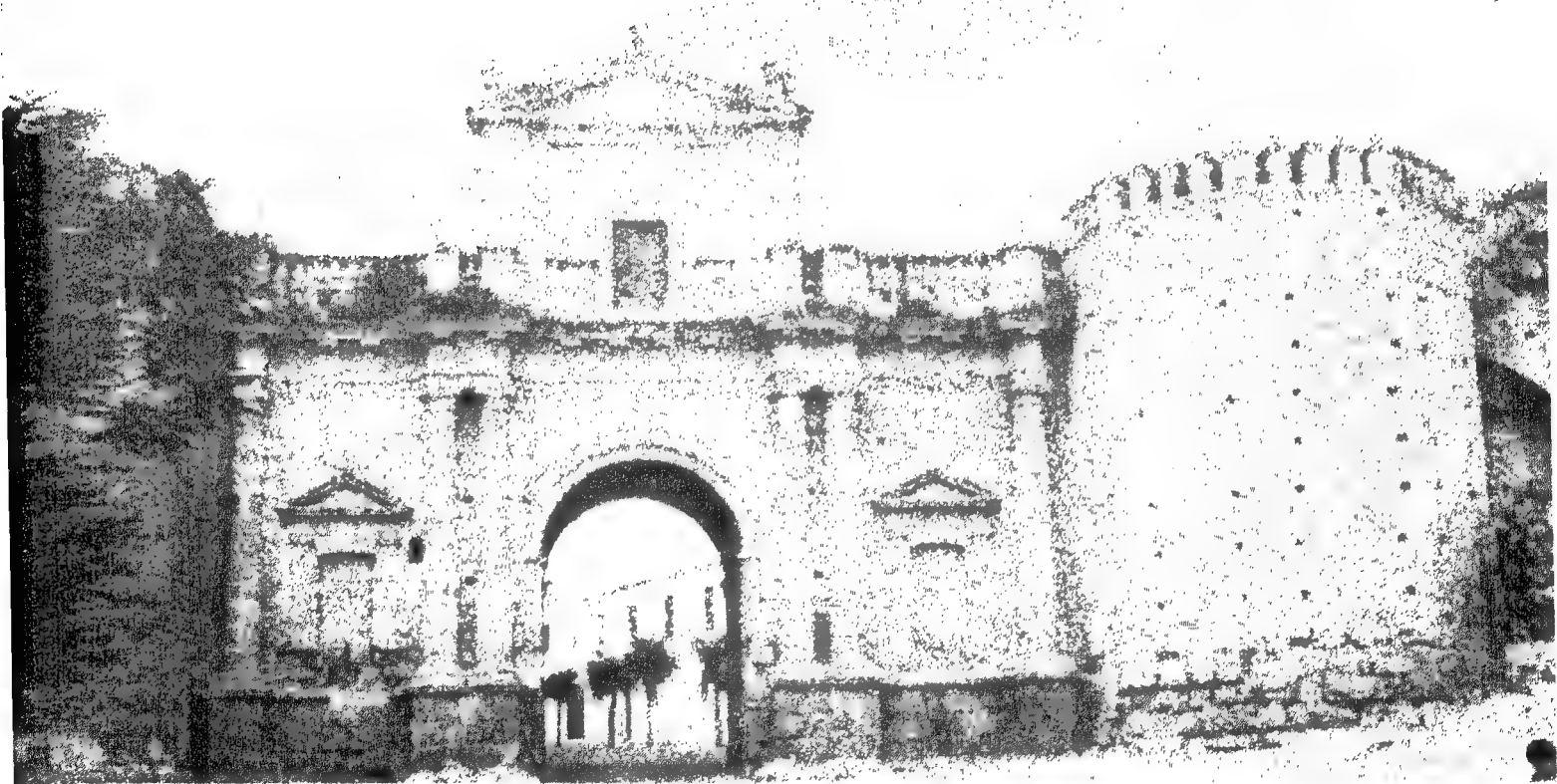
طليطلة: داخل أسوار المدينه



منازلها	مصنوعة	وبطابخها	وئقورها
نهارئمها	مدائنها	منجوعه	ونجودها
واحياءها	أحجارها	مصدوعه	وصنخورها
تبدي الاسي	وجادها	الحزن	يسلو فسميرها
يكاد لفرط			

قرمونة: مدخل القصبه
وفد أنشئ داخلها فندق كبير .





قرمونة: باب قرطبة .

4
قرمونة: جامع حول إلى كنيسة .

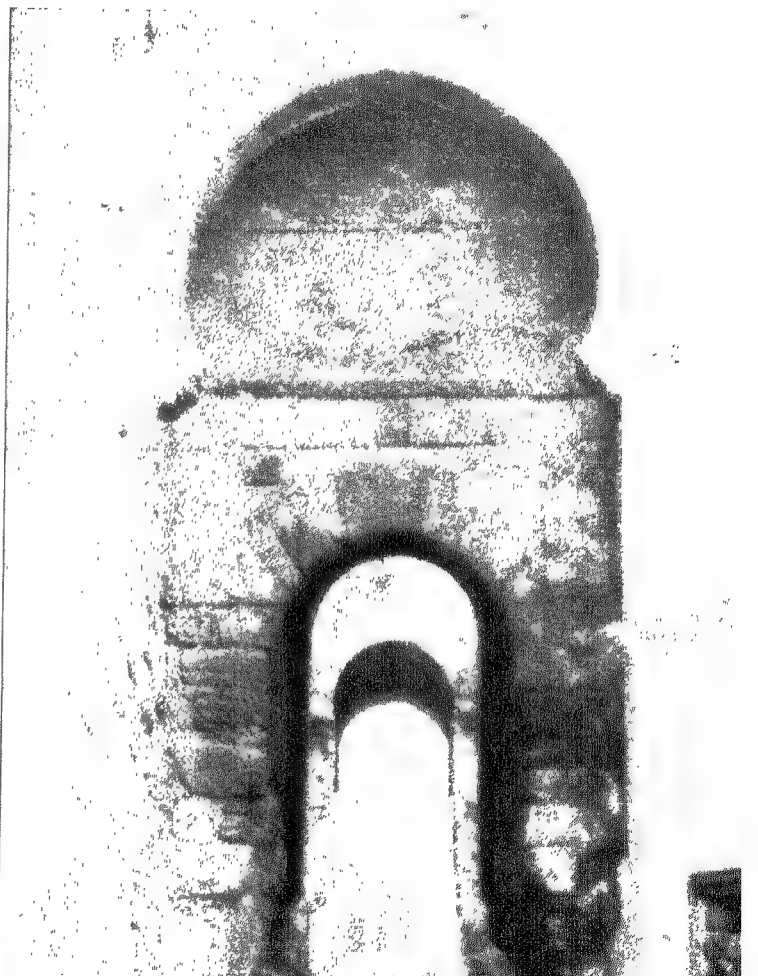




قرمونة: الكندراية الكبرى حلت محل الجامع.
قرمونة: منذنة جامع حول إلى كنيسة.



قرمونة: منارة جامع حول إلى كنيسة.
قرمونة: باب اشيلية.





المسجد الوحيد الباقية



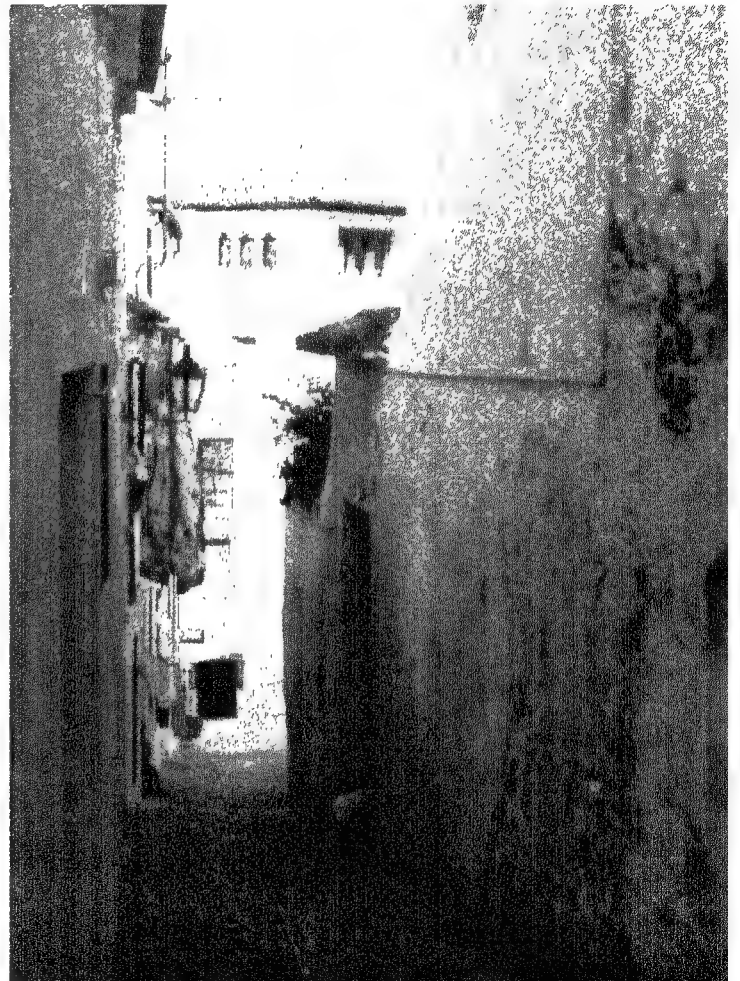
قرمونة : مئذنة جامع حول إلى كنيسة .

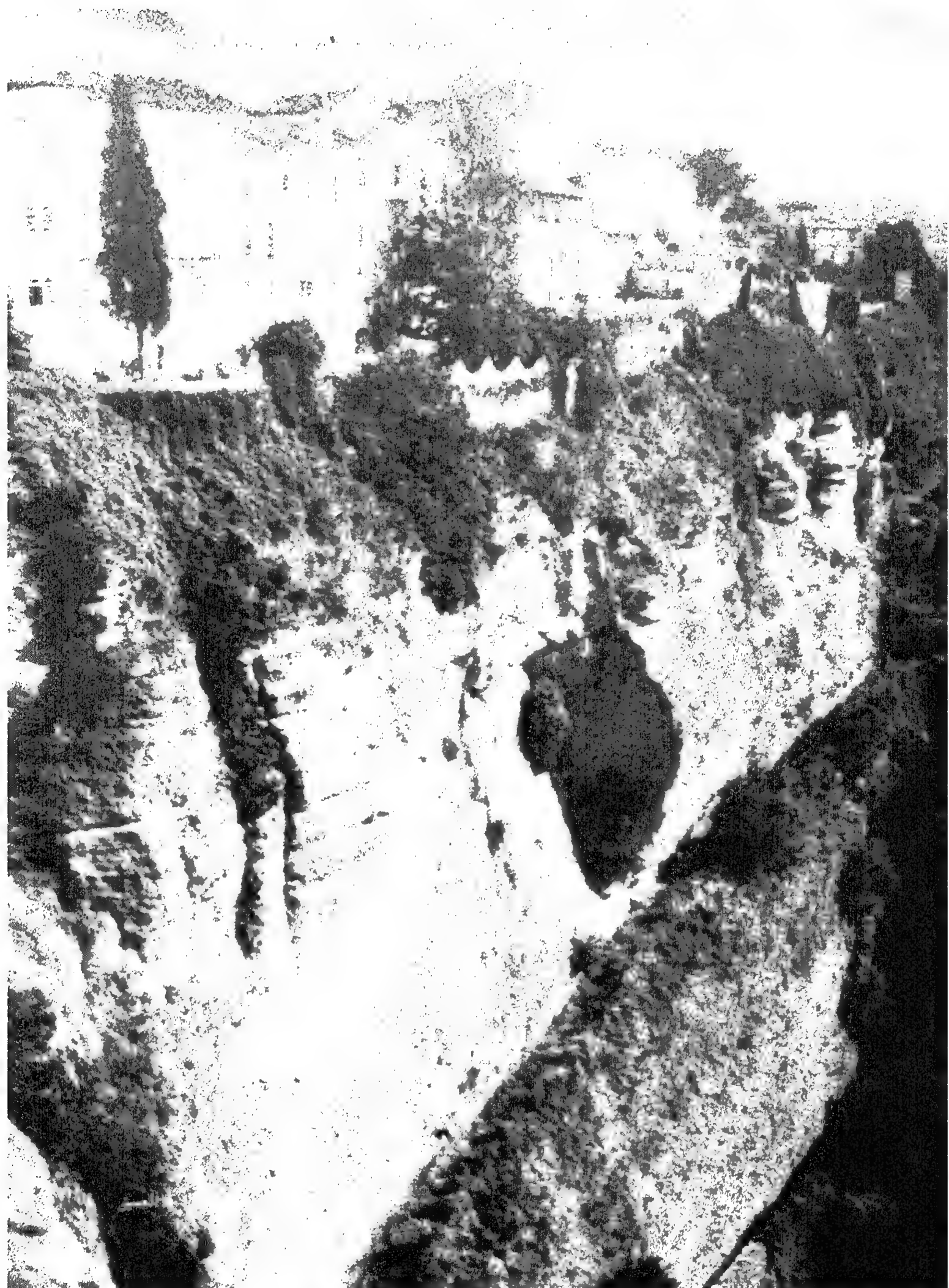


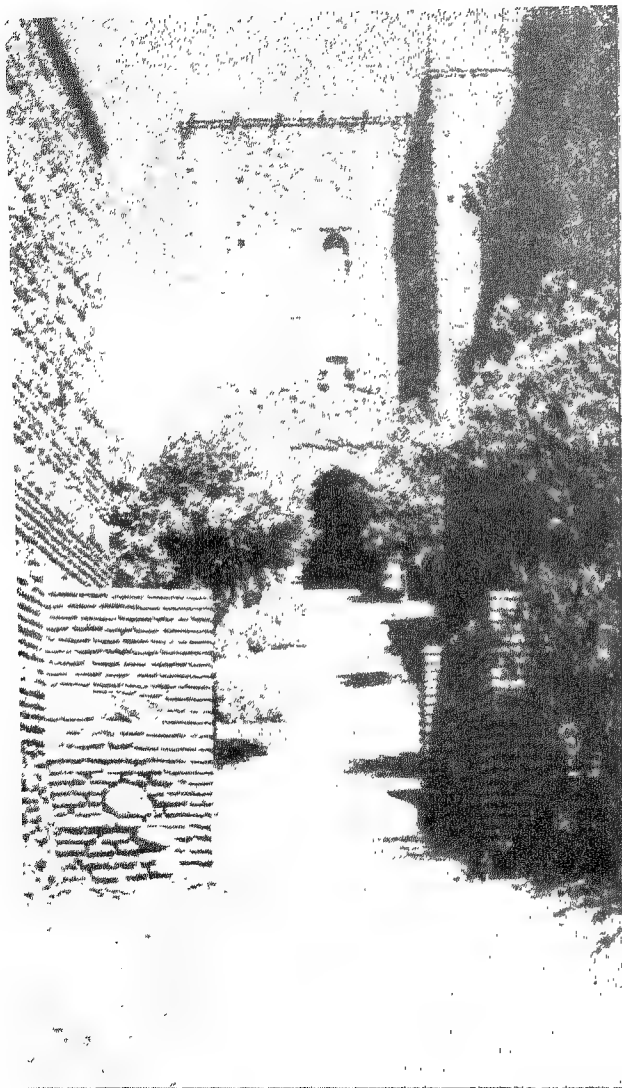
قرمونة : مئذنة جامع حول إلى كنيسة .

احمّا حليبي أنّ رُندةً أقفرت
 وأزعج عنها أهلها وعشيرها
 وهُدَّتْ مبانيها وثَلَّتْ عُروشها
 ودارتْ على قطب النفرق دُورُها
 تسلمها حزب الصليب وقادها
 وكانت شروداً لا يُقاد نفورُها
 فباد بها الإسلام حتى تقطعتْ
 مناسبها واستأصل الحق زورُها
 وأصبحت الصُّلبان قد عُبدتْ بها
 تماثيلها دُون الإله وضورُها

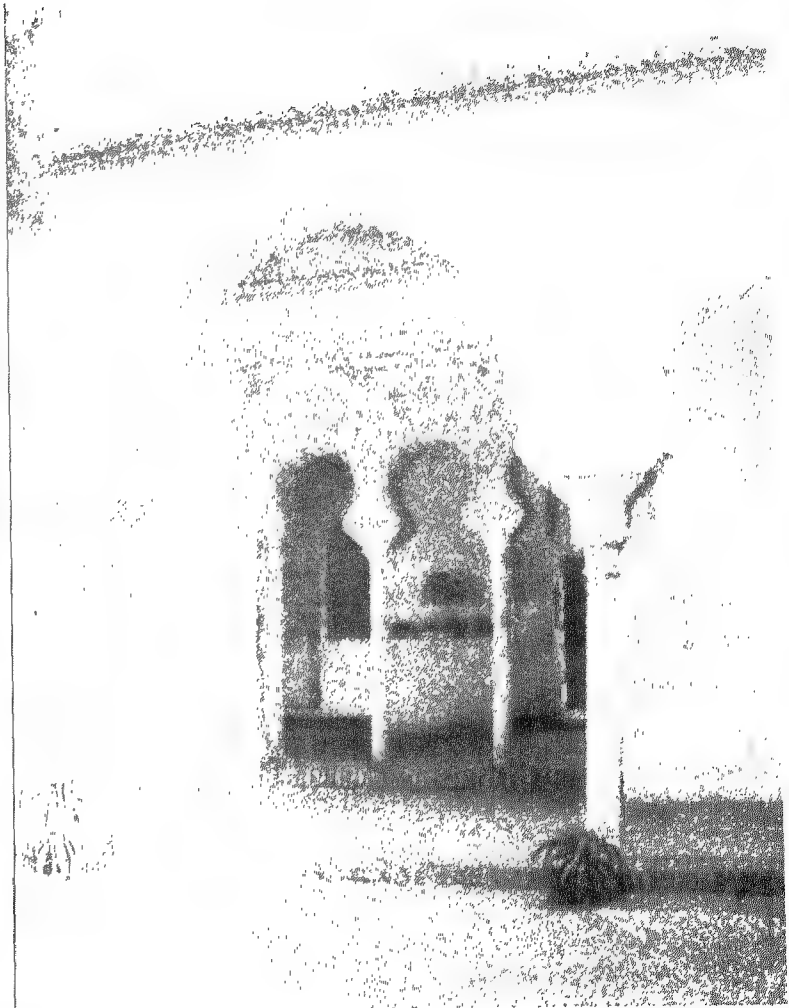
رُندة : قصر الامارة .



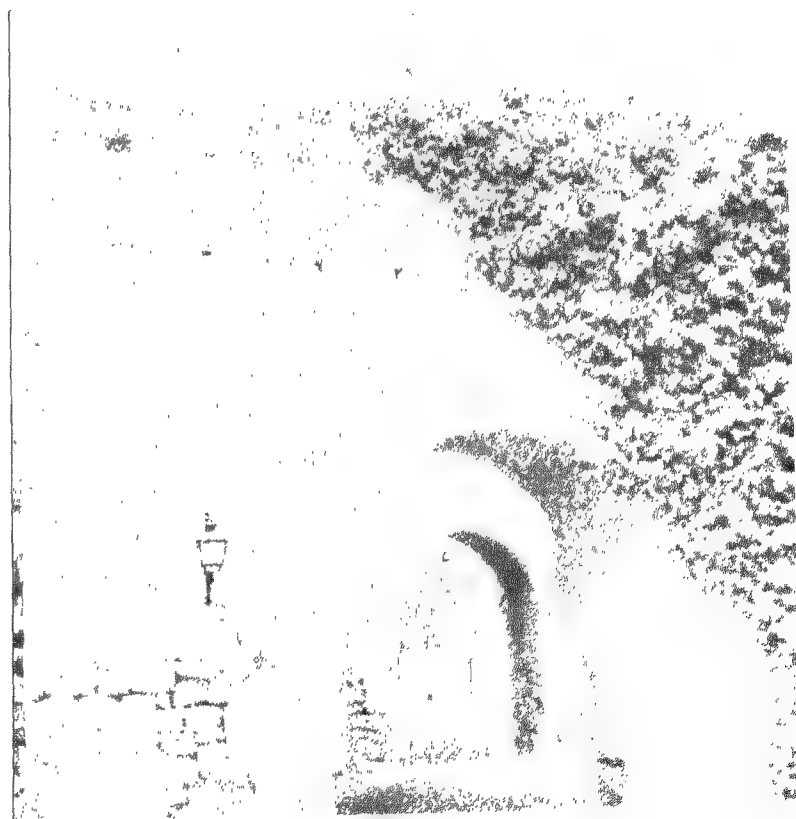




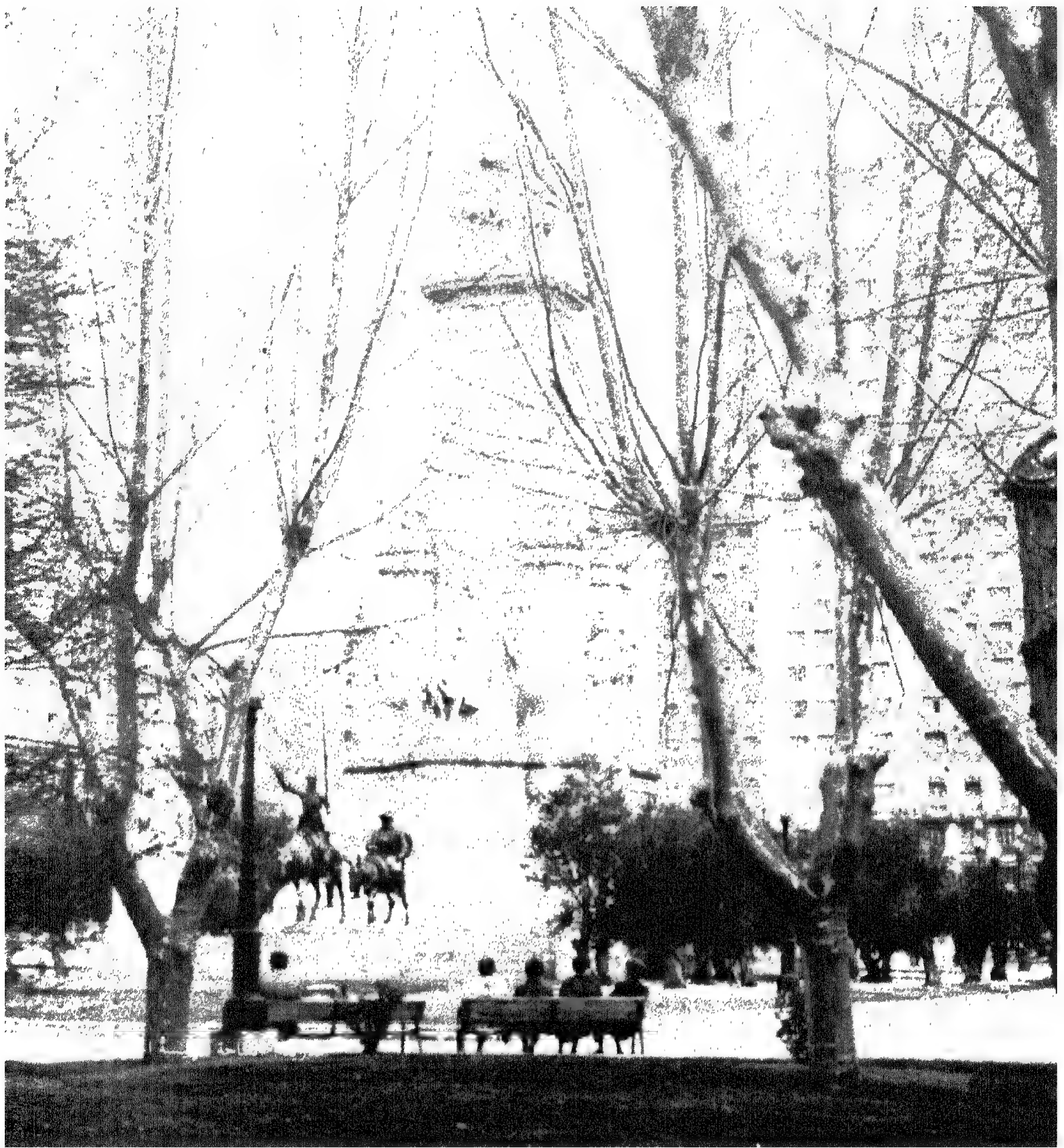
مالقة : القصبة .

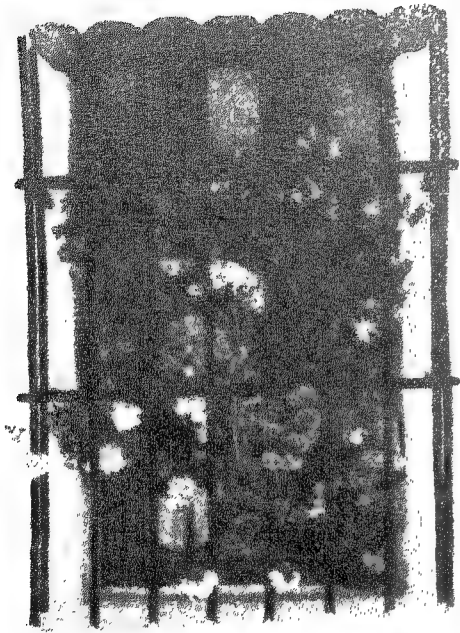


مالقة : النصب بعد ترميمه .



شنتمية الغرب (البرتغال) :
احدى بوابات المدينة .





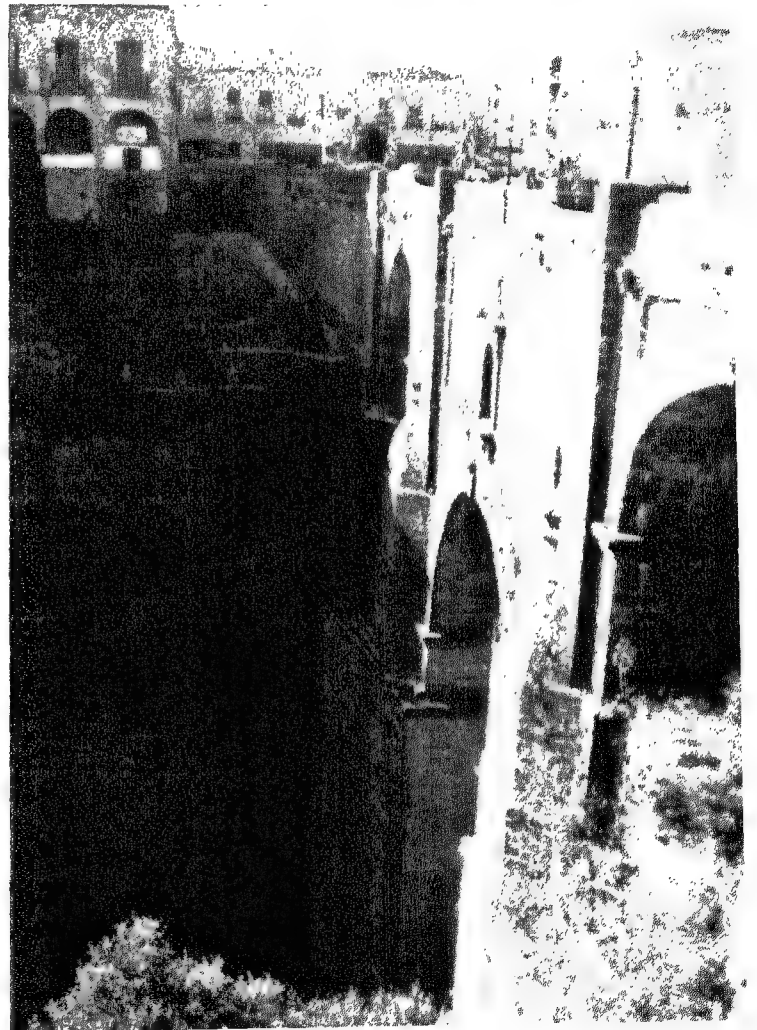
نافذة في مدينة زهرة الجبل

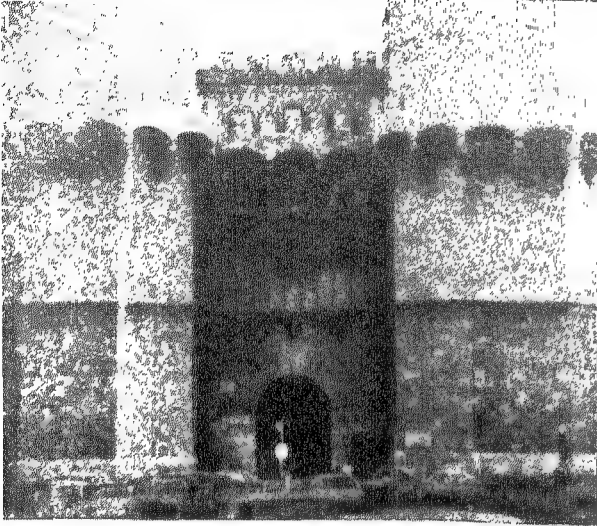


بنايت زهرة الجبل بالقرب من رندة

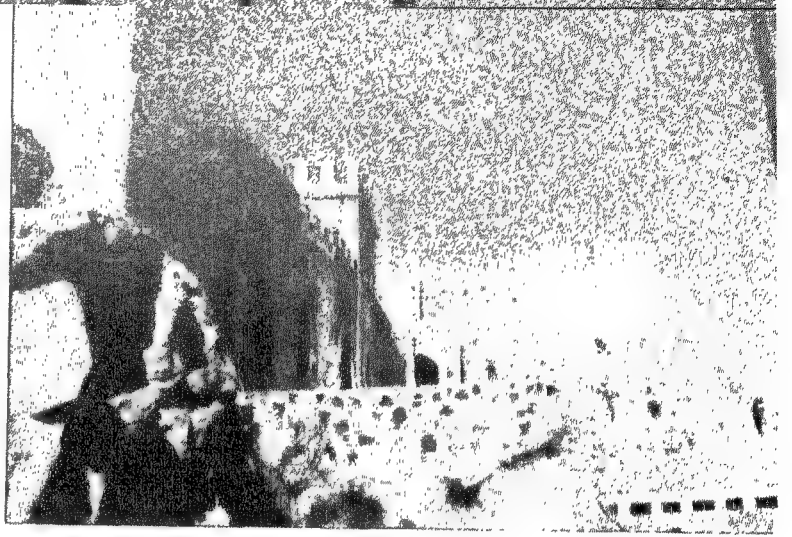
الشارقة

بيت عربي في يابسة





احدى بوابات فالنسية



قلعة طريف

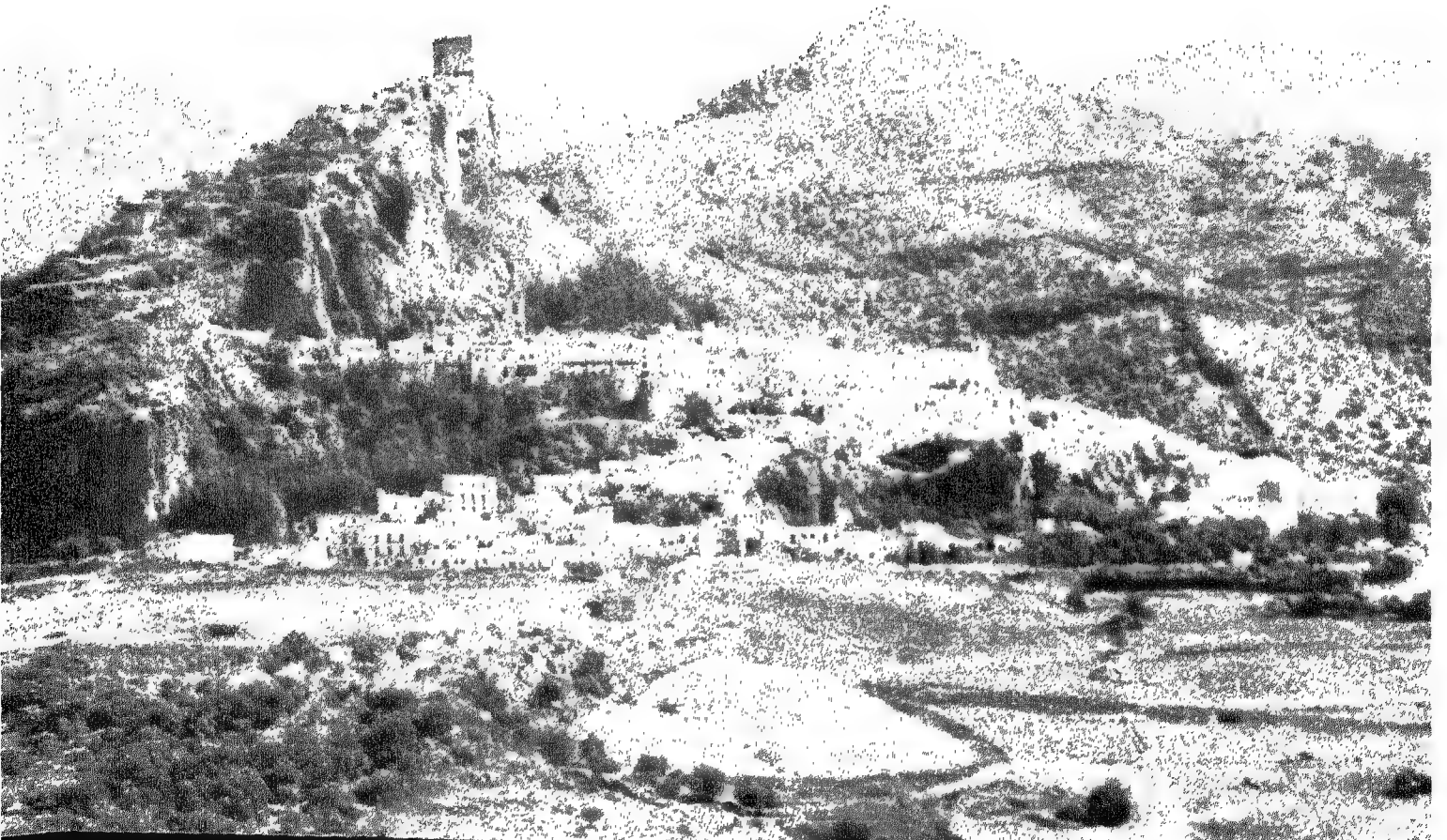


احدى بوابات رندة



الفارو (البرتغال):
جامع حول إلى كنيسة .

زهرة الجبل (بالقرب من رنده): القلعة العربية تطل على البلد.





قلعة جابر (بالقرب من اشيلية) : أحد الأبراج .

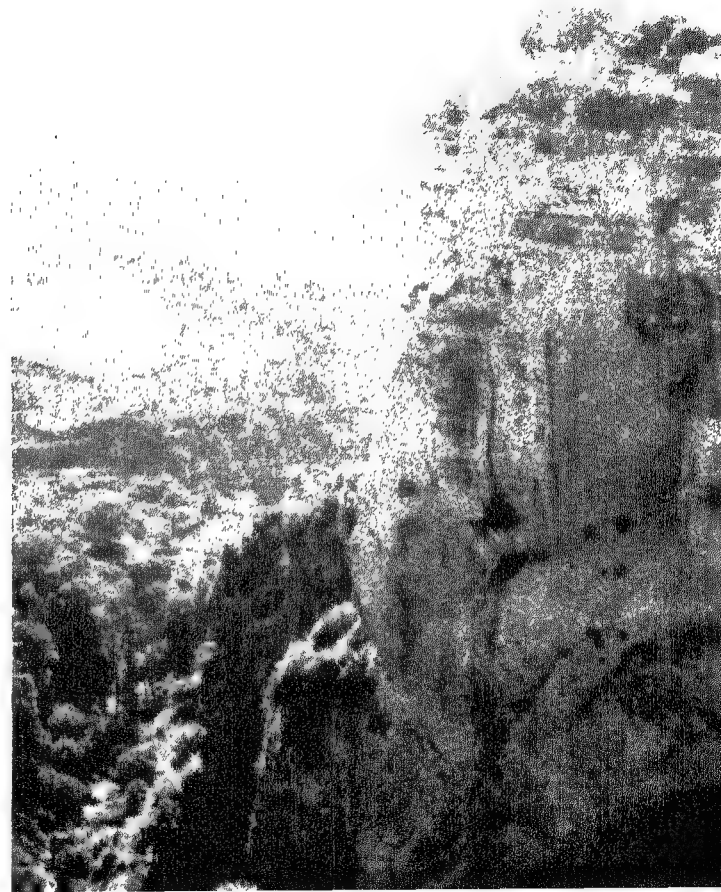
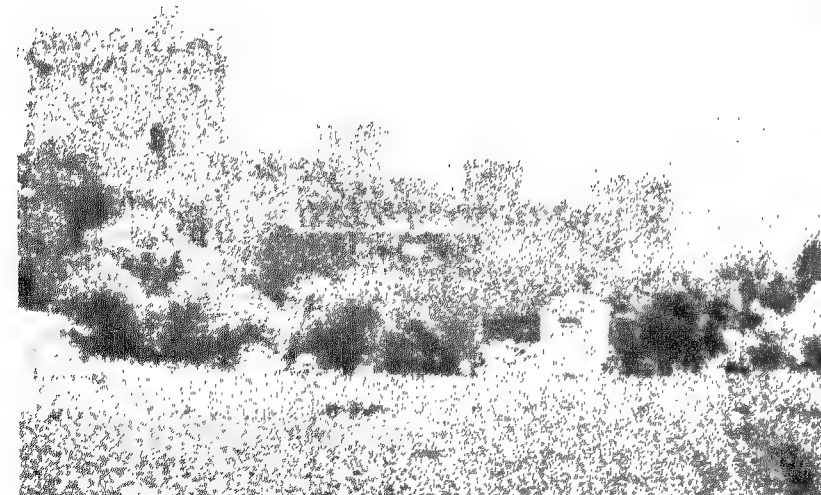


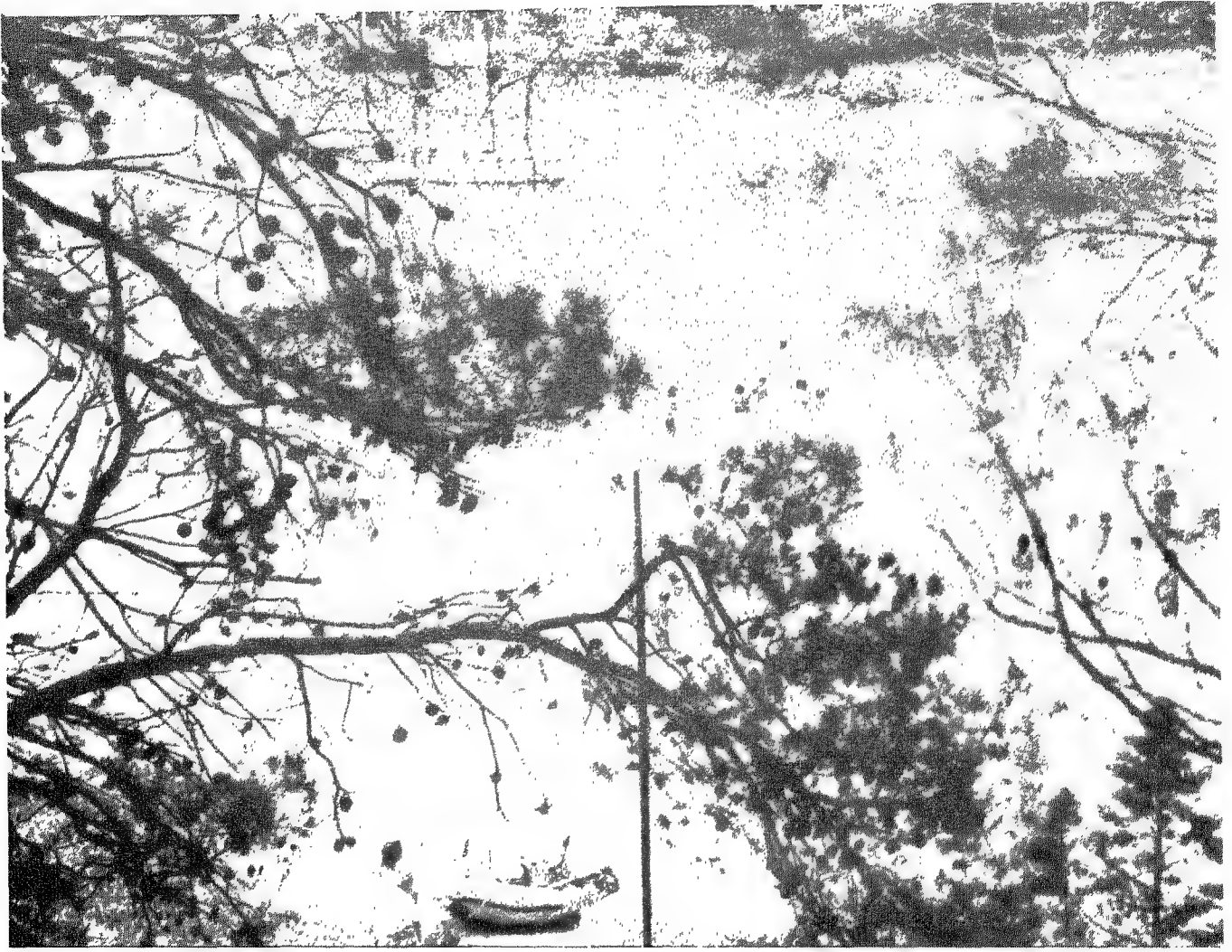
قلعة جابر (بالقرب من اشيلية) : احدى البوابات .

يفصل بين شقيها هذا الوادي السحيق

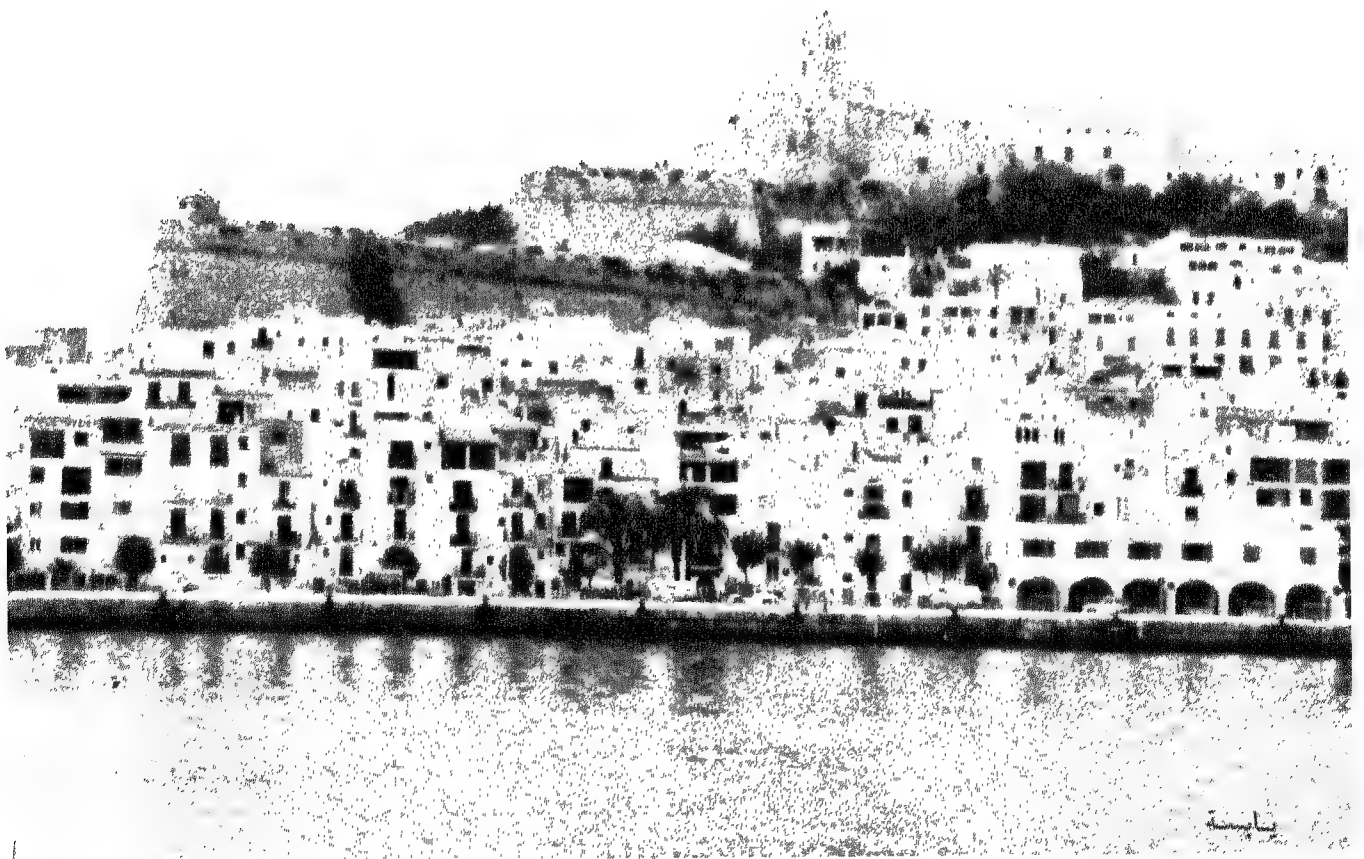
الدمرُ يفجعُ بعد العين بالآثر
فما البكاء على الأشباح والصُور؟

احدى القلاع العربية العديدة
الموجودة في أنحاء الأندلس .





احد شواطئ يابسة



يابسة

«أسماء بعض المدن والمواقع بالعربية
والاسبانية»
«ألف»

TOCINA	إقليم طشانة
CARTUJANA	إقليم قرطسانة
ALMONASTER	إقليم المسنستير
OCSONOBA	أكشونة
ALAVA	أليه
ELVIRA	إلبيره
ELCHE	إلش
AMAYA	أماية
AMPURIAS	أنبوريش
ONDA	أنده
ONDARA	أندرة
ANDARAX	أندرش
ORETO	أوريط
HUELVA	أونبة
OCA	أوقة
ELLO	أية
IRIA	إيرية

«باء»

BEJA	باجه
PRIEGO	باغة
BOBASTRO	بيشتر
BAEZA	بايش
PECHINA	بجانة
BARBASTRO	بريشتر
BERJA	برجة
BORDEAUX	برذيل
PRADANOS	برذيش
PURCHENA	برشانة
BARCELONA	برشلونة
BURGOS	برغش
BURRIANA	بريانة
BEZMILIANA	بزليانة
BAZA	بشطه
BASQUE	بشكنس
PETREL	بطرير

AVILA	أبله
ASTRO	أشتر
OVEJO	أبال
EBRO	إبره (نهر)
AVIGNON	أبنيون
UBEDA	أبذة
ARNEDO	أرنيط
NARBONNE	أربونة
ORIHUELA	أريولة
ARJONA	أرجونه
ANDUJAR	أندوجر
URCI	أرش
ERCO	إرش
ARCHIDONA	أرشدونه
ARAGON	أرغون
ALARCOS	الأرك
ERCAVICA	إركتبه
ERCOS de la Frontera	إركش
ARLES	الأرل
ORENSE	أرية
ECIJA	إستجة
SEVILLA	إشبيلية
SAN ESTEBAN	إشتبين
ASTURIAS	أشتوريش
ASTORGA	أشتيرقية
OSUNA	أشونه
UTRERA	أطريه
ESTEPA	إصطبة
FRAGA	افراغة
UCLES	أقليش
AJARAFE	إقليم الشرف

GIBRALTAR	جبل طارق
AJARAFE	جبل الشرف
CERONA	جرندة
GUERNICA	جرنيق
ISLAS BALEARES	الجزائر الشرقية
GENERALIFE	جنة العريف

«حاء»

POLEY	حصن بلاي
TABLADA	حصن طلياطة
ALANJE	حصن الحنش
CARCAR	حصن كركر
SANTA CRUZ DE	حصن شنت أقرج
LA SIERRA	
ESTEPA	حصن استبه
ROTA	حصن الروطة

«خاء»

JANDA	الخنديق (بحيرة)
GIJON	خيخون

«دال»

DENIA	دانية
DAROCA	دروقة
DALIAS	دلالية
DUERO (RIO)	دويره (نهر)

«راء»

RAQUENA	ركانة
RICLA	ركلة
LA RAMBLA	الرملة
ROMILLA	رميلة
RONDA	رندة
ROTA	روطه
RONCESVALLES	رنشفالة (ممر)

BADAJOS	بطلوس
VALTIERRA	بليتره
VALLADOLID	بلد الوليد
PORCUNA	بلكونه (حصن)
VALOR	بلور
VALENCIA	بلنسية
VALENTILLA	بلنتلة
PAMPLONA	بنبلونه
BENICASIM	بني قاسم
PENISCOLA	بنشكلة
ALPUENTE	البونت
PUZAL	بونال
PENA de PELAYO	بلاي (صخرة)
BELICENA	بليسانة
PALLARES	بليارش
BAEZA	بياسة
BAENA	بيانة
BAIREN	بيران
BAYONA	بيونة

«تاء»

TAJO (Rio)	تاجة (نهر)
TAKURRUNNA	تاكركنة
TUDMIR	تدمير
TRUJILLO	ترجالة
TUDELA	تطيلة

«جيم»

SIERRA MORENA	جبل الشارات
ALGEÇIRAS	الجزيرة الخضراء
GALICIA	جليقية
GALLEGO	جلق (نهر)
CHINCHILLA	جنجالة
JAEN	جيان
JAYENA	جيانة

SANTAVER	شنت برية	REYYO	وية
SANTIAGO	شنت يعقوب	REIYMO	ريمبة
JODAR	شوذر		
MONSALUD	شنت ملوط		
	«ضاد»		«زاي»
ALDAYA	الضيعة	SAGROJAS	الزلاقة
	«طاء»		«سين»
ITALICA	طالقة	SEPTIMANIA	سبثمانية
TAVIRA	طيرة	SOPETTRAN	سبطران
TARREGA	طراحة	CEUTA	سبته
TARAZONA	طرسونه	SAGUNTO	ساجنتو
TORROX	طراش	ZARAGOZA	سرقسطة
TARRAGONA	طركونه	ZAMORA	سمورة
TORTOSA	طراطوشة	ZUJAR	سوخرة
TRIANE	طريانه		
TARIFA	طريف		«شين»
TOXANA	طشانه		
TALVERA de la REINA	طلبيره	JATIVA	شاطبة
TALAMANCA	طلمنكة	CHIPRANA	شبران
TABALDA	طلياطة	BAX	شجس
TOLEDO	طليطلة	JEREZ de la FRONTERA	شريش
TARASCON	طرسكونة	SORRION	شرين
TOLOSA	طليوشه	CERDANA	شرطانية
	«عين»	SEDONA	شدونه
ELCHE	عج	JUCAR	شقر
LASNAVASDEETOLOSA	العقاب	SECUNDA	شقنده
	«غين»	SEGOVIA	شقوية
GAULE	غالة (بلاد الفرنجة)	SEGURA de la SIERRA	شقورة
GRANADA	غرناطة	SILVES	شلب
ALGARVE	غرب الأندلس	SALAMANCA	شلمنقة
	«فاء»	SALOBRENA	شلوبانة
BUITROGO	فج طارق	CHINCHILLA	شنتجالة
VALMUSA	فج موسى	CINTRA	شنترة
LOS PEDROCHES	فحص البلوط	SANTAREN	شنترين
		SANTAMARIA de	شتمرية الغرب
		ALGARVE	

«لام»

LARIDA	لاردة
NIEBLA	لبلة
ALICANTE	لقنت
LISBOA	لشبونة
LORCA	لورقة
LOJA	لوشة
LEON	ليون
LAGO de JANIDA	لاخندة (بحيرة)

«ميم»

MARTOS	مارتش
MERTOLA	مارتله
MERIDA	ماردة
MADRID	مجريط
ALMODAVAR del RIO	المدور (حصن)
AZAHARA	مدينة الزهراء
AZAHIRA	مدينة الزاهرة
MADINCELLI	مدينة سالم
MARBELLA	مربله
MURVIEDRO	مريبطر
MARCHENA	مرسانة
MURCIA	مرسية
MALACUERA	المركوين
ALMERIA	المرية
FUENGIROLA	مرسى سهيل
MAGUELONNE	مقلونه
MONSALUT	منت شلوط
MENTESA	متيشة
MONTEJICAR	منت شقند أو شافر
MONDUJAR	مندوجر
MENORCA	منركة
LAMALA	الملاحة
ALMUNECAR	المنكب
MORON	مورور

HORNACHUELOS
FRONTIERA
FINANA
ALFAMIN

فرغبوش
الفرنثيرة
فنيانة
الفهمين

«قاف»

CADIZ
ISLA MAYOR
CABRA
CAPTEL
CARAVACA
CREVILLENTE
CORDOBA
CARMONA
CARTUJANA
CARTAGENA
CARCASSONA
CASTELLAR
CASTILLA
ALCAZAR de SAL
CALSENA
CATALUÑA
CALATAYUB
CALAT LA REAL
CALAHORRA
CALATRAVA
ALANGE
COLBRA
COMARES
CAMPIÑA
CANBIL
CORIA
QUESODA

قادس
قبطور
قبره
قبطيل
قرباقة
قربليان
قرطبه
قرمونة
قرطشانة
قرطاجنة
قرقشونة
قسطللة دراج
قشتالة
قصر أبي دانس
قلشانه
قطلونة
قلعة أيوب
قلعة بحصوب
القلعة الحرة
قلعة رباح
قلعة الحنش
قلمرية
قمارش
قنبانية
قنبيل
قورية
قيجاطة

«كاف»

CANTOS
ALCARAZ
ALCUDIA

كنتش معافر
الكرس (حصن)
الكدية

GUADALCANAL	وادي القنال
GENIL	وادي شنيل
GUADALCAZAR	وادي القصر
GUADALQUIVIR	وادي الكبير
GUADALGOTON	وادي القطن
GUADALETE	وادي سليط (لكة)
ALMARAZ	وادي المعرض
HUELAMO	والمو
HUENEJA	وانحة
HUETE	وبزة
HUESCA	وشقة
HUECAS	وقش
HUELVA	ولبة

«ياء»

EVORA	يابرة
IBIZA	يابسة
INIESTA	بنشتة

MORENA	مورينة
MULA	مولة (إقليم)
MALLORCA	ميورقة
MERTELA	ميرتلة

«نون»

NAVARRA	نبره
TAJO (RIO)	التاج (نهر)
NAHARON	نهارون (نهر)
NIMES	نيمس

«واو»

GUADIX	وادي آش
GUADATIN	وادي الطين
GUADALJARA	وادي الحجارة
GUADARRAMA	وادي الرملة

المراجع العربية

- ابن حيان - المقتبس في تاريخ الأندلس، باريس 1937 .
- ابن خلدون - كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، القاهرة 1867 .
- ابن الخطيب - الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبدالله عنان القاهرة 1956 .
- الطبري - بغية الملتبس في رجال أهل الأندلس، مدريد 1885 .
- ابن عبد الحكم - فتوح مصر والمغرب والأندلس، تحقيق عبد المنعم عامر .
- ابن عبد ربه الأندلسي - العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد العريان، بيروت .
- ابن عذارى المراكشي - بيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب .
- ابن القوطية - تاريخ افتتاح الأندلس، مدريد 1926 .
- الحميري - كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار (صفة جزيرة الأندلس)، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة 1937 .
- العبادي، أحمد مختار - في التاريخ العباسي والأندلسي، القاهرة 1971 .
- العبادي، عبد الحميد - المجلد في تاريخ الأندلس، القاهرة، 1964 .
- عباس، د. إحسان - تاريخ الأدب الأندلسي، بيروت .
- عنان، محمد عبدالله - دولة الإسلام في الأندلس، القاهرة 1969 .
- الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال القاهرة 1961 .
- مؤنس، د. حسين - رحلة الأندلس، حديث الفردوس الموعود، القاهرة 1963 .
- فجر الأندلس، القاهرة 1959 .
- المقري - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت 1968 .
- فتح العرب للمغرب، القاهرة 1947 .
- بيضون، د. إبراهيم - الدولة العربية في إسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة، بيروت 1976 .
- الصوفي - د. خالد - الأدب العربي في الأندلس، عصر الإمارة طرابلس الغرب 1980 .
- عتيق، د. عبد العزيز - الأدب العربي في الأندلس، بيروت 1976 .

- سيسالم، د. عصام سالم - جزر الأندلس المنسية، التاريخ الإسلامي لجزر البليار بيروت 1984 .
- الكعك، عثمان - الحضارة العربية في حوض البحر الأبيض المتوسط، القاهرة 1965 .
- سالم، د. عبد العزيز - قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، جزءان، بيروت 1971 و 1972 .
- الحجى، د. عبد الرحمن علي - تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي حتى سقوط الخلافة القاهرة 1983 .

المراجع الأجنبية:

- غرسية غومس - الشعر الأندلسي، ترجمة د. حسين مؤنس، القاهرة 1957 .
- جوينزالز بالنثيا - تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة د. حسين مؤنس القاهرة 1955 .
- ليفي بروفنسال - سلسلة محاضرات في أدب الأندلس وتاريخها ألقاها عامي 1947 و 1848 ترجمة محمد عبد الهادي شقير القاهرة 1951 .
- دوزي - تاريخ مسلمي إسبانيا، ترجمة د. حسن حبشي، القاهرة 1963 .
- جب، هاملتون - دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة د. إحسان عباس، د. محمد يوسف نجم، د. محمود زايد، بيروت 1979 .
- سيريو، ل. م. - تاريخ العرب العام، ترجمة عادل زعير 1969 .
- غوستاف لوبون - حضارة العرب، ترجمة عادل زعير 1969 .
- هونكة، زيجريد - فضل العرب على أوروبا، ترجمة وتحقيق د. فؤاد حسنين علي .
- BRETT, Michael — I MORI, L'Islam in Occidente Avora. 1980
- CRESPI, Gabriele — Gli Arabi in Europa, Milano. 1980
- GABRIELI, Francesco — Gli Arabi in Italia, Milano. 1979
- BENNASSAR, Bartolome — L'inquisition Espagnol XVe-XIXe SIECLE, Paris, 1980
- RICE, David Talbat — Islamic Art, London 1979
- WATT, W. Montgomery — The Majesty That Was Islam, London 1976
- DUNLOP, D.M. — Arab Civilization, to AD 1500, London 1971
- HIRTH, Philip K. — History of The Arabs, London 1937
- LEWIS, Bernard — The Arabs in History, London 1950
- GIBB, Sir Hamelton — Studies on the Civilization of Islam, London 1962
- Arabic Literature, 2 nd Ed. Oxford 1963.
- WATT, W. Montgemery — The Influence of Islam on Medieval Europe, Edinburgh. 1972
- TOYNBEE, Arnold J. — A Study of History, Oxford, 1947
- The World of Islam Chapters contributed by:
- LEWIS, Bernard — The Faith and the Faithful (The Land and Peoples of Islam).
- ETTINGHAUSEN, R. — The man-made setting (Islamic Art and Architecture)
- GRABER, O. — Cities and Citizens (The Growth and Culture of URBAN Islam)
- MEIER, Fritz — The Mystic Path (The Sufi Tradition)
- PELLAT, Charles — Jewlers with words. (The Heritage of Islamic literature).
- SHILOAH, A — The Dimention of Sound (Islamic Music Philosophy, Theory and Practice.)
- SABRA, A.I. — The Scientific Enterprise (Islamic Contribution to the Development of Science)
- BOSWORTH, Edmund — Armies of the Prophet. Strategy. Tactics and Weapons in Islamic Warfare.
- GOMEZ, Emilio Garthia — Moorish Spain. The Golden Age of Gordoba and Granada
- and others.

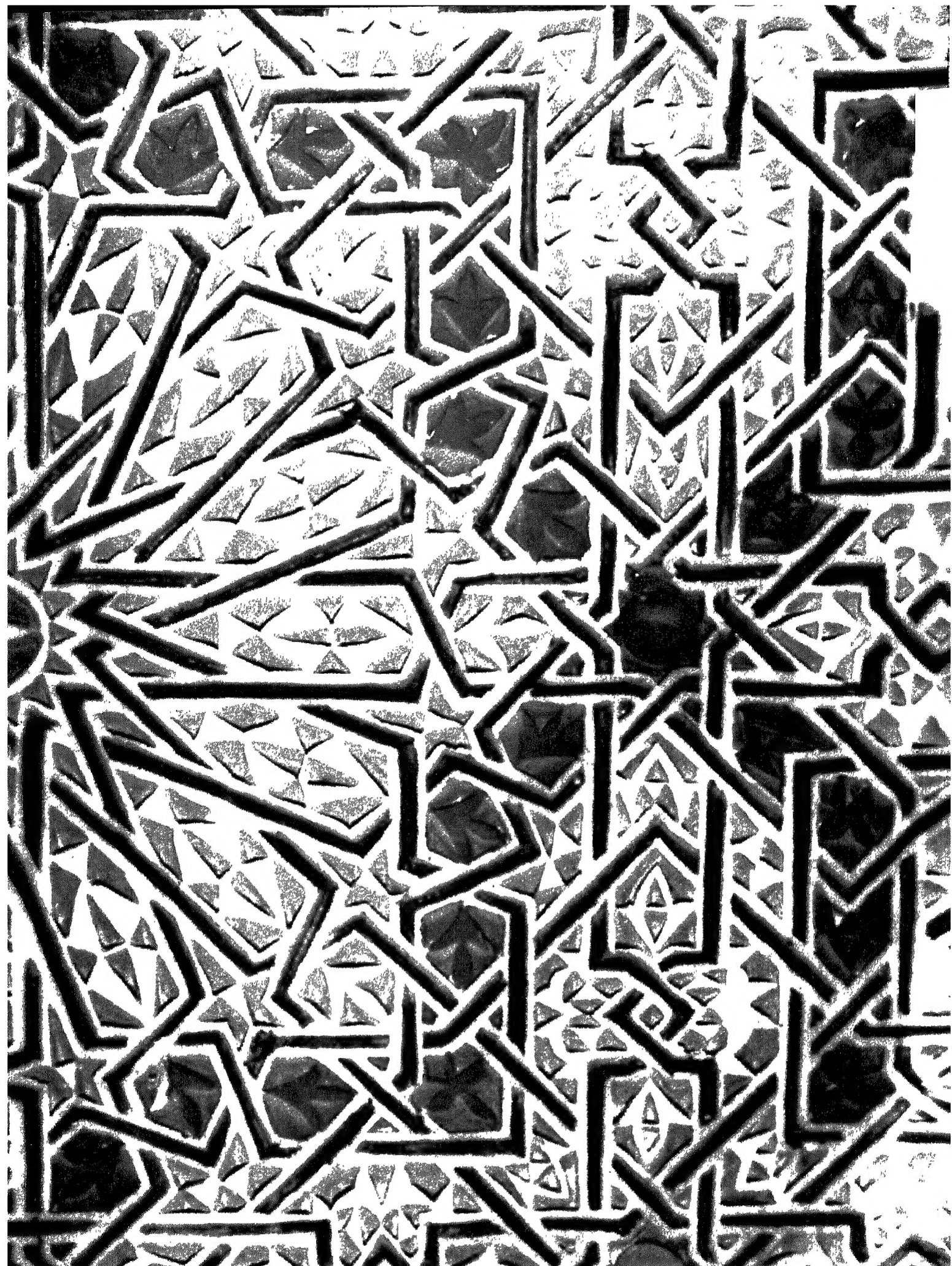
المحتويات

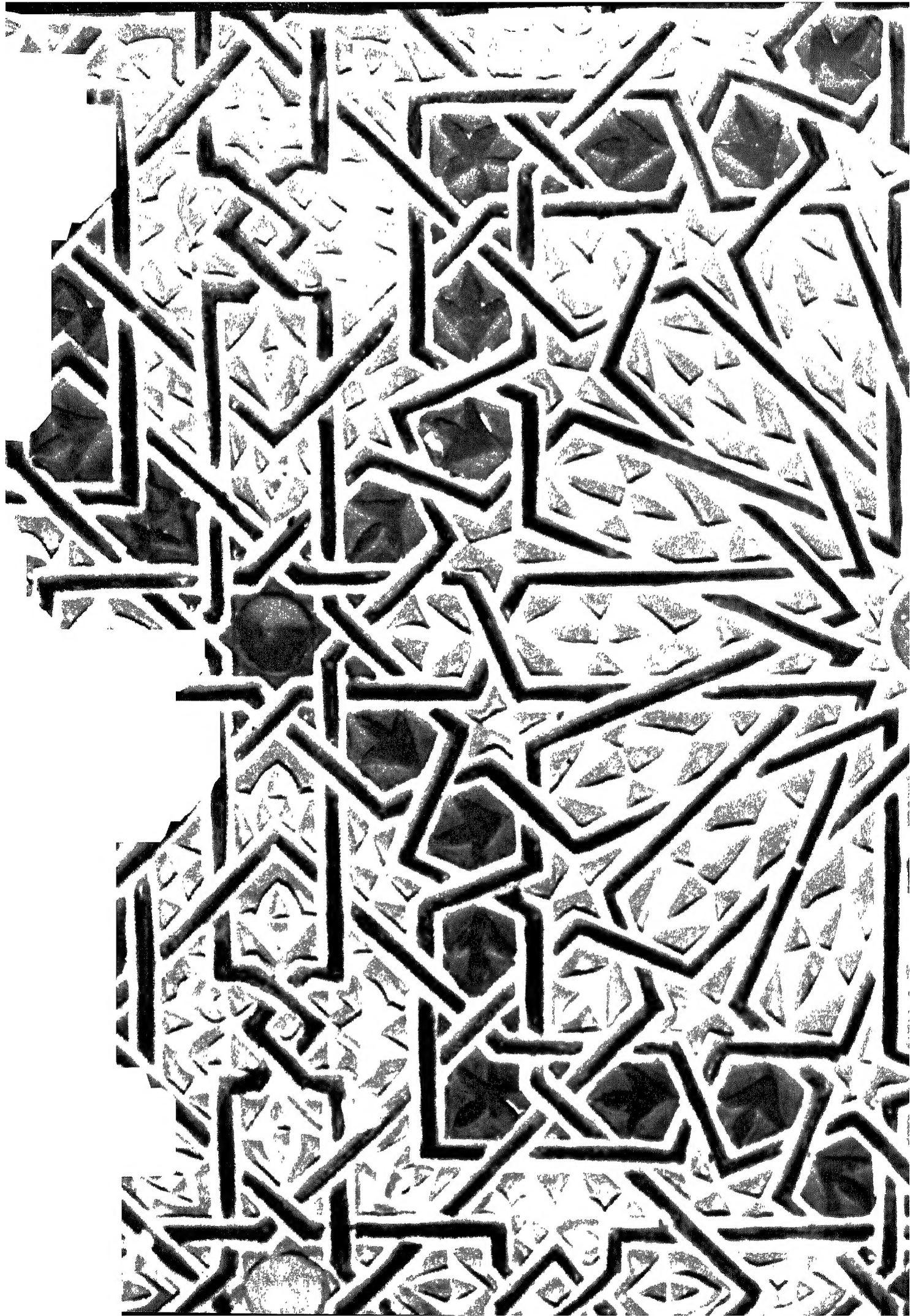
7	- الاهداء
9	- مقدمة
الباب الأول	
14	- تمهيد
14	● العالم عشية الدعوة
16	● خريطة المغرب العربي وجنوب الأندلس
17	● فتح المغرب
21	- الفصل الأول: «الشفق»
23	● فتح الأندلس
29	● خريطة عامة للأندلس
30	● جدول بياني شامل لتاريخ العرب في الأندلس
	- الفصل الثاني: «الفجر»
35	● عصر الولاة
41	● قائمة بأسماء الولاة
43	● خريطة سير عمليات الفتح
45	- الفصل الثالث: «الشروق»
47	● عصر الامارة الأموية
70	● قائمة بأسماء الأمراء
71	● خريطة الغزو العربي لجنوب فرنسا وإيطاليا
75	- الفصل الرابع: «الضحى»
77	● عصر الخلافة الأموية
93	● قائمة بأسماء الخلفاء
94	● جدول بياني لعصر الخلافة
96	● خريطة المنطقتين الإسلامية والإسبانية في القرن التاسع ميلاده

97.....	- الفصل الخامس: «الأصيل»
99.....	● ملوك الطوائف
102.....	● دولة المرابطين
103.....	● دولة الموحدين
110.....	● جدول بياني لعصر الطوائف والمرابطين والموحدين
112.....	● خريطة لمواقع ملوك الطوائف
113.....	● خريطة مراحل الاسترداد
115.....	- الفصل السادس: «الغروب»
117.....	● عصر بني الأحمر- الأندلس الصغرى
126.....	● جدول بياني لعصر بني الأحمر
128.....	● أسماء ملوك غرناطة
129.....	- الفصل السابع: «الليل الدامس»

الباب الثاني

141.....	- الفصل الثامن: «الملاحم الوضاء»
143.....	● تراث العرب الحضاري: نشأة الحضارة العربية
159.....	● باقة من الشعر الأندلسي
197.....	- الفصل التاسع: «أهم المعالم الأثرية وصورها»
199.....	● قرطبة:
203.....	● مخطط المسجد الجامع
204.....	● مخطط قصر الزهراء
205.....	● مجموعة صور ملونة من قرطبة
237.....	✓ اشبيلية:
239.....	● مخطط المدينة
240.....	● مخطط القصر
241.....	● مجموعة صور ملونة من اشبيلية
273.....	● غرناطة:
276.....	● مخطط قصر الحمراء
277.....	● مجموعة صور ملونة من غرناطة
315.....	● مجموعة صور ملونة في أماكن أخرى
335.....	- معجم بأسماء أهم المدن والمواقع بالعربية والإسبانية
340.....	- مراجع مختارة





المؤسسة العربية
للدراستات والبحوث
ساحة الكارون - ساحة الحرير -
بغداد ٨٠٧٩٠٠/١
تلفون ١١/٥١٦٠
بريد ١١/٥١٦٠
١٠٠٧٧ - LUDIRKAY